

يحيى الطاهر عبد الله

الكتابات الكاملة

ثلاث شجرات كبيرة تثمر برتقالاً
الدف والصندوق
أنا وهي وزهور العالم
الرقصة المباحة
حكايات للأمير حتى ينام
حكايات على لسان كلب
الطوق والإسورة
تصاوير من التراب والماء والشمس
الحقائق القديمة

الطبعة الثانية
١٩٩٤

يحيى الطاهر عبد الله

الكتابات الكاملة

* ثلاث شجرات كبيرة تثمر برتقالا
* الدف والصندوق .
* أنا وهى وزهور العالم .
* الرقصة المباحة .
* حكايات للأمير حتى ينام .
* حكاية على لسان كلب .
* الطوق والإسوره .
* تصاوير من التراب والماء والشمس .
* الحقائق القديمه صالحه لإثارة الدهشة .

الطبعة الثانية

١٩٩٤



الناشر : دار المستقبل العربي
٤١ شارع بيروت - مصر الجديدة - القاهرة
ج. م. ع. ت : ٢٩٠٤٧٢٧

الخطوط — الغلاف محمد بغدادى
اعمال الجرافيك عزيز المصرى
مونتاج غالية حمد الله

اشراف
عطيات الأبنودى
حسين حموده



يحيى الطاهر عبد الله

□ ولد عبد الفتاح يحيى (اسمه الأول) الطاهر محمد عبد الله فى ٣٠ إبريل ١٩٣٨ بقرية الكرنك مركز الأقصر بمحافظة – قنا فى أسرة متواضعة . كان أبوه شيخا معمما يقوم بالتدريس فى إحدى المدارس الابتدائية بالقرية . أما أقاربه فمعظمهم من المزارعين ماعدا قلة منهم مارست النشاط السياحى القائم على ماتحويه هذه المنطقة من آثار مصرية قديمة .

□ ماتت أمه وهو صغير ، فربته خالته التى أصبحت – استمرارا لأعراف موروثة – زوجة لأبيه فيما بعد،وله من الإخوة والأخوات – الأشقاء وغير الأشقاء – ثمانية هو الثانى فى الترتيب .

□ ظل بالكرنك إلى أن حصل على دبلوم الزراعة المتوسطة وعمل بوزارة الزراعة فترة قصيرة ثم انتقل عام ١٩٥٩ إلى مدينة قنا . وهناك التقى بالشاعرين: عبد الرحمن الأبنودى وأمل دنقل . وقد كان هذا اللقاء بداية

رحلة طويلة وصداقة ممتدة بين الثلاثة . فى هذه الفترة كان يحيى الطاهر شغوفا بكتابات العقاد والمازنى وكان الأبنودى مهتما بالموروث الشعبى العامى أما أمل دنقل فكان اهتمامه بالموروث العربى الفصيح . فى ذلك الحين لم يكن يحيى قد مارس أى شكل من أشكال الكتابة . وكان يقوم بدور الناقد لأعمال صديقيه فى كثير من الأحيان . وبدأ الثلاثة يقيمون أمسية أدبية ثابتة فى الجامعة الشعبية (الثقافة الجماهيرية فيما بعد) .

□ فى عام ١٩٦١ كتب يحيى الطاهر أولى قصصه القصيرة (محبوب الشمس) وأعقبها بقصة (جبل الشاى الأخضر) .

□ فى نهاية شتاء ١٩٦٢ انتقل عبد الرحمن الأبنودى إلى القاهرة وانتقل أمل دنقل إلى الاسكندرية بينما ظل يحيى الطاهر مقيما مع أسرة الأبنودى فى قنا مايقرب من عامين .

□ فى عام ١٩٦٤ لحق يحيى الطاهر بالأبنودى فى القاهرة وأقام معه فى شقة واحدة بحى « بولاق الدكرور » حيث كتب بقية قصص مجموعته الأولى « ثلاث شجرات كبيرة تثمر برتقالا » .

☐ فى القاهرة بدأ يتردد على المقاهى والمنتديات الثقافية وبدأ يعرف كظاهرة فنية متميزة . فقد كان يحيى الطاهر يلقى قصصه التى كان يحفظها بذاكرة قوية إلى حد الغرابة ودونما اعتماد على أيه أوراق . وكان يرى فى ذلك محاولة لأن تقّرب المسافة بين كاتب القصة والرواة الشعبيين . قدمه يوسف إدريس فى مجلة « الكاتب » وعبد الفتاح الجمل فى الملحق الأدبى لجريدة « المساء » . وسرعان ما احتل مكانه كواحد من أهم وأبرز القصاصين والروائيين المصريين الذين شكلوا - ماعرف بعد ذلك بما يسمى « بجيل أدباء الستينات » .

☐ فى أكتوبر ١٩٦٦ صدر أمر اعتقال لمجموعة من الكتاب والفنانين المصريين منهم يحيى الطاهر والأبنودى . إلا أن يحيى ظل هاربا لفترة ثم قبض عليه وأطلق سراح معظمهم ومنهم يحيى الطاهر فى إبريل ١٩٦٧ .

☐ فى مارس ١٩٧٥ تزوج ، وأنجب بنتين « أسماء وهالة » وإبنا سمّاه « محمد » توفى بعد ميلاده بفترة قصيرة .

□ أعمال يحيى الطاهر

مجموعات قصص

* ثلاث شجرات كبيرة تثمر برتقالا ... الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٠
* الدف والصندوق .. وزارة الإعلام - العراق - بغداد ١٩٧٤ (الطبعة الأولى) .
* أنا وهي وزهور العالم .. الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٧٧ .
* حكايات للأمير حتى ينام - وزارة الإعلام - العراق - بغداد - الطبعة الأولى ١٩٧٨ .
* حكايات للأمير حتى ينام .. دار الفكر المعاصر - القاهرة ١٩٧٨ (الطبعة الثانية) .
* الطوق والإسورة .. الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٧٥ .

الحقائق القديمة صالحة لإثارة الدهشة .. الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة ١٩٧٧ .

تصاوير من التراب والماء والشمس .. دار الفكر المعاصر القاهرة ١٩٨١.

* الرقصة المباحة .. مجموعة قصص قصيرة ، كان يحيى الطاهر قد أعدها للنشر فى مجموعة قبل وفاته . بعض قصص هذه المجموعة كان قد نشر فى صحف ومجلات ، وبعضها لم ينشر من قبل « يتضمنها هذا الكتاب » .

* حكاية على لسان كلب لم تنشر من قبل .

□ ترجمت له أعمال كثيرة إلى ثمانى لغات مختلفة . وتصدر له دار « هاينمان » بانجلترا مختارات قصصية تحت عنوان « جبل الشاى الأخضر » ترجمها إلى الإنجليزية دينيس ديفيز .

□ لم يمارس يحيى الطاهر عبد الله ومنذ انتقاله إلى القاهرة أية أعمال أخرى سوى كتابة القصة والرواية القصيرة وكتابة بعض قصص الأطفال .

□ توفى يحيى الطاهر عبد الله فى حادث سيارة على طريق القاهرة الواحات فى يوم الخميس ٩ إبريل ١٩٨١ ودفن فى قريته «الكرنك»

ثلاث شجرات كبيرة
تثمر برتقالا

إهداء

للمقبل .
للربة العذراء مع الخالدين فوق قمم الأوليمب المسنونة،
لأبي الشيخ بالكرنك القديم .
لخليل كلفت بمسرح الجيب بالقاهرة .

يحيى الطاهر عبد الله

(ولكنى حين أستعيد فى ذاكرتى جميع الظروف والملابسات ، أعتقد أننى قد أتبين بصيصاً يفصح عن جانب من المنابع والدوافع التى تسللت إلىّ ماكرة تحت شتى ضروب التنكر والتخفى ، وأغرتنى بالشروع فى أداء ذلك الدور الذى قمت به ، هذا إلى أنها داهمتنى فجرتنى إلى التوهم بأن ما أديته إنما اخترته بمحض إرادتى الحرة السديدة وحكمتى الرشيدة) .

هرمان ميلفيل
فى « موبى ديك »

جبل الشاى الأخضر

كان جدى يصب الشاى فى الأكواب من ثلاثة أباريق صغيرة ، وقد فرغ : تناول أبريقاً كبيراً مملوءاً بالماء الساخن وملأ الأباريق الثلاثة من جديد وأعادها إلى المجمرة ، من جواره أمسك بالإبريق الأكبر من كل الأباريق — والمسمى بالأوزة لطول عنقه — وصب منه الماء البارد فى الإبريق الكبير حتى الحافة وأعاده أيضا إلى المجمرة .

كنا صامتين فجدى لم يكن قد تكلم بعد ...

كنت أرقب المجمرة : الأباريق الصغيرة الثلاثة كانت ترقد فى الرماد الناعم .. والماء كان يتقلب داخلها تحت قسوة الوهج ويقلقل الغطاء الحارس .. والماء المحترق كان يهرب من تجويف العنق ويصفر .. وكانت أفواه الأباريق الثلاثة تبخر الدفء فى جو الغرفة الشتوى .. وكان الإبريق الكبير يصفر صفيراً عالياً — فهو يرقد فى قلب المجمرة تتحلقه عيون الجمر الملتهبة وتتسلقه حتى المنتصف وتتوهج على سطحه النحاسى اللامع شديدة الاحمرار .

كنت أعى أنه لابد يرقبنى — وقد مسح المكان بعينيه وحاصرنى ولاحق بصرى وأمسك بالشىء الذى سقطت عليه عيناى ليواجهنى به ككل مرة أمام الجميع .. يصعد الدم وتنتفخ به عروق وتكاد تنفجر .. ويلتهب وجهى ويظل ساخناً يتشقق كما يحدث لإناء الفخار داخل الفرن الحار .. تكون الكلمات فى فمى كخيوط

الصوف المغزول : مملوءة بالوبر الجاف وقد تشابكت وصنعت أعداداً هائلة من العقد .. أعرف أنه الخجل ، أمام الجميع أحس أنني بغير ملابسي .. يصرخ باعتقاده القاطع بأنني أبول على نفسي أثناء نومي برغم أنني لم أعد طفلاً .. ينسب ذلك لحبي للنار المشتعلة .. وولعي بالجمر الأحمر المتوقد .. عيون الجميع تتحلقني .. تظل تتسلقني .. أحسها تكوى مني الجنبين .. تتوالى الحروق وتأكل جسمي ويتوالى اللسع الحار .. وأنفجر باكيا ..

عيناى أغمضتهما بسرعة .. وفتحتهما نصف .. فتحتهما عليه : جالساً بجوارى وقد أسقط على عينيه الغاضبتين ، همهم ، لم يكن جدى قد تكلم بعد ، رمقه بغضب .

— كامل .. أخضر ولا احمر ؟.

رد أبي فى عجل وكان متحرجا ..

— أيوة يابا .. أحمر .

كان جدى يوزع علينا صنوف الشاى .. طلبت لى شاياً أخضر .. ولما كانت عواطف أختى والتى تصغرنى بتسعة شهور كاملة قد طلبت لنفسها من جدها شاياً أحمر .. وكنت مدركاً أن الأمر يحتاج من جانبى لقدر من السرعة فى التصرف لينتهى تماماً .. قلت محدثاً جدى فى صوت واطىء وجعلته مرحاً :

— مش انت زمان ياجدى كنت صغير زيّنا .. وكنت تشرب الشاى الأحمر لكن كبرت وعرفت ان الشاى الأحمر بيحرق الدم فشربت الشاى الأخضر ..

كان جدى يبتسم .. كنت أنظر له وكنت أخشى أن أقرأ وجه أبي .. قلت مخاطباً جدى :

— طيب ليه عواطف الصغيرة تشرب الشاى الأحمر .. والله العظيم ثلاثة يا جدى دمها كله حيتحرق .. أصل دماغها ناشفة من نوع الحجر وعايزة الكسر ..

كانت عواطف متذمرة .. وكان جدى يبتسم مازال .. أما أبي فقد فاجئنى :

— مفيش غيرك اللى دماغه ناشفة وعايزه الكسر ..

نظرت الى يده ممسكة بالكوب ممتلئاً حتى منتصفه بالشاى الأحمر .. أدركت أننى تعجلت ، خاطبته :

— أصلها مش بتسمع الكلام .
قال أبى فى أمر قاطع :
— روح شوف البهايم فى الحوش .. خل نوال اختك تجيب اللبن بسرعة .
ونظر إلى عمتى « شرقاوية » وقال فى أمر أخف :
— خدى البنت ونضفى شعرها فى الشمس بره .. خليها تغسله بعد كده .

كنت قد جريت حتى السقيفة وتخطيت السقف العارى النائم تحت الشمس الحرة من الغيوم — قبل أن تصل عمتى « شرقاوية » ممسكة أختى عواطف بيدها وكانت أختى عواطف متململة فأخرجت لها لسانى وجريت باتجاه الحوش .. كنت أسمع عواطف تشتمنى .
— إن شاء الله ضربة دم يابو ..
كانت تفهم أننى سأضربها فلم تكمل .. نظرت لها وأبديت الشر ..
قلت :
— طيب يا أم قملة ..

كنت أسمعها تبكى مجرورة خلف عمتى وأنا أدفع باب الحوش : كانت نوال أختى والتى تكبرنى بتسعة شهور كاملة — راقدة فوق ظهر جاموستنا .. وكانت نائمة بصدرها وقد حضنت عنق الجاموسة بكلتا ذراعيها .. وكانت تمرجح ساقيها وتحك فخذيها ببطن الجاموسة الأسود السخين .. كنت أرى أصابع قدمها التى تواجهنى كخمسة مسامير دقت أسفل بطن الجاموسة .

صرخت معلناً عن وجودى فقفزت نوال على الأرض مفزوعة ودلقت ماجور اللبن المملوء .. وجريت أنا لأنقل الخبر لأبى وجدى .

مررت بالسقف : كانت الشمس الحرة من الغيوم قد ألهبته بالسخونة .. وكانت عواطف وعمتى « شرقاوية » محتميتين بظل الجدار القصير .. وكانت عواطف راقدة فوق حجر عمتها .. وكان رأسها نائماً بين الفخذين .. وكانت عمتى تقلب شعر عواطف وتدهنه بالجاز الأبيض من كوز صفيح يجاورهما ..

فى الغرفة كان جدى يصب لنفسه كوباً من الشاى الأخضر .. وكانت أمى موجودة ترضع رمضان أخى الصغير جداً .. قلت لأبى إن نوال دلقت اللبن وإننى

وجدتها فوق ظهر الجاموسة وإنها كانت تحرك ساقيها .. وقلت إن أصابع قدميها العشرة كانت كعشرة مسامير من الحديد دقت أسفل بطن الجاموسة .. اصفر وجه أمي وسحبت ثديها من فم الولد رمضان فبكى .. وأرقدت هى ثديها تحت ثوبها الأسود « الباتستا » ، أما أبى فقد قام منتصباً كالقصبة المشدودة المسنونة الرأس ، وكان جدى يدوس شفته السفلى تحت أسنانه ، أما أمى فقد خرجت من الغرفة ولاحظت أنها راغبة فى البكاء ..

وفى لحظة كان أبى قد عاد وصرخ بأنها غير موجودة .. وزعق طالباً أمى .. وصرخ فيها طالباً منها أن تحضر نوال من تحت باطن الأرض .. وفى غمضة العين كانت أمى قد أحضرت نوال وهى تجرها ونوال تصرخ بصوتها العالى الباكى لأمها وأبى بأننى كذاب .. صرخت فيها بدورى :

— أنا مش كداب .. انت اللى كدابة .

سقط كف أبى على صدغى بقسوة أوقعتنى وصنعت خيطاً من الدم : كان دافئاً .. كنت ملقى على أرض الغرفة الترية المرشوشة بالماء .. وكان أبى يسحب نوال من ضفيرتيها ويجرجرها على الأرض .. كانت عمتى « شرقاوية » قد جاءت وكانت أختى عواطف منكمشة وملتصقة وممسكة بثوب عمتها .. وكان جدى ممسكاً بسيخ ينتهى بحلقة وخطاف يقلب به الجمر .. كان يأمر أبى فى غيظ :

— اضرب .. اضرب ياكامل .

كنت أشعر بطعم الطين فى فمى وجانب وجهى نائم على السطح الترابى الذى لم يعد جافاً .. وكان الدم يسيل من جانب فمى ولا يتوقف .. وكان ساخناً مازال .. وكانت نوال أختى معلقة من عرقوبيها بحبل مشدود إلى وتد ثبت بجدار الغرفة .. وكان أبى يصعد ويهبط بكل جسمه كثور مذبوح .. كان يرفع يده ويهوى بعصاة لينة رفيعة ويضرب الجسم العارى .. والدم كان يشخب من الجسد العارى ويغطى وجهى ولا يجعلنى أرى ..

كانت أمى تصرخ .. وكان صوتها باكيا .. وكان أخى رمضان على صدرها لاشك يبكى .. وكانت تخاطب أبى :

جوّزها يا كامل .. كفاية يا كامل وتتجوز .

كنت مغمض العينين وكنت أبكى .. وكنت مازلت على الأرض نائماً

ولم أعد متنبهاً للدم يطفر حاراً من جانب فمى .. ولم أع بعد لماذا طلبت أمى من أبى أن يكف عن ضرب نوال وأن يزوجها .. لكنى كنت أتمنى لو يتم ذلك .. أن تتزوج نوال وأن يكف أبى عن ضربها وأن تخرج من هذا البيت .

كانت أمى قد لمتنى وأرقدتنى على الفراش الأرضى وغطتنى بالحرام الصوف .. ولكنى كنت أرتعش .. كانت تقدم لى الكوب .. وكنت قد طلبت أن أشرب .

زعق أبى :

— ايه ده ؟ ..

قالت أمى :

— ميّه ورماد ..

صرخ أبى :

— ارميه يا بهيمه .. ادّى الولد ميّه بسكر .. واعصرى كان لمونتين ..

قالت أمى :

— مفيش لمون عندنا .

قال أبى :

— أطلع أنا أجيب لمون .. وانت دوّبى السكر فى الميّة .

كنت أدرك أننى سأنام وكنت عطشاً .. وكنت أدرك أن أحلاماً كثيرة ستأتى .. وكانت كل الأصوات قد غابت .. وربما كانت نوال تئن بصوت واطىء .. واطىء ولا يمكننى أن أسمعه .. ولا يمكننى أن أسمع خطو قدميه الحافيتين تنغرسان فى الرمل الساخن الجاف — وقد هبط من فوق ظهر ناقته « عاتكه » .. وبلغ الجبل وصعده .. يجمع من حوافيه أعشاب الشاى الأخضر .. الخضراء .. ويأتى معه أيضاً بحبات الليمون الخضراء .

الكابوس الأسود

تخطى الشريط الحديدى ــ متدحرجاً من المسقط الحجرى ــ إلى بؤبؤ الساحة الخراب : واجهه برد المكان المنخفض بأسنان مدببة ، واستقام لعينيه كائن العراء الخرافى : وقد غطاه قوس الأفق الرمادى بعمامة خلت من الأقمار والنجوم .. وتحت قدميه كان يمتد فرش المكان القذر ينشع بالبول ونطف الغرائز الوضيعة . آنئذ : أحس بأنها الكوابيس السوداء رفيقة الرعب ــ حيث يأخذ عالم الشعور والجسد والروح وزنه الثقيل .

حضرته تلك الجملة (الأحمق والجاهل كلاهما يفتح جفنيه حيث أسقط العماء الضرورة) ، أطبق جفنيه تاركاً جسده الثقيل يزحف موثوقاً بحبال النداء المتقطع : يمده باعة سجق وكبد وكلاوى وفجل وبلح أمهات ــ هناك أمام وخلف وفوق القنطرة الخشبية ــ لكل من تخطى الشريط الحديدى مرشدين إلى العزبة .

كان هناك أمام القنطرة الخشبية ، وكانوا هناك باعة سجق وكبد وكلاوى وفجل وبلح أمهات ــ فوق وأمام وخلف القنطرة الخشبية ــ بعربات سترها الخيش خشية المطر المتوقع .. عاليها : فتائل غاز تتطوح رؤسها المدببة الصفراء وتزفر الدخان الأسود .. وقد عبر القنطرة متخطياً نداء القاعدة العجوز (أيوه يابيه أنا هه) .. وكلماتها تتكسر مهزومة خلف ظهره ــ شعر بطعم نصر تحقق لأول مرة (لقد ظفرت بخدمة مجانية) .

بين ذراعى ضباب رمادى هامد كانت ترقد بيوت العزبة : كتلة فاحمة صماء . تخيل طائر الرخ الأسطورى راقداً فوق بيضته ذات الحجم الخرافى كأكبر ما تكون مدن العصر ، تلك القشرة السميكة الصلبة الملساء اللامعة تحت الشمس .. تتكسر عليها حراب عتاة الرماة ، تخفى تحتها طبقة ليفية من وبر الجمال وشعر النساء المتوحشات وصوف الخراف البرية وفراء أرانب الجبل وأمعاء التماسيح والقنافذ ، ثم جوف عميق تسبح فيه أسماك كبيرة وصغيرة وعقارب وأجساد عارية تلتف حولها الحيات .. أنهار جارية بدم النفاس والولادة وليالى الطهور والزفاف : تشق الدروب الغارقة فى العتمة ومواء القطط ونبح الكلاب وعواء الذئاب وهديل الحمام والآه والآى ونقيق الضفدع ونعيق البوم .. خمور مسكوبة ولعاب وبصاق وبول وقىء .. وأشجار صبار تتدلى منها غربان ميتة وخنازير نافقة .. وأجساد لرجال ونساء وأطفال معلقة شعورهم بأفرع شجرة الحشيش النورانية السحب : تنفث من مسامها الأبيض الرمادى الأسود الترابى المغبر على الرحم الكبير الفاغر ينز بالدم والقيح والصديد وترعى داخله الديدان وتحوم حوله الغربان ناهشة ناعقة وتقطر منه مياه الحموم وتضربه الريح الملتاثة والشمس الصفراء .. ريح تصفر وأجراس أديرة وكنائس تدق وتعلو أصوات المؤذنين والديكة فوق أنات الجرحى تحت الأنقاض والمرضى داخل الأنفاق وببطن المناجم وحركة الأرغفة تستوى فى الفرن الساخن .. والجرار تكسرت عن الخمر والعسل والحليب ممزوجاً بدم الأسرى : تتكسر أجسادهم تحت حوافر الجياد .. وفم طفل يمتص ثدى حاضن : يحيط به ذباب البقر والحمير الوحشى اللاسع الطنّان .. صفق السلاسل بسيقان الخيول وكرات الحديد .. والسياط فوق ظهور العبيد : تشان .. تشان .. فى مارش الجناز الأبدى تعزفه فرقة الأرض الملكية للخنفس المنتصر والصرصار الحكيم تحت قوس النصر .

اصطدم بحجر — كان يمكن أن يخمن موضعه — وكاد ينكفىء عليه أن يكون حذراً : الطريق يضيق بعد ذلك ويصنع لساناً يمتد داخل الشريط المائى وينتهى بالبيوت ..

ككل مرة : يستدل بأشجار الصفصاف : سوداء ملتوية الأعناق ، ودائماً هى رائحة الماء العطن : تنفذ حادة إلى المعدة تهدد نصف زجاجة اليانسون ..

« هو الشتاء اللعين » — قال:« الصيف يسقط — هنا — فى الماء العطن : أقمار ونجوم تستحم مع آلاف الآلاف من الأسماك الصغيرة وترشدنى إلى بيت

زوجتى الصفصافة العجوز » . قال ـــ (أكره أشجار الصفصاف .. أكره أن تقهرنى عوانس الصفصاف المدلاة الشعور) ضحك لأنه أحس أنه يتكلم بجدية وبحزن أكثر مما يجب ، وسمع ضحكاته تتكسر بعيداً فى الرحاب الأربع ، استخف اللعبة ، كان يزعق واضعاً كفيه على فمه (العانس .. الـ .. عـ ..ا..) ، كان يضحك ثم يبكى وانتظر الصدى المتكسر فى الرحاب الأربع (أجساد نحيلة واطئة .. صدور واطئة .. ثدى واطىء .. الناحلات .. الشاحبة .. فقط شعر .. لا يملكون سوى شعر .. الإناث .. الرجال .. النساء .. الحمقى .. الأنثى ليست شعر .. الحمقاء .. أ .. نا .. ر .. أ .. ا .. جو ... و .. ل ....

* * *

كان محاصراً بالسكون والظلمة والتعب ـــ وقد كف عن النداء ، أحس بأن روحه منهكة ، وأنه فعلاً مضطهد ومقهور وأنه حقيقة يتعذب ، شعر بالخوف لأنه مخمور ووحيد ، تذكر حكاية الفتى المغترب العائد من حرب الحواديت : يطلب موطنه البعيد الخيالى .. وزوجته الجميلة الخرافية .. وفتاه البعيد .. وشيخه الأسطورى ، تفرقت الطرق أمام عينيه .. أغمضهما ماداً يده لجنيات الطريق ، هناك فى الكهف الأسود : التفت حول جسده الأفعى العملاقة ملكة ملكات الجان وظلت تنهشه ، تحت الألم واللذة كان يحلم بهم ينتظرونه فى الموطن البعيد الجميل ، وبالليل يكون البرد .. تغريه بأغطية الصوف .. تضمه لجسدها الميت .. يظل مشدوداً إلى العود اليابس بقوة السحر وأغطية الصوف المحجبة .

حضره كيف جاءته عروساً (كان الرجال يحيطونه وكلهم أقاربه ، كانت العروس مع النسوة والأطفال وكلهم أقارب فى الحجرة الأخرى ، قال بينه وبين نفسه : « كيف أتوا بكل هذه الأعداد » أكمل ابن عمه ـــ الشقيق الأكبر للعروس ـــ وكان ألثغ اللسان : « ركبنا الساعة ستة صبح امبارح .. » ولكنه وقد عرف « زوجه » يتصور الأمر أقرب إلى المعقولية هكذا (النوق تمشى خبباً .. تاركة خلف ظهرها مضارب القبيلة فى الجنوب ، الفتيات داخل الهوادج يحدثن قلوبهن بالبعيد القريب المخبوء : سرياً وغامضاً ومدهشاً ، يسبق القافلة حصان العروس الأبيض .. يلفها البياض المحلى بالترتر : يشرق ضاحكاً للقمر الضاحك فى الأعالى ، يقود القمر القافلة إلى الشمال ـــ حيث هو العريس ، ومن بنادق

الرجال غير المرخصة حكومياً لعلع الرصاص فوق الرءوس الملفعة والوجوه المعصبة والأنوف المثقوبة تتدلى منها الحلقان ، والقمر لعلع والزغاريد لعلعت أيضاً من أجله وأجل عروسه العذراء ـــ وقت ذاك ـــ رقصت بالأناشيد والأيدى بالدفوف وغنت العذارى أهازيج من رجز العجائز المجربات) .

* * *

يمكنه أن يغمض عينيه ويراها تحت لمبة الغاز .. جالسة تنفخ نار « الكانون » .. بوجهها الدخانى وعينيها الدامعتين (سكران يا بن عمى) .. بحزن صخرى وصوت من الكهف البعيد (كلت) .. يجلس على الصندوق الخشبى .. كان جهاز عرسها .. طار غطاؤه المقبى وبات فى الركن تسكنه الفرختان .. ماتزال لفائف الصحف القديمة تغطيه يحفها الإطار الصفيحى المشرشر الصدىء .. وفى الوسط كانت عروس شبيه بعرائس الحلوى فى الموالد تغالب طبقة الدخان وتطل بملامحها التى نقشت بدم الفراخ وعصير الحناء .

* * *

كان الضفدع قد صحا فى وعيه وبدأ ينق .. كان يأتى من الشطين ومن جوف الحقول غير المنظورة مقلقاً .. وأيضاً كان يأتى من جوفه ويحدث قلقلة يضخمها إحساسه المبهم المرفوض بأن الضفادع ذات الجلود الغريبة والأشكال الحيوانية البشعة تسكن معدته وتجرى فى أمعائه .. كان غير قادر على منع القىء المندفع من فمه وهو يطرد رائحة الضفدع الكريهة .. وشعر ببرودة ملابسه المبتلة .. كانت السماء تسقط المطر على أرض اللسان الممتد الموصل للبيوت وقد سخطت فوق ببرق ملتهب ورعد مجنون .. وكانت أرض اللسان تجرى هاربة إلى الوراء بعيداً عن البيوت ، كان المسير والوقوف والتوازن على الأرض الزلقة الجارية للخلف الهاربة من قدميه ـــ صعباً بل مستحيلاً ، كان يمنع سقوطه فى الشريط المائى حاضناً شجرة الصفصاف .. ولكن عودها الهش تقصف تحت ثقله ، وجد نفسه فى الماء المتكلس وقد أحاطته الأعشاب واللزوجة والعفن .. وكانت قدماه تغوصان فى السطح الرخو البارد ، وتذكر أن العوم لا يجدى حتى فيما لو كان يحسن العوم ، لم يكن هناك غيره ليصرخ ويناديه .. وكان اللسان يجرى هارباً من البيوت .. كان بمقدوره أن يصرخ .. كان الماء بعيداً عن فمه ..

معطف من الجلد

كان المطر مازال يسقط .. وكان أقل حدة مما كان ، وكان الجو ممتلئا بالرطوبة تماما .... وكذلك كان باطن الأرض ، وكانت السحب الدكناء تعد بالمزيد ، كنت قد ابتسمت .. فتسللت قطرات من الماء كانت على وجهى إلى شفتى : أحسست بجسمى كله « متشيئا » بالرطوبة والملح .

كانت أضواء المدينة تبدو من بعيد — فى الظلمة — كنجوم هاوية بين الأرض والسماء المنطبقتين كنت أضرب أسفلت الشارع المبتل بخطوات سريعة .. وكنت أتابعها .. وكانت تعود : بدقات المطر والماء الهارب إلى البالوعات ، كان الشارع خاليا .. فالمطر لم ينقطع منذ الصباح .

كنت قد بلغت سدة الشارع : كان هناك — أمام البوابة المغلقة — ثلاثة أشخاص ، وبدا لى الذراع الأحمر الممتد بعلامة الخطر .. كما لو كان معلقا ومتدليا من السماء ، وبدت لى المسافة بين السماء والأرض قريبة جداً — وهكذا كانت تبدو لى دائماً فى الليالى المظلمة حيث المطر .

كان واحد من الأشخاص الثلاثة قد استدار — تاركاً زميليه أمام البوابة المغلقة — وانسل من بين الأعمدة المنتصبة على الخط الحديدى ، وكانت هناك

صرخة تحذره ـــ وكنت قد تبعته ـــ فتهشمت الصرخة إلى ضحكة مرة ، كنا قد نفذنا من الجانب الآخر فجلجلت ضحكات الرجلين أمام البوابة ، كان القطار قد مر فتحولت الضحكات إلى مزق ـــ وكنت قد اصطدمت بظهر الرجل ـــ فاعتذرت له : وباعدت بين وجهى وبين التفاتته السريعة ، كنت قد هبطت المنحدر ـــ ومن خلفى كان الرجل ينتظر زميليه ـــ وضربت فى الأرض الخلوية الواسعة : كانت الأرض مجدورة بمئات الحفر : التى تحولت إلى برك صغيرة من الوحل ....

كانت الساعات الباقية من الليل كافية ليصل القطار إلى مدينة « الأقصر » ـــ ومنها إلى « قرية الكرنك » : نصف ساعة « بالحنطور » وثلاثة أرباع الساعة بالقدم ، كنت قد سميتها « ايثاكا » .. وكنت اسمى بيتنا (قصر الشتاء) ، وهناك فى (قصر الشتاء) كان العجوز ينهى صلاة العشاء عجولا لينام ـــ ربما كان « الآن » يصرخ كالعادة فى إخوتى الستة : ناموا .. لتأخذكم الدواهى .. « أنتم ستة والواحد منكم يفلق بلد » فى خطابه الأخير ـــ قال إننى أخلط : هم ثمانية ـــ ثمانية الولد رمضان ، والبنت ؟ وكان على ـــ أنا ـــ أن أسميها ، وقال : الملعونة تبكى دائماً ، ربما كانت تبكى ـــ الآن ـــ وربما كانت نائمة (للصغيرة ـــ قطعة اللحم الحمراء ـــ يا جامع السحب .. الحليب .. لا حل عندك .. المعزة وأمى) ـــ هكذا ـــ لكن ربما كان الآن يعرف كل شيء .... (إنهم يقلبون عليك الدنيا : اترك هذا المكان وابحث عن مكان آخر ـــ كان صديقى (خليل) وكنا نسكن سويا ، وكنت أحبه ـــ قال : إنهم هم ـــ لاهو ـــ وإن اليوم الأحد ، ونطق بالأب « جابون » و « بالأحد الدامى » .. وقال : اترك هذا المكان فوراً ، قلت لماذا ؟ قال : إنه الجنون ـــ وأن الأرض تدور وإننا فى ١٩٦٦ ، وكنت أعرف ، وقال : نحن الذين نطعم الجواد وتحت الحافر يسقط البشر وقال : نحن نصنع المأساة ، وتحدث عن البورصة والنقابة والسلعة والقنبلة والمعسكرات والعمل ـــ ولعن الساسة وتكلم عن الكرملين والرايخ ، وذكر البيت الأبيض والحمائم البيضاء والحريات والأناشيد التى يهبها ديكارت الفرنسى مجاناً ، وكنت قد صرخت فيه .. لماذا ؟ وقال : إنه لا يدرى ، وقال : إن العربة لا تسقط مطلقا فى المنحدر وكنت أرتعش ، وقال : هى فترة بالسجن .. ولن أقتل ، وقلت : لست خائفاً ، وقال : هل تفكر فى .. ونطق بالأولمبية ؟ ـــ وكان يقصد تلك التى أحبها ، وقلت : لا ـــ وكنت فى حضنه ـــ وقال : إننى خائف فلماذا أنكر ..

كنت قد مسحت الطين العالق بحذائى ـــ والباقى تلك الارتعاشة بأطرافى وبالداخل ، وكنت قد دققت الباب وجاءت حركة من الداخل ثم سكنت ـــ فعاودت الدق ، أدرت ظهرى للباب : أمسك بقليل من الشجاعة ـــ وحتى لا يفاجأ . كان المطر قد كف ـــ الآن ـــ وكان ظلى يرتعش وهو يسبح ـــ هناك ـــ متكسراً فى حفر الوحل الصغيرة وكان مصباح الشارع البعيد يمد له حبلا واهياً من الضوء .

عندما فتح الباب ـــ لم يصدق إنه ـــ أنا ، كان وجهه مليئاً بالدهشة ، سحبنى للداخل ، كنت ألهث بين ذراعيه العملاقتين وصدره « الأخيلى » الهائل ، أطلقنى وهو ينشج : ازيك يا ... وتنبه إلى باب الحجرتين المفتوحتين ـــ فوارب باب إحداهما ـــ سألنى : قلت شوقى ، ضمنى من جديد فى غلظة : مش معقول .. الواحد فى حلم ـــ قالها بفخامة ووجهه يطفر بالبهجة ، كانت لحظة مناسبة لأطلق دموعى بلا خجل ، قال وهو يحيطنى بذراعيه وكأننى ابنه : ولا يهمك شدة وتزول .. اقعد ـــ وأشار إلى كنبة بالصالة .

كنت متشبثا بالأرض ـــ بقدمى ـــ وقد ضممت فخذى ، كان الباب ـــ الذى واربه ـــ قد اتسعت فتحته قليلا .. وكان الضوء الأحمر يزحف بظلاله ـــ مع ضوء الصالة ـــ هناك فى الحجرة الأخرى المفتوحة : تعلقت بساق الطفل ـــ النائم ـــ العارية لأهرب من عينيه ، عندما وضع يده على فخذى تأرجحت الصورة التى بأعلى الباب ، عندما نظرت إليها من جديد كانت ثابتة ، سألته : نابليون ، لم أكن أطلب الجواب ـــ فقط كنت أود لو أمسك بطرف الخيط ، أجاب : لا .. ده بتهوفن لكن ازاى هربت ؟ طبعاً تعرف ما حدث « لفلان » و « فلان » لقد سألوا عنك ؟ وضحك مشيراً : إن للحائط أذناً .. وإن الظرف .. وقلت : أعرف ، وقال : ازاى هربت ؟ قال ـــ وقد صمت : والله راجل ، رددت وقد انتابنى زهو : إنهم يبحثون عنى فى كل مكان .. بالصعيد .. فى العاصمة .. بالمقاهى .. سألوا كل معارفى ، قال وقد انتفض قائماً : أعملك شاى ـــ ورجع بعد أن مشى خطوتين ـــ انت أكلت ، صمت ، قال : هنا فى البيت مفيش أكل .. ح أخرج أجيب من بره ، قلت : لا ، قال : لكن .. قلت : لا .. هات سيجارة ، كان قد توجه إلى المطبخ ليصنع الشاى ـــ بعد أن أشعل لى السيجارة .

كنت أنظر إلى لسان الضوء الأحمر وهو يلعق ساق الطفل العارية ـــ عندما اختفى فجأة ـــ وسمعت خطو أقدام عائدة وجسم يتكسر على السرير فى الحجرة الأخرى (الشقة من حجرتين : حجرة له ولزوجته وحجرة للأولاد .. يمكننى أن أنام مع الأولاد ، كنت أنام وثلاثه من إخوتى الكبار على سرير واحد .. وكانت البقية تنام مع العجوزين على سرير واحد .. ولكن العجوز يصر فى خطابه الأخير على أنهم : ثمانية .. ثمانية) .

جاء صوته الغليظ من المطبخ مصطدماً بالمطبخ وبالسقف وبصمت الليل والأرضية والآثاث واطمئنانى النقى : على فكرة هنا فيه قراقيش ، لم أرد ، لقد قابلنى فى احتفال رغم أن صلتى به ليست بالوثيقة ، لقد قال لى أكثر من مرة إننى يجب أن أزوره فى بيته ، وعدته أكثر من مرة ولم أذهب ، فى كل مرة كان يقابلنى كنت أتذكر موعده ، كان يعاتبنى ويؤكد لى أننى يجب أن أزوره فى بيته ، اليوم : جئت بالعنوان الذى كان قد أعطانيه أكثر من مرة .. وجدته مصادفة وأنا أحرق بقية من أوراق كانت معى ، كان طيباً فى مقابلته ومحتفلا ، كان كما قال عنه صديقى الذى عرفنى به : محمد شهم .. فلاح بما تحوى الكلمة ـــ كان صديقى يقول هذا وعينه لا تفارق الوشم المنقوش على صدغ محمد ـــ قال صديقى : إن محمد من عائلة ريفية ضاربة فى الأرض .. وإن مظهره قليل من مخبره .. وإنه شهم ـــ هذا ما يهم ـــ قد أبقى عنده لمدة أسبوع حتى أفكر أو أجد مكاناً آخر ـــ ستكون درجة الجنون الذى يطاردنى قد هبطت قليلا ـــ محمد شهم ـــ حتى ـــ لم يسألنى كيف عرفت البيت بمفردى .

كان قد جاء بالشاى وسألنى : تشرب ميّه ، قلت : شكراً ، قال : يا سلام أين كنت عندما ، قلت : حيث لا مكان ، قهقه فى ضجيج : حيث لا تاريخ .. لا .. قاطعته : ممكن أفضل عندك أسبوع ، قال وقد ابتسم ابتسامة عريضة : ممكن ، أعطانى سيجارة وأشعلها وأشعل لنفسه واحدة أيضاً ، كنا وكأننا فرغنا من الكلام تماماً ـــ أنا وهو ـــ : الصمت ورشفات الشاى ونفثات الدخان ، بعد لحظة ـــ قام وتوجه إلى الحجرة المفتوحة : أمسك بالغطاء ولفّه حول الساق العارية ، قال ـــ وكان قد قفل باب الحجرة وعاد : الولد الكبير يلم الغطاء عليه ويعرى أخوه الصغير . وده حال كل يوم يا سيدى ـــ وصمت ـــ بس تعرف يا .. شوقى أنى مراقب ، قلت وقد توقفت عن شرب الشاى : لم ؟ وقال : لا أعرف .. ممكن .. إنما الأولاد .. شيء صعب والله ، قلت : سأبحث

عن مكان آخر .. كنت أنظر إلى الوشم الأخضر على صدغه وكأننى أتعلق به ، وكان هو ـــ ينظر إلى الصورة المعلقة فوق الباب ـــ ضحك ـــ وقال : يا راجل ازاى تخلط بين نابليون وبتهوفن ، كنت قد فرغت من نصف كوب الشاى ، قمت .. قال : أشوفك . قلت : طبعاً كنا أمام الباب ـــ وكان راغبا فى أن أكسر ـــ أنا ـــ هذا الخجل الذى يمنعه من أن يحتضننى ، مد يده ـــ كنت قد مددت يدى ، قال ـــ وكان ظهرى له : مع السلامة ، كانت السماء قد شدت قوسها واطلقت تجاهى سهماً من نار ، تراجعت فاصطدمت بضلفة الباب المقفلة ، تنحى بجسمه الهائل عن الضلفة الأخرى ـــ وقال : ادخل .. قلت وأنا أدارى خوفى بالضحك : دائماً .. دائماً .. منذ كنت صغيرا وأنا أخاف البرق ، قال : ادخل وانتظر .. كنت قد شددت ياقة « الجاكيت » إلى أعلى ـــ قلت : انه من الجلد وخصيصاً للمطر .

حصار طروادة

كنا صباح الأحد ، وكنت حزينا ، وكانت الصحف — الثلاث — ترحب بمقدم الربيع ، وكانت الإذاعة المصرية تنشد تقرير مصلحة الأرصاد الجوية : « الجو اليوم رائق .. اليوم السماء صحو . اليوم الشمس مشرقة ، عموماً الطقس جميل » ، ألا أنني .. لقد فاجأني الخنزير — قلت — وكنت أقصد الحزن لا الربيع ، ورأسي تحت الصنبور كنت أحدثه (الحزن طبعاً) : « عني إلى الجحيم .. عني .. سنوات وأنا أجالد (مع الماء المتساقط من رأسي بالوسخ اختلطت دموعي — كنت أبكي) ، وأنا في الشارع — أوقفت شخصاً كان يمشي بسرعة : سرعة من هذا النوع الذي يجعلك تنحني كعيدان القمح التي تريد أن تحمي سنابلها من الريح الداهمة المتوجهة (بأمر أرتميس طبعاً) نحو السفن الأثينية المتوجهة بدورها إلى طروادة وهيلين (كان أجاممنون قد ذبح إفجينا بالطبع) ، أوقفت الشخص وأفهمته أن ليس معي كبريت وطلبت سيجارته المشتعلة لأشعل سيجارتي ، وقلت له وقد ابتسم : أمامك أمر مهم ؟. قال : بالطبع .. وأشار إلى دار سينما قريبة من المكان : أمامها طابور هائل من الراغبين في فيلم « الصقر » ، الصقر : قصة كتبت بالدم والنار على رمال الصحراء .. اختيرت له قلعة منيعة بوسط الصحراء يحيط بها عشرات من مصوري السينما وآلاف من الفرسان) ، وقال إنه لا مانع من أن يصطحبني ،

وقلت له إن حزنى من هذا النوع الذى لا يحتمل التراجيديات ، وأفهمنى بطريقة ساحرة (طريقة يجيدها معلنو الإذاعات التجارية .. (كأن « أسبرو صديقك » .. « الواحدة والنصف ودقيقتين حسب ساعتى ماركة تيتوس ») ، أفهمنى أن الفيلم كوميدى وأنه بطولة « فؤاد المهندس » (ممثل مصرى هزلى شهير : مثل ٣/٤ أفلام القطاع الخاص و ١/٤ أفلام القطاع العام ، والمجموع واحد صحيح وتحتسب هكذا : ٣/٤ + ١/٤ = ١) ، وقلت له : الآن ــ لا مانع عندى ولكنى أفضل الهرم (كنت أقصد تلك المساحة الصحراوية الهائلة التى تسكنها أهرامات خوفو وخفرع ومنقرع الثلاثة) ، وضع يده ثم لفنى بذراعه وقال : استريو الهرم .. طبعاً تقصد ؟ ، ولاحظ وجومى فسألنى : ألك صديقة ؟، قلت : بالطبع ..، قال : أنت صديقى ، وتوجه إلى محل قريب وأدار قرص التليفون : كان يتحدث ويضحك ويضحك ويضحك ــ ثم طلب منى أن أحادث صديقتى ، أدرت قرص التليفون واتصلت بها وقالت : إنه لا مانع عندها وستأتى حالا ، ودفعت لصاحب المحل العجوز ثمن مكالمتى ومكالمة صديقى ، وقال الرجل العجوز إن صديقى تكلم مدتين ، ووجدت صديقى يمسك بعنق العجوز ويكاد يزهقه ، أفلتهما فوجدت العجوز يمسك بعنقى : كنت أغوص فى تيار من الراحة تحت قبضتيه ، ولكنه ضايقنى وأشعل معدتى برائحة فمه الكريهة ، خلصت نفسى منه بمعاونة شاب (من النوع الذى يعلق شنطة رياضية مرسوم عليها مضربين متقاطعين أو صورة للملاكم العالمى « كلاى » أو أى شىء من هذا القبيل) ، دفعت ثمن ثلاث مكالمات وتوجهت إلى محطة الاتوبيس ووجدت صديقى هناك وبصحبته فتاة سمراء عقصت شعرها من الوسط وأخلته سائباً للخلف كذيل الحصان ، كنت غاضباً (غضب من هذا النوع الذى حدثنا عنه هوميروس عندما طلب من ربات الشعر أن يلهمنه التغنى بغضبة ابن بيلوس الذى ترك المعركة الطروادية الشهيرة وبصحبته فرسان المورميدون بسبب وقاحة أجاممنون قائد الجيوش) كان يضحك وكنت غاضباً وقال وهو يقدمنى لها : صديقى ، قالت بلهجة ساحرة « آن شانتيه » ، (نفس الطريقة التى استخدمتها الممثلة الإيطالية « صوفيا لورين » فى فيلم ــ نسيت اسمه كما نسيت الموقف أيضاً ــ ولكنى متأكد أن « صوفيا » لم تكن تلوك « اللبان » لا أعتقد أن غضبى كان سينطفىء (خصوصاً وأن صديقى نحيف جداً) لولا اهتمامى الشديد بنظرات من يحيطون بنا (قطعاً سحرتهم الطريقة التى تقف وتلبس وتتحدث بها فتاة صديقى « صوفيا لورين ») ، بعد لحظة جاءت صديقتى وركبنا الأوتوبيس ،

تم التعارف بسرعة ، ووجدت غضبى يتلاشى إلا أن حزنى الثقيل ظل ثقيلا (لأن عمره عشر سنوات) ، ووجدتنى أعاتب صديقى بطريقة لطيفة عما حدث وعن تركه لى وعما .. ولكنه أخذ يضحك ويضحك ويضحك وضحكت الفتاتان (وهذا ما أغاظنى) ، ووجدته يقف فجأة ويصرخ فى وجهى أننى لقيط وأنه يعرف كل شىء وأننى ابن فلان بالتبنى .. وهكذا ، وهكذا وجدتنى أفضل الانسحاب على البقاء معه (رغم أن اليوم مشرق وجميل وصالح للنزهة بصحبة الأصدقاء) وقلت لفتاتى : سأنزل فى المحطة القادمة ، وقالت : إنه لطيف وإنه يشبه فؤاد المهندس وإننى فاقد لـ « هيومرسنس » — وكانت تعنى أننى لا أتحلى بخلق كوميدى ، وقلت لها : إننى حزين — حزن من هذا النوع الثقيل .. عمره الآن عشر سنوات ، وقلت : فاجأنى هذا الصباح (الحزن المفاجىء مرض عصرى يعرفه المثقف عندما يصطدم وعيه بشروط التاريخ فيصرخ : « هذا سجن .. هذه محكمة .. إنه حبل المشنقة .. هو الشارع ، أنا مفصول من عملى — يقولون : إننى قاتل .. إننى سارق .. إننى .. هؤلاء غرباء لم أقابلهم قط ، مولاى الشيخ وسيدى القس — لكنها الحياة الوحيدة الممكنة ، انتهى الأمر .. إنهم على حق .. لقد كانت حياتى ، والمسئول هذه الطريقة التى أفكر بها .. يمكننى أن أكون حزيناً) قالت : إنه لم يخطىء وإن الطقس بديع والجو مشرق وجميل وإننا ذاهبون الى استريو الهرم بصحبة الأصدقاء ، قلت لها إننى أعرف مكاناً أفضل وأناسا أفضل ، وإننى حلمت بالأمس أننى : (كنت أجلس فوق ذؤابة « جبل ايدا » وكنت تجلسين فوق ذؤابة جبل « بيرجاموس » وحملت « أرتميس » ربة الريح حديثنا وأعطتنا نسائم عطرية فالتقينا تحت صفصافة « زوس » الشهيرة ، وكنت تلبسين ثوب باليه طرزته « أثينا » ذات العينين النجلاوين ، وظللنا نرقص على أنغام « أبولون » وكان « بوسيدون » رب البحر يقذف بالحصى والأحجار من البشر تحت أقدامنا) : بشر من هذا النوع — وأشرت إلى شبيه فؤاد المهندس ، وقالت : إنها تفضل استريو الهرم ، ولم أجد مفراً من أن أعلن غضبى وأقف مخليا مكانى معلنا أننى سأهبط : المحطة القادمة ، وقالت له وهى تبتسم : إننى أركب رأسى دائماً .. ودائماً عنيد ، وقالت إنها سيئة البخت ، ووجدت الشاب يضع يده على كتفها ويلاطفها لتكف عن البكاء ، ونظر إلى وأفهمنى أننى حيوان ، وما هكذا تعامل بنات الناس وأننى لست « جنتلمان » وأننى أيضاً جاهل (كان يقصد أن الطقس رائع والشمس صحو واليوم جميل وربما الريح مواتية) ، والحقيقة لقد فاضت نفسى ، ولم أعد أحتمل (لو كان الشاب

ضئيل الجسم لمزقته) وقررت أن أهبط : المحطة التالية مباشرة ، (كانت قد فاتتنى ثلاث محطات بسبب إقناع صديقتى وسماعى لكلام الشاب الرقيع) ، كان الأتوبيس قد توقف وحاولت أن أخلص نفسى من الوسط ولم أفلح ــ كنت قد تزحزحت حتى أصبحت قريباً من الباب ولكن الأتوبيس تابع سيره فقررت أن أهبط المحطة التالية مباشرة ، وعندما توقف الأتوبيس حاولت الهبوط وزاد أملى عندما وجدت شخصاً هائل الجسم يدفعنى إلى أمام ــ لكن : ناس كثيرون ركبوا من هذه المحطة مما جعل الشاب الهائل يدفعنى بشدة إلى جانب ويهبط ، وسمعت ضحكة الأربعة من الخلف (مؤكد أن فؤاد المهندس قال نكتة) ، صاروا ستة .. سبعة .. كان كل من فى الأتوبيس يشاركون بالضحك .. ضحك .. ضحك ، (جيوش أثينا تزحف ، والخالد يرعد من فوق أوليمبيوس ، والبحر ينظف نفسه : أندروماك حزينة ... بنيلوبى تنتظر ، سهم باريس جميل طروادة ــ فى كعب أخيل ، وسهم أخيل ــ أثينا ــ فى صدر هكتور ــ طروادة ، وسيف هكتور يحتضن المجيد ــ درع اثينا ــ إبن تيلامون ، سقطت عشرة أعوام .. سقطت طروادة ــ ها هى المشاعل تقول يا تليماخوس الصغير ، وعشر سنوات للعودة يا أوليس : ايثاكا جميلة .. ايثاكا بعيدة .. ايثا ..) ، كنت أضغط نفسى لأبكى ، ووجدتنى أغرق ــ أنا الحزين ــ فى الضحك .

الوارث

سرقت مطواة جدى : ذات الحدين .. والمصدّفة بناب الفيل ، أخفيتها وسط حبات البامية اليابسة ببطن الجرة المكسورة الرقبة ــ حتى لا يراها خالى عندما يزورنا فيأخذها .

قالت أمى : لقد أخذ خالك كل شيء تركه جدك .. وميراثنا أكثر من قيراطين يدفع إيجارهما .

كانت تنقل الأرغفة اللينة من الظل إلى بقعة مشمسة على السطح ، قالت : إننى لو كبرت وصرت شيئاً آخر غير أبى لأخذنا كل ميراثنا من خالى وهو أكثر من المطواة والقيراطين بكثير ، وقالت : إنّ أبى كان متسامحاً عليه الرحمة ..

حين رأتنى أطلع النخلة ورأت بحزام قميصى مطوة جدى ، خبطت صدرها خبطتين خائفتين ، ليتنى لم أحصل على المطواة من خالى ــ هكذا صرخت من أسفل ، وحضنت أنا عود « البكريه » نخلتنا بصدرى وكلتا ذراعى ، كانت تخاف على من « البكريه » فهى عالية عالية .. وأمى ليس لها فى الدنيا غيرى .. .

قطعت جريدتين من « البكريه » بمطواة جدى .. وصنعت شبكتى المثلثة .. جعلت الرافعة على شكل صليب .. وخطت فى تجويف المثلث ثوباً من الدانتللا ــ كان لأمى ولم تلبسه إلا ليلة العرس .. جعلته مستطيلا وخطت قطعتين فيه ..

لم يعد قلب أمى ــ بعد ذلك ــ ينخطف بعيداً : حيث المقابر وأبى ، فقد كففت تماماً عن طلوع البكريه .. عشقت صيد السمك من الترعة التى تحزم البيوت ، أمى هى التى حصلت على « القرعة » .. تطفو فوق سطح الماء وأتعلق بها .. أحضنها بكلتا ذراعى .. هكذا على صدرى .. وتظل تسبح بى ونطوف حول البيوت والماء يتقافز خلفى .. أصنع كل ذلك بتحريك الساقين ..

هناك فوق سطح الماء يطفو الجسم .. يكون خفيفاً كريشة حمامة ، أضرب الامام بقوة الذراعين .. والخلف بكلتا الساقين .. أسمع صوت الماء يملأ أذنى .. بذلك يصبح بعيداً ولا يصلنى نداء جنيات القاع .. وأكون قد أحسنت العوم .. ولا يطير قلب أمى شارداً بين القبور والأرواح السوداء بحثاً عنى ..

كان الماء يتسرب من ثقوب الثوب ويبقى لى السمك الصغير .. يتقافز دائماً .. وأكون حريصاً من جانبى ألا يطول الماء .. عندما يسقط بكيس الشبكة السفلى ــ الراقد فى الماء ــ يكون قد يئس ولكنه يظل يلعب .. وأبتسم أنا : فسأحتفظ به طازجاً حتى نهاية اليوم ..

حين اصطدت تلك السمكة الكبيرة : ظلت تفتح خيشوميها وتغلقهما ، كانت عيناها معلقتين تائهتين تدوران فى المحجر ــ ولكنهما كانتا مشدودتين إلى نقطة ما فى الفراغ الواسع .

غرفت بالكفين من طين الجرف وصنعت لها حوضاً .. ونقلت إليه الماء ، كانت تسبح فيه ورأسها مرفوع دائماً إلى أعلى .

وقد وصلت بيتنا : كانت هى قد كفت عن الحركة تماماً ــ وإن ظلت العينان مفتوحتين .. كذا الخيشومان ، وكانت العينان تبرقان بلمعة غريبة .

شوت أمى نصفها .. وصنعت من النصف الآخر « طاجن » متبل .

بالليل : جاء خالى لزيارتنا ، أكل من النصف المشوى ، ولم يقرب الطاجن .. كانت معدته مريضة من حوالى العامين — قال له هذا طبيب الصحة ، قال خالى : هكذا أنت شقى ، وأعطانى قرشاً . قلت لأمى — بعد أن مشى خالى : عندما أصبح كبيراً لن يعطينى قرشاً .. حتى ولو اصطدت التمساح الذى أكل لحم « هنيّه » الأبيض ، وافقتنى أمى .

فوق السرير الجريد على السطح كنت أحاور النوم كعادتى : وكان ينزلق بمساعدة شعره الحريرى الناعم ولكنى كنت ألمس شعر بطنه الخشن ، تشاغلت عنه بالسماء الدوارة وحاولت عد النجوم : كانوا عشرة وعشرة وعشرة ، ثم توقفت عن العد ، فكرت فى هنيه زوجة « الجمسى » ، وجدها نائمة مع خولى عزبة « بدران » ، كانت هنيه عارية تماماً ، وكان الخولى عارياً تماماً ، قتلها « الجمسى » ، وقتله ، لف هنيه فى ملابس الخولى ولف الخولى فى ملابس هنية ، حمل الجثتين داخل شوال كبير ورماهما للسمك الصغير والكبير وديدان الماء — ولكن التمساح أكلهما . وطالت لحية الجمسى وطالت أظافره وطال شاربه وغطاه الشعر ولم يعد فى حاجة إلى ملابس — هناك حيث يعيش شارداً فى البلاد البعيدة .

كان الهواء الساخن يرقد جامداً بلا حركة فى الجو من حولى .. وكان رأس الجمسى يطل من فوق نخلتنا شديد السواد .. وكانت عين الشمس المملوءة بالجمر الأحمر قد تقلبت كثيراً على سطح بيتنا ذاك النهار .. وأشعلت الجدار الملاصق لجانبى الأيمن ، لكنى كنت أرتعش كفرخة مذبوحة بسكين ذات حدين ، كنت أحس جسمى بارداً .. وكان قلبى يتقافز بين ضلوعى .. خفت أن يطير بعيداً عنى : حيث القبور وأبى والأرواح السوداء والبوم الناعق والجمسى الشارد .. صرخت وانغرست أكثر فى حضن أمى ، قلت : هى غيوم سوداء وكثيفة تتحرك أمام مقلتى العين ولا يعود الإنسان يرى .. أليس كذلك أصبح ميتاً !؟ ، قالت أمى : حتى متى أظل صغيراً ، ضمتنى إلى صدرها وظلت تمشط شعرى بأصابع يديها المرتجفتين ، قالت : متى تكف عن هذه الأحلام لتحمى نفسك من الكوابيس السوداء ؟ .

طاحونة الشيخ موسى

كأى رجل تزوج . تزوج الخواجة (يسّى)
وكأى امرأة ولود .. أنجبت زوجته ابنهما (نظير)
وإذا كان الله وحده هو الذى يعطى ويأخذ — فقد أعطى الله كثيرا وأخذ الكثير أيضا ماعدا — نظير — فقد أبقاه الله ، ليأخذ من الدنيا نصيبه .. ومن والده اسمه ولقبه ومتجره الوحيد .

كان نظير يسّى شبيها بوالده تماما — ومن شابه أباه فما ظلم — تاجر القرية والمتصرف فى تموينها من شاى وزيت وسكر وغلال وما يستجد من أعمال ، تناول الدكان بحرص والده .. لم يطل له سقفا ولم يعلق لافتة ، ولم يعط الأقة أقة ولا الرطل رطلا .

دورة الأيام وحدها ، وتعاقب الخلف للسلف هو الذى غير من الخواجة نظير شيئا ما .. ليجابه به أصحاب العقول المتفلسفة — على حد قوله — اشترى راديو ماركة (صوت العرب) صغيرا ؛ وعددا من علب السجاير الفرط وورق البفرة والمعسل ، وبعدها — جاء بصندوق للحلاوة الطحينية . وأمام الشلة التى تكبر يوميا لسماع القرآن ونشرة الأخبار .. استعمل وابور السبرتو والكنكة لعمل الشاى

وتوزيعه لقاء نصف قرش للكوب الواحد .. لا يستثنى من ذلك أحداً سوى (سُنّى أبو سيفين) خفير الدرك والذى يقع فى دائرته متجر الخواجة نظير ، وعملا بمبدأ المرحوم والده ـــ فكر تكسب وفتح عينك تغرق فى بحور الدهب ـــ فكر الخواجة نظير وبنصف عين فقط عثر على ماكينة طحين نصف عمر .

وبعدها جاءت المتاعب تباعا .

ما أن اكتمل البناء وجاءت المكنة ، حتى هاج هياج القرية ..

صحيح أنه ليس بالبلد طاحون واحد للغلال وأن النسوة يذهبن (بخبزة كل يوم) إلى المدينة ، وجنيهات ستدخل جيبه ووداعا ياقروش ـــ ولكن ـــ ماذا يفعل للشيطان ؟ ما الذى ركب عقل القرية .؟

بسببه سيضيع شهرا استغرقه البناء .. ومبلغا وقدره فى شراء ماكينة (خليل بيه أبو زيد) وجنيهات مضمونة ستدخل جيبه . بنشكر ربنا وبنحمده ع النعمة صبح ومسا .. والشيطان ما العمل فيه ؟ ما العمل ؟؟

أيحصل فيه كل هذا لمجرد أنه يريد أن يوفر للقرية طول المشوار ، ويريح نفسه من فلسفة مستمعى نشرات الأخبار وثومة وحليم وتلحمة « سُنّى » خفير الدرك ، ولكنه هرب من المعصر ليقع فى الطاحون ـــ كما يقول المثل ، اش فلسفة .. واش حواديت تحكى .. وكلام فارغ عن قرن التور اللى شايل الدنيا ، قال كلام كتير .. ومن يسمع ، استشهد بكلام ناس عقلا .. ولا حد قاله انت فين .

يا خلق ياهوه ، حانقصر المشوار للبندر ، والطاحون أهى فى بلدنا ، وزيتنا فى دقيقنا ، وربنا يكفينا شر الحوجة .

ـــ أولاد ايه اللى تترمى داخل المكنة عشان تدور .. بالشرف الكلام ده مالهوش أساس ، أنا حاأشغل أسطى عنده عشر سنين خبرة .. حيدوّر المكنة بدون عيل يترمى جواها .

وتصطدم كلماته بالحائط الأخرس ويتردد صداها رجفة بقلوب أباء يعبدون الأبناء . وأمهات يفضلن تعب المشوار وشقاء العمر ولا المصيبة فى الولد ..

والعمدة يلعلع بكلماته ويقذف بيده فى وجه الخواجة نظير وكأنه نذير الشؤم .

— ياخواجة أنا مسئول هنا عن كل روح فى البلد .. مايلزمناش مصايب .. كفاية اللى بنشوفه فى البندر من المأمور ووكيله .. احنا فاضيين لإيه والّلا إيه .. مش كفاية الخناق على الميّة والزرع وسرقة الدرة ؟؟ يعنى ماهو احنا من عمرنا بنشوف المكن مايدورش إلا اذا أكل عيل صغير .. مش كل المكن بيصرخ (توت .. توت ..) يعنى انت حاتغيره ياخواجة نظير .. والا ماهو احنا بهايم .

ويصرخ الخواجة نظير :

— ياخلق ياهوه .. الطاحون حتدور قدام عينيكم .. شفوها وبعدين اتكلموا .. أنا صرفت عليها دم كبدى .. شهر بنيان ، ومكنة بالشيء الفلانى ، وشقا العمر يضيع .

ويهتز الحائط الإنسانى فى قسوة وتبرطم شفاه ، وتتخلع القلوب على الأكباد ، وتتلاطم الأيدى وكأنها تطلب رأس الخواجة نظير .

ويعلو صوت الخواجة ليكتم الصيحات :

— المكنة قديمة .. قديمة ياناس .. يعنى لازم أقول .. أدينى قلت .. ارتاحوا .. اشتريتها من خليل بيه أبو زيد بتاع البندر .. مايلزمهاش عيل .. قديمة .. مكنة قديمة .. ارتاحوا كده .

وردد واحد فى تساؤل مريب :

— ايه اللى خلّاه استغنى عنها ..؟ لازم عطلت وعايزة عيل تانى .. ماحناش هبل يا خواجة — وينبرى الخواجة نظير ليسكت الصوت الشيطانى ولكن واحدا ينسلخ من البناء الآدمى ويزعق :

— مش معقول المكنة تدور من غير عيل .. بلاش منها ياخواجة .. ش ﷺ ياشيخ موسى .. الشيخ بيقول احرصوا على أولادكم من طاحون الخواجة .

وتنتاب البحر الإنسانى نوبة صوفية ، فيهوم فى سماء المجهول والرجفة تأكله ، ويمصمص الخواجة شفتيه ، ويأخذ وجهه وضعا غير متناسق ، ويفتح عينا واحدة يزن بها المكسب والخسارة ، وينظر إلى محدثيه خشية أن يخرج من سِرّه هذا الكلام فتكون نهايته .

— (يا دنيا .. قال الشيخ موسى .. يا ناس الواحد فيكم تأكل ضهره الشمس لغاية ما يتلايم على اللقمة .. يقوم يشترى باكو معسل لمزاج الشيخ ، يحرم نفسه من فردة حمام ولا فرخة مربيها .. ويطفحها للشيخ ، وجعتم دماغنا بالشيخ .. الشيخ .. الشيخ .. على مين الشيخ بتاعكم دا ؟.. هو الشيخ موسى وأنا نظير ولد يسى .. الطاحونة حتشتغل .. برضاك وغصب عنك ياشيخ موسى . عايز من ناس البلد إيه ؟ معسل وأكل ؟ يا أخى الله يرزقك ويرزقنا . كله عايد عليا وعليك وعلى الولد من بعدى .. طيب أنا حاخسر النهاردة — لكن بكره بدينى كله مكسب .. كله دهب ، عايز منى إيه ؟.. لفة معسل وأقة حلاوة .. حاخد هُملك .. كله يهون فى حب الولد والمال .. دى الطاحونة دهب .. دهب ياخلق تعبانة ، وبالشرف من بيتى بعد سنة لأبنيلك عمارة فى البندر يامفيد يابنى .. وبس تكبر ما يرضينى بنت (اندراوس باشا) عروسة ليك ..

وأفرج عن ابتسامة مكروبة ، وفتح كلتا عينيه ، ودار بالحشد القانع بالنصيب :

— (رضينا بالشيخ ياجماعة .. أنا وانتو والعمدة نروح له .. ياناس دا كله بركة .. قدمه تدخل الطاحونة ونعمة ربنا تحل فيها وتشتغل .. المكنة مايلزمهاش ولد لو دخلها الشيخ .. مدد ياقطب ياكبير .. مدد .. كراماتك ياشيخ موسى ، دا له نذر عليا من زمان .. من يوم ربنا مارزقنى بمفيد .. حاخد له لفة معسل وأقة حلاوة طحينية .. وأنا أقطع إيدى لو المكنة ماشتغلتش .. دا كله بركة ..

ويهرول إلى الدكان ويخرج وبيده اللفة ويتبعه طابور صامت إلى الشيخ موسى ، فعنده الحل والخلاص ، ويستأذن على الشيخ ، وينطقها الشيخ كالقنبلة :

— النبى قبل الهدية .. لكن المكنة لازمها عيل صغير ..

ويرتجف الخواجة نظير ..

— بركاتك ياشيخ موسى .. مددك واسع .. قد الدنيا .. مقامك كبير وتحصل .. بس انت أدخل الطاحونة وكله ينفك لجل خاطرك .

ويمتد تيار كهربى من فم الخواجة نظير يسرى فى الجمع ، وتردد القلوب الخائفة على الضنا الغالى :

— ياواسع المدد مدد .. كرمك ياحضرة الشيخ .. عشان خاطر قبر النبى حبيبك .. ويبلع الشيخ موسى ريقه مرات والخشية على نفسه ومقامه من الأسطورة التى ستحطمه ، وفى رأسه طفل ممزق الجسد .. دمه يسرى فى تروس المكنة الملعونة .. والصرخات التى أفزعت طفولته الساذجة (.. توت ... توت ..) والصيحات تستعطفه فى إرغام .. وساقاه مدفوعتان إلى المصير فى زحف أسود .. مقيت .. كريه .. ولا فكاك من النهاية ولا سبيل إلى الخلف : الجبل البشرى خلفه ، والبحر الأسطورى أمامه . ومن بعيد قبة ملعونة رأسها فى السماء .. ستصبح فيما بعد أعشاشا لغربان الخراب التى ستنهش لحمه وتصعد إلى فوق .. فوق . والأسطى قذر ملعون كالشيطان الذى ركب عقل الناس — هذا اليوم — وابتسامته قاهرة .. ويده صلبة هذا الملعون تشد الذراع فى لفات سريعة واثقة ..

— ويا واسع الكرم ، ويا ..

وتصر التروس فى طحن مكتوم من قلة الزيت ، وتشتد القرقعة وتعلو الصرخات (توت . توت .) وتلعلع زغروتة .. وتهمهم شفاه بالخلاص .

— مدد ياشيخ موسى .. ياقطب .. ياواسع المدد .. مدد .

ويتشعلق الخواجة نظير على أكتاف الزفة ليعلق لافتة كبيرة بأعلى الحائط : (.. طاحونة الشيخ موسى ، لصاحبها الخواجة نظير .. وابنه مفيد ..) .

محبوب الشمس

غرس محبوب قبضته الصغيرة فى مجرى الميضة ، وقلب طبقة من الطين بحجم كفه ، ومضى يفتش بأصابعه النحيلة عن الدود .. ألقاه فى كوز من الصفيح .. ومضى صوب « ترعة الدم » شرق البلد . حاملا كوز الصفيح بيد وحاملا باليد الأخرى عودا من الغاب ، بطرفه خيط ينتهى بسنارة من نوع الهلب الصغير .

ومحبوب فى الخامسة عشرة من عمره .. قصير جدا .. ونحيل جدا .. أبيض شعر الرأس .. وكذلك كان لون حاجبيه .. ومن هنا كان الشيخ كامل إمام مسجد«أبو عوض»يتأمله فى صمت المؤمن .. ويدور فى فلك الحكمة الالهية التى تنبت الدود فى بطن الحجر ، والتى أثمرت هذا القزعة من والد طول السيمافور وأم فى حجم الدرفيل .. والحاج خليل والد محبوب طويل فى إفراط .. وصاحب شعر فى لون الليل الشتائى .. والحاجة نفيسة زوجته غنية باللحم والشحم . وتملك ثروة من الشعر الأصفر كسنابل القمح المستوية .

كانت القرية برجالها ونسائها وأطفالها تأبى أن تدور فى فلك الحكمة الالهية بصمت ..

رؤية محبوب كانت تبعث فيهم السخرية .. وتدفعهم إلى الضحك ، وعدم قدرته على مواجهة ضوء الشمس .. دفعتهم إلى أن يطلقوا عليه « محبوب الشمس » لا « عدو الشمس » كالعادة إمعانا فى لذع التسمية .

وقد أغضب هذا اللقب محبوب من أغلب أهل البلد وجعله يحتمى ببيته فى أكثر الأحيان .. مما أغضب بدوره الحاجة نفيسة ، التى شكت للحاج خليل .. الذى حمل تكشيرته للشيخ كامل إمام مسجد أبو عوض .

— ده عيّل برضه يا سيدنا الشيخ .. واللى يكسر بخاطره يكسر ربنا بخاطره .. وخطبة الجمعة ترد عقل المجنون .

ورجع بترضية الشيخ إلى الحاجة نفيسة ..

— ياحاجة الشيخ بيقول : « الرضا بالنصيب زى عمل الطيب تمام .. ويا بخت من يصبر على المقسوم .. » وأضاف من عنده : « الناس حتلاق إيه تنبسط بيه ، ما العيشة غم فى غم .. خليهم يضحكوا على محبوب يمكن لقوا مصايبهم فيه »

ولما لم تنفرج أسارير الحاجة ، ضغط الحاج بسمة مكروبة .. أفلتها فى حينها لتملأ تجاويف الدار بقهقهة جوفاء : « بذمتك يا حاجة مش برضه راس محبوب شبه لوزة القطن .. شعره الأبيض مش فال خير ..»

واكتفت الحاجة يومها بنظرة حنان هدهدت بها محبوبها الصغير ، أعقبتها بحسرة ملتاعة على عودة اليابس الممصوص بفعل فاعل .

واستمرت ضحكات السخرية تطارد محبوب .. فلا خطبة الجمعة ولا غضبة الحاج خليل ولا مقاطعة الحاجة نفيسة لأغلب نساء القرية .. أوقفت مخلوقا عند حده ولا أعادت لمجنون عقله .. شىء واحد وهو الذى أخرس الألسن وأمات الإبتسامة .. عندما غابت الشمس عن محبوب وعن القرية .. والتف الضباب الأسود بالسماء كالعليق الحشرى بجذوع النبات .

غابت الشمس .. فطلع محبوب .. واختفى الناس كأنما ابتلعتهم الأرض ..

كان محبوب سائرا فى طريقه والحقول خالية من الفلاحين .. وأعواد القطن منتصبة جافة من الحياة .. وقد انكمش اللوز بأعلاها كاليتيم ، وتحت الجميزة ..

كان مسعود خفير الجمعية التعاونية مستلقيا على ظهره وعيناه معلقتان بالفضاء الأسود الكريه المسقوف بالهباب ، لم يكن منتبها لمحبوب الذى دبت قدمه فى الأرض بتشف وإصرار .. وما أن نظر إليه مسعود حتى أخرج له لسانه ، ومضى فى طريقه غير مكترث به وهو يرقص . وجمدت قدماه على كلمات مطاردة وكأنها أوتـاد ثبتتـه بالارض :

— إحجل .. إحجل يا محبوب الكلب .

وتطلع بوجه خال من الحياة إلى مسعود ، وقذفه بكلمات ساخرة :

— يا حسرة ما ضاعت السلفة على الجمعية .. حارس القطن ولا السلفة يامسعود الميرى ..

ولما لم يرد مسعود ، شبك محبوب يديه فى جذعه .. وتثنى فى سخرية كالحنظل ..

— يا عينى على القطن .. حاله ما يهونش على الكافر .. خسارة السماد والتقاوى .. إلا قوللى يا عم مسعود ، ما تخدوش قطن البلد وترحموا أبويا من السلفة ..

ولما لم يرد مسعود أيضا ، مضى فى طريقه قفزا صوب الترعة .

ولا يدرى محبوب لماذا لم يرد مسعود ؟؟ لماذا لم تحركه كلماته رغم ما فيها من قسوة ؟ لقد قال له « محبوب الكلب » وسكت .. ولكنه رد إليه الكيلة أردبا .. أغلبه مسعود « بمحبوب الكلب » هذه ؟؟

وشاط صدره من جديد .. وتصاعدت إلى فمه مرارة الكلمة .. واندلعت فى رأسه سخرية الماضى التى ألزمته البيت ومحبوب الشمس .. بالأمس فقط كان محبوب الشمس .. واليوم محبوب الكلب .. لم تعد هناك شمس حتى يصبح محبوبها .. كلاب تعوى فقط فى اللانهاية ، ودار ببصره فى الفضاء الميت ونهشته الحسرة .. كلاب فقط تعوى فى البعيد .. هو محبوبها .. ذهب الناس . ابتلعتهم الأرض .. اختفت الشمس ولا يدرى أين ؟؟

وسقط كوز الصفيح من يده .. وتناثر الدود .. وتلوت واحدة منها نحو الشرق .. من نفس المكان الذى تطلع منه الشمس . وأخرى زحفت نحو الشمس .. نفس المكان الذى زحفت إليه منذ عشرة أيام فائتة ولم تعد ..

وماتت رغباته فى أن يذهب إلى الترعة .. وفرقع صوابعه العشر .. واحد .. اثنين .. تلاتة .. سبعة .. عشرة .. وهكذا مر عليه اليوم الأول بمثل فرقعة الإصبع .. ومر الثانى .. واشتدت طبول الصبية تستنجد بالرب وتستعطف الشمس (.. يارب .. يارحمن .. طلى ياحلاوة طلى .. يا آخت القمرة طلى ..) .

بلع اليأس نتف الرجاء .. وبلعت الدور أهلها .. ماتت الفرحة .. واختفت زيطة المصاطب وسهرات القمرة ..

أصبحت القرية كلها ملكا له .. بأرضها وفضائها وكلابها .. لا شماتة ولا ناس ولا شيء .. عشرة أيام كاملة وهو يخط طريقه إلى « ترعة الدم » شرق البلد .. ليصطاد أو لا يصطاد .. ولكنه مبسوط والسلام .

دار رأسه كالمرجيحة .. وبدت الدور لعينة كمقابر الموتى .. دارهم قبر يحمل أعز الناس .. (أمه وأبوه) ، (أبوه) ميت حيّ ككل الناس .. فى حاجة إلى رمانة يحملها (الشاطر حسن) من (جزيرة الجان) .. و (الرمانة) كنز .. كالقطن لو تفتح عنه اللوز .. متى يرجع (الشاطر حسن) من (جزيرة الجان) .. وعلى كتفه (الرمانة) .. (رمانة) تحمل كل لوز الدنيا .. والشرط اللوز بخيره .

وأمه الحاجة نفيسة لم تعد تحكى حكاياتها عن الشاطر حسن .. ولم تعد تخبز عيش القمح .. رغيف القمح لا يخمر إلا اذا طلعت الشمس ، عليه أن يأكل عيش الذرة ما دامت الشمس لن تطلع .. وستأكل القرية معه عيش الذرة ما دامت الشمس قد احتجبت من أجل خاطره ..

وسأل نفسه السؤال المحير .. والذى يتوه فى فهمه أجدع عقل فى البلد بما فيهم (عبد التواب أفندى) المدرس الذى يقرأ الجرنال .. ويسمع الراديو .. ويناقشهم فى عيشة (زمان) وعيشة (اليوم) ..

قد يقنع (عبد التواب أفندى) كل البلد بأن اليوم أحسن من امبارح .. وقد يغسل همومهم بوصلة رست الطرب .. ولكن أيقدر أن يفسر لماذا لا يستوى

رغيف القمح فى القرية ، إلا إذا اكتوى بنار الشمس ؟.. أهى خيوط الشمس البيضاء التى تدخل فى جوف الرغيف فينتفخ كالديك الرومى ..؟ .

والله الذى يرزق الدودة فى بطن الحجر ، كما يقول والده أليس بقادر على أن ينفخ الرغيف كالديك الرومى .. لماذا لا يفعل ؟؟ هل هو معه أيضا ؟؟ ويريد (الله) .. أن يعلّم القرية الأدب وقصر اللسان وليمشى كل فى حاله .؟.

وتطلع إلى السماء وود لو يخترق كثافات الضباب ليرى الله .. (الله) هناك يتربع على عرش من الذهب وتحت قدميه تجرى حقول القمح .. وبيده (رمانة) لو انفرط حبها لشفيت (شهر زاد) من علتها .. ورجعت زيطة المصاطب وسهرات القمرة ، ونفض شكواه فى يأس الهم : (يارب اقصف بأجل مسعود الميرى) .. آه لو وصلت كلمته إلى قلب البلد .. سيشوون لحمه .. « محبوب الكلب » ، ولكن ماله والبلد ومسعود وكل شىء معه : الله فى السماء .. والشمس من خلف الضباب .. والحقول المترامية بلا حياة ، وانقبض قلبه وكأنه يشيع جنازة ميّت عزيز .. ميّت قتله بيديه ودفنه مع الشمس وكفّنه بالضباب .. ميّت ككل الناس الأحياء الميّتين المكفنين بالدور .. قتلهم بفرحته فى مصيبتهم .. لقد فرحوا قبل ذلك بمصيبته .. لكنه لم يفرح أبدا ، لأنهم لم يخرجوا من دورهم ليشاركوه فرحته .. ألأنهم لم يخرجوا ؟ وتنبه وكأن التساؤل خرج فى غفلة منه : يخرج الناس ليختاروا له واحدا من اثنين .. محبوب الشمس أو محبوب الكلب .. أكتب عليه هذا ؟؟

وجلس على الأرض وانتزع عودا يابسا من القطن ومضى ينثر الورق الأصفر : الشمس .. الله .. مسعود .. رغيف القمح .. والجنازة .. الله . واختلطت الكلمات والصور ، نظر إلى فوق وتحجرت عيناه تعلى صدر السماء .. وكسا نور عينيه ضباب كثيف ، دب قلبه وشاط صدره من الغيظ : « ملعون أبو الدنيا ومحبوب الكلب ومسعود الميرى .. والترعة .. ودود الميضة ، متى تطلع الشمس ؟ عشرة أيام .. حداشر .. والقمح فى الصومعة .. والصومعة فى السماء .. إن لم تطلع الشمس .. سيرعى السوس فى السماء وسيأكل القمح .. ولن ينتفخ الرغيف كالديك الرومى ».وتمنى لو يصعد إلى السماء .. لو ينزل مَلَكٌ .. ملك يحمله إلى فوق .. لو يقابل (الشاطر حسن) .. فيساعده فى العثور على الرمانة .. ينفض معه الغيم ويفتش عن الشمس .. يفتش عن الرمانة .. وتتدفق

شلالات الخير .. ويتناثر حب الرمان .. وتجرى أنهار القمح .. وتستحم الصبايا .. يحتضن (الشمس) .. يحتضن (الرمانة) ويدور معها من الشرق الى الغرب حيث تغيب ويحملها فى الصباح .. ويدور بها كل دروب القرية .. تزفه طبول الصبية بنداءاتهم الحلوة .. (يا أخت القمرة طلى .. طلى ياحلوة طلى) ، هنا : تعصر أمه الغروب .. وتصبغ له شعره بحناء الشفق .. وهنا : يقف فى ثبات ليواجه ضوء الشمس ، مخترقا صدرها فى عناد ، يرى ما بداخلها من (حواديت) .. ويحكيه للناس ، ويبتسم لابتسامتهم .. وماله .. ما أنا (محبوب الشمس) .. يقولها وفمه يلوك لقمة من رغيف القمح .

ليل الشتاء

ــ الصباح رباح يا سيد .

شد عليه الغطاء وفح من تحته :

ــ حاضر ياما .. حاضر .

أزاحت عن قدميها حرام الصوف وأبعدت « نوال » عن ركبتيها . بكت البنت فضربتها ببطن يدها :

ــ سد .. ولا النونو يعمل عمايلك .. شوفى البنات اللى فى سنك ..

قامت .. تحاملت وقامت ، واقتربت من سرير ابنها ــ أزاحت عن رأسه الغطاء وقبلته .

ــ الصباح رباح يا حبيبى .

زام ــ فقبلته من جديد .

ــ الصباح رباح .

لم تفعلها طيلة الخمس سنوات الماضية ، كانت تقضى كل حوائجها فى النهار ، وعندما تغرب الشمس تجلس على سريرها ، تلف قدميها بنصف الغطاء ، تحكى « لنعمة » « حدوتة » .. تقدم ركبتها « لنوال » فتنام عليها .. عندما يأتى

أبو سيد فى أخريات الليل كانت تكلمه من تحت الغطاء :

— الأكل عندك فى « النملية » إن كان ساقع سخنه .

تعودت وتعودوا. بلا شكوى ولا كلمة سوء .. « الروماتيزم » عذرها وكفاها أوجاعه .

لم يجبرها أحد على القيام لتقبل « سيد » ولتكرر له ما قالته على فراشها — لكنها — أدرى بابنها من كل الدنيا .. من كل الناس . التسعة شهور بين الضلوع ورضاع البز وفطام الحمص المعجون بالزبد وأعوامه التلتاشر كلها لم تغير منه شيئا ، لم تجعل منه صورة لأمه ، الكل يعلم بأنها : ناقة .. صبور .. حمالة حمول .. سماعة أسية ، سيد شيء وهى شيء آخر ، غاوى نكد وتعب قلب وراسه أنشف م الحجر .

هذا ما أكده زوجها أكثر من مرة :

— ياستى أنا غريب عن البلد دى .. لاأهل ولا حبايب .. ولدك لازم يعرف كده أنا مش قد حد .. بلاش أصرخ ياولية .. العلة منك .. والطب عندك .

العلة منها والطب عندها — هى أدرى بابنها من كل الدنيا .. دماغه ناشفة .. ولابد من أن تلين ، وهى تعرف أن قبلتها لن تحول رأسه إلى « إصبع ملبن » .

كما أن المشوار القصير من سريرها إلى بسرير « سيد » سيظل قصيرا إلى الأبد . رغم أنه طويل بسبب « الروماتيزم » وبحكم خمس سنوات من العادة — قصير وقصير جدا فى رأس سيد . رغم علمه بأنها تبذل فى نهارها الكثير من أجل تدفئة قدميها ، تجلس على السطح وتنتقل مع الشمس كاسحة الدوار بمقعدها ، كل هذا تطحنه دماغ « سيد » وتعجنه وتخبز منه كلمة كل يوم (بتعبى الشمس فى قزايز) .

زمان كان صغيرا ، عركت أذنه :

واد .. اياك أسمع منك الكلام دا تانى .

عندما شب أفهمته بأنها أمه :

احترم سن أمك وعياها يا « سيد » .

(اليوم .. فى الصباح) .. كانت الشمس موردة الخد ، غابت ثلاثة أيام وجاءت موردة الخد ، فى الشتاء : كثيرا ما تغيب الشمس وتعود . لكنها فى كل

مرة على ما رأت « زبيدة » — هذا الصباح — لم تكن بمثل هذه العافية ، كانت الشمس أنثى شابة نضرة كما لم تر « زبيدة » تلك الأنوثة وهذا الشباب وهذه النضرة . مرة واحدة فى عمرها .. مرة فى الأربعين عاما (منذ عشرين سنة فائتة . انطلقت فى بيتهم زغروتة غمزت أختها الكبرى بعينها .. جرت « زبيدة » . أغلقت باب حجرتها . كانوا يتحدثون فى الخارج : « بيشتغل عسكرى فى البندر » . فتحت الصندوق « أبو عروسة » وقبلت ما ببطنه : مناديل الرأس .. القماش المورد .. زجاجات الريحة .. أطباق الصينى ، وتناولت المرآة : كان وجهها فى حمرة شمس الصباح . كانت فرحة بمجىء العريس — عريس الميرى — مرتب حكومى لحم وخضار وشحم يغطى عودها النحيل .. كان خجل — فهى بنت وأختها غمزت .. كان كل شىء .. هذا وذاك كان على وجهها وعلى المرآة .. كان كل شىء .. هذا وذاك فى قلبها وعلى خد الشمس هذا الصباح) .

رجعت الكثير زمان بحلوه ومره ، عبت الكثير بقلبها وقدميها ، غرفت من الماضى حفنات شباب وسعادة وحرارة أحستها فى قدميها وساقها وقلبها .

ضحت بهذا وذاك وكل شىء وقامت ، هى أدرى بابنها من كل الدنيا ، لكى لا يطحن ويعجن ويخبز « سيد » كلام ليس بكلام كل يوم ، ليظل كلام كل يوم هو كلام كل يوم فما عادت تهتم .

لكن — سيظل المشوار بين سريرها وسرير « سيد » قصيرا قصيرا جدا . هذا وذاك وكل شىء سيطحنه ويعجنه ويخبزه « سيد » ليطعمها قلقا وعدم راحة . « لازم اعرف لازم يامه » ولد لحوح . وهى تعرف ابنها من دون الناس . لابد أن يعرف .. لابد أن تتعب هى — تقلق .. تطلع .. تنزل .. لكى يعرف ، ولكنها لاتعرف .. ولن يرحمها ويعفيها ما لاتعرفه من أن يعرف ، مايريد أن يعرفه .. لاتعرفه ولا يهمها أن تعرفه .

(منذ عشرين عاما انطلقت فى بيتهم زغروته .. غمزت أختها .. جرت .. توردت خدودها لأنها بنت .. لأن أختها غمزت .. لأنها فرحت به .. بأبيه — عسكرى فى البندر — مرتب حكومى .. لحم وخضار وسمنة تغطى جسمها النحيل .. لاتعرف أكثر من هذا ولا تريد) حتى عندما أصبح أبوه .. بشريط .. باثنين .. بثلاثة .. ببدلة صول .. لم تعرف ولا تريد حتى بعدما لم يأت الخضار واللحم .. لم تعرف ولا تريد .. لاتريد رغم أنها مازالت نحيلة بلا شحم ولا لحم .

ورغم هذا وذاك وكل شيء .. رغم أنها لاتعرف ولا تريد . كان أبوه يصرخ لم يرفع يده عليها طوال المعاشرة ولكنه كان يصرخ « يا ستى أنا غريب عن البلد دى .. لا أهل ولا أحباب .. ولدك لازم يعرف كده .. أنا مش قد حد .. مش قد حد .. بلاش أصرخ يا ولية العلة منك .. والطب عندك » ، لم تعرف مبررا لصراخ زوجها ، ابنها ولد ككل الأولاد ، يلعب ويخانق ويصاحب وليس فى هذا عيب .

و .. و « سيد » يعرف أن أباه قال هذا الكلام لأنه . لأنه مشغول بعمله ولا يقابله .. لأنه يأتى بعد أن ينام « سيد » . و « سيد » يعرف أن كلام أبوه له وليس لأمه ويعرف أن أمه لم تقل له كلام أبيه الذى هو له وليس لها . و « سيد » يعرف أن أباه يحل عقدة العقد لكل من هب ودب — ولكنه — لايقدر على حل مشاكل ابنه مع أهل البلد ، فهو « غريب عن البلد دى .. مش قد حد .. مش قد حد .. »

من هنا يريد « سيد » أن يعرف ، ومنها يريد أن يعرف . وهى لاتعرف ولا تريد .. لا تعرف لماذا أبوه « مش قد حد » ، ولا تعرف لماذا يخاف منه الناس فى البندر ولا يخافون منه فى « البلد دى » إلا أنه « مش البلد دى ؟؟ » .

(منذ عشرين سنة — يوم جاء — لعلعت فى بيتهم « زغروتة » .. غمزت أختها .. قالوا : بيشتغل عسكرى فى البندر .. الأساس من « إسنا » .. إسنا .. ؟؟ .. لم تسأل أين هى .. لاتعرف ولا تريد ، جاء « عريس » .. ما تعرف وما تريد . كانت بنتا وجاء عريس .. خضار ولحم وشحم يغطى جسمها النحيل) ما تعرف وما تريد ..

كان زوجها يسافر ويأتى فى نفس اليوم ، منذ زواجهما .. سافر مرة .. اثنين .. ثلاثا على الكثير — لكنه — كان يأتى فى نفس اليوم . المشوار لـ « إسنا » قصير .. زوجها يأتى فى نفس اليوم . كانت تعرف أنه يذهب لبلده « إسنا » لأهله . فلكل الناس أهل . لم تطلب منه مرة أن يأخذها معه وتأتى فى نفس اليوم ، المشوار قصير .. لم تسأله عن بلده وأهله . فهى تعرف أن ماتعرفه لا تسأل فيه .. بلدها « الكرنك » ففيه أهلها . وبلده « إسنا » وفيه أهله والمشوار بين البلدين لا يكلف أكثر من يوم . يزار فيه الأهل والأحباب لكنها لا تريد .

شكا أبو سيد .. صرخ .. زعق :

— أخوكى فاكر نفسه ابن عرب .. دا فلاح حتى مايسوى.. هو مش عارف انه من (البحاورة) يعنى وساخة الضفر .. فهميه يا ستى .. فهميه عشان ما يرفعش عينه لحاجبه .. فهميه .

كان زوجها ثائرا . وكذلك كان أخوها . كان نهارا أغبر وكانت حائرة . فهى تعرف أن هذا زوجها وذاك أخاها ، ولا أهمية عندها فى أن تعرف أسباب الخناق .

تحمس « سيد » لوالده — لولاها — لطال لسان الابن وفرى لحم خاله . شدته من قفاه وضربته على بطن كفه :
— واد .. الواحد بخاله وأبوه .. إخرس قطع لسانك .

(اليوم) .. كبر « سيد » وقال إن الحق مع خاله وان كان خالى م « البحاورة » فـ ده مش العيب كله .. العيب كله عنده هوه .. فيه يامّه .

عند أبيه . كبر الولد ويريد أن يعرف .. لاشىء يمنعه .. لا ضرب على بطن يده .. ولا إخرس .. ولا شىء سوى أن يعرف .
معها الليل طويل .. تحضن .. « الحِرام » الصوف وتفكر : ليل الشتاء طويل لكن له صباحا . صباح له شمس تهب قدميها الدفء . صباح غد ، لا ككل صباح .. صباح بشمس وكلمة لابد أن تقال ليعرف « سيد » يريد أن يعرف ، وهى تريد الدفء .. كلاهما يريد الشمس والصباح . و « سيد » نائم ومنتظر ومتأكد .. ويريد أن يعرف ، مع الشمس لابد أن يعرف — وهو يعرف — ولكنه منها يريد أن يعرف . وهى لا تريد الغد .. ولا الدفء بالغد .. ولا الشمس بالغد — ولو جاء بكنوز سليمان لرفسته بقدميها . فلا شىء يعدل راحة البال وغمضة العين . راحة البال وغمضة العين فى ليل الشتاء بالدنيا وما فيها ، رغم هذا وهذا .. ليل الشتاء . فليل الشتاء طويل .. طويل .. طويل — لكن — بعده صبحا .

فى الصباح تطلع الشمس .. تؤذن الديوك .. يأتى الدفء فيتسلل إلى قدميها .. تفركهما فتدب فيهما الحياة — تدب الحياة فى كل بيت فيتسلل الأولاد .. مع الأولاد « سيد » ولد ككل الأولاد .. يلعب .. يخانق .. يصاحب .. وليس فى هذا عيب . العيب يراه الأولاد .. ويراه « سيد » فهو ولد ككل الأولاد .

— العيب مش فى خالى ياما .. (البحاروة) ماينعابوش .. دول بس أغراب .. غربة مش م البلد انما أصلا .. الغربة مش عيب ياما .. العيب فـ .. فى أبويا .. أنا عايز أعرف .. عايز ... صحيح .. صحيح ياما العيب فيه ؟ لو طال الليل؟ لو طال وأكل الصباح وكل صباح لما عرف سيد .. لما جاء الدفء ليتسلل إلى قدميها وإلى كل البيوت ليتسلل الأولاد وتتسلل المتاعب إلى قلبها ، ما هربت منه طيلة حياتها .. تكوم .. تكوم .. ورسب على قلبها صقيعا لم تعرضه لحرارة النقاش مع زوجها أو أى واحد آخر ، ست بيت فى بيتها .. تحمى نفسها من كلمة هنا أو كلمة هناك .. ما تعرفه أنهم أولادها وفى العين « سيد ونعمة ونوال » .. وما تريده هو زوجها والبيت والأولاد . لكن عليها أن تعرف فوق ما تعرف وتريد فوق ما تريد لأن ابنها يريد أن يعرف ما هربت منه طيلة عمرها .

(منذ عشرين سنة — لعلعت فى بيتهم زغروتة .. غمزت أختها .. جرت ودخلت حجرتها .. كان وجهها فى حمرة شمس الصباح .. كانت فرحة بعريسها (العسكرى) عريس الميرى الذى سيحمل اللحم والخضاروسيغطى جسدها الضامر بأطنان الشحم .. كانت خجلة فهى بنت وأختها غمزت ، كان كل شيء — هذا وذاك — كان على وجهها وعلى المرآة ، كانوا فى الخارج يتحدثون .. وكانت فى الداخل تسمع — « بيشتغل عسكرى » .

دخلت بيته ولم تسأل .. (كان يذهب لأهله فى بلده ويأتى فى نفس اليوم ، كان يأتى بلا خضار ولا لحم ولكنه كان يأتى .. والأيام أتت بشريط على كتفه وبـ « سيد » البكر — لم تأت بالشحم ليغطى عودها النحيل ، صمتت وصمت نال شريطا آخر وأنجبت هى « نعمة » .. حتى البنت ولدت صامتة كأمها : « ناقة .. صبور .. حمالة حمول .. سماعة أسية » .. لكن أخاها لم يصمت — كان ثائرا هائجا — صرخ فى وجه زوجها : « عملتها يا بتاع إسنا .. شربنا المقلب وخلاص .. أنا لما بمشى بطاطى دماغى .. لاأنا م العرب عشان أقيم رأسى وسط الفلاحين .. ولا أنا م الفلاحين عشان أقيم دماغى وسط أهلى .. » صرخ زوجها — كان ثائرا أيضا : « يعنى إيه .. أختك معاك .. عايزها خدها .. أنا راجل فاهم نفسى .. أنا مطلعتش السما .. لا اتجوزت عربية ولا خدت فلاحة .. كنت عارف نفسى وعارفكم .. جمسا وبحاروة . إن كنت جمسى فأنت بحراوى فاكر نفسك ايه ؟

سكت أخوها وسكت زوجها وضربت هى « سيد » على بطن يده : « واد .. الواحد بخاله وأبوه .. إخرس قطع لسانك . »

سكت أخوها وسكت زوجها ولكن الأولاد فى الخارج لم يسكتوا ولسان « سيد » لم يقطع كله فى أبوه . خاله م البحاروة . (والبحاروة أغراب .. والغريب فى الكرنك بلا أهل ولا حسب .. مرور الأيام جمّل البنات (البحراويات) فى عين رجالات العرب وأبناء الفلاحين فكان النسب .. جرى الدم فى الدم لكن بنت العربى حرام ع البحراوى والفلاح .. وبنت الفلاح حرام ع البحراوى حلال للعربى .. وبنت البحراوى حلال للجميع عربيا كان أو فلاحا) .

لكن أخاها كان ثائرا صرخ فى وجه زوجها :« إنته جمسى .. جمسى .. أنا برىء منك ومن أولادك ليوم الدين .. ياراجل أطاطى راسى وسط أهلى .. دا حرام .. ياشيخ .. روح منك لله » .

صرخ زوجها . صرخ فى وجهها وهدأ : أخوكى لازم يعرف إنه وساخة تحت الضفر .. حمار يحط عليه الفلاح بردعة .. والعربى يركب ويهز رجليه .. مش أنا منظم الكون .. لا كنت عايزه بحراوى .. ولا كنت عايز أكون جمسى أهلى جمسة .. وأنا صول .. كنت عايز أكون صول .. وكنت .. »

(جاء الإمام .. قرأ « الفاتحة » ووضع يد زوجها فى يد أخيها وهدأت النفوس .. حمل الإمام البطة التى سمنتها لأنها حامل فى « نوال » .. أخذ الامام البطة وجاءت نوال « ونزفت » كيزان الدم ولم يعوضها مخلوق عن « حلة المرق » لكنها كانت راضية . لقد وضع الإمام اليد فى اليد وهدأت النفوس ..

— « تنكر أهل النبى له .. هاجر للمدينة .. وهاجر « البحاروة » إلى الكرنك . قابلوه بالدفوف فى المدينة .. وقابلت الرجال بنات « البحاروة » بالدفوف .. حياة النبى سيرة .. المهاجرون أهله .. وهم عرب الكرنك وأشراف قريش .. والأنصار أحبابه وهم أنصار المدينة وفلاحو الكرنك .. حياة النبى سيرة .. جاء القوم متأخرين .

— قال النبى : « جم مسا .. كانوا يسقون فى الخلاء وأدركهم المساء .. الجمسا عرب .. عرب .. وفى الدين مبتغى الجاهل .. »

أخذ الإمام البطة . وخلط السمن بالعسل .. هدأ زوجها .. وكذلك أخوها .

فى الصباح سيهدأ إبنها .. وتقول له :
— أبوك جمسى .. والجمسا يا ضنايا خيار الناس .. يشيلوا المية م النيل يسقوا الناس .. بس لما اتأخروا ع النبى . قال : « جم مسا » .. مكذبنى ياسيد اسأل الشيخ » .

لو قال الشيخ ما قال يوم أخذ البطة ؟.. لو لانت دماغ « سيد » الناشفة فتسللت كلمات الشيخ ؟.. ستترتاح .. سيبقى البيت والأولاد والزوج... سيبقى كل شىء كما كان .. كما كان وإلى الأبد ..

كل ما تخشاه .. أن تخيب شمس الصباح ظنونها — لكن — ليل الشتاء طويل، تحضن « حِرام » الصوف وتفكر : يوم جاء — منذ عشرين سنة — لعلعت فى بيتهم زغروتة .. غمزت أختها الكبرى ، جرت . أغلقت باب حجرتها .. كانوا يتحدثون فى الخارج .

قابيل الساعة الثانية

— لايهم .. سأكلمه .. نقرة على بابه وأدخل ، لتكن نقرتين ربما تضيع الأولى في دوامة الفكر ، تمام يا كمال نقرتان : ربما الرجل غارق فى الأسى حتى الأذن — الفجيعة .. الجحيم .. تطلعات الزواحف لدنيا السماء (سيد الأندية يتمرغ بوحل الاسماعيلية — الاسماعيلى يسحق الأهلى) دقات الحقد بصدر المجهول ، لطفا بالغد وزحف القدر .. ما أبشع وجه الصبح .

— لك الله يا سيدى المدير واللهم لاشماتة ولكنى متعب وفى حاجة إلى راحة .. يومين راحة .. يومين يا سيادة المدير لا أكثر ، ماذا ؟ حاجة العمل لا تسمح ، حالتى أيضا لا تسمح وللعمل حاجة لا تستقيم بمجهد .. مرهق والله العظيم (ستنز نفسك بالألم .. تجلد) .

والعرق لازمة الجهد الوقور : عليه اللعنة ، والمنديل : أف — نصيحة أبو المجد أفندى الباشكاتب :

— يا كمال يابنى انفض تراب الشارع قدام باب المصلحة ، وانت طالع خده فى رجلك .

(نصيحة عمْر يابنى .. مشاكلك ومعدتك لا يدخلان فى البند الحكومى ، الموظف منا حلقة بسلسلة البند .. طرفها فى السما ، اللى ينبح يتربص بيها ، والأخرس يفضل سايب وتترمى له اللقمة) .
(قرش الحكومة ياصغير لزوم القميص المكوى والجزمة الملمعة .. كلام لودنك .. المنديل لزوم الشطارة .. أسيبك بأه لحسنين أفندى ولعشر سنين خبرة) .

— معاك يا حسنين أفندى المنديل باليد ، وحبات العرق على الجبين ، والملفات فوق المكتب بإضافات الفهم العميق للعلاقات الاحترامية بينك وبين رئيس القلم .. معناه شغل .. سبع سنوات دارها أخوك الثور المعمى حول الدرجة التاسعة مع الشغل والنفاذ وبعدها آمنت بحقيقة ... إن السجن تأديب وتعليم ، مسحت الجوخ لثلاث سنوات فنلت الثامنة وقفزت السابعة بعلاوة .. افهم يا موظف يا غشيم لاهْرِس ودنك) — « تمام يا أخ عبد الستار » أذنى معك مهروسة من حسنين أفندى .. أى نعم وألف نعم .. (نثر حبات العرق على الجبين : فرض ، وسنته وجود منديل ، سقوط نقطة على الورق : يبطل « الصلاة » .. ما معناه ياسيدى .. نقطة على الورق تربط حرفا بآخر ، تلضم جزءا بكل — وهذا — باطل : بشريعة القانون — وحكمه : إرغام الحق على أن يتمسح بأعتاب المسئولية — لشهر .. لسنة .. لعمر كامل .. والعلم عند ربى .. وما أوتينا إلا قليلا ..)

— زنهار ومليون سلام للآدمى داخلك يا عبد الستار ، لك العقل يابو المجد أفندى .. وفهمك — عال العال .. المنديل : مشكلة العمر ، العرق : أزمة البقاء ، نقطة عرق : تفسد عمرا وتقيم حياة ؟؟ يا سلام ؟؟ كم نحن مهمون .. أهمية بندول الساعة وعقل الآدمى والحل للأزمة ..

— صباعى فى عينك يابو المجد أفندى ، ورقة من ملف حسنين أفندى تؤدى مهمة المنديل .. دورة السنوات العشر تساوى شيئا ، (حالة العمل لاتسمح ، تحفظ بالملف ، البند لا يسمح ، تعلى بالأمانات .)

— العرق سيجف تحت الجلد .. ست مراوح والجنة تحت أقدام المدير .. لتسقط الأهمية ومعها المنديل وورق الملفات تحت أقدام لاعبى الأهلى ..

سيجف عرق رجالة بلدنا تحت الجلد . محارة على شط النيل يا بلدنا .. قوقعة يا بيتنا .. على راسى يا بويا .. على عينى يا اخواتى .

— مجهد وتعبان يا سعادة المدير .. يومين راحة .. لا دخل للعمل .. والدى مريض من سنة .. دم مضغوط ضاغط يلهب صدره ، الكلمة أوقدها ووقرها الضغط ، سنابت لها مفاصل إخوتى، رشاد : سقط بالإعدادية .. عبد المنعم بدبلوم التجارة .. عواطف تزوجت من واحد فى سن أبويا ، غنى يا سعادة المدير .. غنى جدا . رغم كده رفضته .. ويمكن عشان كده .. الاهانة من فوق لكن بحدود ، الآدمية لا تباع ، قاموس الحياة البسيطة علم أبى ما علمته السنوات العشر لحسنين أفندى — (يا بنى أنا أدرى بشئون البيت وأحوال الدنيا .. البنت عار .. الشرف رغيف العيش . الستر واجب .. الكرامة دين ربنا وسنة نبينا .. اتنين جنيه من مرتبك توفر على أختك الجواز .. شاطر اعملها)

— شاطر يابا والبند أشطر .. الغربة مرار ، المرتب مستطيل حياتى وعقلى ، أنفاسى مكتومة وأحس بالاختناق .. فى حاجة إلى راحة .. يومين أجازة .. أشياء لا دخل لها بدخول باب المصلحة (رشاد : سقط بالإعدادى وعبد المنعم : بدبلوم التجارة وعواطف طلقت) .

— لابد من أن تباع مع الأرض يا أبى .. ماذا بعد — السن والفشل والربو والضغط والطلاق .. الكذب على الطبيب لتبلغ الصغيرة سن الحلال صدق طبيب القلب أنها تعيش من يومها خمس ساعات مع كوكب الشرق .. كتب وثيقة الله .. ليحرق البيت والأمان بكذبة ، كذابون ، عواطف : لازالت تحبو على أغنيات عبد الحليم حافظ ..

— يومين أجازة وسأحضر .. ماذا بعد — الربو .. الضغط .. الفشل .. الطلاق ؟؟ .. دموع عواطف !! سأمسحها (لندن ترعى صحة مطربنا الشاب .. دكتور شيلا للكبد ، تانر للمعدة ، هانت للرئتين ، فرجسون للكلى ، وجونز للجهاز الهضمى) .

— هانت يا أبى بشراك .. شبابك لا تغسله سيدة الطرب منيرة المهدية ..

أراهن بقرش كلانا لا يملكه بأن حليم سيغسل دموع عواطف ، الزمن .. هل فهمت !! .

— لم يعد يهم .. لابد من أن يباع مع الأرض .. كلاهما لم يعد يصلح : إخوتى تخاف مثلى يا سيادة المدير .. لا قدرة لهم على افراز العرق — ست مراوح تغنى عن منديل وتقتل العرق تحت الجلد !! يومين أجازة .. مرهق ولا حاجة بالعمل لى فلماذا لا يسمح ؟؟ السنة المالية على الأبواب ؟ .. لتدخل ؟ لتدخل معها مشكلتى إلى قلب العمل ، لتضع مبالغ بسيطة من حق بسطاء .. لا ذنب لى .. أ أنا المسيح ، ليحملوا صليبهم .. لماذا سكتوا كل هذا العمر ليعلقوا المشانق .. لتسقط رأسى ولن أخسر غير تفاهات العمر : اقرأ باسم ربك الذى خلق ... خمسة عشر مليما .. يا بلاش .. (شهر زاد فى عنق الزجاجة) .. (من علمنى حرفا صرت له عبدا) .. (أبو زيد الهلالى يقبل يد الزناتى خليفة) (.. شاطر الشطار رؤوف علوان يبلع الأمواس فى مؤتمر صحفى) . (الربيع أقصر فصول السنة) .. الفصل : مائة طالب .. السنبلة : مائة حبة .. والحبة صنعت منها الكلمة قبة — (إعدام ترزى لأنه سهى عن صنع جيوب للبنطلون) . مس الحقيقة بطرف الحقيقة مع التعمد لإفساد الجيل الصاعد (مظلوم والله العظيم ليعدم سقراط وكل حكماء الآخرة) لن ينجح رشاد أبدا ولا عبد المنعم ، يحبان الشيكولاتة أكثر من الدرس ، كل طلبة المدارس هكذا كذابون ، الكتاب بريال والقلم بخمسة قروش ، لن يروا النعمة أبدا .. رضا الأب من رضا الرب والغضب من نفس الغضب ..

— لم يعد يهم .. ليمت الآباء .. ليبيعوا .. ليرهنوا .. ليسرقوا .. وليفسحوا مكانا تحت الشمس لدلع رجالة بكرة ..

— كلام ينقصه العقل — (خليك معانا يا كمال يابنى تسند ضعفى تراعى إخواتك ، الأرض محتاجة لك ، الخير فى بطنها ودراعك) يا سلام .. دنيا .. ثلاث أفدنة مش شوية .. أبى سيد قريتنا (الفدان يدخل عشرين جنيه فى السنة ..)

— عقليات قديمة يا سعادة المدير (اترك الوظيفة) قالها ناقص العقل ، سبقه

الزمن بدورة ... لفة كاملة ، أنت عقلية قديمة يا سيادة المدير واعذرنى .. ولكن بفهم آخر ..

— ثمانون جنيها فى الشهر .. غيرك ايراده ألف ومش كفاية .. سبعة آلاف فقط هى الفرق بين دخل أم كلثوم وعبد الحليم .. على أيامك كل شىء برخص التراب .. اليوم يباع الآدمى بالتراب ، التطور يا مولاى .. عجلة الزمن طحنت ست الحسن والشاطر حسن وعقلة الصباع ، حكاية اليوم مشوار للقمر .. مشوار إجبارى للحصول على الرغيف الأبيض .. ناس كثير حتموت فى السكة .. نص الطابور يمكن .. واللى يوصل يا سعده .. العمل شرف .. نيشان على صدر صاحبه .. البيوت على خد النجوم .. المشاكل تغسل بضوء القمر .. مفيش حراس ع الجنة : اعفنى يا سعادة المدير من عم عبده الساعى .

— يا عم عبده افهمنى أنا داخل للمدير بأجازة .. مرهق وتعبان وفى حاجة ليومين راحة .. أزور البلد .. عطشان لشربة ماء من قلة تركتها أمى فوق السطح .. لفحها الهواء الحر .. باتت فى حضن النجم .. بداخلى حر شديد يا عم .. حريق .. العرق كالسيل يغمرنى وليس معى منديل .

— ست مراوح كفيلة بقتله تحت الجلد .؟ أنا لم أزعق يا سعادة المدير ... كل ما فى الأمر أنى مجهد وتعبان وعايز يومين أجازة .. يومين راحة .. عم عبده منعنى من الدخول .. لست مسئولا عن صخب الموظفين بالخارج .. لقد فسدت عقولهم .. جاءوا ليروا ماحدث بينى وبين عم عبده .. مناقشات لا تنتهى (عن الحرية والعدل والديمقراطية) .. أشياء لا دخل لها بالعمل .. أشياء بيننا .

— يومين أجازة لا أكثر .. عرق أغرق الحجرة !! وأتلف السجادة !!، ست مراوح كفيلة بقتله تحت الجلد ، الفصل شتاء ؟؟ لم أكن أعرف وشرف منصبك ، ثلاثة أشبار من العرق فوق السجادة ؟؟ ليس منى ، أخيرا فهمت : سرق عم عبده القُلّة من فوق السطح ، ربما سقطت منه فانكسرت ..

— تمام يا سيدى القاضى .. قله شغل قنا . لقد أخذ السيل كل شيء ، البيوت والأولاد ، ومدخر العمر من حكم الصالحين ، لكنه خلف طينة سخية ، برىء يا سيدى المستشار ، لست مسئولا عما حدث .. لا ذنب لى ، لقد أفصحت عما بصدر جهينة .. قلت له : سيدى المدير .. الماء يأتى من تحت .. والمسئول هو دلع الأسطوات ، هذا ليس سيلا جديدا يا سيدى .. والحقد يأتى من تحت . دلع أسطوات لا أكثر .. الرحمة لقد عودتهم على هذا ، فى بعض المصالح الأخرى يضربون بالشلوت .. ما بعد الدلع ؟ الجحيم وتطلعات الزواحف لدنيا السماء (الأسطوات ممتنعون عن العمل) (العمال يطالبون بأجر عن أيام الجمع) فساد عقول ومناقشات لا تنتهى (عن الحرية والعدل والديمقراطية) تلف الحنفيات والامتناع عن تصليحها هو المسئول الأول — هكذا أرى ، والمسئول الثانى فى صدرى ، لن أبوح حضرات الأطباء الأفاضل ، التشريح : لن يجدى شيئا ، لن تقرأوا — ما حفرته الأيام بصدرى — المسئول الثانى لن يحاكم أبدا .. القانون إن كان لى فعلىّ غيرى .. وان كان مع غيرى فعلىّ . لم يعد يهم — كل ما أبغيه يومين راحة . ليبتلع الجحيم كل شيء ولكننى متعب مجهد يا سيدى ... براءة .. شكرا ، ماذا ؟ براءة حتى الثانية بعد الظهر .

— يا سادة .. ياحضرات .. المدير خرج .؟ الساعة الثانية . الورقة بيضاء . لم يكتب الطلب بعد . بعض العزاء ورقة بيضاء كالثلج — شوف يا حسنين أفندى .. تعال يابو المجد أفندى — يا أرشيف يا قلم : أنا بكره مسافر البلد .. مش حعمل حاجة انما حسافر .. ح أسافر من غير ما أطلب أجازة . الورقة البيضة بتقول كده .. الحق يؤخذ ولا يعطى .. اقرأوها .. صحيح نضيفة — لكن فيها كلام كتير .. لابد أن تقرأوها فى داخلكم أولا .. اللى عايز حاجة يأخدها .. أيام جمع — أيام أحد .. أنا عايز يومين راحة .. حاخدهم ...

٣٥ البلتاجى
٥٢ عبدالخالق ثروت

من سبع سنوات بالتحديد ، جاء عباس دندراوى ليأخذ مكانه كموظف بالثامنة الكتابية بوزارة الإسكان والمرافق بالدور الرابع من المبنى ٥٢ شارع عبد الخالق ثروت ، فى بداية الشهر الأول لم يعرف له رأس من قدم : كان يجرى مع حاجة العمل « سبهلليا » لا ضابط ولا رابط .. يوما فى المستخدمين .. وأسبوعا فى الأرشيف .. وآخر فى الاستعلامات ، وما أن بلغ عم « زيد » صراف الخزينة سن المعاش حتى سلموه الخزينة ، وقد يكون لكلام السيد مبارك والسيد سعد مراد دخل .. ودخل كبير فى إعفائه من الخزنة ومسئولية الخزنة فيما بعد وقيامه بعمله الحالى كميقاتى لحضور الموظفين وانصرافهم ومدون لخطابات الصادر والوارد ..

الأيام ـــ فقط ـــ علمت عباس دندراوى أن عمله الحالى لا يقل مسئولية عن عمله السابق كصراف للخزنة .. وعلمته أيضا أن السيدين مبارك وسعد مراد لم يكونا حريصين على مصلحته يوم قالا : « عباس بن حلال وطيب ومستجد خدمة .. اللى يمسك الخزنة يا مفقود يا مولود .. ماترموش النار من حجركم على

حجر غيركم ، قطعا لم يكن الحرص دافعهما ــ ففى اليوم التالى لاستلام مبارك الخزنة . وقف فكرى أفندى لحظة بعد أن وقع إمضاء حضوره ــ قدم يمنى ساقيه وأخر اليسرى وفتح فمه وأغلقه وارتجف جسده جميعه مقلقلا النظارة فوق عينيه .. أسندها بكلتا يديه ومضى مهرولا نحو مكتبه بإدارة المستخدمين دون أن ينطق بحرف ، وفى موعد الانصراف وقع فكرى افندى وتمهل قليلا قبل أن يمضى .. كان أكثر ثباتا منه فى الصباح .. كلماته فقط التى سقطت من بين أسنانه المتهشمة فتهشمت :

ــ « هوه عباس أفندى .. قصبدى .. يعنى .. حياخد مواصلة .. واللا يعنى .. »

كانت حجة لفكرى ليكلم عباس . وعباس يعرف أنها دعوى لوليمة كلامية فى بطن السيد فكرى .. والحقيقة أن عباس كان تواقا لصلة صداقة تربطه بواحد من موظفى المصلحة . والحق أيضا أنه ما كان ليرضى بفكرى هذا الواحد .. ولكنه لزم الحرص والحرص كاملا عندما رد على فكرى :

ــ ح اركب م العتبة .

مشيا جنبا إلى جنب وبدا فكرى يومها ضئيلا كنملة .. قصيرا كفرقع لوز بجوار عباس الفاره القامة .. المفرهد الصدر ، ضحك فكرى بلا سبب وعاجل عباس :

ــ « اسمح لى انته ريفى يا أستاذ عباس .. ريفى خالص .. »

لم ينتظره ليرد أو يسترد دهشته . هجم هجوم الفجأة وانطلق يصب مدفعيته بلا توقف :

ــ يا راجل يدوك الخزنة تسيبها .. اللقمة فى بقك ترميها للكلاب تتعارك عليها .. وآخرتها تقع فى بق مبارك .. يا راجل والله الريفى ما يعمل عملتك .. مبارك ده جزمة قديمة .. سواء هوه أو سعد مراد ..

وكمن لمح شبه احتجاج فاندفع ليكتمه :

ــ حتقول ايه ؟ .. انته تسكت .. انته تعرف ايه فى المصلحة ؟ .. ولا حاجة طبعا .. الجاهل بالسكة يسأل أهل الحى .. والسؤال مش حرام والمعرفة مش ببلاش .. المهم .. اللى حصل حصل وأقول لك حاسب :. الأولى براءة والتانية عترة حمار والتالتة ثابتة ..

كانا قد وصلا محطة العتبة ، وكان أتوبيس «٥» قد فارقها وتبعه «١٥» وهما الوحيدان اللذان يوصلان عباس لبولاق الدكرور ، حيث يسكن المنزل ٣٥ شارع البلتاجى .. كان من الصعب عليه ان ينتظر مع هذا الفكرى ساعة كاملة حتى يأتى اتوبيس آخر من «٥» أو «١٥» .. فما أن لمح «٦١» يتحرك حتى عزم فى نفسه على أن يركبه ويهبط ميدان الدقى ويواصلها لبولاق مشيا أو يركب .. تحرك عباس خطوتين وقطع الأتوبيس مشوارا بينما يد فكرى تشده .

— مش بقولك انته غشيم .

وضحك ..

بصدأ الدخان والشاى على أسنانه المهشمة ورواسب البرد والعمر على صدره ضحك — كما صرير بوابة خربة ، تمنى عباس لو داسه بقدمه وبغيظه وبغيظ الشمس من فوقهما وبكل ما لم يحبه فى عمره .

— امبارح كنا فى قهوة الأمرا بالسيدة زينب .. أنا وسعد ومبارك وهلال أفندى بتاع الأوقاف .. اللى فى صندوق مبارك كشفه سعد مراد .. قال لمبارك : « بأه اسمع أنا مش عباس .. إضحك على غيرى أنا سعد مراد .. فاهم .. حرص على نفسك .. والله مارحمك يا مبارك .. اللى له مليم فوق المرتب ياخده . أنا بقولك أهه .. اشترى طوابع بوستة .. دولوقتى المتغطى بان .. فوق مرتب كل موظف مليم اتنين أربعة .. الصراف ما يديش تعريفه ويجيب العجز عنده .. اللى بيحصل كلنا بنسامح .. فى الآخر المليم يبقى قرش .. جنيه .. تلاتة .. مرتب ع المرتب .. فهمت يا ..

وضحك ..

كالظن .. كالشك .. كلعبة الوسواس الخناس .. يرقد فى الداخل ويتقلب ويتمطى .. فيصبح للكلام وجهان وللنية الحسنة طريقان وللوظيفة عمل بأجر لا حساب فيه لمشوار رجوع عباس وانتظاره بمحطة العتبة — وبعدها — حشر .. عرق .. رائحة أفواه تنتظر غسل الخبث بلقمة الغداء ، لا أجر للدور الأرضى بشقة الحاج محمود درويش أجره على عباس ومن مرتبه .. خمسة جنيها كاملات من اثنى عشر جنيها وستمائة مليم لا غير .. من المرتب الواحد ، فقد رفض عباس الريفى خالص .. الغشيم ألف مرة مرتبا فوق المرتب ، مرتبا ثانيا تركه لمبارك يوم ترك الخزنة .. وترك له ما علمته الأيام الآتيات .

قال عباس للحاج درويش :

— لو حد من الشارع رفع رجله يدخل الشقة .. عايز حديد للشبابيك ،

رد الحاج :

— اقفل الشباك ياسيدى ..

— الدنيا حر .

— الشتا ع الباب .

— ما هو الصيف برضه جاى ..

— لما ييجى الصيف أشترى لك مروحة على حسابى .

— مش ح أدفع الإيجار ..

— أطردك .

— القانون ويايا .

— نشوف ..

وشاف عباس .. لم يدفع الإيجار ثلاثة شهور فجاء « حجز التحفظ وبعده أمر الطرد » .. وتدخل أبناء الحلال أخيرا ففض الخلاف وأخذ درويش الإيجار ومصاريف المحامى ورسوم المحكمة وأتعاب المحضر .

أخذ الحاج درويش صاحب البيت إيجاره — بعد أن أخذ عباس طريقه « للسيد مبارك » صراف الخزانة مارا بالسيد « فكرى » واسطة الخير بينهما .

تكلم فكرى فى البداية متلجلجا .. شرح الأزمة وأكد للسيد مبارك أنه لا امل إلا عنده ، سكت مبارك ولكنه كان عمليا ، قال دون أن ينظر لفكرى :

— يلزمك كام ..؟

— ستة وعشرين جنيه ..

كالنائم أو المفكر قال مبارك : « احنا فى شهر تسعة يبقى باقى كام على شهر سبعة ، هيه .. تسع شهور .. لا عشرة ونبتدى السنة المالية الجديدة .. انته ويايا يا عباس افندى ؟ عشر شهور فى ثلاثة جنيه .. ستة وعشرين جنيه تاخدهم يا عباس افندى النهارده تردهم بعد عشر شهور بواقع تلاتة جنيه كل شهر — دول م السلفة يا عباس افندى يعنى الواحد لو انكشف يا رب استر .. استبينا ..

ورد عباس :

— استبينا .. استبينا .. استبينا ..

قالها لنفسه ألف مرة كالوِرْد بعد الصلاة . كأنها الهزيمة أبدا ـــ كأنها صلاة الدوام .. كأنه لا حل إلا أن يقتل نفسه أو يقتل الآخر أو يعالجه الموت فيموت وتموت « استبينا » معه .. ولكن عباس يريده حل دنيا .. يريده حلا سريعا لأنه قاتل ومقتول وميت من سبع سنوات ، عندما ترك الخزنة لمبارك غير عالم بأن الخزنة مرتب فوق المرتب لأنه غشيم وريفى خالص ، وأخيرا « استبينا » ، قاتل ومقتول وميت من سبع سنوات عندما رضى بهذا الجحر الأرضى بالمبنى « ٣٥ » شارع البلتاجى ملك الحاج محمود درويش الذى لا يثيره التلويح بالثوب الأحمر .

ـــ والقانون ويايا .
ـــ نشوف .

عباس قاتل ومقتول وميت من سبع سنوات يوم جاء ليأخذ مكانه كثامنة كتابية بالمبنى « ٥٢ » شارع عبد الخالق ثروت بوزارة الإسكان والمرافق ، يوم مشى مع فكرى حتى محطة العتبة ، يوم ضحك فكرى كالظن كالشك كالوسواس الخناس .. وسكن داخله متمددا على راحته ، يتمطى ويتثاءب ويتقلب على البراح عالما بكل سر حالا لكل إشكال .
ـــ مالك ؟.
ـــ صاحب البيت .
ـــ ماله ؟
ـــ الإيجار يا عباس افندى .
ـــ والتخفيض يا حاج درويش .
ـــ ارتضينا بيه يابنى دا القانون .
ـــ يعنى عايز أربعة جنيه وعشرة صاغ .
ـــ والمية يا عباس افندى ..نسيت .
ـــ عليك يا حاج .
ـــ فى الوسع بس يا بنى .. فى العقد مافيش حاجة من دى .
ـــ مش ح ادفع .
ـــ والقانون .
ـــ ويايا .
ـــ نشوف .
ونشوف عباس فكرى .. ويرد فكرى :

— تسكن جديد تدفع خلو ويارب تلاقى .. قولها يا عباس .. قول : استبينا .

ويقولها عباس :

— استبينا .

ولكن عباس يريده حلا سريعا .. حل دنيا — سيقول لفكرى :

— انت تسكن داخلى ولم تدفع خلوا ولا تدفع إيجارا وأنا أطردك والقانون معى ، لن أحتاج لك فى مرورى للخزنة حيث مبارك . مبارك عملى يعرف أنه لا وسيط ، قالها دون أن ينظر اليك : « عايز كام ؟ » . الإيجار سيدفع شهريا للحاج درويش دون تأخير حتى لا يكون هناك مبارك « واستبينا » .. والحج درويش صاحب بيت ومعه القانون ، ولكنه يؤجر بمقتضى مبلغ معين مقدما رضى به الطرفان الشقة الأرضية بالمبنى ٣٥ لعباس دندراوى الموظف بالإسكان والمرافق .

لهذا يحق لعباس دندراوى بعد سبع سنوات أن يقذف بالحل سريعا فى وجه العالم .

— يا شارع البلتاجى بسكانك جميعا .. أنت حر فى أن تقذف بماء الاستحمام فى الخامسة تماما من صباح كل جمعة وكل اثنين — ولكن يوم الجمعة إجازتى الأسبوعية ومن حقى أن أنام لأى وقت أشاء .. والقانون معى — ويوم الاثنين يوم عمل ، وعملى فى الثامنة تماما ولكن قبل أى موظف كميقاتى لحضور الموظفين — ولكن ليس فى الخامسة صباحا يا سكان شارع البلتاجى — أنا لا أدين أحدا منكم فالقانون معكم ومأذونه تم زواجكم شرعيا — أريدكم شهودى يا سكان شارع البلتاجى على هذا المدعى محمود درويش صاحب البيت ٣٥ .. يصحو فى الخامسة مدعيا أنه نداء الفجر من مسجد الحى .. ولكن ما ذنبى أنا فى أن يهبط درويش السلالم فيدق بحذائه الدرجات .. لا ذنب لى وليتآكل النعل .. أن يدفع درويش بالمفتاح فى القفل فى حركة سريعة فجائية محدثا فرقعة شبه مكتومة وإن كانت قوتها عشر زجاجات كوكاكولا تفتح مرة واحدة وفى نفس اللحظة .. ما ذنبى والأمر لا يكلف درويش سوى قطرات من الزيت على القفل والمفتاح .. ما ذنبى فى أن درويش أعمى البصر والبصيرة يخطو العتبة ويرفع قدمه ويدوس يوميا على كلبه النائم أمام بيته فيعوى الكلب

ويصرخ هو : اخرس نقضت وضوئى يا نجس .. داهية تاخدك ... ماذنبى فى أن لا يخرس الكلب ولا يدوس درويش .. أنتم شهودى يا سكان شارع البلتاجى فهذا « قلق » براحة السكان والقانون معى وسيركع أمامى درويش ويصلى فى محرابى ويقولها كما قلت له طوال سبع سنوات : « استبينا » .

— وأنت يا مبنى الإسكان والمرافق الكائن بالدور الرابع من المبنى ٥٢ عبد الخالق ثروت .. أمن حقك على عباس دندراوى ثامنة كتابية غير ساعات تبدأ من الثامنة صباحا حتى الثانية ظهرا .

لكن عباس دندراوى يصحو فى الخامسة ، اسمعوا لستم أذكياء .. ادفعوا له ايجار المسكن وسيسكن فى أهدأ حى ألا وهو حى « الزمالك » مطلقا شارع البلتاجى .. كما أن العمل يا ٥٢ عبد الخالق ثروت ينتهى فى الثانية والثلث وهذا من صميم عمله كميقاتى انصراف الموظفين .. غير أنه يقطع المسافة من مكان العمل إلى محطة العتبة حيث يركب « ٥ » أو « ١٥ » فى عشر دقائق عندما لا يكون هناك فكرى .. يضاف إليها ساعة كاملة عندما يكون هناك فلوس وفى حالة الانتظار أيضا — عند العجز عن حشر النفس مع العرق ورائحة الأفواه والخبث الذى لم تغسله لقمة الغداء .. بهذا يأخذ عباس دندراوى حقه حيث لا حاجة لمبارك مرورا بفكرى وبالخزنة وبمرتبها الذى فوق المرتب .

وكما يسير النائم أو المفكر .. سار مسيرته الكبرى صبيحة يوم الجمعة الموافق ٤ ديسمبر ووجهته قسم ثان جيزة .. وقلبه يرجف بهواجس السعد والنحس فى يوم الجمعة . دخل على الضابط النوبتجى وقال له :

— أنا القاتل .

نظر الضابط لعسكرى بشريطتين وقال له :

اكتب ، وقال :

— وياك أمانات .. ؟

ووضع على مكتب الضابط خمسة عشر قرشا ونصف ، وكتب الشرطى من واقع البطاقة الشخصية :

الاسم : عباس دندراوى .. الحالة الاجتماعية : أعزب .. السن : ٣١ سنة .. العمل : موظف كتابى بالاسكان والمرافق ٥٢ عبد الخالق ثروت .. السكن : ٣٥ شارع البلتاجى ..

وكتب الشرطى من (س) الضابط و(ج) عباس :

— لم قتلته ؟

— كان مشاكسا .. كان طوال سبع سنوات يلوح براية العصيان ويقول « القانون معى » .. وعندما ينهزم — يركع ويصلى ويتمتم بالوِرْد « استبينا » .. ولأنى لا أطيق الكلمة قتلتها فقتلته .

— الشهود ؟

— سكان شارع البلتاجى وعبد الخالق ثروت .

— أسماء ؟

— الحاج محمود درويش .. السيد فكرى .. السيد مبارك .. وربما السيد سعد مراد .

— اسم القتيل ؟

— عبأس دندراوى .

الثلاث ورقات

١ - الــولد

— كانت تظن أن ملابسها ..

أغلق الترانزستور وتشاغل بقضم اظافره ، خالس الرجل ونظر إليها : ضغط الإصبع فهب صوت المذيع :

— رياح شمالية شرقية تصحبها موجة باردة تستمر .

لم معطفه فى عجل وتابع السماع .

— اسبرو صديقك .. اسبرو رفيقك ، دس يده فى جيب معطفه وتحسس .. ومع كلمات المعلق انفرجت أساريره .

— الرشح .. الزكام .. نزلات البرد .. احذر عدوك .. باستعمال اسب ..

لم تكن بالعربة نافذة مفتوحة — أغلقها حال ركوبه بالشيش والقزاز ، ما بينهما — ما بين الشيش والقزاز — تسلل الخارج : رجال تروح .. رجال تجىء .. يخلفون البصمات .. الأبد لاصق بأرضية العربة والكراسى . وأعمدة نور قائمة كالرجال على طول الطريق : تلوح بالأذرع فينفر فى العروق الدم ، الأحمر

يلهب الثور ، والريح يلهبه الدم النافر فى عروق الرجال .

وما بين الشيش والقزاز تمتد أذرعتهم .. تطاردها ريح الشر فتنفر العروق ويطفر الدم .. ويهوى المضرب فتنتفش أكوام القطن — ليصبح كل شيء واضحا — عيون للقطن .. وذرات للهواء ... وبصمات بيضاء ميتة على الكراسى وأرضية العربة — ليبدو الكل واضحا — الزيت للطبخ والعلف لثيران الرجال .

فى محطة قنا توقف القطار وركب الرجل — قبله بما تحت اللحظة — ركبت المرأة وركب معها آخر ، لم ينتظر القطار كثيرا — سلم عليها مرافقها وفتح النافذة بعجل وسقط فى الخارج .

— يمكن تكون معاه عيشة .. قولى لعبد النبى مشتاقين .. اوعى .

غاب صوته وأغلقت هى الشباك بالشيش والقزاز ، وجلست « مصرية » قبالته ، ما أذهل « رجاء عمر هاشم » وجود الآخر ، متى .. كيف ؟ .. ما لا يدريه ، ما يعرفه أنه ركب قطار الشلال من محطة الأقصر ، ركب القطار واختار مكانه ولم يكن بالعربة غيره ، فى محطة قنا توقف القطار .. وركبت امرأة ، كان معها آخر وذهب .. ذهب تاركا شوقه لعيشة وعبد النبى — معرفا رجاء عمر هاشم لمصرية .. ذهب تاركا مصرية لرجاء ، لم يكن بالعربة سواه ، ما يدرى ، وما كان حقيقة ، ما كان بُالحالم .. هذا الرجل السمين القصير لم يكن موجودا ، ووجود هذا الرجل السمين القصير قلب كل شيء ، ورغم أنه لا شيء هناك — إلا أن وجود هذا السمين القصير ليس بالمريح ، عيون مطفأة فيها شيء — أى شيء — ربما تاجر غلال. ساعة جيب مدلاة على حائط صدره ، عباءة امبريال أصلى — هكذا يسمونها فى ريف الصعيد — وبهذا يعرفون مرتاح الحال ، وكما يقولون : جاك الشوم .. كالغيمة . كالمصيبة ، كالغائمة كان الرجل ، لم ينطق بكلمة .. بحرف والجائز والممكن .. إنه لم ينطق فى حياته كلمة واحدة — كما لم يناغ طفلا وإن داعب شاربه — وتلك قد تكون مهمته الأبدية ، رجل غامض كالسر ، خالس مؤلفه البوليسى وربما قتله — بضربة ساحقة من قدمه تطايرت ضلفتا الكتاب ثم تباعدتا فى صرير مخيف .. وانفتح باب القلعة .. واندفعت ريح

نتنة خبيثة عملاقة قذفت بالرجل إلى هنا : واحد من رجال شيكاغو لولا ملامح مصرية وعباءة نفضها والتف بها متمددا بطول المقعد مستندا إلى فخذيه كالكاتب المصرى القديم . قد يكون متخفيا ، كما قد لا تقوم لظنون « رجاء عمر هاشم » قائمة . عندما يسقط القناع يظهر الرجل ، قد لا تكون له بالمرأة صلة — عند هذه اللحظة يراها رجاء ويغرس عيونه فى تقاطيع مصرية ويفتش عن شى — أى شيء يمتص هذا الفراغ : صدأ النحاس وصداه يولولان بالفراغ فى الفراغ وتتلوى روحه ويمتلىء المنخر . ينحنى ويطبق على ما بين الكتف والعنق ويفرغ أنفاسه ويلقى بما فى منخريه .. وينشق ريح المرأة ، ريحا منداة مخلوطة بالعرق ، للأنثى .. لكلهن ريح منداة مخلوطة بالعرق ، طعمه لغز لم يحل بعد .. طعم لم يذقه .. غير الذى ذاق فى الكتب ، بلا زعاق معلن ولا مساومة بائع ولا دورات عشر حول سور الأزبكية — الجنس بلا أستاذ يفنده — من غير دفع ولا تقدم — سيتقدم — ينحنى ويغرس شفتيه ما بين الكتف والعنق .. ويتدفق الدم حاراً .. وتولول المرأة ... ويصحو الرجل ، يهب الشيطان : دراكيولا أيها الملعون ، يمد ذراعه ويجمع حقل ثوم فى حزمة — يسحق مابين كفين كحجر الطاحون .. حقل ثوم ، ويدفسهما ما بين فتحتى المنخر .. وينتفض جسد رجاء وتفارقه الروح ..و .. سعل الرجل . فانتفض رجاء .. ردت إليه روحه . لم ينظر إلى الرجل السمين القصير وما كان يجرؤ — كفاه آن روحه لم تفارق جسده ، يكفيه أن يسترد أنفساه . تمنى لو أدار الراديو . وأنطلق محلقاً فى سموات الست « ثومة » سابحا فى البعيد .. بعيدا عن الوجود .. عن الارض والناس وكل ماهو حى (طويل أو قصير) .. يبكى وينهنه على صدر الحنان .. على ألا يفرط فى عينيه — فبهما — يرى تيتى .. ولتيتى يعيش . كفاه ستة شهور عاشها بعيدا عنها . أقتلع من القاهرة قلب الحياة لينزرع فى الصعيد كملاحظ عمل .. ستة شهور كان فيها كالنبات الشوكى .. جذر قصير ولا ثمر . ملاحظ عمل بمصلحة الآثار . بلغة المصلحة « سواق أنفار » . رجال بعدد الحصى .. يرفعون المراوات ويضربون الأرض .. يحملون حفنات تراب من مكان لآخر .. فقط حفنات تراب وهذى مهمتهم .. يلقيها الرجل منهم وهو يلهث . بعد مشوار وآخر يغافله ويستلقى تحت ظل — ينشطر صدره إلى نصفين ويلهث .. ينهره رجاء فينوح كامرأة .. ويشكو حيث لا مبرر للشكوى .

— أصلى تعبان يابيه .. والله تعبان .. بلاش تخصم من اليومية .. أبوس رجلك .. دول ثلاثة وأمهم .. حبل فى رقبتى .

رجال حالهم هكذا لا يساقون ، ليسوا فى حاجة لمن يسوقهم ، ليسوا شيئا يفرض على رجاء كعمل ، يؤتى به من القاهرة للصعيد ليسوق هؤلاء ، عمل رجاء ليس بعمل ، لا قيمة فيه ستة شهور ، ياللقسوة يا للسفلة ، لم يفعل شرا فى مخلوق .. حتى هؤلاء .. لم يفعل شرا ليفرشوا له ثمانى ساعات بينه وبين القاهرة .. ثمانى ساعات كاملة عليه أن يقضيها فى قطار الشلال مع هذا الرجل السر وهذه المرأة ليصل إلى تيتى — كما قضى ستة شهور فى لاعمل .. يصحو فى السادسة صباحاً ..

يتناول إفطاره فى استراحة المصلحة مع المهندس ومفتش الآثار ، بعدها — يتمم على الأنفار .. أيام ويركب المهندس والمفتش العربة ويهبطان البر الغربى ، يبقيان لما بعد الظهر ، حسب طول الفترة التى يغيبانها أو قصرها .. يرجع هو ويأخذ حقه من النوم ، ومع الأنفار يترك « أحمد أبو مجاهد » هذا الأحمد أبو مجاهد كان يظنه غبياً ، ما أن يدير له ظهره حتى يجمع العمال حوله ويغنى بصوت قبيح وبالكره يسمعون .

(بقه انته يا زناتى عملت ع القوم فارس . حولت بر تونس خرايب . خلاص رجعت لك انا ابو زيد) لم يتركه مرة مع الأنفار إلا وبدأ من هنا وانتهى هنا . كانوا يسمعون غصبا فهو الذى يملك وحده قسرهم على العمل من بعده . ضربه مرة بالقلم فأحنى رأسه فى خزى .. وطعم هذا الخزى كان يحسه رجاء عندما يذهب المفتش والمهندس بالعربة إلى الأقصر — يقضيان الليل فى « ونتر بالاس » ويأتيان آخر الليل . المفتش الشيخ يستند على ذراع زوجته الشابة وزوجته الشابة تستند على ذراع المهندس الشاب . ولليل ستائر وحرمة « الله اعلم بما تحجب الجدران » كانت زوجة المفتش بطة برية .. تطير هنا وهناك وتطير العقل . حتى عقل رجاء طار وتمنى لو تسبح فى بركته . نسى تيتى وأهمل نساء كتبه تمنى لو مثلا معا هو وهى فيلم « الوسادة الخالية » .. أو (خذنى بعارى) — لكنها كانت شيئا آخر — حتى غير تيتى — غير تيتى بكثير . جهود الكوافير وحدها تستحق مرتب والد تيتى فى مصلحة البريد . كان وحده مع الأنفار . تيتى بالقاهرة وهى فى الجنينة على كرسى منامه — بنظارة وفستان بلا أكمام ومجلة فرنسية — على جبينها فراشات . وهو وحده مع رجال كأعواد الكبريت . يستندون تحت ظل ويلهثون تنشطر صدورهم إلى نصفين ويلهثون .. عندما ينهر رجاء واحدا منهم يبكى

كامرأة . ينوح ويشكو حيث لا مبرر للشكوى . رجال كهؤلاء لا يساقون .. رجال كهؤلاء لا نساء معهم . حتما فالنساء يعبدن الرجال والعافية .. من هنا لن ينظر رجاء لامرأة من حريم هؤلاء .. ومن الجائز أنه لو طلب منهم — من الجائز فهو قادر — لكن رجالا كهؤلاء لا نساء معهم . إما أن تكون معه امرأة وبينه وبين القاهرة ساعات يحركها قطار الشلال .. أن تكون معه امرأة وعربة بلا ركاب — إلا — هذا — ثالثهم — الغامض كالزوج — كالمجهول الخالد .

سبح بعينيه فى العربة متجنبا نظرات الرجل — جاهدا ألا يظن به نيات حسنة أو خبيثة فى العثور على المرأة . فوقه : لمبات خابية تهتز مع القطار .. ضوء أفرغ فيه الطبيب محقن الدم ، على الكراسى والأرضية : أصابع بيضاء ميتة بصمها الخارج متسللا من الشيش والقزاز ، حاول فتح شفتيه فأغلقهما الجفاف .. أطبقهما فتعثرتا فى الجفاف ، الداخل قرضته أسراب الجراد ، لا أخضر ولا يابس ، الراديو : لا أمل .. (كانت تظن .. ملابسها كانت بيضاء تظن .. اومو .. تايد .. ساعة تيتوس .. اسبرو يقتل الصداع) .. (هاء .. هاء .. هاء .. ويضحك الولد .. يستلقى على ظهره ، يلوك الأب كلماته .. يهرسها جيدا ويخرجها ممطوطة .. هع .. هع .. هع .. مالك يله ، يرد الولد : البدلة الجديدة يابا البدلة الشعبية ، يضحك الأب ويهرش بطنه .. رأسه : ألاّ فين هيه ياله ؟) ويقوم المتفرجون جميعهم ليذهبوا لشركة بيع المصنوعات ، ويقفل صاحب المقهى التليفزيون — هو حر .. ملكه — كل حر فيما يملك ، رجاء حر فى ان يقفل الراديو — ولكن الراديو يتكلم والمذيع لا يسكت والشاشة لا تنطفىء والتليفزيون يشع — والمسئول هذا الجالس قبالته — الرجل الغامض كالسر : غرس داخله بالمزراق وسأل كل شىء واختلط .. تركه تائها حائرا فى داخله .. لداخله ، بعد لحظة سيجن : يصرخ .. يزعق بعلو الحس .. ليس معقولا ان يجالس شانون ويأكل مع (الهارب من الأيام) ويتناول شريحة لحم من عظم دجاجة خلفها (عويس أبو ضب) — ليس معقولا — ألا يلين هذا الرجل قسماته ، سيصرخ فيه رجاء .. يصرخ فى الفراغ .. ينحنى للرجل .. يقبل قدميه .. يركع تحتهما (أرجوك .. من فضلك .. تكلم .. ابصق .. انطق .. كالمذيع تماما .. ليس مثله .. لم أقصد .. أعنى .. إياك إياه .. أنت هو .. هو أنت .)

٢ - (الشايب)

وقفوا بينه وبين ابنه (كالسد) الذى يسمونه (مركز قنا) واقسموا جميعا على (المصحف) إنه ضرورى وضرورى جدا وجود (مركز) بين (البندر) و (العاصمة) ــ لكنهم لا يفهمون .. يعرفون فقط ــ لهذا وقفوا فى وجه (القطار) الذاهب إلى (العاصمة) حيث ابنه (محمود) .

ــ ابعت له جواب يا أخى .

ــ بلدياته وياه فى السكن .

ــ يعنى لو كان هناك مشغولية .. بقليله واحد منهم يبعت جواب .

ــ نعم (عبد الصابر) و (الهادى النوالى) و (محمود الساكت) و (عبد الحكيم الرقاص) لا يفهمون .. فقط يعرفون .. كلامهم يقول ذلك .. والرجل كلمة ، هو لا ينكر أنهم يعرفون البيضة كما يعرفون الحجر ، كما يعرفون أيضا اللعب بالبيضة والحجر ــ لكنهم لا يفهمون أن الآبن ايضا بيضة وحجر ــ كما هو لعبة أبيه ، الابن بيضة « كاكا » لها الرحم .. قال الرحم « كاك » فمشت الحرارة كالدم الذى هو ماء فى جوف العيدان .. اشتعلت النار وغلا الماء واستوت البيضة ــ لمها الأب بين جوانحه وأعطاها دفء حياته ففقست الكتكوت .

والحق لقد كان ابنه « محمود » فى صغره كتكوتا .. يمشى بقدمين ، ويضرب بجناحين ويصوصو فى « الآه » و « الهيه » ..

ــ ماليش دعوة عايز بنطلون .. مفيش فلوس لكن عايز بنطلون .

ــ بابا جاب بنطلون هيه .. هيه .. هيه .

كلهم يعرفون ــ القرية كلها تعرف أن « مجاهد أبو دراع » علم ابنه فى مدارس « البندر » ــ أعطى ابنه الأرض ــ مع بداية كل عام كان يعطى ابنه فدانا ــ لم يبع ارضه ولكنه أعطاها لابنه ــ أعطاه العمر ليتعلم ، كانت السنة تمر على الأرض لتعطى المحصول ــ وكان « مجاهد أبو دراع » ينتظر المحصول ليعطى ابنه سنة جديدة ، وبجهود « مجاهد أبو دراع » يعيش ابنه « محمود » الآن فى العاصمة ليأخذ « الشهادة الكبيرة » . بعد الشهادة الكبيرة فقط يواصل ابنه الحياة .. وقد تتوقف،ومؤكد ستتوقف حياة « مجاهد أبو دراع » ــ

ويبقى محمود ابنه ليبحث عن البيضة .. ويخرج الكتكوت : بقدمين بجناحين بلون النجمة بلون الأرض بلون النيل بلون الغيمة ــ كما يفهم (محمود) سيكون « ابن محمود »... تماما كما يفهم « محمود » لكن « محمود » ابن « مجاهد أبو دراع » مازال يسير فى طريق الفهم ــ وللفهم دروب ــ وقد اختار « مجاهد » لابنه درب « الشهادة الكبيرة » وأمام « محمود » عامان كاملان ليصل إلى نهاية الدرب ويفتح الباب ويدخل الدار فيكاكى الأولاد .

ــ بابا جه .. بابا جاب .. باباعاد .

عامان كاملان ــ لا أحد فى القرية يعرف أنهما عامان كاملان ــ لا أحد غيره يفهم أنه سيعطى فدانين .. لكل عام فدان .. لا أحد يفهم أنه يجاهد ليعطى ابنه عامين .. فدانين .. فالفدان عام والعام فدان . لو قال هذا لقالوا « مجنون » لو عرفوا أنها نهايته وأنه يجاهد ليموت ويعيش ابنه ... لتفقس البيضة ويكاكى الكتكوت .. لكسروا البيضة ورموه بالحجر وصرخوا بالطول والعرض : مجنون ... مورستان .. خانكة .

ــ ابعت جواب له يا أخى .

ــ بلدياته وياه فى السكن .

ــ لو كان فيه مشغولية كان واحد منهم بعت جواب .

لقد أعطوا لمجاهد « الحجر فى يده ــ لكنهم لا يفهمون ــ كسر كل منهم بيضته ــ لكنهم لا يفهمون ، سيضربهم بالحجر الذى أعطوه ويصرخ بالطول والعرض (.. مجانين .. مورستانات .. خانكة) .

ــ ولدى « محمود » ماء ودم .. خمسة وعشرون سنة .. ماء ودم .. كتكوت فى بطن البيضة فى رحم الفرخة .. فقس بين ضلوعى منذ خمس وعشرين سنة .. كان بقدمين بجناحين وأصبح بجهودى رجلا بعد عامين سيقول الكلمة ــ الكلمة رجل . الآن فقط نبت له ما ينبت للرجال وما ينبت فى قدم السائر من نشع الأرض وشوك « الهلوك » .. فى الجفاف طفولة طفولة الرجل ــ صباحه الذى طلعت شمسه منذ لحظة ــ تتبعها لحظات .. دقائق .. ساعات .. يوم .. سنة .. خطوة فى الطريق إلى باب الدار ويكاكى الأولاد (بابا جاب بطيخة .. البطيخة طلعت حمرة .. بابا ادانى شريحة .. الشريحة طلعت حلوة .. هيه هيه ..)

خمسة وعشرون عاما . قضى فى البندر عشرة أعوام وفى العاصمة ثلاثة ـــ والباق اثنان .. تلتاشر سنة بتلتاشر فدان . ولكى يقابل ابنه لابد من أن يسير « مجاهد » تلتاشر سنة .. تلتاشر فدان ـــ وتكون المقابلة ـــ بعد أن يفور الدم والماء تحت النار فتتشقق القدم .. ومن الشق يبرز « الهلوك » صلب الأشواك . من صدر « محمود » يبرز شعر الرجل وينغرز فى صدر « مجاهد أبو دراع » ومن ذقن ابنه من عرضها وطولها الذى هو خمس وعشرون سنة يبرز (الرجل) وتسرى الحرارة فى الأعواد وتلتهم النار المحصول ـــ ويفور الماء ويفور الدم ، هنا فقط سيطمئن « مجاهد » على ابنه محمود ـــ عندما يتنفس ابنه (الحرارة والماء والدم) ـــ سيفهم أن ابنه (حى) لم يمت ، سيتأكد أنه لم يبع (تلتاشر فدان) .

وليتهم يفهمون ـــ ولكنهم يعرفون فقط ـــ أبدا لن يفهموا أنْ السنة فدان وأن الفدان سنة والبيضة كتكوت والولد كتكوت .

ويقسم « مجاهد ابو دراع » أن أهالى « بندر قنا .. مركز قنا .. محافظة قنا » يعرفون فقط ولا يفهمون ـــ لذلك فهم (مجانين .. مورستانات .. خانكة) يعرفون البيضة والحجر ويلعبون أيضا بالبيضة والحجر .

٣ - (البنـــت)

ـــ فى بنى سويف تلاقيه منتظرك .

عبد النبى مستنظر .. فى الايد حبل وفى العبّ سكين ، اليوم .. يجى والساعة تجرى ، والقمرة تطل وتغيب ، والعجلات تدور وتنشال وتنحط .. وتنشال بلاد وتنحط ، والقطر يا مصرية يشيلك من قنا ويرميكى فى بنى سويف .. يرميكى للظن (لعبد النبى) ، أخوكى ، ابن أملك وأبوكى منتظرك : زى الوعد .. كلمة البلد جواه ، اللى ما يساوى كلمته فى عب عبد النبى .. وعين عبد النبى فى التراب وفى التراب حكايتك وعلى التراب خطاوى الناس .

— والحرام حد قده .
— الستر يارب .
والقطر شايل تراب قنا فى عجله .. والتراب على كتفك وريحته جواكى .
— يمكن تكون معاه عيشة .
« يمكن ويمكن .. يارب .. ياعبد .. قلبك يا عبد ع العبد هين .. وأنا مصرية بنت أم مصرية عبدتك يا عيشة .. الستر يا عيشة .. أخ يا عيشة لو طمس المسطور قلبك .. وعملتى ودن من طين وودن من عجين .. لو قفلتى قلبك بمليون ضبة والف مفتاح » .
— قولى لعبد النبى مشتاقين .
« وأنا مشتاقة لعبد النبى .. أخويا مشتاقة له .. ومشتاقة لعيشة .. مشتاقة لكم تنهشونى وترموا العيب من جواى .. ارتاح .. ترتاحوا .. مش ابنى .. دا كلمة الناس فى عبى .. كلمة بتجرى جوايا » (مالت الشفايف على الودان وهمست .. وشوش الزرع بعضه .. ونزل الليل .. البلد كلها طرحة سودة وكلمة سودة .. البنات سبلوا رموشهم .. والرجال صبغوا عمايمهم » .
— والحرام حد كده
— الستر ع الولايا يارب .
— واحنا مالنا .. كل غراب ينعق على خراب عشه ..
« .. ح احميك . اقفل ودنى ولا أسمع .. نن عينى انت .. ضنايا حبيبى .. أصونك فى بطنى وتكبر مع كلمتهم .. وتشق بطنى وتطلع .. يقابلك الليل الأسود والكلمة السودة (الانس نايم والجن صاحى — قدام باب الدار عوى الكلب .. اتكوم ع الفرش . جنبى .. عوى .. قلت : لا .. لا .. لا .. قفل ودنه وخرس لسانى .. زام .. وزام الكلب بره الدار .. زام وهمد .. وهمدت أنا .. عينى فى الأرض ، وعلى الأرض دمعتين .. وعلى الخد دمعتين .. شهر .. التانى .. التالت .. واسودت الكلمة ... رميت اللقمة .. (حتة بسبوسة) .. غصب عنى اديت البراح .. عايزاك يا ضنايا .. لو عشت تعيش .. لكن للحيطان ودان .. والنجم « فتان » .. والكلمة يأخدها البق ويسلمها « لبق » والنجم سيار يجرى مع القطر ويقول لعبد النبى :
— من قنا جاتك مصرية .. وفى بنى سويف انتظرها .. انتظرها يا عبد النبى بالحبل والسكين ، وتعالى يا بنى سويف .. مشتاقة لأخويا .. مشتاقة .

إمضاء المؤلف

ثلاث شجرات كبيرة تثمر برتقالاً

— ماما .

خرجت الأم ، أمام الخيمة وقفت :

— عين ماما .

كررت عزة فى ضيق ودلع وكأن لم تسمع :

— ما .. ما .

وشىء ما أيضاً فى صوتها حزين .

(قالت الأم لنفسها)

هى مسافة قصيرة — تفصل بين الابنة والأم — مشتها الأم وصارت فوق رأس ابنتها ، كانت الطفلة قد عرت ساقيها بأن رفعتهما إلى أعلى وقد نامت على بطنها ملتصقة بالرمل الدافىء مستندة بكوعها على الرمل الدافىء ، وقد أراحت ذقنها على كفيها . حبات رمل حملتها الريح وانتثرت فوق شعر الطفلة ، حبات الرمل بدت لامعة تحت الشمس وكذلك شعر الطفلة بدا لامعا .

— صغيرتى حلوة .. هى رائعة ابنتى .. عروسة تصير .. تلبس الأبيض .. ناعم وخفيف .. عريس لعزة سيكون (قالت الأم لنفسها) — وقالت :

— وبيت لها سيكون .

ونظـرت الى ما وراء الأسلاك وقـالت :
وكرمة لها ستكون .
— ماما : الآن قولى له أن يحضر .
— ماما : أريد برتقالا .
— أريد برتقالا وأريد بابا جاسم يا ماما

(كانت عزة تنادى جاسم أخاها : بپابا ، مات حمد والد الطفلة منذ ست سنوات .. كان عمر عزة وقت ذاك : شهر ونصف شهر ويوم بليلة ونهار ، مات حمد ، فى هذه الخيمة التى تسكنها الأم والابنة .. كان جسده باردا وشمعيا ومتصلبا .. كان قد مات . كان داخل الخيمة ممددا على الحصير .. ميتا (قالت الأم للرجال وهم يحفرون الرمل : كذب .. كذب .. لقد مات من الجوع .. لو وجد الطبيب لما مات (رجل افرنجى كان موجودا وعلى كتفه شارة غوث اللاجئين ، كان يبدو أنه حزين وخجل (صرخت : لماذا لايموت الآدمى من الجوع !! الآدمى يموت من الجوع) هناك فى يافا كان قويا .. قويا كان ، كان يثور وكانوا يسمونه هناك فى يافا : البحر .. وهناك أيضا كانوا يسمونه : الليل .. كان يضحك للنكتة .. ودائما كان يبتسم لها فى يافا .. وكان سعيدا ... الغرباء من كل بلد جاءوا .. ومازالوا هناك الغرباء .. وهو جاء إلى هنا ومات .. غريبا مات ، الأنف والحاجب والحول الخفيف كل ما بقى من حمد فى جاسم ابنها وابن حمد) .

زعقت الطفلة وقذفت فى الهواء الساخن كفا مملوءة بالرمل الساخن :
— أين هو يا ماما .. لقد تأخر .. لقد غاب كثيرا يا ماما ؟
قالت الأم :
— هناك .
وأشارت بيدها وراء الأسلاك
— هناك .
(هذه المرة كانت تكرر لنفسها وتؤكد)
قالت الطفلة :
— لماذا هو هناك ؟
لأن الغرباء هناك .. لأنهم من هناك يجب أن يخرجوا ليحضر هو إلى هنا ويأخذنا إلى هناك .
(قالت الأم) :

وثبت الطفلة واقفة ، عادت وركعت على ركبتيها .. القت برأسها إلى الخلف وأعادته بحركة جديدة وظلت تنظر إلى هناك .. إلى ما وراء الأسلاك ، ورددت فى همس :

— من هناك يجب أن يعود ليأخذنا من هنا .

— ماما .. يجب أن يعود من هناك ويأخذنا إلى هناك .

قالت الأم :

— يجب أن يخرجوا من هناك ليحضر هو إلى هنا ويأخذنا إلى هناك

وقالت :

— أحدنا هناك يجب أن يكون .. أن نكون نحن هم لا يكونون .

ارتمت الطفلة فى حجر أمها التى جلست .. ضمتها إلى صدرها وظلت تضغط ، تململت الطفلة ولذ للأم أن تثير عنادها فظلت تضغط ، كانت الطفلة تحاول التخلص دون جدوى .. وفازت به بعد أن أوهمتها الأم بأنها قد غلبت على أمرها ، ظلت الطفلة تضرب فخذ أمها بكلتا يديها :

— من هناك يخرجون .. هناك بابا جاسم .. من هناك إلى هنا يعود بابا جاسم .. ويأخذنا إلى هناك ..

وقالت :

— ماما .. أنا أحب بابا جاسم .. بابا جاسم سيأخذنا من هنا إلى هناك

قالت الأم :

— بعد أن يخرجوا .. بابا جاسم يأتى ويأخذنا معه .. أنا وأنت .

قالت الطفلة متسائلة :

— برتقالا يحضر معه .. أنا أحب البرتقال يا ماما .. برتقالا لأجلى يجب أن يحضر .

أجابت الأم :

— هناك لنا ثلاث شجرات تثمر برتقالا .

تساءلت الطفلة :

— كبيرة هى الثلاث شجرات يا ماما ؟؟

أجابت الأم :

— نعم كبيرة .. كبيرة .

ورسمت بذراعيها فى الفضاء حجم الشجرات وقالت :

— هكذا كبيرة .

قالت الطفلة :

— وتحت شجرات البرتقال أنام يا ماما ؟؟

— نعم تنامين تحت ثلاث شجرات من البرتقال كبيرة .

— وآكل برتقالا كثيرا !!

— وبرتقالا كثيرا يا غاليتى تأكلين .

— أنا أقدر أن أطلع شجرة برتقال كبيرة .

— لا .. شجر البرتقال لن تطلعى .

— لا .. ولكننى سأطلع شجرات البرتقال .. ثلاث شجرات كبيرة أطلع

— صغيرة أنت .. ولا يجب أن تطلعى شجرة البرتقال لأنها كبيرة تكون

— لن أكون صغيرة .

— نعم صغيرة لن تكونى .

* * *

من جديد لمت الأم ابنتها وغطتها بذراعيها ، قالت :

— كبيرة تصيرين .. وكبيرة تذهبين إلى السوق .. تحملين الخضار لبيتنا .. هناك لنا سوق .. لفلسطين أسواق كثيرة .. ببلدتنا سوق كبيرة .. أنا صرت عجوزا .. أنت تقومين بكل أعمال البيت .. تنامين على سرير بمفردك .. لن تنامى معى .. ستكونين كبيرة .. لى سرير ولك سرير .. سيكون لسريرك ملاءة بيضاء وكذلك لسريرى ملاءة بيضاء ...

قالت الطفلة معترضة :

— ملاءة خضراء يا ماما .

وافقت الأم :

— بسوق بلدتنا ملاءات خضراء .

قالت الطفلة فى فرح :

— وثياب خضراء يا ماما !!

قالت الأم منساقة ومشجعة لفرحة ابنتها :

— فى بلدتنا سوق به ثياب خضراء .. وحمراء وصفراء .

قالت الطفلة :

— خضراء وحمراء يا ماما !!

غنت الأم وهى تصفق الواحدة :

خضراء خضراء
وصفراء أيضا وحمراء
خضراء وحمراء
صفراء وخضراء

ورددت الطفلة مع أمها .. وغنتا معا :

صفراء وخضراء
ثياب صفراء
ثياب خضراء
خضراء وحمراء

قالت الأم :

— لعرسك أصنع كعكة كبيرة .

ردت الصغيرة :

— حمراء تكون .. الكعكة الكبيرة حمراء تكون .

قالت الأم :

— وعلى الكعكة أنثر حبات اللوز ،

قالت الصغيرة :

— صفراء وحمراء .

— والفسدق حبات حبات .

قالت الطفلة :

— صفراء وخضراء .. حمراء وصفراء .

قالت الأم :

— والبندق .

قالت الصغيرة :

— أخضر سيكون .. أحمر سيكون .. أصفر سيكون .

— قالت الأم تصحح وضعا خاطئا :

— أحمر يكون .. وأصفر سيكون

ردت الطفلة فى سرعة وهى تستدرك الخطأ :

— أحمر سيكون .. أصفر سيكون .

قالت الأم :

— عوينات الجمل على الفطيرة ستنام .. حبات كبيرة .. وكثيرة ستكون .
صفقت الصغيرة :
— خضراء وحمراء يا ماما .
قالت الأم تسأل :
— أم طيبة أنا ؟
قالت الطفلة :
— طيبة أنت يا ماما .
قالت الأم :
— عجوز وطيبة أنا .
أجابت الطفلة :
— عجوز انت وطيبة أنت يا ماما .
قالت الأم :
— ولى بنت طيبة وصغيرة .. حلوة وصغيرة .
قالت الصغيرة :
— طيبة أنا .. طيبة وصغيرة .
قاطعتها الأم :
— أنت حلوة وطيبة .. صغيرة لن تكونى .
قالت الطفلة :
— كبيرة أكون .. كبيرة وحلوة .
قالت الأم :
— ستغسلين كل الملابس .
قالت الصغيرة :
— كل الملابس .
قالت الأم :
— الخضراء والحمراء وكذا الصفراء .
قالت الصغيرة :
— الخضراء والحمراء .. وكذا الصفراء .. والحمراء والصفراء .

* * *

كانت الطفلة قد نامت ، كانت تبتسم فى الحلم ، وفى الحلم كانت الشمس الحمراء تقذف الرمال الصفراء بالظلال الحمراء .. كانت الرمال حمراء وكذا التلال ، وكانت هناك مياه حمراء وثياب حمراء وطيور حمراء كثيرة لها أجنحة حمراء ترف فى الفضاء الأحمر ثم تهبط لتلتقط بمناقيرها الحمراء أشياء حمراء .. كانت هناك أشياء كثيرة حمراء تهبط من أجلها الطيور وترف وتطير بأجنحة حمراء فى الفضاء الأحمر الأحمر ..

* * *

كان الليل قد جاء ودخل الخيمة ، وكانت الريح بالخارج تضرب بالخيمة بالرمل ، ورائحة ليل يافا المحمل بالعطر تفتحت عنه أزهار البرتقال وملأت به الجو .

ومن مكان ما بالخيمة ــ لا يمكن للأم أن تراه : رغم الضوء الذى اقتحم به القمر الخيمة أيضا ــ كانت هناك أنفاس شخص ثالث ..

همست :

ــ حمد ..

وحدثت نفسها :

ــ هو حمد .. أتى كالعادة فى الأوان ، وقت يغطى الزهر الأبيض أشجار البرتقال هناك فى يافا ويفوح العطر هناك فى يافا ويأتى الليل والريح من هناك من يافا يأتى حمد قويا كما كان فى يافا .. أنفاسه القوية أحس .. هى أنفاسه قوية كما كان .. ودائما فى هذا الأوان معى ومع عزة داخل الخيمة يكونان .. حمد وجاسم ..

وزعقت :

ــ حمد ..

ولم تسمعه يرد (هناك يسمونه البحر وأحيانا بالليل كانوا يسمونه هناك .. وهنا مات .. فى هذه الخيمة .. غريبا دفن .. من يافا يأتى ليلا ومعه رائحة أزهار البرتقال وأنفاسه قوية يطلقها)

زعقت :

ــ البحر .

فقط أنفاسه كانت تسمع وأنفاس عزة ابنتيهما ، كلمت نفسها :

— فى هذا الأوان حيث العطر به زهر البرتقال قد تفتح وجاء به الليل والريح من يافا إلى هنا حيث هذه الخيمة .. دائما فى هذا الأوان يجىء حمد كما تعود .. ويجىء جاسم من مصر كما تعود .. وهنا يكون ، جاسم ولدى : منذ زمان تعلمت القراءة .. ومع كل عام يتفتح فيه زهر البرتقال كنت تأتى إلى هنا من مصر ومنك كانت تصل المكاتيب !

جاسم ولدى : من هناك من مصر تعال وإلى يافا اذهب حيث بيتنا والعدو يكون تواجهه بالسلاح وتضرب وتضرب ومن مصر تأخذ سلاحا وتضرب وتضرب وتضرب وهناك فى يافا لا يصيرون ... ومن هناك تأتى وتأخذنا إلى يافا حيث بيتنا يكون والغريب لا يكون وثلاث شجرات من البرتقال لنا تكون .

* * *

قالت الأم : تفتح الزهر ورائحته أشم .. جاء الليل .. أيام كثيرة .. ولم يجىء جاسم وهذا موعده ؟! نسوة الخيام رددن : لماذا جاسم ؟ إن أحدا لم يحضر ! زهر البرتقال بالعطر قد تفتح والطيب يأتى به الليل من يافا نشمه .. والغائبون عنا — عيوننا التى بها ننظر — بالسلاح هناك يضربون والغرباء يفزعهم السلاح وصراخا تسمع .. بالغداة فى بيوتنا سنبتهج ، قالت الأم تكلم نفسها : سالما يعود . وبيتنا هناك فى يافا يدخل .. يجد الغرباء فى بيت حمد الذى كان رجلا بألف (كان البحر .. وكان الليل هنا فى يافا .. شارب كثيف كان له .. وحواجب كثيفة كانت له .. وعلى الصدر كان شعر غزير ، بإحدى عينيه كان حول خفيف .. كان جفنه ينغلق عندما يغضب — ويظهر الحول واضحا .. وواضحا كانت تراه وقت أن يغضب .. عندما يغلق جفنه يظهر حول خفيف .. كانت تراه وقت أن يغضب) .

قالت الأم : وقت أن يغضب جاسم يشبع عدوه رصاصا وخوفا وموتا يشبعه .

وقالت تحدث جاسم : استمع لصوت دعائى ياملكى .. اصغ لى يا جاسم .. تأمل صراخى .. إليك أصلى .. جاسم أوجه صلاتى نحوك وأنتظر .. يا جاسم بالغداة تسمع صوتى .. بالغداة أبتهج ببيتى وشجراتى وبك يا ملكى .

وكانت تحدث عزة النائمة وهى تهمس :

من هناك إلى هنا يعود وإلى هناك يأخذنا أنا وأنت .. وإلى بيتنا فى يافا حيث يبتهج القلب نغنى — أنا وأنت : للغنم .. والبقر جميعا وبهائم البر أيضا .. وطيور السماء .. وسمك البحر السالك فى كل المياه ...

وخلعت غطاء رأسها وفكت ضفائرها — قالت : لماذا تختفى فى أزمنة الضيق ؟ لماذا تقف بعيدا !! قم يارب .. يا الله ارفع يدك .. ارفع أحبابنا من أبواب الموت يحترق الشرير بكبريائه .. يؤخذ بالمؤامرة التى فكر بها — لأن الشرير يفتخر بشهوات نفسه .. والخاطف يجدف .. إليست أحكامك عالية فوقه !! عدوى موتا يشبع وتشريدا وقتلا .. قتلة هم يا إلهى .. فى أرضنا فى أرض زوجاتهم لا يحرثون .. ذرية لا يحصدون .. بقدر ما حرثنا والذى زرعنا نحصد .. ذرية وزيتونا وبرتقالا نحصد ومن كل طيب نحصد .. وأعراسا نحصد يا إلهى نحن .. نحن نسلك بالكمال ونعمل بالحق ونتكلم بالصدق فى قلوبنا ولا نشى باللسان ولا نصنع شرا بصاحبنا .. وفضتنا لا نعطيها بالربا والرشوة لا نأخذها على البرىء ..

وقالت : قم يارب بغضبك — ارتفع على سخط مُضايقى وإنتبه لى : تقدمه .. اصرعه .. نج نفسى من الشرير — من ينزل فى مسكنك .. من يسكن فى جبل قدسك .. واقض لى كحقى يبتهج قلبى وأغنى — وهمست : لفجر كهذا الفجر الذى أراه : يدخل بالضوء الفضى .. طاهرا ونقيا كحقى .. كيافا .. الحق طاهر والفجر نقى كحقى كيافا .. وكذا القلب منا طاهر والحق والعدل نحن .. ألسنا كذلك يا الهى ؟.. ألسنا كذلك حيث جلالك فوق السموات أيها الرب سيدنا .. ياالهى ألم يكن البحر !! ألم يكن الليل !! وكان قويا وكان شعر كثيف وكان .. كان يبتسم .. كان سعيدا .. فى يافا .. فى يافا ..

— ماما .

زعقت عزة .. كانت قد صحت وكانت فزعة .. سكتت الأم واحتضنت طفلتها

قالت الطفلة : ساخنة أنت يا ماما .

قالت الأم : نعم .

قالت عزة : أنت لم تنامى .

قالت الأم : نعم .

قالت عزة : أنا أعرف لماذا .

قالت الأم : نعم أنت تعرفين .

قالت عزة : كنت تكلمينه أنا أعرف .

قالت الأم : نعم كنت أكلمه .

قالت الطفلة : كنت تطلبين منه أن يحضر إلى هنا .. أنا أعرف

قالت الأم : لقد طلبت منه أن يحضر .

قالت الطفلة : ماما .. برتقالا معه لأجلي سيحضر .

قالت الأم ساهمة شارقة إلى الضوء يملأ صحراء الخارج :

هنالك لنا ثلاث شجرات كبيرة تثمر ..

الدف والصندوق

لا تمض أبداً ، أيها الصديق من هذه الجهة للمدن حيث الشيوخ ينسجون لك ذات يوم قش الأكاليل ، لا المجد ولا القوة يترنحان إلا فى ذروة القلب البشرى .

« ضيقة هي المراكب ـــ سان جون بيرس »

المهر

تحت النخلات الثلاث ـــ كعفاريت الجن ، كان يرقب الطريق، تفصله ـــ ترعة الدم ، خلفه زراعة حوض الطينة ، هناك فى المنحنى حيث تدور الترعة ويدور معها الطريق طريق القادم من قرى « العشى » والصعايدة والزينية قبلى وبحرى : كثرة من الرجال والنساء والدواب إن كان سوق الثلاثاء ، قلة راجلة أو راكبة عدا ذلك من أيام الأسبوع هى الصفوة على أى حال .. وهبها ملك الملوك الجاه والصيت والجمال أيضاً .. رجال وشبان قصدهم الأقصر مركز القرى وبندر البنادر وبلد السياح حيث المتعة خالصة نظيفة كالأقصر فى الشتاء .

بمكمنه يكون قد جاوز حدود قريته ـــ الكرنك القديم ـــ بشكل ما .. وصار داخل حدود الزينية قبلى : بخطوة أو بخطوتين وربما بعشر خطوات ـــ إذ ليس هناك حدود قاطعة فى فهم القرويين الفضفاض، كما أن ما بين القريتين من مشاكل كان يهون أمام طبيعة الفلاحين الخالدة ، تسامح غالباً وتعند أحياناً ، ولكن رغبة كبار القوم ممن لا يرضيهم خراب البيوت العامرة حفظت سلام القبيلة الواحدة ـــ أهل القريتين تناسلا من عمر وقد جاء مع الفتح الإسلامى لمصر ، وبحقه المشروع كمسلم تزوج من أربع ـــ هن أسماء وفاطمة وهند والزهراء ـــ احداهن كانت نكدة ولكن الرجل الكبير كان عربيا يعرف يسوس الأنثى ـــ ويقال إنها كانت

« هند » ـــ يكفى أن تقول للرجل المشاغب « يا بن الأنثى » أو ـــ يا بن تفيدة ـــ حتى تعاوده طبيعته الخالدة ، أما لماذا تفيدة وليست هند !! فهذا ما يجعله الآن يكمن بين النخلات كعفريت الجن ، ينتظر شبيب الساهر بعرس حجازى .

« كان منطقياً أن لا يكون هناك خط قاطع بين القريتين يحميه جند ، نطلق عليهم حراس الحدود ،حتى فيما لو حدثت تلك الأمور المسماة بالكبيرة والتى يقول عنها الفلاح : أمور تهتز لها السموات ، ونحن لا نجرى أمام الزمن ، فالقريتان كسائر قرى مصر ، والقوم يعيشون عام ١٩٦٨ : عام الأحداث الجارية الذكر » .

ليلة تحسب من ليالى الشتاء الطويلة السوداء الباردة ، وقد طال به الانتظار ، هو هنا منذ ولدته أمه ، والنخلات الثلاث منتصبات كعفاريت الجن ، يتخيل أن البرد داخله هو .

صوت المزمار والطبلة وصاجات الغوازى والفئران الهاربة ونقيق الضفدع المتصل وطلقات الرصاص المتقطع المفاجىء البعيد ، وذلك الهم الغامض الحاد كسيف السلطان ، أن يكون قادراً على الفصل والتمييز بين كل صوت وآخر ، أن يبذل ملزماً ذلك الجهد الخارق فى التصنت ، الظلمة شديدة التماسك ، والسماء تبدو جوفاء ولها وجه مجذوم وقد خلت من قمر كما توارت نجومها المعتادة خلف السحب الخفيفة الداكنة .

حُمار ببياض الحليب : قامته عالية ، ثم إن البارود تفسده الرطوبة : كان يجب أن يلف ساق البندقية بجلباب من القماش ، تاك ، وينتهى كل شيء .. يموت شبيب .. تاك .. لحظة .. يسقط الحمار الأبيض .. تاك ، ينتهى السؤال والجواب والقيل والقال والقادم والفائت والمتعة والفرح والألم والعذاب والأم والأب والشعور والانتظار .

البرد والظلمة والاضطراب المبهم ـــ ربما يتحدد كل ذلك بالخوف .. ربما ، صوت المزمار والطبلة وصاجات الغوازى والفئران الهاربة ـــ خائفة من ماذا ؟ ـــ ونقيق الضفدع المتصل وانفجار الرصاص المفاجىء المنقطع البعيد والتصنت وساق البندقية البارد الصلب المظلم ، عرس حجازى ربما امتد حتى الصباح فهو ابن الحاج عبد الكريم : غنى .. محبوب ومجاملوه بالآلاف ..

شبيب يشرب . يشرب .. سكران .. تاك وينتهى كل شىء .. والحمار الأبيض فى الظلمة شديد الوضوح .. وبياض النهار قادم .. مع نبح الكلاب المبحوح يأتى . مع صوت الديكة وانفجار الشمس .. وهو هنا .. منذ ولدته أمه .. فوقه تنتصب عفاريت الجن .. حوله تماسك شديد قط وفئران خائفة .

صوتها كان مهاناً ، حافية ، بملابسها السوداء وجرح بعنقها أو على خدها الأيمن وربما الأيسر وقد يكون فوق حاجب العين : الأيمن أو الأيسر ، فوق الجبهة يرقد كوزغة .. كسحلية ، تحت ترهل الثديين يعلو تل البطن ، فى الموقد كان القدر يغلى : بكك .. بكك ، ارتعشت الظلال وهربت ونامت تحت حوائط الفسحة الوسطى — حال أضاءت مصباح الجاز ، كانت هناك قطة تموء من مكان ما : كانت تنادى قطاً ذكراً ، خمن هذا ، ودوى الآذان من جامع عبد الله وهى تقول فحت : يموت .. والليلة يموت .. هوه اللى قتله .. قاتل أبوك عدوك ليوم الدين .. شبيب اقتله . الليلة يا ولدى اقتله ، توأمان هما الحزن والأفعى .

الجواب معلق ، فارغ هناك مازال ، وهى تنتظره ، العجوز تبتسم ، يلم تفاصيل وجهها البعيد — من مكانه ذاك تحت النخلات الضاربات بطولهن فى السماء العميقة والسوداء !! .. ذهنه أحمر متوقد كجمرة .

الرطوبة والعتمة والخفاش والراهب والوحش والنبى والروح يسكنون الكهف ، الإنسان : سر الرب .. خنفسة ، أحيانا يشعر المخلوق أنه كهف مسكون ، للأصوات رنين .. صدى .. صراخ ثكلى .. هناك فى الجبانة ترقد القبور تحت شمس الصيف .. تلال من التراب لها سطوة الوهج .. وتنتصب شجيرات التمر حنة ترمى بالظلال الخفيفة وريح تسقط الزهر . الأرملة الأولى فى المقدمة .. تتبعها الشقيقتان ، ثلاث أرامل يلبسن الأسود وتحتهن الظل وَتَدٌ مدقوق فى عظام الموتى ، يجمعن القطط والكلاب الضالة ، تحت شجرة التمر حنة تمسك كبراهن بيد الرحى ، وتبدأ المرثية ، وتحت كفى الرحى تولول اللحوم والعظام المتكسرة .

فى البيت يطفأ المصباح ، وتظل تصرخ فى العتمة ، تكون عارية ، وفى الصمت يدور الهمس : شبيب هناك ، وفى النهار عيونهم متوهجة كالشمس .. كذيل فرس شبيب الذهبية ، وهو يدرك مقالة كل عين : اقتل شبيب .. قتل أباك .. نام مع أمك ثم تزوج غيرها .. كانت أمك حلوة من أجلها قتل شبيب

أباك .. ثم تزوج من شابة حلوة ، أمك أيضاً تقول ــ اقتله ، وفى العرس : خمر ولحم وغوازٍ وصاجات غوازٍ ورصاص متقطع مفاجىء وطبلٍ وزمر وشبيب سكران .. يضع الجنيه الذهب فوق الصرة تماماً .. تحت تكور البطن .. هناك .. وفى العرس .

والنهار يأتى بالضوء وشمس حمراء تنفجر وتقف للأبد فوق سن الجبل تشعل النار فى الحجر . وحول البركة حشائش وماعز وماء ثقيل والباطن عفن ، ترمى الحجر ، يصنع دائرة وتهب العفونة ــ فجأة ، تكبر الدائرة وتتسع وتخف العفونة بالتدريج ، وترى السطح لامعاً تحت الشمس وتنكسر عيونك تحت قسوة الوهج ..

لم يكن يسمع شيئاً ولم يكن يرى سوى سطح أسود فظ ، شد بندقيته على كتفه ، داس على الزناد بقسوة وانطلقت أربع رصاصات ، خيل له أنه الآن يسمع الصدى ، وبكى بقوة ، فقط ــ يجب أن لا يعود إلى هذا الصمت .. !!

حج مبرور وذنب مغفور

الرجل القصير وصل ضُحى اليوم ، كان قادما من المركز البعيد وقد اعتلى دراجة ماركة « فيليبس » لها جرس ، أعلى حاجبه الأيسر كان الجرح القديم مازال يرقد قريب الشبه بالبرص وبحجمه تقريباً ، كان يلبس نفس الجاكتة الواسعة وكانت من الكاكى الأصفر ــ كذا نفس البنطلون الذى كان واسعا أيضا ومن نفس قماش الجاكتة وإن بدا لونه الأصفر أقل اصفراراً ، هذا بينما كان وجهه المستدير الجامد ــ ذو العينين المصوبتين إلى بعيد ــ يفضح ابتهاجه الشديد فها قد وصل القرية ككل مرة فى موعده المحدد رغم عوائق الطريق : منحدر وعر .. جبّانة النصارى .. منحنى مفاجىء .. قنطرة خشبية ضيقة قديمة أسفلها يجرى المصرف المائى .. أسراب البعوض المستفزة .. التراب المتحرك الناعم المخادع يفصل بين القرية والقرى الأخرى الكثيرة .. دورة كاملة حول القرى .. قرية .. قرية ثم الطريق الطويل المرصوف المريح الذى على جانبيه شجر الجازورينا الكبير العجوز الكثير الظل .

توقف أمام دار الحاج عبد الكريم محمد ، كان الرجل القصير يعرف ما يريد بالضبط ، ترجل ممسكاً الدراجة بيده اليسرى ، بينما قبض بيده اليمنى على الكتف الحديدية التى تتدلى من الحلقة الحديدية المثبتة هناك وسط البوابة الخشبية ، خبط الثلاث خبطات التقليدية المتقطعة وأطلق من دراجته جرساً طويلاً .

« خرجت الحاجة أسماء زوجة الحاج عبد الكريم محمد ، طرحتها البيضاء غطت على شعر رأسها الأبيض الطويل والتفت حول العنق الغليظ وسترت عرى اللحم الأبيض وخبأت تفاحة آدم . قال الرجل القصير : تلغراف من الحاج يا حاجة .. مبروك ، تناولت الحاجة التلغراف بيدها اليمنى الملفوفة بالطرحة البيضاء فقد كانت تخاف على ابن آدم من الحية . وأطلقت أمينة زوجة محمود سليم زغرودة فالجيرة الطيبة حق .. والحاج الغائب ذاك الذى أعطى زوجها محمود أربعة أفدنة من أجود أملاكه ـــ يزرعها محمود ويقتسم المحصول بنهاية كل عام مع الحاجة وريثة الحاج الشرعية فى غيابه الطويل المتقطع ، كانت الحاجة أسماء قد أعطت للبشير نصف جنيه كامل . ونهرت أمينة مجموعة الأولاد الفضوليين وأفسحت الطريق أمام الرجل القصير؛ الذى امتطى دراجته وأطلق أجراساً فرحة وقصد الشرق البعيد كحمامة طارت صغيرة بحجم البيضة .ظلت تتدحرج هناك فى المنحدر ثم غاب الخط الأسود . قال الولد للأولاد من حوله : يدخل المركز مع غروب الشمس .. له بيت من طابقين يلتصق بمبنى السينما . وطلب الأولاد من الولد أن يحكى لهم فيلم « رابحة » . وقالت الحاجة لنفسها : الحاج عبد الكريم موعود بالجنة وسيظل خالداً فيها أبداً .. لقد زار قبر المصطفى عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام مرات ومرات ، وقالت الحاجة متحسرة : الرسول الكريم يحب الحاج أكثر مما يحبها .. دعا الحاج مراراً لزيارة قبره الطاهر ومدينته المنورة بوجهه المضىء كمثل ألف قمر مكتمل .. ودعاها مرتين فقط .. يعود الحاج بعد ثلاثة أيام بالتحديد ويقف ويزيح الطرحة عن حلاله ، وأرسلت الحاجة من فورها رسولاً يأتيها بحنفى الخطاط الرسام المبيض النقاش » .

أتى حنفى من فوره ببرميل كبير وفرشاة كبيرة وفرشاة صغيرة وعصا طويلة من خشب الزان وقراطيس ملفوفة اختفت داخلها كل الألوان الصفراء كانت أو الحمراء ، وأتى حنفى أيضاً بجردل صغير ، وأقام البرميل داخل صحن الدار حيث توجد الطلمبة القادرة على ضخ الماء من جوف الأرض البعيد المنال . ملأ حنفى الجردل الصغير خمس مرات ليصب الماء بالبرميل الكبير ، ثم ألقى بكمية من الجير الحى داخل البرميل ظلت تفور وتبخر كالآدمى حين تصيبه الحمى التى تحشو جوفه باللهب والرمل الحامى والجمر المتقد . أقام حنفى السلم مسنداً إياه على حائط الواجهة ، وصعده حاملاً الجردل المملوء بماء الجير ، ونظر للرسوم القديمة ، وبسرعة وبالفرشاة الكبيرة دهن الحائط وانتظر حتى تجف ، ظل يتأمل القطار ذا الثلاث عربات والماسورة القصيرة التى مازالت تنفخ الدخان الأسود ، كانت كل

الرسوم واضحة ما تزال تحت طبقة الجير التى لم يجف ، ضحك حنفى لأن حرف « الراء » كان بادىء العيب فى « يا داخل هذا الدار صلى على النبى المختار » المكتوبة بخط كوفى جميل ، بهمة ملأ حنفى الجردل وصعد السلم وبالفرشاة الكبيرة غطى الحائط بطبقة أخرى من الجير ، كانت الحاجّة تطالبه من أسفل بأن يعيد دهن الحائط بطبقة أخرى من الجير ، كانت الحاجّة تطالبه من أسفل بأن يعيد دهن الحائط للمرة الثالثة ، أطل حنفى من فوق وقال للحاجّة : حاضر .. من عينى .. لأجل خاطر الحاج ، وتمنى حنفى للحاج سلامة العودة ، ونفذ ما أمرته به الحاجّة فوراً واختفت الرسوم والخطوط القديمة نهائياً ، وصار الحائط شديد البياض يضوى وقد انعكس عليه شعاع شمس الأصيل مما أجبر حنفى أن يغلق جفنيه ويفتحهما بشكل مستمر وبحركة سريعة ، كتب حنفى فوق بوابة المدخل بخط كوفى جميل « يا داخل هذا الدار صلى على النبى المختار » ، أطل لعينه الفنانة الخبيرة حرف الراء جميلاً كبقية الحروف الجميلة . ورسم حنفى جملاً ووضع فوقه هودجاً غطاه بثياب متعددة زاهية الألوان ، وتذكر ما يقال عن الجمل الصبور ذلك الذى لا ينسى الإساءة ويغدر حتى بصاحبه من يقدم له الطعام والماء ، بسرعة رسم حنفى خزاماً وكمم فم الجمل ، ورسم حبلاً تدلى من الخزام ، وقال لنفسه : هذا الجمل هو عين الجمل الذى رسمته فى العام الفائت ، ولكنه استمر يرسم الرجل الذى مد يده وأمسك بالحبل والذى يقود الجمل قصيراً متناهى الضآلة ، وظل حنفى حائراً يفكر : « أيرسم الرجل بحجم الجمل ثلاث مرات أم يضع فى يده بدل العصا سيفاً قاطعاً !! » .

الجدّ حسن

تلك عادة الجد حسن ، متى حلّ شهر الصوم الكريم ، وحتى تنفرط ثلاثون يوماً مجيدة ، يكون قد صلى العصر مع الجماعة بمسجد جده المرحوم عبد الله ، وعاد ، .وقعد على المصطبة المشيدة من الأحجار الأثرية القديمة والتى تقع على يسار بوابة المدخل .

منذ مايربو على الثمانين عاماً بنيت تلك المصطبة وقعد عليها الجد حسن وذهب الرجال وعادوا بالأحجار المتساقطة من سور المعبد القديم ، هكذا شيدت الدار فى أقل من أسبوع : صورة مصغرة من بيت العائلة الكبير وإن كانت بغير سور وديوان ومنظرة وجامع إلا أن بها اسطبلاً للخيول وطاحونة ومعصرة خاصتين بأسرة الجد حسن كما هما هناك خاصتين بعائلة الجد عبد الله وكذا يجر حجر كل منهما ثوران شديدان، وتزوج الجد حسن بنشوى ابنة الحاج سيد وأنجب منها ثلاثة من البنين وأربعاً من البنات.وماتت وتزوج الجد حسن من حفصة ابنة يوسف عبد الكريم ولم تحمل بطنها غير البنات فتزوج من زنوبة أختها الصغرى وكانت أماً لأولاده عبد المجيد وعبد الباسط وعبد الماجد والبنتين أمينة وفاطمة .

* * *

عن يمين الجد حسن بوابة الدار مغلقة ، زعق : يابنت ، صرّت البوابة المصنوعة من خشب الجميز بصوت خافت ثقيل وتدحرج الحجر الكبير على التراب وأصدر صوتاً مكتوماً . واحدة من بنات أولاد الجد حسن الصبية الستة هى التى فعلت ذلك وهاهى البوابة الآن نصف مفتوحة محجوزة بالحجر الكبير والبنت اليوم من تكون ؟ ــ يسائل الجد حسن ويزعق : يابنت . أتت نوال ابنة الأوسط عبد الحميد لاهثة رأسها الصغير مائل ورقبتها النحيلة محنية تحت مقطف صغير مملوء بثمار البلح ، أنزلت المقطف من على رأسها إلى كتفها وأسندته على ركبتها وأنزلته على المصطبة ودحرجته ليبقى بجوار الجد فى متناول يمناه.ومضت جارية وعادت نوال بمقطف آخر به خبز ووضعته بجوار مقطف الثمر ، وظلت واقفة لا تنبس ، لم يكلمها الجد ، فقط ابتسم فهو يعلم أنها سعيدة بما فعلت وتذكر أنه لم يسألها عمن فتح الباب هذه المرة فسألها ، جرت نوال لداخل الدار وعادت وقالت : أنصاف يا جدى ، وسأل الجد جاداً ومتجهماً ، وأين بقية البنات ؟ ردت نوال : بالداخل ياجدى.وسأل الجد : والصبيان ؟ ، قالت نوال : كلهم بالدار يا جدى .. كلهم بالداخل يا جدى .

* * *

يرى الجد حسن الدور بامتداد الدرب على الجانبين .. ينحنى الدرب هناك بعد بيت أحمد الراوى ، تبقى ساكنة تلك الجثة السوداء الكبيرة الملقاة عند المنحنى حيث ينتهى الدرب : أشبه بجمل أسود كبير وقد برك .

يمر شيوخ الرجال ، يترجلون إن كانوا راكبين ، قصدوه بالسلام ، رد سلام الله عليهم وأضاف بابتهاج : رمضان كريم.وسمع ردهم : كريم يابن الكرام . وجوه الرجال تتغير وسحناتهم تتبدل وردهم واحد لا يتغير : كريم يا بن الكرام ، يزيد ابتهاج الجد حسن فيداعب الشبان الذين يأتون ، يقبلون يده فينتفض جسده ويستغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم، ويعود لمداعبتهم منادياً كلا منهم باسم أمه ، قال لصالح السنوسى : فاطر ولا صايم يابن حُسنية ؟ رد صالح : الحمد لله يا جدى ، وكان الجد يعلم أنه صادق ، أما شحات الفكرى فقد سحب الجد حسن يده من بين يديه ومن تحت قمه مستغفراً وصرخ : انت فاطر وخاسر دينك ، ورد شحات وشرف محمد صايم صايم ياجدى .. وصرخ الجد مستنكراً :

يا ابن الكلب لا تحلف بشرف النبى .. انت لا تعرف مقداره : احلف بشرف وديدة بنت الساكت أمك .. غور .. الكفر على وشك ، والله يا جدى صايم هذا العام : قال شحات وهو يبتسم فهو يعرف أن الجد حسن لن يكف عن مداعبته ومخمناً ما سيقوله الجد بعد ذلك : ستقول لا تحلف بالله .. ولكن بالله العظيم صايم ، يسأل الجد بلهجة مرحة : أمال ليه وشك أسود ؟ قال شحات : من الغيظ والشمس يا جدى .. لكن والله العظيم صايم ، بنصف اقتناع وبيأس قال الجد حسن : طيب .. روح .. انت حلفت بالله .. ربنا يقدر يرميك بمصيبة فيما لو كنت تكذب .. من خلق الكون الكبير بما فيه من جان وإنس وكل ما تشوفه العين من جبال وشجر قادر على ضرك فيما لو كذبت .. اسم الله لا يذكر إلا بالصدق يا شحات .. قال الشحات : ونعم بالله ياجدى — ومضى ، وحين مر منصور ابن الصادق سأله الجد إن كان صائماً فرد بالإيجاب وسأله إن كان يصلى فقال : لا ، ونصحه الجد حسن بالصلاة وشتمه وقذف بكلماته الغاضبة خلف منصور : يا ابن الحمارة .. يكون معلوماً لديك أن حسابه عسير لا يحتمله بغل مثلك ولا عشرة من الثيران مثلك يحتملونه .

ومتى تمر النسوة فعليهم أن يحكمن الأردية حول أجسادهن الهالكة وأن يرتبكن وسيلمح الجد حسن ارتباك الخطو وتعثر خطو الأقدام على التراب المتطاير . أما ذلك الكلب الضال المجهول الصاحب ففى هذا الوقت من كل يوم يمر على الجد حسن ويرفع ساقه الخلفية ويسندها على حائط البيت المواجه ويسلح ثم يمضى بعد أن يصرخ فيه الجد : حسّ امش .. يا نحس .. يا ملعون ..

* * *

على الحصيرتين المفروشتين أمام المصطبة فوق التراب المرشوش مكان لضيوف الله فى الأرض ، السائل منهم والمحروم،من مقطف الخبز يعطى الجد حسن بيمناه ، ومن مقطف البلح يغرف بيده المرتعشة أكثر مما تسع الكف ، يقول الجد حسن : من خير هو من الله ومن أجل رضاه .. بهذا حفظ الجدود من رحلوا لدار الحق المال والجاه الذى ورثت ففازوا بنعيم الدنيا وجنة الآخرة .. أنا بدورى يجب أن أحس إرث الأباء بالعطاء لوجه الله وعلى أبنائى أن يعلموا أن الفرع لا يدنو بالطيب إلا بإذن الله وللمختارين القلائل من عباده أولئك ، عامرى القلوب .

الوقت قد فات وقد دنا الغروب ، الجمل الأسود قام بجثته الكبيرة ومشى بطيئا باتجاه الجد حسن ، اختفت البيوت بالتدريج ، البيوت البعيدة أولاً ، ثم تلك القريبة بدأت تختفى ، وصار الجمل بمواجهة الجد كبيراً وأسود ، أغمض الجد عينيه (الكون فسيح لا حدود له ، قاتم الزرقة ، والصحراوات واسعة لا تحد ، والرمال صفراء متوهجة ، انفجر من جوفها تل وتل وتل ، وسلسلة التلال لونها قان بلون الشفق ، كل شيء الآن ببكارة الخلق الأولى ، وتلمح عين المؤمن النقطة السوداء ، تبين صغيرة تكبر كلما اقتربت للرائى) . وجف قلب الجد حسن ورجف جسده الفانى وحدث نفسه : كم هو قليل ذلك الإنسان فى ملكوت الله ، وسأل نفسه من يكون الضيف ؟ ذلك الضارب فى الأرض من يكون ؟ رسول الله الذى يبدو فى البعيد نقطة سوداء من يكون ؟ أهو الخضر عليه السلام معلم موسى ؟ أم هو الغربى !! أيكون ذلك الجشع اللئيم ؟

* * *

أصوات الأولاد تأتى بضجيج واهن ، هم هناك عند دكان محمد بن مَكِّية ، وهناك شجرة توت مات أحمد المحروق زارعها من عشر سنوات وهى لا زالت حية ، وهرج الأولاد يعنى أن مدفع الافطار قد انطلق من راديو الحاج محمد أكبر إخوة الجد حسن حسب توقيت القاهرة ، حل الإفطار لمن يسكنون فى حِمَى السيدة والحسين ، ومتى يؤذن يوسف الأعور من فوق جامع عبد الله يحل الافطار لأهل الكرنك القديم والجديد على السواء ، يحضر رشاد ابن الجد كامل شقيق الجد حسن ، يأتى الولد طائراً كحمامة : المغرب أذن يا جدى ، ويمد الجد حسن يده فيمسكها الصغير بيده الصغيرة ويدخلان الدار .

* * *

باحة الدار الواسعة فرشت بالحصر ، طبالى الخشب قائمة على سيقانها الأربع وليس بينها فواصل كبيرة ، والصوانى النحاسية فوق الطبالى تحمل أطباق الخضار واللحم والكنافة وسائر حلوى رمضان ، الكلوب معلق فوق فتحة الباب من الداخل يسقط مخروطاً من الضوء على جماعة الجالسين ويرمى بالظلال كل جوانب المكان ويجعل وقت الغروب أقرب لوقت الظهيرة .

ها أنت يا جد حسن وسط الأبناء وزوجات الابناء وأبناء الأبناء عزيزاً مبجلاً فلتحمد الله عدد حبات مسبحتك اليسر المطعمة بالفضة ، الكل ينتظر يدك التى ستمتد مشمرة عن كمك وتتناول كوبك وتقول بسم الله الرحمن الرحيم ، وتشرب ماء البلح المنقوع ، ثم تمد يدك للطعام وتمتد بعدك الأيدى ، وتسمع لمضغ الطعام وبلعه أصواتاً عديدة ، فجأة يسقط الظل على الأطباق ، ويخفى الظل كل لذائذ النفس الفارغة ، لن تفكر كثيراً ياجد حسن فأنت تحفظ عن ظهر قلب ما ستقول وأنت تعرف أيضاً من يكون القادم .

(: تفضل يا سيدنا الخضر .. هذا بيتك وهذا خير الله .. أنا عبد الله الجد حسن .. يا مولاى الخضر تفضل واجلس) الوساوس تأتى ويقشعر البدن يا جد حسن : ربما كان ضيفك هو المغربى يا جد حسن ؟ ربما كان هو ذلك الماكر أتى وعليك أن تساوم) .

* * *

وقد فرغ الجد حسن من تناول الإفطار ، يذهب ليقضى حاجته بالمرحاض الواقع تحت فجوة السلم الموصل للطابق الثانى من الدار ، تكون بنت من بنات أولاده قد سبقته وملأت الإبريق النحاس الأبيض وتركته أمام باب المرحاض ليتناوله ويدخل ويخرج متخلصاً من البول والغائط،وتلقاه واحدة من البنات وبيدها إبريق النحاس الأحمروعلى الأرض طست من نحاس أبيض ، يتوضأ الجد حسن وعندما يصل لغسل قدميه يتناول الإبريق ويصب الماء على القدمين ويصرف البنت بهمهمة وتتولى أى بنت فرش سجادة من سجاجيد الصلاة الكثيرة بالبيت والكل مهدى للجد حسن ممن زاروا الحجاز الشريفة ، جهة الشرق باتجاه بوابة المدخل المفتوحة يصلى الجد حسن طارداً كل وسواس طيب أو خبيث ، وحين يفرغ من صلاته يقرأ الورد ويظل بعد ذلك جالساً على السجادة القطيفة اللينة ، حتى تأتى إحدى البنات بكوب الشاى فيشربه وهنا يترك نفسه لفكرة ثابتة منها ينطلق من خياله .

(كلاهما يأتى فى ثوب خرق .. متنكراً فى شخص متسول .. بيده عصا وعلى كتفه خرج .. ولا يفرق الرائى بينهما لو اجتمعا ، الخضر جواب أفاق ولا تراه سوى عين المؤمن .. حين يأتيك فى شكل متسول وتصده تبيد نعمة الله التى

أنعمها عليك ، وإن أكرمته أكرمك الله وذلك الخضر معلم موسى على خبايا الأرض بنت الله البكر فتعيش فى النعيم أبداً ، وكذلك المغربى الماكر يعرف صورة الخضر فيتشبه به ، ثم يغافلك ويجنح للدار،وهو الوحيد الذى يعرف مكان الكنز الذى ربما دفنه الأجداد أصحاب الحيل الكثيرة.يغافلك الأفاق ويقتل حارس الكنز الذى هو من جان ويختفى المغربى فلا تعثر له على أثر .. إذن يا جد حسن عليك أن تكون حذراً من ضيفك .. أكرمه حقاً .. ولكن لترصد حركته رصداً جيداً .. سيأتى وتقول أهلاً وتقدم ما عندك ، سيقوم الضيف وبيده قصبة كبيرة .. يطوف بها أركان الدار وأنت تلازمه كظلّه ، يرفع القصبة ويخفضها ويعد .. واحد .. خمسة .. سبعة .. ثم يضرب القصبة فى الأرض فتنشق الأرض بإذن ربها ويطل الذهب وعقود المرجان والفيروز وكل خبايا الأرض ذات السر .. امسك بتلابيب ضيفك وانظر فى عينيه .. عينا الخضر تلمعان حقاً كجوهرتين فهو رسول .. أما عينا المغربى فهما ماكرتان حالماً تشوفان المال .. إن كان الخضر يا جد حسن قل له : معذرة يا مولاى ، وقبل كفيه وامطرهما بدموع الندم ، وإن كان المغربى فساومه .. إن قال النصف قل الربع ، وإن قال الربع قل الثمن .. وهكذا يا جد حسن فأنت رجل عرك الدنيا ويجب ألا يفوز أحد منك بغير القليل .

* * *

ها قد حان الوقت لصلاة العشاء.على الجد حسن أن يتوضأ من جديد : لعن الله المعدة فما تحمل غير الخبيث . الجد قال : يا بنت ـــ بصوت آمر خافت وقور ، وقال بنفس الإيقاع : الإبريق يابنت ـــ رغم أنه كان يرى ابنة ابنه تصب الماء فى الإبريق .

انفضت صلاة العشاء ومتعة صلاة التراويح ، الشيخ كامل أمام مسجد الجد عبد الله جاوز الثمانين ولكنه شاب فى قيامه وقعوده : ما أثقل فى صلاته قط ، كحلم قصير فارقك يا جد حسن وها أنت تطلب النعاس وككل ليلة تطاردك رؤيا الظهيرة (ثلاث أرامل ثلاث شقيقات من بنات الجن،أرديتهن السوداء غطت منهن الرأس والقدم .. قاعدات هناك تحت أشجار التمر حنة وسط تلال المقابر .. الرحى الكبير تعمل ولا تتوقف قط،الكلاب الضالة تعوى والقطط الضالة تموء

والدم يختلط باللحم، وشجر التمر حنة يسقط الزهر تحت ضربات الريح الخفيفة، وعيون الجنيات تلمع مثل الجمر المتقد) .

ماكينة الطحين تدق (تك .. تك) ولا تتوقف ، هب الجد حسن : الموت يأتى متنكراً فى ثوب النوم الطويل .. يخالس الفرد ويرميه بثقل لا يطاق .. لا العين ترى ولا الأذن تسمع ولا اللسان يذوق .. ولا شيء سوى ظلام شديد ، ظلام بلا حدود .

العالية

كان الجد حسن قد فرغ من تناول طعام الغداء ــ هو وضيفه العالى المقام ، وكان الغداء دسماً : لحم ضأن .. وفتة المرق بالخبز والأرز .

الضيف شرد بفكره عن المكان ، والجد حسن توقف عن كلمات الترحيب ، وتلك لحظة الكل يعرفها .. وهى دائماً تعقب كل أكلة دسمة .. يحسن فيها السكوت .. وتصبح القهوة مرغوبة بإلحاح وكذا النوم .

شخط الجد حسن يستحث جاد المولى الأعرج ــ القاعد غير بعيد منهما أمام كوم من الرماد مدفوس فيه كنكتان من النحاس الاحمر . تفل جاد المولى الأعرج كرة من دخان المضغ وزعق ..

ــ « يا ولد يا أقرع يالكع .. هات الصينية وفنجانين » .

من حجرة لا باب لها ــ ملحقة بأسطبل الخيول لكنها منفصلة عنه ، جاء الولد بسطاوى القصير القامة يخب فى جلبابه الطويل الذى يسف التراب وقد أخفى قرعته بطاقية على شكل قمع ــ حاملاً صينية من النحاس الابيض عليها فنجانان بكل فنجان نقش لثلاثة عناقيد من العنب الأسود الناضج .. من كل عنقود تتدلى ثلاث حبات .

* * *

قال الجد حسن لضيفه بعد أن شرب فنجان قهوته الثانى :

— « قم ونم »

قال بحياء ضيف عالى المقام :

— « يا رجل لم أشبع منك بعد .. دعنا معاً بعض الوقت » .

قال الجد حسن العالم بمقام ضيفه والمقدر لحياء الرجل والعارف بالأصول :

— « لا تنم .. قم واسترح يا رجل .. الوقت بيننا .. وعلاقتنا علاقة جد قديم بجد قديم .. نتمنى من الله أن تدوم بين الأبناء »

لم الضيف منديله الذى يتمخط فيه وحق النشوق ودسهما فى جيب قفطانه الناصع البياض الذى يلمع بشدة عند الثنيات ، وقام بتثاقل وكأنه لا يود أن يقوم . زعق الجد حسن . وجاء الأعرج يظلع . وأدركت العطسة الضيف فعطس . وقال الجد حسن يخاطب الأعرج :

— « دل الضيف .. خذه لمكانه حتى يستريح .. وأرسل رسولاً لحمدانى ليطلع النخلة العالية ويجنى لنا تمراً »

تبسم الضيف وقال :

— « أنت يابن الأكابر لا تعرف النسيان أبداً .. من تمر تلك النخلة المسماة بالعالية أكل جدودنا وجدودك ووالدك وأبى عليهم رحمة الله .. ومنها بإذن الله نأكل اليوم أنا وأنت .. إنه العهد قائم بين الرجال » .

تبسم الجد حسن بسمة أوسع من بسمة ضيفه — ورد :

— « نتمنى من الله أن تدوم النعمة وأن يدوم بيننا الفعل الطيب ويتصل الود » .

أشار الأعرج لعصاه المعوجة وقال بلهجة التهديد :

— « ما هذه ياولد يا أقرع ؟ » .

أنكمش الأقرع وتهته :

— « تلك عصا .. تلك عصاك » .

— « وما هذه ؟ »

وأشار الأعرج لعلبة السكر .

تبسم الأقرع فى بلاهة — وتهته :

— « حق . حق سكر »

وقال الأعرج فى لهجة الأمر :

— « أسمع يا ولد يا أقرع .. أذهب كالريح .. وقل لحمدانى المجذوم يحضر تواً

ليطلع النخلة العالية .. سأتفل على الأرض تفلة .. لو جفت تفلتى قبل أن تكون هنا وأمامى أنت ومحمدانى المجذوم .. سأجعل المعوجة تريك نجوم الظهر .. أسحبه من يده يا ولد يا أقرع » .

* * *

كالجن أختفى الأقرع . وتبسم الأعرج :

— « هكذا كان النبى الملك سليمان » .

وغز عصاه المعوجة بكوم الرماد ..

قال الأقرع مكلماً نفسه :

— « شمس الصيف كبيرة .. والتراب الحامى فوق الارض يلسع القدم الحافية .. والسماء بعيدة .. سأسحب المجذوم من يده .. أنا رسول الأعرج .. أنا رسول الجد حسن .. والأعرج والمجزوم وأنا وكلنا خدم الجد حسن .. السكر فى الفم يجرى بلعاب حلو .. والعصا على الظهر موجعة » .

* * *

دفع الولد بسطاوى الباب الخشبى الموارب بيديه يبغى فتحة ينفذ منها ، ولو لم يكن هناك حجر كبير وراء الباب لما سمع العمياء تجعر :

— « من .. من يدفع الباب ؟ » .

اجاب البسطاوى :

— « أنا » .

جعرت العمياء :

— « لا يقول أنا الا الشيطان »

قال البسطاوى مرتبكاً :

— « أنا البسطاوى .. أنا البسطاوى .. أريد محمدانى ليطلع النخلة العالية » ..

جعرت العمياء :

— « محمدانى غير موجود » .

سألها محمدانى الذى صحا على جعيرها وكان نائماً فوق حصيرة على التراب :

— « تكلمين من يا امرأة ؟ »

واصلت العمياء جعيرها :

— « يقول أنه البسطاوى »

صرخ محمدانى :

— « البسطاوى خادم الجد حسن يا امرأة .. البسطاوى الأقرع » .

قالت العمياء تبغى الخلاص :

— قال انه البسطاوى .. لم يقل أنه الأقرع .. لم يقل يا رجل »

هب محمدانى وزحزح الحجر عن الباب ، وهرول خارجاً ، ونادى البسطاوى الذى كاد يختفى هناك عند انعراجة الدرب :

— « يا بسطاوى .. يا بسطاوى .. كنت نائماً .. كنت نائماً .. كنت نائماً يا ولدى .. انتظر يا ولدى » .

* * *

قال المجذوم للاقرع وهو يربت على كتفه :

— « ما كانت لتعرفك وهى ضريرة »

ودخل البيت وأخذ الحبل الطويل المتين الذى يحزم به وسط النخلة ووسطه .

قالت الضريرة :

— « يا محمدانى لا تطلع العالية .. اليوم يوم الريح القديمة التى عرفها الجدود .. ستكون هذه المرة كالخيل لما تجمح .. ستكون لها حوافر وأعراف من نار .. ستهدم بيتين وتحرق بيتين وتأخذ رجلاً ..و .. »

قاطعها محمدانى :

— « يا امرأة لا يقدر على طلوع العالية غيرى .. وأبن الأكابر حسن لا يرسل رسوله لى كى اطلع العالية الا اذا زاره ضيف عالى المقام »

جعرت العمياء :

— « أقول .. العالية هذه المرة لن تعرفك .. هذه المرة لن تعرفك العالية يا محمدانى » .

تقرفص الاقرع تحت العالية الشامخة القامة ، يمص قالب سكر ويبتسم فى وجه محمدانى ببلاهة . بينما وقف محمدانى ينظر من أسفل العالية المنتصبة كبنات الجن :

« تلك هى المرة الأولى التى يرى فيها العالية شديدة العلو ملساء الساق » .

شعر بنفضة عرق الخوف عند الرجال ــ الكامن تحت الصدغ . قال :

ــ لن أخاف العالية .. تلك المرأة هى التى زرعت فى نفسى الخوف من العالية .. لن تخيفنى امرأة .. لقد خلقت المنجمة الخوف ليعرف القلب الرجفة .. وها أنا أرى الريح أخف من يد العاشق تعبث بجريد العالية فى حنو .. ما رجمت العمياء بالغيب مرة الا وصدقت لكن يكذب المنجمون » .

وشد محمدانى الحبل على جذعه وشده على جذع العالية ، وثناه وثلثه ، وحدث نفسه :

ــ « لن تجعلنى الضريرة التى أعرفها وتعرفنى » .

* * *

« أنها الريح الهوجاء فكت قيودها ــ قادمة من محبسها البعيد ، ياساق .. يا ساق .. كونى كابن البشر »

ــ هكذا صرخت المعمرة التى خبرت ريح الأزمنة ، ومالت ، ولمت جريدها المجدول تحمى تمرها الطيب :

« لن أواجه مواجهة الثور .. ولن أستسلم كبقرة .. مكر الثعالب يغلب القوى الباطش » .

وصرخت :

« ويا جذورى .. أنت يا جذورى .. كونى فى الأرض أوتادا .. كونى فى الأرض أوتاداً .. وتثبتى للريح .. تثبتى للريح » ..

إيقاعات بطيئة ومنتظمة أيضاً

كور الطفل جسمه القليل ونفذ من فتحة بحائط الفسحة الوسطى ، وصل للفضاء المسور المتصل بالدار من جانبه الشرقى .

(من وقت : هبت ريح الشمال المجنونة ، حملت عيدان السمسم والقطن من فوق أسطح البيوت ، ولمت الاوراق الجافة من فروع أشجار التوت والأثل واللبخ ، والآن ــ تحت الحوائط ــ رقدت الأوراق والعيدان الجافة .. وحمار ترابى اللون ومعزتان سوداوان ، وهناك فى الطرف البعيد كانت صومعة صغيرة هى بيت الدجاج) .

* * *

كان الطفل مطمئناً فليس ثمة من يرقبه ، قعد على أربع ، أدخل يده الصغيرة من الكوة الضيقة .

(داخل الصومعة كانت اليد الصغيرة العمياء تتخبط فى العتمة ، وكان جسم ضئيل يراوغ اليد ، وكانت الصيحات متتالية مخنوقة ، ثم تتالى ضرب يائس من جناحين فى جسم حى) .

فجأة انطلقت من الكوة دجاجة بيضاء ، انفلتت من يد الطفل بقفزة ، عبرت مسرعة أرض الفضاء المسور ، وجنحت للجانب الشرقى ، نطت لفوق بثلاث ضربات من جناحيها الأبيضين لجانبى جسمها القليل ، وقفزت من فتحة الحائط للفسحة الوسطى الواسعة .

(هناك حيث ترقد جرار الماء المملوءة على السطح الترابى ، ويقف زير على حامل خشبى له ثلاث أرجل : كان سطح الزير الخارجى أخضر .. بلون العشب النامى على حوافى الترع) .

كانت الدجاجة البيضاء قد فردت جناحيها الأبيضين ، كانت تنقل قدميها بسرعة وارتباك من الأرض للفضاء .. من الأرض للفضاء .. وتكشح خلفها التراب ، وفجأة اختفت .

(نموذج لطائرة بيضاء تجرى على أرض المطار الصغير ، وخلفها شريط أبيض من الدخان ، فجأة ـــ طارت الطائرة لأرض مجهولة) .

* * *

فى الساحة الوسيعة كانت أقراص العجين على ألواح الخشب تنتظر الشمس المحتجبة خلف ضباب اليوم الشتوى ، وكانت الأم تنظر لابنتيها ولأقراص العجين .

(منذ لحظة كان التراب نائماً على سطح الفسحة الوسطى بفعل الماء الذى رشته صغرى البنات ، والآن : ترقد خمس حفنات من التراب على أقراص العجين : حفنها كف طفل من كمية التراب الراقدة على سطح الفسحة الوسطى) .

أمسكت الأم بالولد الصغير ، والت الضرب ببطن يدها على عجيزته ، كانت غاضبة .

(مازالت القطة ـــ التى قوست ظهرها ونطت فوق صندوق خشبى بلا غطاء

حين جرت الدجاجة البيضاء . مقوسة الظهر .. نافرة .. متحفزة لعدو قادم .. عيناها تبرقان ولونها شديد السواد شديد اللمعان ، مازالت القطة تقف على حافة الصندوق) .

كان الطفل مستمراً فى البكاء ، كور وجهه ونفخ أنفه فتدلى خيط من المخاط ، قالت الأم : وسخ ، رد الطفل مكشراً وهو يبكى لازال : سأذبحها ، قالت الأم بلهجة يقينية لم تخف الطفل : سأذبحك أنت ، قبض الولد على كم قميصه بيده ولمه بين راحته الصغيرة ومسح المخاط عن أنفه .

(على الحبل المعقود والمدقوق بمسمارين على الحائط الشرق والحائط الغربى تدلى قميص خلعه الطفل فى الصباح، على الكمين وضحت آثار المخاط الجاف بلون الطين) .

نظرت الأم لعيونه السوداء اللامعة (البئر سوداء وجوفاء وعميقة ومملوءة بالأسرار والرعب) والولد يتحرك تاركاً الساحة وقد عاد للبكاء من جديد ـــ قال : يارب أستريح منك ، قالت الأم : لا تذهب لهناك (نطت القطة من فوق الصندوق على أرض الفسحة الوسطى ، فأرقها الوهم وخجلت من إحساسها بالخطر ، ومن فتحة فى الصندوق الخشبى أدخلت رأسها : كان ينتظرها القطان الأسودان الصغيران وحفيدتها القطة الرمادية ، نامت بجسمها الطرى وتقلبت على جنبها الأيمن .. هزت أثداءها وقدمتها لصغارها كى يمتصوها) .

أمام الدار كان يرقد كلب أسود ، التقط الطفل حجراً كبيراً وهو مازال يبكى وضرب الكلب ، هب الكلب ونبح ، كف الطفل عن البكاء ، نظر للفضاء الفسيح أمام الدار (فروع شجرة النبق القريبة بدت كضبابة معلقة بالجزع : هكذا بدت مع ضوء النهار القليل ، والدجاجة البيضاء تحت الجذع بدت صغيرة جداً : تروح وتجىء فى حيرة وهى تبحث لازالت عن مكان تجد فيه الأمان وتبيض ، ويحصل هو على البيضة ، يسلقها ويأكلها بمفرده،وقد يذهب للطاحون ويقايض على البيضة بثلاث قطع من القصب .

* * *

قامت صغرى البنات برش الساحة بالماء ليرقد التراب من جديد ، كانت تلبس ثوباً من الكستور به زهور كبيرة حمراء وصفراء ، وأشعلت البنت الكبرى لمبة الجاز وعلقتها فى كوة بالجدار الشرقى .

***

اشتدت كثافة الظلام حيث توارت النجوم خلف الضباب الأسود شديد التماسك ، وعم سكون شرس (احتفظت الضفادع بحقها فى التمرد فظلت تنق نقيقاً متصلاً ، وكذا الكلاب كانت تنبح نباحاً متقطعاً ، أما القطط الأناث فظلت تنادى ذكورها بحق التناسل) .

البيوت والدروب والنخيل والشجر تماسك فى شكل كتلة سوداء متفحمة .

بالغرفة البحرية ظل ذراع الأم على صدر الصغير وكفها على موضع قلبه تماماً ، وبجوارهما رقدت البنتان ، والصدور ترتفع وتنخفض فى حركة منتظمة غير متقابلة ، ضوء الفانوس يغمز مع تيار الهواء الرطب الذى ينفذ من كوة وحيدة مسدودة بحائط الغرفة ، على السرير المقابل كح المسن رب الدار وبصق وتناول من تحته قربة من جلد الأرانب مملوءة بالماء الدافىء وشرب جرعتين ثم لمَّ على جسمه حزام صوفى من وبر الخراف ونام وظل يشخر .

كان الموقد قد خبت ناره ، وكان الدخان كثيفاً هناك على السقف المدعم بجذوع النخيل ، والهواء الذى ينفذ من كوة الحائط اشتدت رطوبته ، والكوة كانت مسدودة بغلاف نتيجة حائط ، على النتيجة كتابة وصور لأشخاص فى زى عسكرى ، وتهنئة مقدمة من مهدى النتيجة صاحب مصانع الحلوى للأمة المصرية بهبة الجيش المباركة .

(كان الجو يميل إلى برودة الصباح باطّراد ، فوق مئذنة الجامع الكبير ظل شخص يرقب الشبورة التى صنعت نصف قوس وغطت البيوت والتقت مع استواء الأفق المغطى بالغيوم ، كان ينفخ جوفه ويفتح فمه ليخرج البخار الأبيض فى حلقات وقد تهيأ لآذان الفجر) .

الوشم

كان جابر يعشق بنت عمه فاطمة ، ولم يكن يملك جملاً يقدمه مهراً لعمه عبد الرسول ليتزوج من بنته فاطمة .

كانت فاطمة جميلة ، خالية القلب ، لا نحيفة ولا سمينة ، لا طويلة ولا قصيرة ، علاوة على أنها تدهن شعرها الطويل بزيت القرنفل الطيب الرائحة .

وكان جابر قد سمع أن فاطمة قالت عنه :

« اليتيم صلب عوده كالنخلة بخبز الذرة ولبن الماعز » .
فرد جابر بزهو وقال :

« تلك بشارة خير والمثل يقول بين القلب والقلب رسول »

كانت البنت فاطمة صاحبة تفانين فى تزويق نفسها ، فالكحل فى عيون حريم وبنات العشيرة أسود والكحل فى عينى فاطمة أخضر . والبنت فاطمة تلعب بشعرها لعب الحواة المهرة ، فمرة ترميه ضفيرتين طويلتين سوداوين خلف ظهرها ،

ومرة تتركه يتدلى قُصَّة سوداء فوق الجبهة تشبك فيها خرزة زرقاء ، وأحيانا تطلقه بحراً هائجاً أسود ، وأحياناً تضفره ضفائر كثيرة لتتشبه بالملائكة .

يا لها من ماهرة ، بالخيط والإبرة تفصل أثوابها المرسومة لترقد فوق كل ثدى وردة كبيرة أو يعشش طائر مغرد ، والثوب لا يضيق ولا يتسع .

لما رأى جابر البنت فاطمة تسعى للماء عند البئر مع البنات ، قال :

« سأعاونها فى رفع الجرة » .

ومنعه الخجل فالكل يعرف أنه يحب فاطمة ــ ولكنه لا يملك جملاً يقدمه مهراً لعمه عبد الرسول ليتزوج من فاطمة . اكتفى جابر بالنظر للبنت فاطمة وهى تخطر : كانت حافية القدمين ولكن بعنق حمامة .

فقد جابر صبره ، هو الذى مات والده وهو صغير ، فتزوجت أمه برجل من عشيرة أخرى فأنكرتها عشيرة والده ، ليعرف جابر العمل المهلك القليل القيمة مع أعمامه فى العشيرة منذ طفولته ــ إن كان ثمة طفولة فى حياته .

فقد جابر صبره ، وقرر أن لا يعمل مع أى فرد من أفراد العشيرة ما دام لن يحصل على جمل يقدمه مهراً لفاطمة .

وقد حاول أحد العقلاء إقناعه بالتخلى عن قراره فالصبر جميل وذات يوم سيحصل على جمل يقدمه مهراً لعمه عبد الرسول ليتزوج من بنته فاطمة .
فسأله جابر وبلع ريقه المر :

ــ « بعد عام .. أم سبعة أعوام .. أم حتى ينقضى العمر »

أجاب العاقل :

ــ « لا تتعجل فالعجلة من الشيطان والشيطان عدو لابن آدم .. ربما بعد خمسة أعوام أو سبعة ، وفاطمة ماتزال صغيرة .. وأنت ماتزال شاباً قوياً » .

فسأله جابر :

ــ « هل تعدنى بأن لا تتزوج فاطمة حتى أحصل على جمل » .

وفكر جابر فى الخفراء الذين يمسكون اللصوص وقال إنهم عميان،لو عرفوا فاطمة لصار لهم بصر وصارت لهم قلوب غير مظلمة ولما ساقوه لدوار العمدة ليضرب هناك بالأقلام وكعوب البنادق ، أما العمدة فهو عجوز محب للمال ولحم الطير والحيوان والبشر — كيف لا ترى عيونه جمال فاطمة فيتزوجها ، قال جابر : لو كنت بمكان العمدة لتزوجت من فاطمة بنت عبد الرسول وأنا المالك لمائة جمل بمفردى،ولقلت للولد جابر السارق اذهب يا ولد ولا تفعلها مرة ثانية بدلاً من أن أوثقه بالحبال وأجعل الخفراء يسوقونه لمبنى المركز حيث ينظف جابر المسكين مرابط الخيول ويرمى فى أحواض الماء النتنة ولا ينطق بحرف أمام القاضى الذى يهابه العمدة نفسه ، ثم يقضى جابر المسكين السنوات بالسجن المظلم الرطب الذى يحرسه عسكر غلاظ شداد قلوبهم أيضاً غليظة ومن حجر أسود كأحذيتهم السوداء الغليظة ، ويظل جابر المسكين يعد الأيام والليالى قانعاً بشىء بسيط؛لا الزواج من فاطمة ولكن مجرد رؤيتها بالعين : خارجة من بيت زوجها لتجلب الماء ليشرب الزوج ماء حلالا زلالا جلبته فاطمة .

وأفاق جابر من هلوساته على ما يملأ زنبيلين من الحقائق : الثدى تل لا ينفذ فى تربته سهم .. والورد منقوش على الثديين.. والبيت من طابق واحد وحجرتين .. والسجن رطب ومعتم والعسكر والخفراء والعمدة مسلحون .. وحركة الدجاج بالليل تجفل الجسم مشتاق للالتصاق بجسم .. والسرير يكون من الحديد ولا يكون من الخشب وإلا قرضته القرضة .. وشيخ العشيرة على حق فمن أين يحصل جابر على خبز الذرة ولبن الماعز إن لم يعمل .. والعم عبد الرسول فى حاجة إلى جمل يجلب به السباخ المسروق من المعبد .. والبنت فاطمة أجمل بنت فى دنيا الناس .. والمثل يقول العين بصيرة واليد قصيرة .. وما من ثمة أمل فى الحصول على سمك الضبع .. كما أن العودة لبيوت العشيرة مستحيلة ،فالذئاب الجائعة تترصد هناك عند المسالك .. وحتى تطل عيون النهار سيهتدى جابر إلى حل .. أما النوم — هنا — حيث يطول لسان الماء ويقصر فمستحيل مستحيل مستحيل .. وحتى يطل النهار المبصر بألف عين (سيجعل مضارب الغجر غايته ، ويسلم زنده للغجرية العجوز القاعدة أمام الخيمة — تحت النخلتين — لتنقش بيدين مدربتين على الجلد بالإبرة قلباً بداخله جمل واقف له وجه إنسىّ) .

فكر الناصح لوقت ، ولم فى خياله البنت فاطمة لابسة الخلخال ، وأجاب :

— « الحق لا أعدك .. البنت حلوة .. جلدها بلون حبة القمح وناعم نعومة قماش القطيفة .. ولأبناء العشيرة عيون تشوف وتعشق .. والعشيرة تملك مائة جمل ومائة ناقة .. الحق لا أعدك » .

وهكذا فقد جابر عقله وقرر أن لا يعمل . وضحك شيخ العشيرة وسعل وبصق وقال :

— « سنرى من أين يحصل جابر على القوت .. الجسد يا رجل يحتاج للطعام بمثل احتياج النخيل للجذر الطويل الذى يمتص الماء من بطن الأرض » .

* * *

غابت شمس الصيف الكبيرة خلف تلال الغرب ، ومازال الأفق الغربى يحترق ، وكان لأشجار الأثل ذات الزهر الأصفر النامية على حافتى الترعة ظلال سوداء تتماوج فوق صفحة الماء العكر . وفجأة أسقط الليل خيمته السوداء الثقيلة ، وثبت أوتادها فى الأرض وظهر فى السماء هلال صغير ونجوم قليلة متباعدة خافتة الضوء ، ومن مكان بعيد مجهول سمع صوت طائر أشبه بصرخة أم فقدت وليدها الوحيد .

أحس جابر بأن ثمة شيئاً مس جسده فأصابته رعدة وشعر ببرودة ليل الشتاء — رغم أن الليلة ليلة من ليالى الصيف ، فهرول خارجاً من الماء ، واعتلى المرتفع الجاف بينما الماء يتقاطر من سرواله بصوت ، ولبس جلبابه القصير القديم المصبوغ بالنيلة الزرقاء الواسع الأكمام ، وخلع سرواله وظل يعصره حتى خلصه من الماء فنشره على فرع شجرة سنط قريبة مائلة ليجف ، ومضى يكلم نفسه :

— « كيف غاب عنك ياولد ياجابر أن الماء مسكون بالجن وأرواح الغرقى والقتلى » .

وقد مر وقت ، لملم جابر نفسه المشتتة وفارقه الخوف ، فخلع قميصه وطواه وثبته بحجر كبير ونزل الماء متنقلاً من جرف إلى جرف باحثاً وسط الأحجار والعشب النامى عن سمك الضبع البطىء الحركة بسبب تلك الشوكة اللعينة المرشوقة فى رقبته .

ظل جابر يتنقل من جرف إلى جرف بحثاً عن سمك الضبع حتى مر وقت طويل ، فقال لنفسه لو أمسكت بسمكة واحدة سأخرج من الماء وأكتفى بها طعاماً ليومى هذا ، وفكر فى أنه لابد أن يشويها قبل أن يأكلها .. فهل سيطلب ناراً من عشيرته التى ضنت عليه بجمل وهو الذى خدمها منذ صباه ليقدمه مهراً لفاطمة . وقال جابر لنفسه :

— « لو حصلت على السمكة سأضرب حجرين وأشعل منهما النار فى الحطب اليابس وهو كثير والحمد لله » .

ولما نظر جابر للسماء وجدها أصفى زرقة وقد كثر عدد النجوم بها ، فقرر أن يخرج من الماء ويحلم بعض الوقت بفاطمة ثم يعود من جديد ليبحث عن سمك الضبع .

كان جابر عاريا كما ولدته أمه ، مسنداً ظهره على شجرة السنط المائلة ، وبعين العاشق رأى فاطمة تأتى وترفع الحجر وتأخذ قميصه وتشم رائحة عرقه الأخضر تحت الإبطين ومضت تغسل القميص بيديها وها هو يسمع رنين الأساور الزجاجية الملونة .

وليل الصيف لما يوغل يشتد برده — وهكذا أحس جابر برعشة جعلته يفيق من حلمه القصير الجميل ، ولأنه كان جائعا فقد قرر أن يهبط إلى الماء مرة أخرى بحثاً عن سمك الضبع ، مقسماً لله ساكن السموات ومقسم الأرزاق إنه سيكتفى بسمكة واحدة .. سمكة واحدة .. الله يكره عبده الذى لا يعمل ياجابر .. والله يكره أيضا المنشق عن أهله وعشيرته .. إن كانت فاطمة جميلة فالله أجمل من أى شىء وكل شىء .. وهكذا استحق جابر العقاب فخرج من الماء ولبس قميصه وسرواله الذى جف وجلس مسنداً ظهره على جذع شجرة السنط المائلة .

بإمكان جابر أن يسرق حماراً من عشيرة أخرى وذلك لا يحدث إلا فى سوق البندر المسور الذى يحميه عسكر الحكومة ، لو وفق سيجلب السباخ الطيب من المعبد القديم الذى يحرسه خفراء الحكومة ، ولو وفق فسيبيع السباخ الطيب لعشيرته يصلبون به عود النبات الأخضر ، ومع الأيام سيشترى جملاً ويقدمه مهراً لعمه عبد الرسول ليتزوج من بنته فاطمة .

الفخاخ منصوبة للمحبين

– مدخل –

هجع الكل ـــ إلا الضفدع والطاحونة والكلاب وقشمر .

– قاصد الجبل –

ما عاد بمقدور قشمر أن ينكر البرودة التى حلت ببدنه ، وبات عاجزاً عن إيقاف الرعشة السارية بأطرافه : « إنها صحوة القديم يا قشمر تلك التى تسوقك سوقاً إليه وإلى الجبل .

* * *

الكلاب لم تنبح وتوقظ النيام ، فكلاب الوادى جميعها تعرفه ، وإن كانت الكلاب بالليل لا تميز بعيونها بين شخص وآخر ، إلا أنها تملك الأنوف التى بها تشم رائحة قشمر .

– الرحلة –

قمر السماء العالى رمى بالضوء الفضى فوق الرمال ، وخلق الظل الرمادى لقشمر : هذا الظل العجيب يسير إذا ما سار قشمر .. ويقف متى وقف قشمر .

ها هو قشمر الخائف يكلم ظله العجيب :

« أنا صديق قديم للزغبى ساكن الجبل ، إن أردت الحق كنت تابعه ، ههه ، تلك علاقة قديمة كانت فى الصغر وتدرجت مع الأيام وتلك كانت أيام ، حتى جاء يوم أدار فيه الزغبى ظهره لى وللوادى ويمم وجهه شطر الجبل وكان قد قتل الحاج عطية » .

« فى ذات اليوم ظننت أنى قد ملكت حريتى : مادمت النفس .. ومادام قلبى يدق دقاته المعتادة — فلماذا أخاف الزغبى ؟ هل جربت فى يوم من الأيام قوة بدنك ياقشمر . وخضت مع الزغبى معركة ؟ ياالله .. وكأننى كنت أملك تلك القدرة على التفكير !! » .

« يوم طلبت هى الطلاق من الزغبى الغائب — قلت : « هذا الأمر لا يعنيك ياقشمر » ، والليلة زفت على مطاوع بن الحاج عطية ، وها أنا يارفيق الطريق أحمل الخبز لسيد الجبل (ليكفر عن سنوات الوهم والإنكار والمقاومة ، وها هو يا ظلّة على الطريق يبغى الخلاص بالتلاشى فى الآخر) .

سمع قشمر صيحة الجبل ففارقه ظله وهرب :

« ما أقسى لحظات الخوف حين يواجهها الإنسان بمفرده » .

– صيحة الجبل –

يصيح الكشاف من مكمنه أسفل الجبل ويشهر سلاحه ويتلقف آخر صيحة الكشاف فيقبض على سلاحه ويصيح ، ويردد الجبل وتردد رمال الصحراء صيحة الرجال المتتابعة ، وتعوى الذئاب فى البعيد .

يترك الحارس زميله أمام باب المغارة ، ويمر محنى الظهر من سرداب كثير التعاريج محفور ببطن الصخر ، ويهبط ست درجات حجرية ، ويقف أمام القاعد على فرو من جلد الجاموس يتحلقه رجاله الأشداء ، بينما القاعد يفرك راحتيه ويمررها فوق ألسنة النار التى تتصاعد من بوتقة نحاس كبيرة — يقول الحارس :

« رجل قصير شديد البنيان غايته الجبل » .

– المعبر –

ضحك الزغبى وصاح مهللاً، وصاح الجبل وصاحت الصحراء ، وصاح الرجال :

« إنه قشمر .. دعوه يمر » .

تنحى الكشاف وأفسح طريقاً ورد سلاحه إلى غمده ، والزغبى بأعلى الجبل يصيح مرحباً فاتحا ذراعيه لقشمر الذى يعرج مع الطريق الوعرة صاعداً الجبل — كأنه الطاووس وقد ولى عنه نصف الخوف .

– أولاد آدم –

يرمى الزغبى الحطب للنار لتأكل فتتأجج وتضىء وجوه الرجال وتزيح الظلمة فتقبع بأركان المكان القصية . ويقترب قشمر من النار فهو فى حاجة للدفء الكثير .. ويشرب الكل شايهم الساخن من أكواب الفخار بصوت .

تكلم الزغبى وردد الصدى كلامه :

« تم الطلاق .. والبارحة كان العرس .. المرأة تفعل ما تريد .. مطاوع ابن الحاج عطية تزوج من أم ابنى .. وابنى تربى فى بيت الحاج عطية .. صار كبيراً بعد العمر الذى مر .. صار الثور سميناً .. أطعموه ليكثر لحمه ودهنه .. متى سيذبح ؟ » ..

ردد قشمر : « صار رجلاً .. لقد كبر ! » .

صرخ الزغبى : « لماذا لم يحضر إلى هنا ؟ لماذا لم تجىء به أنت إلى هنا ؟ »
رد قشمر : إنه .. إنه محب .. و .. عاشق » .
سأل الزغبى : « من تكون المليحة ؟ » .
قال قشمر : « فتاة .. تسكن كروم النخيل الواقعة بأملاك الحاج عطية .. أتت مع الغجر الرحل » .

– العدة –

ها هو بخرقة ابن السبيل ، حافى القدمين ، يظلع فى مشيته ، منحنى الظهر ، يستند على فرع يابس من الحطب ، بلحية طويلة لم يهذبها مشط ، وعمامة خضراء كبيرة فوق الرأس ، ومن رقبته تتدلى مسبحة كاملة : عدد حباتها تسع وتسعون حبة .

– عائق –

داهمه الليل ، وسمع نبح الكلاب الجائعة الراقدة أمام الدور ، وتلك التى تسعى بين الدروب الضيقة ، فقرر أن يبيت ليلته على أبواب الوادى حتى تطل عيون النهار .

– على أبواب الوادى –

إنها شجرة التوت القائمة منذ الأزل المسماة بشجرة الله ـــ تحتها زير به ماء ، وهذا ضريح الولى المجهول الاسم . وتلك هى المصلى : مستطيل من الأرض فرش بالحصير وحوط بسور قصير ارتفاعه قالب طوب قائم .

بداخل الضريح مصطبة مفروشة بحصيرة قديمة ، وفوق المصطبة كومة من الأغطية القديمة ، ومن الكوة المحفورة ببطن الحائط ـــ تطل عين سوداء ولمبة جاز فتيلها قصير تزفر الدخان الأسود وتطوح بالضوء الأصفر القليل والظلال الرمادية الكثيرة .

– الحلم –

الحاج عطية يتكلم من فوق سرجه ، والسمكة من البلور الأزرق النقى

(منتفخة البطن ، بجنبها الأيمن زعنفة كأنها جناح طائر وبجنبها الأيسر زعنفة كأنها جناح طائر ، وبأسفل البطن ثقب) ، الحاج عطية يريد السمكة لنفسه والزغبى يريد السمكة لنفسه . والحمار الأبيض العالى الظهر رمى بالحاج عطية ورمى بسرجه وركض فى حقل البرسيم الأخضر ، والسمكة بيد الزغبى ، وضوء النار الأحمر صبغ الكون ، ولا شىء أعلى من ألسنة الدخان غير قامة الجبل المضيئة .

– النداء –

الصوت طلع من حلق مشروخ من البرد ، ومن صدر تكومت فوقه طبقات وطبقات من دخان المعسل المحترق .

— قال : « هو يوسف الأعور ينادى الناس من فوق جامع عبد الله لصلاة الفجر » .

– اللقاء –

قالت : « لو عرفوا أنك أنت .. وأنك هنا .. لأتوا وقطعوا رأسك » .

رد بثقة : « لو عرفوا ، عاونينى حتى أعرفه » .

قالت : « اذهب وخذه من بيتهم قبل أن يقتلوه » .

قال : « بلغنى أنه عاشق .. أريد أن أراه وأراها » .

وسألها : « لماذا طلبت الطلاق ؟ »

قالت : « أردت أن أكون محصنة » .

قال : « بالزواج من مطاوع ابن الحاج عطية !؟ »

قالت : « لو أحبنى سيترك لى ابنى .. وها أنت ترانى لابسة ثوبى الأسود » .

قال : « كان بإمكانك أن تحمليه وهو صغير وتأتين به إلى الجبل » .

قالت : « الطريق إلى الجبل وعر وطويل على امرأة .. وكانوا سيلحقون بى .. وأنت تتكلم عن الماضى » .

قال : « المرأة لو أرادت فعلت » .

وقال لنفسه : « وأنا تركتها حبلى غير قادرة على الجهد » .

أمسكت بضفيرة من شعرها ، ودس هو يده تحت ثوبه وأخرج سكينة قدمها لها ، مدت يدها وتناولت السكينة وجزت ضفيرتها وقدمتها له .

قالت : « عد إلى الجبل .. ستجده فى بيتهم أو تحت كروم النخيل .. إنه يشبهك .. لست فى حاجة إلى معونتى » .

وقالت تلومه : « أتيت بالسكينة لتقتلنى » .
قال خجلاً وهو يكذب : « أتيت بالسكينة لأدافع عن نفسى » .

– البغتة والمتفرجون –

أطل مطاوع وخلفه خلق كثير سدوا فتحة الباب .

قال مطاوع : « كنت على يقين من أنك ستحضر بعد زواجى منها » .

وتقدم مطلوع ، وأمسك بالفأس المسندة على الحائط ورفعها بيديه لفوق ولوح بها فى الهواء وصرخ فى وجهيهما . فتراجع الزغبى .

– صانع الفاجعة يلم الخيوط –

صرخ مطاوع :
« ها أنت خائف .. كان عليك أن تتقدم إلىّ حاملاً أكفانك على كتفك بعد قتلك لأبى .. وكنت سأعتق رقبتك .. بدلا من أن تحتمى بالجحور .. كان عليك أن تثق فى عرف الرجال » .

وصرخ مطاوع فى جمهرة المتفرجين :

« ها هو خائف .. ها هو ساكن الجحر .. وها أنا مطاوع ابن الحاج عطية أعتق رقبة الزغبى قاتل أبى » .

وعاد يصرخ فى الزغبى :

« لن تعود للجبل فالذئاب تقتل الخائف .. ولا أنت خارج من بيتك للوادى فالرجال هنا طبعهم مطاردة الفئران والقرف منها ، هنا جحرك .. وتلك هى

زوجتك التى لن تطيقك .. تعلم كيف تستخدم سكينتك حين تجوع وتطلب اللحم .. أما ابنك فهو راحل خلف الفتاة الغجرية .

– يستحق الجنون لأنه الشخصية الأخيرة –

كسر طوق الرجال ، وجرى حاملاً فأسه يلوح بها ، وهو يضحك ضحكة المنتقم المجنونة فتردها الحوائط ويرددها الخلاء ، حتى بلغ شجرة الله المثمرة (كانت بالضحى ترمى بظلها الكثير على ضريح الولى المجهول وعلى الزير وعلى المصلى ، وقد تجردت الساق الضخمة من لحاها) ورفع فأسه .. وصرخت الشجرة .

الشهر السادس من العام الثالث

البداية :

مع رجال التراحيل رحل مصطفى .. وهو بعد صبى .. مر عام والعام الثانى يطوى آخر أيامه ، وما من خبر عن الغائب الغالى .

عقل الأم :

عقل حزينة مع ابنها الغائب : هناك فى البلاد البعيدة .. وأذنها اليمنى التى تسمع ـــ هنا : مع الحمام الذى يهدل « الملك لله .. الملك لله » . عينها اليمنى فقدت النور من عامين . بعينها اليسرى ترقب : بخيت البشارى الراقد يتقلب فوق المصطبة التى تطوق جذع شجرة الدوم « صار بعد العمر الذى مر كالقفة ، ترفعها من مكان به شمس وتضعها بمكان به ظل ، يرقد على ظهره يرقب الشمس الجارية فى السماء ، يصرخ فى وقت : أبغى الشمس ، ويصرخ فى وقت آخر : أبغى الظل ـــ هكذا طوال النهار ، هكذا يمر النهار ، هى وابنتها الشابة تحملان القفة من الشمس إلى الظل ومن الظل إلى الشمس ـــ لكنه زوجها فى الحلال وولد مصطفى وفهيمة ....

اليدان تلعبان ــ هنا ــ بالمغزل الذى لا يكف عن الدوران ولم الخيوط ، والعقل ــ هناك ــ مع الغالى فى بلاد الناس البعيدة .

بخيت البشارى فى حديث يقظة :

« المصباح شح زيته ، والليل الطويل الأسود قادم ، آه من الوجع والسن ، نومى قليل وبولى لا أتحكم فيه ، حزينة الخرقاء تتطير من رؤية النعال مقلوبة ومن الريح لو حملت قشر الثوم ومن قدم تدوس كسرة خبز مرمية ، حزينة مخرفة،هى امرأة ، الرجل منا كابد ، عقلها مع الولد والولد بعيد ، قلب الولد من حجر وأنا قعيد البيت ، أرغب فى النوم ، لو نمت وطال النوم ــ بغير أحلام وكوابيس ــ سأذهب إلى الله الرحيم ــ أنا المسلم ــ وأتخلص من الأوجاع والعمر المكروه وأدخل الجنة ، لو عندى دخان لدخنت ومر هذا الوقت البطىء الذى لا أحتمله » .

من حكم الليل معلم القرى :

« نجمة مشتعلة هوت من السماء الزرقاء العالية واحترقت قبل أن تبلغ الأرض : لو طالت البشر أو الحيوان أو الزرع أو حتى الجن – لتحول فى التو إلى رماد ».

« مصطفى الأصغر ــ لكنه سيد فهيمة التى تكبره بعامين ونصف عام ، يضربها وتحبه ، الأم موافقة والأب موافق ، مصطفى حامى فهيمة ومخوفها من العيب ، مصطفى رجل وفهيمة بنت ، للبنت ثوب أبيض طويل الذيل ، على البنت أن تمسك بذيل ثوبها وتمشى فى الطريق محاذرة ــ وهل بالطرق غير الوحل والتراب والقش !؟

الصبية مضطربة والليل رفيق الأفكار :

هى بنت الأم والأب ، وهو الشقيق البعيد ، وهى تحبه وهو باليقين يبادلها الحب ، فى المرات الأولى كانت تبكى ، بمرور الوقت وقد عرفت طعم اللذة يصحبها الألم ــ كانت تتعمد الفعل المعوج ليضربها فتتصنع البكاء وتشتمه : هكذا تشتعل ناره وتحمى فيضرب بعنف .

كان يطلع نخل جبانة النصارى بالليل فى غفلة من أحمد المحروق الحارس النائم .. يسرق البلح ويبيعه لمنصور الصادق صاحب الدكان الساهر ويشترى الدخان ويدخن ، حتى هذا الوقت لم يعرف الأب ولا الأم أن ابنهما كبر ويدخن ، فهيمة لم تبح بسره ــ لأنها تحبه وتقدر أنه يهاب والديه . للبول رائحة على التراب تشمها لما تتذكره ، فى الستر كانت فهيمة تشم رائحة وسخ مصطفى وعرقه بملابسه قبل أن تغسلها ، ورغم البعد فهو ابن الأم والأب وهو الرجل الذى تخشاه وتحبه .

الشهر الثالث من العام الثالث :

همهمت الغجرية لترقص الحلقات المتدلية من الأنف والأذنين ، سحبت من معطفها صرة من القماش فبان رمل وحجر . مدت حزينة يدها ببيضتين . قالت الغجرية :« ثلاث بيضات » وابتسمت الغجرية ولمعت سنتها الفضية وقد رمت حزينة بنظرة فاحصة وتمتمت :« مليحة الصبية .. كالبدر فى اكتماله .. مفرودة الشراع كالمركب فى الماء » . لمحت حزينة السنة الفضية والحلقان وهى ترقص قالت: « لن أتركها تخطف ابنتى .. تلك التى لا دار لها .. سارقة الدجاج والأطفال .. لكنها تعرف كيف تكلم الحجر .. ثلاث بيضات ثلاث بيضات » .

ما قاله الحجر وما قالت الغجرية :

قطار من حديد أسود خلفه الدخان والأهل والزرع والتراب والبيوت ، وباخرة حملها الماء وجرت بها الريح ، الجبال سوداء والرمل الأصفر على الجانبين ، وبالبلاد ملوك ، والشمس تجرى فى الماء والشمس تجرى فى السماء ، على الماء قمر ، وفى السماء قمر .وفى الشمس الثامنة حط ابنك على البر بسلام ..اشكرى الله ياخالة .

خــــبر :

من النهر عادت فهيمة ، باب بيتهم الخشبى الموارب ضربت ضلفته الواحدة بقدمها اليمنى وزعقت :« آماه .. آماه » . تملك حزينة غضب سمعت خبط الضلفة الخشبية بالحائط الطينى وصراخ فهيمة وصوت الجرة التى سقطت فأنكسرت وسال الماء ــ قالت حزينة :« الرعناء » . صرخ البشارى :« ما الذى

جرى .. هل قامت القيامة !؟. » صرخت فهيمة:« وصل جواب من عبد الحكم لأهله » . قال بخيت البشارى:« البنت تزعق كما لو كانت تنادى فى السوق » ، وسأل مستفسراً « عبد الحكم .. من يكون عبد الحكم !؟ » . ردت حزينة: « ابن صديقة على » . قال بخيت وهو فى عجب من أمر الحريم:« مالنا ومال عبد الحكم ابن صدّيقة على !؟ » . ردت حزينة « رفيق مصطفى فى الترحيلة .. عبد الحكم رفيق مصطفى فى غربته » . قال بخيت « عبد الحكم ابن طه محمد .. تتكلمان عن عبد الحكم ابن طه من صدّيقه على » ، وسأل بخيت البشارى « ومصطفى ؟ » . نظرت حزينة للجرة المكسورة وانقبض قلبها « هذا النذير » ، وردت على بخيت — وهى تهم بلبس بردة الخروج « سأعرف منهم .. من أهل عبد الحكم سأعرف » .

بشارة خير :

فى خطاب عبد الحكم لأهله سلام من مصطفى لأهله . هبطت السكينة على قلب حزينة الملتاع فأكثرت من الكلام مع«صدّيقة على» وشربت كويين من الشاى وأكلت تمراً طيباً ومر الوقت سريعاً — وقالت « لصدّيقة على »وهى تهم بمفارقتها: « عرفت أنهم هناك يعملون .. يشقون الترع ويقيمون خطوط السكك الحديدية لتجرى القطارات .. لكن متى يصلنا منهم المال ؟ » .

الحمد لله والشكر لله :

باكو دخان معسل دفعت فيه حزينة لصاحب الدكان خمس بيضات وأعطته ليوسف سليم نقيب الشيخ موسى صاحب الدعوة المقبولة والقريب من الله ، وطلبت حزينة من يوسف أن يطلب من الشيخ الدعاء لمصطفى فى بلاد الناس .

نقـــــاش

قال بخيت : « يوسف سليم سيأخذ الدخان لنفسه » ، وفكر فى باكو دخان كبير مرسوم عليه نجمة ، فكرت حزينة : بخيت كان يريد الدخان لنفسه ، وقالت : « يوسف سليم رجل طيب .. اختاره الشيخ دون أهل البلد لأنه رجل طيب » . قال بخيت لنفسه : حزينة مناكدة .. هى الآن تريدنى أنا غايتها فى التو

واللحظة نهش لحمى .. لما كنت أملك عافيتى كنت أغلق فمها .. لما يأتى الليل سأبكى تحت الغطاء أنا رجل البيت .. لو صحا واحد من أهل الدار سأمكر وأقول « أبكى من العلة » . قالت فهيمة « الشيخ كله بركة » وفكرت فهيمة : وهو فى مثل سنى خلع ثوبه ورماه فى الماء فطفا الثوب وقعد عليه وعبر النهر من الشرق إلى الغرب وعاد للشرق ولبس ثوبه الذى لم يبتل .

بخيت يواجه نفسه :

فى مواجهة الليل الطويل الأسود والمصباح الذى شح زيته والعلة التى تنهش فى جسده الضاوى — تراجع بخيت البشارى وحدث نفسه وقد خاف الضرر المخبوء فى الغيب :

يوسف سليم رجل أمين .. كان يعمل بالجزارة ويكسب .. كانت الدكانة حجرة من حجرات البيت تطل على الشارع .. لما اختار الشيخ الحجرة لتكون خلوته التى يعبد فيها الواحد الأحد كف يوسف عن الجزارة وصار نقيب الشيخ فى جمع النذور .. الشيخ موسى أيضاً رجل مبارك .. يغلق حجرته بالنهار ويجوس هناك بمكة المكرمة مع صحبه من الأولياء والصالحين ولا يعود الا بالليل ليفتح حجرته ويستقبل أحبابه ومريديه ، لولا المرض لزار بخيت الشيخ وجلس مع أحباب الشيخ وشرب المعسل وشم البخور الذى يأتى من مكان بعيد مجهول وشارك فى الأذكار وأكل اللحم الذى يشد العظام ويجعلها متينة .

أخيراً وصل جواب من مصطفى :

بعد ثلاث أعوام ونصف عام وصلت رسالة من مصطفى على عنوان الشيخ الفاضل ، أفاد فيها والده بخيت البشارى بالخلاف الذى قام بينه وبين الريس عبد الظاهر ، وطلب من والده صرف النظر عن موضوع الخلاف وعدم مناقشته فيه فمصطفى رجل يعزف مصلحة نفسه ، قال مصطفى لوالده : لا تدع الأفكار السوداء تنتابك من ناحيتى .. سأسعى فى أرض الله الواسعة .. سأعمل سأحصل على المال الذى يسد حاجتى ويكفى لكى أرسل لكم ما يكفيكم شر الزمان الصعب .. أطال الله عمرك يا أبى ومنحك الصحة والعافية .. سلامى لأمى حزينة وأختى العزيزة فهيمة التى أتمنى لها حياة مستورة فى بيت ابن الحلال الذى يأتى ويدق الباب وتفتح الباب أنت ويتم الفرح فى حياتك .

النهاية :

صمت الشيخ الفاضل ثم قرأ: «مع تحيات محمد أحمد كاتب الخطاب » ، ثم طوى الرسالة وناولها لحزينة التى قبلتها ودستها فى صدرها . قالت حزينة لنفسها : سافر من أجل المال فلماذا لا يعود،والبركة فى دجاجاتى منها نحصل على البيض الذى نبيعه ونحصل على حاجتنا .. عشنا الفقر ولم نعرف الغنى فلماذا يحملنى أنا أمه ألم بعده . وقالت فهيمة لنفسها : لما أتزوج سأترك هذا البيت .. ليت زوجى يكون فى جسمه وشكله . وحدث بخيت البشارى نفسه : سأموت قبل أن يكون وأراه .

الموت فى ثلاث لوحات

– اللوحة الأولى –

ها هو بخيت البشارى ممدد على سريره الذى صنعه بيديه من جريد النخيل ، المرض المكروه أقعده من عامين . رفعت حزينة عنه الغطاء ورأت الوجه وقد شرب الألوان الثلاثة : الأسود والأصفر والأزرق ــ فخمنت أنه الموت . قالت حزينة لبنتها فهيمة : أركضى يا بنت ولا تعودى بغير الشيخ الفاضل ، وقالت حزينة لنفسها وهى ترى الغطاء يطلع وينزل بمكان الصدر : هاهو يقاوم بعزيمة الرجال .

لم الشيخ الفاضل ذيل قفطانه الحريرى الأبيض من خلفه وهم بالجلوس . أقسمت حزينة بمحمد أشرف الخلق أن لا يوسخ الشيخ الفاضل ثوبه النظيف بالقعود على المصطبة العارية . جرت فهيمة وعادت بحصير فرشته على المصطبة ــ التى تطوق جذع شجرة الدوم القائمة بفناء الدار ، وقعد الشيخ الفاضل .

خبطات الهواء تحرك الأوراق الخشنة الكبيرة لشجرة الدوم وتجعلها تحتك وتصدر أصواتاً أشبه بزحف الحيات وسط دغل الحلفاء . ضوء شمس ما قبل الغروب الأصفر اللين يغمر أرض وحوائط الفناء الضيق . الشيخ الفاضل أشار بالفائدة

التى تعود على المريض من الشعاع الأصفر . حزينة القاعدة على الأرض بجوار سرير زوجها لزمت الصمت ، فهيمة القاعدة على الأرض بجوار أمها لزمت الصمت ، قالت لنفسها سأجاريها فى كل فعل تفعله : أنا لم أخبر بعد هذا الذى خبرته هى .

أدار الشيخ الفاضل وجه بخيت للقبلة الشريفة وباعد مابين الشفتين وصب الماء الطهور ومال على أذنه مجاهراً : لا إله إلا الله .. سيدنا ونبينا محمد رسول الله ، وعاد وقعد على الحصير فوق المصطبة .

سقط الظل الثقيل على الفناء فجأة . خمن الشيخ الفاضل بعلمه أن ملاك الموت قد حضر . وقالت حزينة المجربة : نعم هو ملاك الموت . وظنت فهيمة من غفلتها أن الشمس سقطت هناك خلف جبل الغرب ، لكنها أغمضت جفونها — مثل أمها والشيخ الفاضل — لتحمى عينيها من التراب المهتاج من ضرب الجناحين الكبيرين ، وسمعت مثل أمها والشيخ الفاضل صوت الشهقة العالية وصوت الباب الذى أنغلق فما قدرت على كتمان الصرخة العالية .

* * *

النسوة المعزيات يشاركن حزينة فى الصراخ ويلطمن الخد؛ وحزينة تعلم أن الواحدة منهن تنادى موتاها الغوالى ، أما هى فبعقلها هناك مع الرجال .. مع الميت يرفعون الشعر عن الإبطين والعانة .. ويغسلون الجسد بالماء .. ويدعكونه بعشب العفن المر .. ثم يجمعون من جيوبهم ثمن الأكفان البيضاء ويحملونه على خشبة ويصلون عليه وينزلونه فى الحفرة ثم يهيلون التراب عليه — وعليها هى أن تدبر فى أجر الفقهاء الذين سيحضرون لتلاوة القرآن على روحه طلباً للغفران والرحمة .

– اللوحة الثانية –

صحت بالليل الأخير على صوتها تتضرع : أماه .. أماه ، هبت فزعة. قالت فهيمة : البرد .. البرد يا أماه .. نعم جسد البنت كله يرتعش والرأس ساخن

كأنه فرن موقدة ، لمت كل الأغطية وكومتها فوق الجسد ، وبالخل والماء بللت خرقة وظلت ترطب الرأس ، وظلت ساهرة حتى طلعت الشمس ، وهالها أن رأت وجه ابنتها وقد شرب الألوان الثلاثة : الأصفر والأسود والأزرق ، قالت لنفسها : هى الحمى المميتة .

جاء المأمون المذكلم حلاق الصحة ، وحلق شعر رأس فهيمة ، وفصده بالموسى ، وامتص بالمحجام الدم الفاسد ، ملأ خمسة محاجيم من الدم القذر القاتم اللون ، وقال : هناك أيضا دم فاسد يعكر الدم النقى الذى يحفظ لفهيمة الحياة .. ولو كانت صحة فهيمة تحتمل لأخرجت محجامين آخرين وضمنت بذلك سلامتها . وقال المأمون المذكلم حلاق الصحة إنه سيعود مريضته بعد آذان الظهر مباشرة ويرى ما يجب

جاء المأمون المذكلم ورأى فهيمة ما زالت على حالها لا تفيق من غيبوبة حتى تسقط فى غيبوبة ، فأوقد ناراً وحمى مسماراً وكوى رأس فهيمة ثلاث مرات ، وقال المأمون المذكلم : بذلك أكون قد قتلت الدم الفاسد العكر والأمر بعد ذلك لله وحده يفعل ما يشاء .

ظل الأمل يبرق ويخفت ، وأذن يوسف الأعور من فوق مسجد عبد الله لآذان العصر ، وأذن يوسف الأعور ينادى الناس من فوق جامع عبد الله لصلاة العشاء ، وها هى فهيمة تبتسم ، وصرخت حزينة فى وجه القادم : لا .. لا .. أنها لا ترحب بك .. لكنها صغيرة وغير قادرة على مواجهة الألم .

– اللوحة الثالثة –

بين الدروب الترابية الضيقة المتعددة المتعرجة المحاطة بتلال القبور الراقدة تحت ظلال الغروب الحمراء المتوهجة بغير حرارة ، كانت حزينة تدب وشجر التمر حنة تحت هبات الريح الخفيفة لا يكف عن إمطارها بالزهر الأصفر اليابس ، كانت تسلك طريقها وسط المقابر محاذرة متطيرة من هول ما يمكن أن يصيبها فيما لو داست على عظام ميت ، وسمعت حزينة وقع خطوات تتبعها ، وجاهدت حزينة جهاد الأنثى الضعيفة لتطرد الخيالات والمخاوف السوداء ولكن عقلها عصاها فاستسلمت للقوة القاهرة التى تسوقها ونظرت خلفها ورأت فهيمة : نعم هى

فهيمة بلحمها ودمها . فهيمة التى ماتت .. وما أن لمحتها حتى اختفت !!
(أتكون القادرة بنت الجن أخت الشقيقتين هى التى فعلت هذا !؟ .. نعم
الشقيقات الثلاث القادرات بنات الجن، من يجمعن القطط والكلاب الضالة
ويمسكن بالرحى الكبيرة التى تدور ولا تتوقف ويطحن اللحم والعظام فتموء
القطط وتعوى الكلاب ويختلط الدم باللحم وتلمع العيون الست بمثل الجمر
المتقد .

* * *

البيت موحش وحزينة بمفردها ، مات البشارى وماتت فهيمة وحزينة محمومة
وعاجزة عن أن تنادى جارة ، وماكينة الطحين تدق فى صمت الليل بصوت
واضح رتيب لا ينقطع : تك .. تك ، والجنيات الثلاث هنا .. عيونهن تلمع فى
الظلام كجمرات متقدة ــ ولكنها ستحتمى بهذا الذى يقف فوق رأسها ،
وابتسمت حزينة للرجل الكبير الجرم الأسود العارى المكشوف العورة .

الجثة

خمسون فداناً عالية هى ثلث مساحة أرض حوض المدامود الشرقى . لا يبلغها النيل إلا فى نوبة مده فيغمرها بماء الفيضان النحاسى ، وينحسر عنها متى يحل موسم التحاريق ويجرى الماء قذراً ـــ هناك فى خلجان وترع ومصارف القرية .

خمسون فداناً تغنم كل موسم فيضان جديد طبقة من الطمى الطيب ، يجعلها تلوح كتلٌ معلق ، تحته ينبسط السهل المزروع بالقمح والشعير ، وفوقه تمتد السماء الزرقاء،حيث تجرى شمس الصيف الاستوائية منفجرة من جوف تلال الشرق بلون الفضة كل صباح جديد وتسقط جريحة تشخب دماً وقت كل غروب ـــ هناك فوق القمم المدببة لتلال الغرب حيث ينطبق الأفق وتنتهى حدود العالم .

ها هى الخمسون فداناً مغطاة كالعادة بشجيرات العدس القصيرة الكثيفة المتشابكة،وقد صارت صفراء تنتظر منجل الحاصد المعقوفة ذات الأسنان الحادة القاطعة .

وسط شجيرات العدس الصفراء الكثيفة المتشابكة ترقد الجثة ، لرجل فى الحادية والخمسين من عمره ، الرأس مفصول عن الجسد ، بضربة واحدة قوية

مباغتة أتت من الخلف ، واستخدمت البلطة كأداة وكانت ذات يد خشبية قصيرة وسلاح من الصلب الأسود المسنون جيداً ، هذا بينما بات سلاح البلطة ليلة فى العراء تحت قمر مكتمل ــ داخل إناء فخارى مملوء بالسم القاتل ، ومرسوم على سطح الإناء الخارجى جمجمة بدم ذبيحة بشرية .

المقتول : واحد من أجساد قليلة ممتنعة على الرصاص ، من القلة المحكوم لصالحها بالخلود ، يتدلى من أذنه اليسرى قرط من الذهب النقى انتزع عنوة وترك ذلك الخيط من الدم الذى جمد وتفحم .

القاتل المؤمن بالخرافة : رمى بالجثة وسط شجيرات العدس القصيرة الكثيفة المتشابكة الصفراء القاسية دوماً .

شجيرات العدس : كانت حنوناً هذه المرة فالمقتول واحد من الخالدين ، لمت الجثة ، سترتها ، غطتها ، ضمتها جيداً .

الأرض تحت الجثة كانت جافة وسوداء ومتشققة وعطشى ، وشمس الصيف استوائية حادة عامودية تلامس رأس التل،وكافرة فى هذا الوقت من النهار .

طيور القبر الضئيلة الحجم القليلة اللحم اختبأت وسط شجيرات العدس حين حومت الحدأة ذات البصر الحاد القوى فوق المكان . وحين أتت ثلاث حدءات وحومت فوق نفس المكان طارت قبرة خائفة ودفنت نفسها فى العشب القصير الأخضر الكثير النابت بالسهل ــ بعيداً عن الجثة .

الدف والصندوق

سمكة ميتة كانت طافية فوق سطح الماء ــ فجأة ــ انقض طائر نهرى . حملها بين مخالبه وطار . وعاد ماء النهار يتماوج بلمعة الذهب وحرارته .

على الضفة الاخرى ــ تحت قدمى الجبل الغربى الكبير ــ بانت البيوت : أكوام من تراب ــ من صنع صبية صغار ، تشكلت البيوت فى خيال مريم : خراف ضامرة بمرعى واسع من الرمال الصفراء اللامعة ، وبدت لها الشمس : صبية عمياء مسوقة بنداء الطلسم المخبوء بصدر الجبل العريض .

(الكون عاكف عن الكلام ــ منذ أمس ــ والأشياء أيضاً تحدثت مع مريم على هواها وقد عادت من النهار ، انفجر ثديان كانا مخبوءين طوال أربعة عشر عاماً هى عمر مريم اليوم) .

* * *

تركت مريم الجرة تطفو فجرفها سطح الماء المتحرك ، لمت ذيل ثوبها ــ كى لا يبتل ــ وأنامته بين فخذيها وضغطت عليه ، خاضت فى الماء بتعثر حتى لحقت

بالجرة . أمسكتها وأمالت عنقها ، جرى الماء فى العنق إلى الجوف وهو يقول : بلك .. بلك ، تابعت مريم صوت الماء وشعرت براحة تجيء وتصحب راحة كأن يهبها بسخاء دفء الماء الذى يغمر ساقيها : بالقطع لو وصلت مريم لعمق أكبر تحصل على راحة أكبر ــ لكنها تخاف البنات وتخشى الغرق ، تخاف أن تطيع رغبات النفس ، ربما كان كل شيء ــ الآن ــ بإيعاز من الجنيات ساكنات القاع .

ودت مريم لو تنتظر حتى يحضر الصبيان . ويقفوا فوق رأس النهار ، ثم تحضر البنات وترشهن بالماء ، ولكنها بسرعة طردت ما فكرت فيه وقالت : « لو الهوى هوايا والأمر أمرى كنت أقلب الدنيا وأجعل عاليها سافلها ، لكن يا حسرة فعلة منى تسخط أمى وتجر على لوم صالح (بعد مقتل الأمين الطواب ، هجرت تفيدة حسين أهل الكرنك القديم ، طلقت العمران وبنت البيت الوحيد الخراب بحوض الخمسين ، سكنته وحدها مع صالح ، كان صالح صغيراً وقتذاك وكانت مريم فى الغيب : من الرحم للدار لحياة النفوس الثلاثة ، فى الخارج كان يحيط بهم عالم واسع وقرية يسكنها آلاف البشر) .

حين لاح حوض الخمسين دهم مريم انقباض مفاجيء (خمسون فداناً هى ملك لهم ، مغطاة بشجيرات العدس ــ هى زراعتهم ، تحوط البيت الوحيد ــ بيتهم ، والكل نائم تحت الظلال الصفراء العليلة للشمس الغاربة) .

البيت الكبير الواسع مثير للضجر وموحش أيضا .. وهو الآن : ينقض على النفس كما تنقض حوائط القبور على الموتى . تنبهت مريم وقد جنحت فى غيط العدس ، عادت للخط الجاف الذى يجاورها وضربت فيه ، كان يمتد تحت قدميه موصلاً لمدخل الدار ــ وحين قفز إلى وعيها أن أمها لم تغادر الدار قط منذ مقتل الأمين والدها ــ أدركت باليقين أنها وصالح وحدهما صنعا بخطوهما هذا الطريق وسط شجيرات العدس ، تبسمت مريم بالرضى لاكتشافها الجديد .

* * *

كانت الأم جالسة أمام نار الكانون ، نفذت لأنفها عشب الخُبَيِّزة؛ رائحة خاصة تميزها تفيده ويفوح بها العشب حال نضوجه ، أمسكت بالقدر من

آذنية ، لسعتها الأذنان الملتهبتان ، لمت طرف ثوبها ولفته حول كفها اليمنى وأمسكت بالقدر من أذن واحدة وأنزلته ، جفلت حين لسع وهج الجمر جلدها المكشوف ، أرخت بصرها ورأت ظلال اللهب الرمادية تتطوح على فخذيها العاريتين ، أمسكت بفرعين لينين من الحطب وألقمت النار ، اقتربت من النار أكثر وظلت تزحف ، وهي تتراجع بعيدة عن النار شعرت بخوف يهزها : ستصبح عجوزاً .أغمضت عينيها : اللون الأسود ثقيل ، رائحة الخبيزة قوية ، طرحتها السوداء شديدة القتامة ، فخذان شاحبان هرب منهما الدم ، مريم صبية .. وحلوة ، مريم من الأمس أنثى ، أنثى بحق ، وتأملت فى ملامح مريم — مريم تشبهها ، وشعرت بالخجل لأنها حين أشارت لصدر مريم المبتل .. لم تلمح مولد فرخى يمام .. كانا قبل كلمتها يرقدان مطمئنين على صدر مريم ، وهى أفزعتهما ، وتفيدة كانت صغيرة وتعرف بأى جناحين يضربان ، لقد صنعت تفيدة بفعلتها الحمقاء الجفوة التى تجعلها وابنتها لا تتواجهان منذ الأمس .

لم تتقدم تفيدة لتعين مريم فى إفراغ الجرة ، قالت مريم لنفسها : الخير فعلت ، ثنت ساقها اليمنى واراحت ثقل الجرة على ظهر فخذها ، ثم رفعتها بعنت وأفرغت ماءها فى الزير بعجل .

مسحت زجاجة الفانوس الداخلية دون غسلها ، لم تمسح زجاج الفانوس من الداخل ولم تلمعه من الخارج،أقنعت نفسها بأنه نظيف ، أضافت كمية من الجاز للمبة الفسحة الوسطى — دون شد الفتيل كى لا تغسل يديها ، هشت الدجاج ليبيت فى « الكن » ، ضاقت بشدة من دلع الديك . « صدر العريان » ، ووضعت للحمار كمية من التبن الأبيض ، وخلطت كمية من التبن الأبيض بدراس الفول ووضعته أمام البقرة ووضعت كمية مماثلة للجاموسة ، ثم عادت ووقفت أمام بوابة الدار ، أسندت جذعها على حائط المدخل ، كان الأفق متوهجاً ، ثم انطفأ فجأة : زرقة داكنة حومت فوق البيوت المتفحمة ، وسواد كثيف صنع من البيوت والنخيل والأشجار كتلة واحدة شديدة التماسك . أغلقت البوابة وأسقطت اللسان الحديدى من الداخل ، وتركت طاقة البوابة مفتوحة ، رغم الظلام الذى تعديه الليلة ليتساوى المبصر والأعمى ، وجلست قرب البوابة بانتظار صالح ، وعندما جاء الكلب وقعد بجوارها طردته — وقالت : لا ينقصنى إلا أنت !!

جاء سعيد ـــ بعد آذان العشاء بساعتين ، كانت الأم تنتظره ، خاب ظن مريم حيث توقعت أن يسبق من هنا صالح سعيداً من زمن ، رفعت مريم لسان الأمان الحديدى وفتحت البوابة ، دخل سعيد وسأل مريم عن حالها .. ردت باقتضاب : خير ، وقالت إن أمها بالحجرة البحرية ، وزعقت منبهة : سعيد ابن خالتى يا أماه،سبق سعيد مريم ، قالت محذرة : الكلب حر . أبطأ سعيد خطواته ومضت مريم لكوة بجدار الفسحة وأتت بلمبة الجاز . فكر سعيد فى شراسة ـــ شبيب ـــ كلب خالته تفيده حسين ، توقف حتى عادت مريم وتقدمته ، فكر فى أن يقول لمريم إنها كبرت وصارت عروسة .. ويوم يحمل مهرها ستخلع خالته الأسود .. سيكون الفرح سبع ليال .. بنات الحاج « ركابى » . سيرقصن على طبلة عبد العزيز .. ثم عاد وفكر فى شراسة ـــ شبيب الكلب ، كان ظله وظل مريم يتطوحان أمام عينيه تحت ضوء اللمبة الأصفر القليل ـــ تساءل : الجاز قليل ..؟ ردت مريم : لا .. الفتيل قصير !! ـــ وهزت اللمبة لتؤكد أنها عامرة بالجاز ، وناولتها له ليتأكد هو أيضاً .. أمسك سعيد باللمبة ، شد باثنين من أصابعه الفتيل المشتعل ورفعه لأعلى ومسح الوسخ بجلبابه « الدمور » . كادت مريم تزعق ـــ وقد أفزعها أن يلمها ظلام مباغت بسعيد : حاسب اللمبة تنطفى ، طاول رأس الفتيل خنصر الأصبع ، وصار لشخص سعيد ظل واضح يموج على أرضية الفسحة الترابية .. كما كان لها ولرأس الفتيل المشتعل ظلان واضحان ، اكتفت مريم بالقول لنفسها . بطريقة بكائية ، يقولون زفوا الوسخ سعيد لمريم .. بنت الأمين تصير لسعيد زوجة .. يقصدون العبيط يصبح سيدى وله الكلمة .. هو الراجل !!

* * *

زام الكلب الراقد أمام باب الحجرة البحرية ، رفع قائمتيه وشد جسمه متحفزاً ، صرخت تفيدة حسين فى الكلب من داخل الحجرة : اخرس يا شبيب .. سعيد سيدك يانجس .. تشمم الكلب ذيل ثوب سعيد الطويل النائم فى التراب ـــ من خلف ـــ ونهنه شبيب بصوت رضيع .. دخل سعيد من الباب النصف موارب ، دفعه قليلاً دون أن يفتحه . وعاد الكلب لمكانه القديم وأقعى من جديد ، دفن رأسه بين ساقيه الممدودتين إلى أمام ، وكف عن أى صوت .

* * *

· قال سعيد ، ازيك يا خالة ، ومد يده . سألته تفيدة قبل أن تمد يدها ليده الممدودة : سبع يا سعيد ؟ رد سعيد بعجلة : سبع ياخالة ، ورآها تبتسم ، ورأى قطع اللحم السوداء الراقدة تحت جفونها ترجف ـــ وسمعها تقول : اقعد .

قعد سعيد بجوار خالته على السجادة العجمى ـــ المفروشة على أرضية الحجرة المضفورة بقوالب الطوب المحروقة : القوالب جافة وصلبة وغير مريحة .. وخالته تسأل إذا كان قد قابل صالحاً فى طريقه . قال : سلكت يا خالة طريقاً لا أنظر فيه مخلوقاً ولا ينظرنى فيه مخلوق ـــ وسمع خالته تقول ـــ سبع بعلم الله .

كانت الخالة صامتة . وكان سعيد يتوقع أن تتكلم الخالة .. تقول كذا أو .. كيت ـــ قال سعيد مكلماً نفسه : الأمر كبير ويجب أن تتكلم الخالة . لكن الخالة كانت صامتة .. وانشغل سعيد برسم على السجادة ينام تحت فخذه اليسرى : طبع من نسيج بلون الرمل لحظة الغروب ـــ لوعل هادىء نفر قرناه واستقاما بفروعهما الجرداء .. كشجرتين معاندتين .. ريف الخريف جردتهما من الأوراق وخابت فى إرغامهما على الانحناء .

* * *

دخلت مريم تحمل صينية الشاى ، دق الباب الخارجى ، وضعت مريم الصينية بجوار أمها وجرت لتفتح الباب .
قال سعيد لخالته : صالح .. صالح أكيد .. مين غير صالح !! ـــ وابتسم . تأملته الخالة وقالت لنفسها ـــ حين يبتسم سعيد يبدو أبله وخام ولم يدخل دنيا قالت له : وشك محروق . رد سعيد بسرعة : الشمس .. شمس الصيف يا خالة . ابتسمت الخالة ابتسامة مصنوعة وماكرة . قال : أنا أخاف .. أخاف من ايه !! ـــ ابتسم وهو يواجه نظراتها الصعبة وشعر بالارتباك . حدثت تفيده نفسها : سعيد غير مليح .. ما يليق بمريم القمر . هل أكون ظالمة لبنت الأمين ؟ لكن سعيد ـــ رمى نفسه فى الموقف الصعب من أجل خالته .. أنا أزفه لبنت الأمين .. سعيد راجل (وقد عادت مريم من النهر .. قامت تفيدة لتعينها فى رفع الجرة الملأى .. لامتها لأنها بللت صدرها بالماء ، أشارت بيدها لصدر ثوبها المبتل اللاصق بالجلد . راغت مريم كعادتها وابتسمت .. تحت إلحاح بصر تفيدة الغاضب على صدر مريم .. أنزلت مريم عينيها على صدرها .. فجأة .. غامت فرحة الطفلة .. نكست مريم رأسها ورمت بعينيها على الثوب .

دخل صالح وخلفه الكلب « شبيب » يهز ذيله ، ضربه صالح بقصبة ساقه اليمنى بعنف عوى الكلب وجرى للخارج .. عبر الفسحة الخارجية .. ثم عاد وأقعى بمرقده القديم وهو ينهنه .

مد صالح يده لسعيد الذى قام ماداً كلتا يديه : مرحب صالح .. مرحب . ودخلت مريم خلف صالح .. طلب صالح من مريم أن تتركه مع سعيد — قال : بيننا كلمة خاصة — ونظر للكوبين على صينية الشاى وطلب منها كوباً ثالثاً .

خرجت مريم وقالت الأم : الليلة ياصالح . صمت صالح .. أمسك ببراد الشاى وصب فى واحد من الكوبين وقدمه لسعيد . وجاءت مريم بالكوب الثالث وأعطته لصالح ووقفت . صمت الكل . طلب صالح من مريم أن تغلق باب الحجرة أثناء خروجها . خرجت مريم متباطئة ونظرت لصالح وأبدت له أنها متذمرة ، أخذت باب الحجرة خلفها ، وتركته مفتوحاً قليلاً .قام صالح وأحكم غلق الباب . وتحت حائط الفسحة الوسطى جلست مريم قريبة من الباب وبعيدة عن الكلب مسافة ذراع رجل .

* *

بصوت مخنوق وحاد قالت الأم : الليلة يا صالح . صب صالح الشاى فى الكوب الثانى وقدمه لأمه . أزاحته بيدها . سقط الكوب وأغرق السائل الأسود السجادة وطرفاً من ثوب سعيد . صرخت الأم: باليقين الليلة . ظل صالح صامتاً ، أخذ يحدق فى لهب الفانوس المعلق بسقف الحجرة ، أجهده البياض القذر ، أزاح بصره فوقع على ثوب أمه الأسود ، أحس بكره لشىء ما ، لمعت عيناه والتقتا بعينى سعيد . مد سعيد ساقه اليمنى وأزاح عنها الجلباب .. ثم شدَّ سرواله الداخلى الطويل : بانت لفة قماش صفراء قذره .. كانت راقدة تحت سمانة الساق وقد شدت بخيوط القنب ، انهمك سعيد يخلص الخيوط مستعينا بأسنانه حتى يفك اللفّة ، أمسكها ورفعها فى وجه الخالة وصالح .. هزها موضحاً ثقلها .. فعل ذلك مرتين .. ثم خفضها بأناة ومضى يفكها : وضحت الطبنجة فى الضوء .. سوداء .. بطول ذراع البالغ .. برقت ماسورتها فى الوسط . تناول صالح الطبنجة من سعيد وضربها بكفه ووثق من صلابتها .. قرب فتحة الماسورة لعينه نصف المفتوحة : ظلمة أيضاً وغدر أيضاً (كان الظلام وكان شبيب صديقاً

لأبى .. وكان أبى يركب حمار شبيب الأبيض والرصاصة المجهولة كان مقصود بها شبيب .. حين سقط الحمار سقط أبى .. والثأر هو رأس شبيب أرميه فى حجر أمى !!) أرقد صالح الطبنجة بحجر ثوبه وسأال ـــ سعيداً ـــ وهو يصب الشاى فى كوبه : والذخيرة ؟ . مد سعيد يده لجيب صداره الداخلى .. أخرجها قابضة على ست رصاصات صفراء تلمع .. رماها بحجر صالح .. رن الرصاص وهو يتضارب رنات مكتومة .

هبت الأم صارخة : الليلة يا صالح يموت .. قاتل أبيك الليلة يموت (كفان أطبقا على العنق .. رأت وجه شبيبا .. ثم تبدل وأصبح الوجه لصالح .. كان المكان شبيها بمغارة .. ضيقا ومعتما ورطبا .. وكان سعيد يطاردهما وهى خائفة .. كانت ملابسها قد تمزقت .. كان الأمين جسداً ممدوداً هربت منه الروح .. حوم ذباب كثير .. وكان له ذيول .. جاء الرجال بشجيرات العدس الصفراء الجافة وستروه .. وهى كانت عارية .. وكانت لبدة من الدم تغطى وجهه .. ظهره كان للشمس تحرقه بغلٍ وتصب على حوض الخمسين شواظ اللهب) .

ظل صالح صامتاً . رأت الأم صمته لغزا محيراً .. رمقته وهو يصب الشاى . قابلها ببصره فاهتز براد الشاى بيده .. أعاد البراد للصينية وأطرق ببصره (غائب هو ومجبر على الحضور .. وهناك خدعة ما .. شبيب لم يقتل الأمين وشبيب يعرف القاتل .. والمقتول كان الأمين لأنه ركب حمار شبيب) . حولت تفيدة بصرها عن صالح وظلت تكنس المكان ، لم تكن تقصد ـــ شىء ما بذاته ـــ ارتدت أمام ساق سعيد العارية : سمانة الساق سمراء ومنتفخة وهناك جراح راقدة كوزغة ملساء .. حوله العشب .. شعيرات كثيفة وسوداء ، بكت تفيدة فى صمت (طلبت من ثوبها أن ينشق .. ومن ثدييها أن يبخا اللبن فى وجه صالح .. والحيّتان الصفراوان تنهشان ولا ترحمان) . كادت تفيدة تصرخ فى صالح « كان ذلك بمدى عمرك » ، لكنها ناحت ، كانت تنتفض وقد ظفر العرق : الليلة .. الليلة (لتظل تصرخ) القديم الغابر المتقيح المكوم على الصدر .. هكذا .. لتجرى الكلمات بطرقات الكرنك القديم .. مجنونة .. تلطم الحوائط .. تهز جدران العالم الأربعة .. تدك جدران الحجرة التى تحوطهم) يموت شبيب الليلة .. وابن عبد الرحيم يشوف الظلمة .. لتعرف روح أبوك يا صالح الراحة وتذوق نوم الميتين .. الأمين أبوك .. أبوك ياصالح ـــ وهوت بجماع كفيها على وجهها .. وأسلمت نفسها للنحيب الطويل .

ضغط صالح على كوب الشاى بقوة كفه : هنا شيء شديد القسوة .. غليظ .. عفن كعشب الخبيزة ، ليضرب بكره وبحقد ، طوح ذراعه بقوة وقذف الجدار المقابل بكوب الشاى .. تهشم الكوب وتناثر الزجاج . ودخل الكلب ــ شبيب ــ الحجرة وهو يعوى .. ثم انفلت جارياً لخارج الساحة وظل يعوى فى الفضاء العريض بصوت عال .. عاد ودخل الحجرة وهو يعوى . وقذف صالح برصاصتين داخل الطبنجة .

* * *

ضغط باصبعه وقفز الكلب يعلو النصف قصبة وأطلق عواء فاجعاً .. وسقط تحت قدمى الأم .

هبت تفيدة واقفة .. الكلب أطبق فكيه على لسانه وعيونه المفتوحة بدت مريعة . واهتز جسد تفيدة .. إنها تشعر بالخوف ولأول مرة من الكلب شبيب .

حين دخلت مريم كانت الطبنجة ترقد بين فخذى صالح . وتفيدة كانت تشد طرحتها السوداء على وجهها . والمعلم سعيد جلبابه وغطى ساقه العارية : كان وجهه باهتاً . والكلب راقد مبقور البطن وقد اختلطت أمعاؤه المتفجرة بدمه . أدارت مريم ظهرها وخرجت باكية .

قال صالح لنفسه : إنه كان يكره هذا الكلب .. وكان يكره أيضاً تلك الدار .. وربما الجاموسة وأمه والحمار وزراعتهم والدنيا بجملتها .. وأنه لابد أن يقتل .. وفكر فى مريم فيما لو قتل .. وقال : كيف يكون حال مريم ؟

انتحت مريم مكاناً بعيداً ، صدر السقيفة كان مفتوحاً ، نظرت للسماء المعلقة فوق السقف : زرقة داكنة وليس سواداً داكناً (لحظة يسهل فيها الخداع) ، نجوم قليلة باهتة الضوء (ليس لها ذيول لامعة .. ليس لها ذيول قط) ، ثقل جثم على الصدر (هَمٌ وَغَم ما خبره إلا يتيم الأب) ، شهقت مريم .. طلبت لروحها الراحة وطلبت من عينيها راحة الدموع (الدموع محال .. الجوف حشوه بالثلج وأرقدوه على نار .. والهواء الساخن حاصر المكان ، قامت مريم .. دارت فى المكان دورتين .. ساقاها ارتعشتا وناختا تحت ثقل الجسم)

المراكب الصغيرة تتطوح فى البحور الهائجة وتلعب الأمواج العالية بالمراكب الصغيرة) ، قالت مريم هاذية : أريد الراحة ، وضربت صدرها بكلتا يديها وأبقتهما تضغطان : أطلب هواء مريحاً وأطرد هواء متعباً ، أمسكت بالثوب شقته إلى نصفين .. وانفجر ثديان (أربعة عشر عاماً .. يمامتان فزعتان تأهبتا للانطلاق ــ لكنهما محشوتان من الداخل برمل وحصى ساخن) .

(ضربت بعود التوت الجاف فرع شجرة الجوافة . شمس الظهيرة لاهبة . الثمر يبرق . والأوراق الخضراء تلمع أطرافها . عليه ألف رحمة .. هو الذى غرسها أمام بوابة الدار . قامت الأم ونشرت قميصها الداخلى البمبى مع الضربات الأولى سقطت الثمار الناضجة ثمرة واضحة الصفرة واضحة الاستدارة وعنيدة . قال صالح ــ كان يعيد الحادثة على مريم وقد ادعت أنها نسيتها : كان عمرك أصغر من اليوم بخمس سنين .. كنت عنيدة يامريم . أمسك الفرع بيده . قالت مريم : لأنك طويل وأكبر منى . ناخ الفرع تحت يد صالح الجاذبة . قالت مريم لنفسها : الرجل ذراعه قوية . قبض صالح على الثمرة الصفراء .. قضمها بغمة وهى راقدة بين كفه .. بصق وضحك .. قرب الثمرة من فم مريم . قضمت من نفس المكان الذى قضم منه صالح .. بصقت قالت : مرة .. طعمها مر . ترك صالح الفرع . استقام الفرع لأعلى وظلت الثمرة تطل على مريم بعناد) . رددت مريم بصوت واهن : صالح .. ياصالح . تمنت لو جاء على صوتها فهى فى ضيق (لو سمع لجاء) . عادت الدموع إلى عينيها فى دفق غزير (كانت مستحيلة وساخنة هذه المرة) .

بالحجرة البحرية وجدت نفسها . انتفض صالح قائماً . سعيد رمى بصره على الأرض . على ساعد صالح وساعد أمها وصلت للسرير (جسمها انتفض ورفض أمها . هى لا تكره أمها .. لكنها ترفضها الآن .. أمها تسوق صالح للموت . أبوها مات . الأمين قتله شبيب عبد الرحيم .. صالح يقتل شبيب .. الموت يذوقه شبيب ، اليوم بيد صالح) .

ألبسوها ثوباً آخر .. وهى راقدة على السرير وفوقها الغطاء له وبر .. وحولها ظلام وهواء حار (يخرج من جوفها ويزفر به أنفها) .. صالح خرج .

صالح يضرب والطبنجة تلمع نبح الكلب شبيب وسقط .. والجاموسة سقطت وكذا الحمار والبقرة .. والحمام سقط من الأبراج .. النار تلتهم كل حى .. وصالح يضرب بالرصاص .. كل حى يسقط والأرواح تطير .. والظلام يغرق الأرواح فى السواد الشديد .. وكانت مريم غير قادرة على الصراخ أو حتى على الحركة ونوم ثقيل قادم لا تريد أن تسلم نفسها له .

أعطته يدها .. تأرجح كثمرة صلبة .. كان أسود بمثل ثمار الزيتونة الراقدة تحت الشمس .. سمعت صوت دف وندب معولة وصوت قفص يتكسر .. جرت على الأرض الحامية .. الحصى لامع وخشن ويؤلم قدميها .. هى خائفة من ذلك الذى يتبعها فى فضاء شديد الزرقة .. طائر محوم مقطوع الرأس ريشه شديد البياض يصبغه الدم .. استقام النهر لعينيها .. وأنكسر بصرها أمام سطحه المتوهج الاحمرار .. طفت صابونة على السطح .. تولاها فرح اطفال .. وقذف النهر فوق سطحه بالياف النخيل وبعلق كثير أحاط بها وغطى فخذيها العاريتين .. كانت عارية .. السواد زال من ثدييها عندما غطتهما رغوة الصابون .. البقع السوداء كانت ثابتة بين فخذيها وتحت إبطيها .. الألياف خشنة والدم حار وتدفقه لا يجعلها تشعر بأدنى ألم .. شعور جديد وحار .. وراحة مخبوءة .. عاد الوهج الأحمر يضىء الكون من جديد .. برهان مفاجىء عكسه سطح الماء وتراجعت له جفونها .. أطبقت على نظرها المنكسر .. أمسكها من الخلف .. بكلتا ذراعيه القويتين .. لامس صدره ظهرها .. كان يغطيه الشوك .. وهى معه ـــ كانا يتدحرجان .. كانت الهوة عميقة ومعتمة وغائرة الجوف .. كان الأفق بسمائه الزرقاء وقمره البارد ونجومه اللامعة منطبقا على أحراش الأرض ورملها الحار .. لم تعد خائفة ـــ حيث هما يتدحرجان .. ظلت تضحك فى جلجلة وجهه الآن ـــ بان واتضح .. إنها تعرفه .. قالت له وهى تضحك .. إنها كانت خائفة .. لأنها لم تكن تعرف أنه هو .

أنا وهي
وزهور العالم

الشجرة

حدثت نفسى بصوت خافت يحبه ضميرى :

« والسماء ذات الصدع .. لقد خالف أمراً .. مما لاشك فيه أنه خالف أمراً — لهذا أمسكت به الشرطة ، هو صديق وأنا أحبه — لكنى ما خالفت أمراً قط .. قط .. قط . قط والله أمراً ما خالفت — فلماذا لا يأخذ هو نفسه بما آخذ أنا به نفسى ؟ لماذا يارب السموات !! ، ثم إنه لا يجب أن يرانى حتى لا يّدعى أنه رآنى .. وما من أحد من المارة — وهم قلة — يعرف عِلاقتى به حتى يأخذنى بلوم .. ما من أحد .. ما من أحد يجرؤ ، كما أن اليوم يوم راحتى .. ولى صديقة تنتظرنى — هناك بالحديقة تحت الشجرة : يالها من شجرة .. ساقها أملس صعب على الإنسان أن يعتليه .. صعب صعب .. جذورها الواضحة فوق الأرض تسعى طالبة لماء العين البعيدة .. لحاها أبيض ناصع البياض .. أوراقها الخضراء تلمع كأنها أجنحة الطير ترف تحت الشمس .

* * *

ها هى ، ها أنا ، ها هو العالم ، وهاهى الشجرة.يا للسنوات ؛

قالت : كنت هناك .. كنت بالشارع .. يوم كنت هناك .. يوم أمسكوا بك .. لم أجرؤ .. يا للسنوات .

قلت : كنت هناك .. كنت بالشارع يوم كان هناك .. يوم أمسكوا به .. لم أجرؤ .. وكنت أظن أنك هنا وكنت أنت هناك .. يا للسنوات .

قالت : يا لك من ولد طيب .. يا لنا من أطفال مساكين .

قلت : يا لك من فتاة طيبة .. يا لنا من أطفال مساكين .

(قلبى وقلبها مازالا محفورين على ساق الشجرة بأسمينا)

قالت : أذكر يوم أعطتنا ما يعطيه ثدى الأم : كان لبناً ناصع البياض .

قلت : أذكر .. كان دمعاً ولم يكن لبناً ناصع البياض .

صرخت وضربت الأرض بقدميها الصغيرتين : كان لبناً ناصع البياض .. لا تجزم هل ذقت طعمه ؟

وخلعت نعليها ومدت يدها : صغيرة مبلولة ترتعش . وكنا نطوف حول الشجرة .

قالت : ولكن هل يعرف الشجر الأمومة مثلنا نحن البشر ؟

قلت : للبن طعم .. والدموع مالحة .

قالت : ولكنك لم تجرب .

وقالت : لا أنا ولا أنت .. نجرؤ .

وقالت : يا لها من شجرة .

فصرخت : نعم .. يا لها من شجرة .

اليوم الأحد

(١)

كان يعبر الطريق مسرعاً ، وكانت العربة أيضاً تقطع الطريق مسرعة .

(٢)

خلق كثير صنعوا حلقة حول الجثة والعربة « الفيات السوداء » . صاحب العربة السوداء الذى هبط كان قصيراً ببطن،لا يكف عن مسح جبهته وعنقه بمنديل أبيض كوره فى كفه .

(٣)

نادى رجل مسن يحمل بيده منشّة ـــ الجميع يستر عورة الميت . بائع صحف طويل ضامر يلبس جاكتة قديمة قذرة طويلة الأكمام ـــ انحنى وفرش كمية من ورق الصحف فوق الميت ، وعاونه فى هذا شاب له شعر غطى عنقه وكتفيه ،

بينما رفيقة الشاب الشابة أدارت ظهرها كى لا ترى . « قصيرة القامة قصيرة الثوب قصيرة الشعر كأنها غلام،رغم ذلك فهى حلوة » — بهذا القول حدث الولد زميله . تململت هى وكشرت وتقدمت خطوتين وسمعته يقول لزميله « ستموت هى .. وأنا وأنت « فجأة » وهى تعرف .. والحياة فرصتنا فلماذا ؟ » .دس صاحب « الفيات السوداء » يده فى جيبه وبيد مرتعشة قدم عشرة قروش معدنية لبائع الصحف الذى رفضها قائلاً : « الثواب عند الله » . جاء ذباب كثير وعف فوق المكان . وأتت عربة هبط منها ثلاثة رجال جادون بملبس كامل حسن برفقتهم عسكرى — وفى التو انضم اليهم عسكرى المرور . رجل من الثلاثة كان يتكلم أما الثانى فكان يكتب فى دفتر صغير،والثالث كان يشير الى أماكن محددة ليرسم العسكرى بالطباشير على الأرض دوائر صغيرة ودوائر كبيرة وعلامات (X) .

(٤)

وقد مر وقت ، استرد صاحب العربة السوداء توازنه فخفت حدة حركاته وهو يتحدث مع الرجال الثلاثة . ولما أتت عربة الإسعاف انفرط العقد وهبط الرجال وحملوا الجثة على خشبة .

صفوت الحلقة ، وانفض الجمع كله لما غادرت العربتان المكان : عربة المحققين والفيات السوداء . وغادر عسكرى المرور المكان لينظم حركة المرور المعطلة : تلك التى تجعل العربات تزعق وتناديه .

(٥)

« الضاوى » العامل بدكانة أحذية « النجمة الزرقاء » أتى بجردل من البلاستيك — وهو يتابع بعينيه عسكرى المرور الذى لم يبلغ مكانه الخشبى بعد ورش مكان الجثة بالماء وكنسه بمكنسة . وطار كثير من الذباب . وسارت العربات بطيئة فمسرعة : رتلاً طويلاً بكل لون .

أنشودة الطراد والمطر

كان المطر مازال يسقط ، وكان أقل حدة مما كان ، وكان الجو ممتلئاً بالرطوبة تماماً .. وكذلك كان باطن الأرض ، وكانت السحب الدكناء تعد بالمزيد .

كان الشارع خالياً فالمطر لم ينقطع منذ الصباح ، وكنت قد ابتسمت فتسللت قطرات من ماء المطر كانت على وجهى إلى شفتى : أحسست بجسمى كله متشيئاً بالرطوبة والملح .

كانت أضواء المدينة تبدو من بعيد ــ فى الظلمة ــ كنجوم هاوية بين الأرض والسماء المنطبقتين ، وكنت أضرب أسفلت الشارع المبتل بخطوات سريعة وكنت أتابعها وكانت تعود بدق المطر على الأسفلت الأسود اللامع وصوت الماء الهارب للبالوعات .

كنت قد بلغت سدة الشارع ، كان هناك أمام البوابة المغلقة ثلاثة أشخاص ، وبدا لى الذراع الأحمر الممتد بعلامة الخطر كما لو كان معلقاً متدلياً من السماء ، وبدت لى المسافة بين السماء والأرض قريبة جداً ــ وهكذا كانت دائماً فى الليالى المظلمة حيث المطر .

كان واحد من الأشخاص الثلاثة قد استدار — تاركاً زميليه أمام بوابة محطه السكة الحديد المغلقة — وانسل من بين الأعمدة الحديدية المنتصبة كالرجال السود — بامتداد الخط الحديدى ، وكانت هناك صرخة تحذره — وكنت قد تبعته ، كنا قد نفذنا من الجانب الآخر فجلجلت ضحكات الرجلين أمام البوابة .

كان القطار قد مر وكنت قد اصطدمت بظهر الرجل،وكانت ضحكات الرجلين قد تحولت إلى مزق،وكنت قد باعدت بين وجهى وبين التفاتته السريعة، ولكنه كان قد عاجلنى بنظرته وتأكد — أخيراً — من أننى أنا ومن أنه هو الذى سيتمكن منى .

جريت فى الأرض الخلوية الواسعة ، كانت الأرض مجدورة بمئات الحفر التى تحولت إلى برك صغيرة من الوحل .

وها — أنا — ذا : قد بلغت المنحدر حيث ينتهى الزمان والمكان ، لم يكن أى من الرجال خلفىٰ . مسحت الطين العالق بحذائى ، وبقيت تلك الارتعاشة بأطرافى وبالداخل ، كان المطر قد كف ، وكان الحجر الذى جلست فوقه شديد البياض وقد غسله ماء المطر ، وكان ظلى هناك — بعيداً — يسبح فى برك الوحل الصغيرة .

البكاء والثالث

حل المساء . كانت قاعدة على شلتة قديمة ، عن يمينها باب الحجرة الوحيدة الضيقة نصف مفتوح ، يواجهها باب الشقة الخارجى المغلق بالمفتاح من الداخل قامت مستندة على جهد ذراعيها وساقيها : دقت بالأرض مسمارين وبالهواء مسمارين وعلقت جسدها القليل اللحم .

عبرت مستطيل الصالة القصير إلى ركن المطبخ الضيق . فكرت فى القبرة وقالت إنها تشبه ذلك الطائر الترابى اللون الضئيل الحجم القليل اللحم المختبىء وسط شجيرات العدس القصيرة الكثيفة ، قلبت الأوانى القليلة والعلب الفارغة المكومة وعثرت وسط الكراكيب على عودين من الكبريت مبلولين من الرطوبة ، أشعلت لمبة الجاز وأعادتها إلى مكانها : معلقة بمسمار مدقوق بحائط الصالة ـــ فحل محل عتمة الغروب الرمادية ضوء أصفر شديد الشحوب ظل يتغامز ، أغلقت النافذة الواحدة الوحيدة ذات الضلفة الواحدة فاستقر الضوء والظل فى خطوط تقاطعت فى حدة .

عادت وجلست على الشلتة القديمة ، وبجوارها قعدت ابنتها الوحيدة بنت العام الرابع عشر . ظلتا صامتتين . وكانت تلبس ثوباً أسود جديداً وطرحة سوداء

جديدة تذكرت زوجها المتوفى من عامين ــ فجأة ظلت ترثيه وتعدد محاسنه فى سرها ثم جهرت بصوت خفيض ، وبالتدريج ارتفع صوتها وصار له صدى خفيف مسموع يصطدم بالحوائط فى خبط هين .

« قالت : كان كذا ، وكان كيت ، وكان وكان ، أشياء تعرفها هى وحدها دون سائر البشر ، وأشياء عرفها هو عنها دون أى مخلوق فى العالم ، كانت نكدة وكان يحبها أكثر مما كانت تحبه . لهذا مات ، قالت : « أنا أعيش الحياة وأتعذب » .

انفجرت فى بكاء حاد متصل ..

فجأة ، نشجت الابنة ، أخذت نفساً قوياً من الهواء وكتمته وأطلقته قصيراً متقطعاً موجوعاً ، ثم مضت فى بكاء حاد متصل .

تلاوة ماسونية

جواب

مر وقت طويل وأحمد بانتظار الأوتوبيس (١٤) ، وها قد جاء الأتوبيس (١٤) ، وكان اليأس قد تمكن من روح أحمد الصابرة ، جاهد أحمد جهاد المؤمن وتمكن من كرسى وقعد أحمد ، ومازال أحمد قاعداً .

مطوق أحمد باللحم الحى والدم الساخن والعرق الذكر والعرق الأنثى والروائح الطيبة والروائح الخبيثة .

ها هو يفكر فى الله مالك السموات السبع وملاك الموت الذى يلم تحت جناحيه كل حى ، وهاهو وحيداً فى مواجهة البدن الهائل والدود النهم المحب للحم أبن آدم .

رد

ما كان يجب أن يفكر بمحض أختياره — وهو قاعد — فى الصندوق المقفل بإحكام ، ما كان يجب أن يستسلم لتلك الرؤيا — وهو قاب قوسين أو أدنى من غايته ، عليه — الآن — أن يخلص روحه بالكتف ، ليهبط ، عليه أن يتقبل العقاب .

جواب

عن يسار أحمد : شجر مورق ، والنيل يجرى بقوارب تحمل العاشق والعاشقة .. وقوارب قادمة من جنوب مصر محملة بآنية وقوارير من فخار .

وهو — بشارع الكورنيش مع عربات « عامة وأجرة وملاكى » مسرعة تزعق وتنادى وتكشح الدخان والهواء والورق اليابس الساقط من الشجر .

أدخل أحمد يده بجيب بنطلونه ، وأخرجها قابضة على تذكرة الأتوبيس وكور التذكرة وضغط عليها بإصبعين ، وطوحها للريح الخفيفة التى صنعتها العربات الزاعقة المسرعة .

رد

ها هو مرة أخرى تحت طائلة العقاب ، لا يملك — مهما حاول — دفع أو إيقاف ذلك الذى داهمه : هذا الشعور الواقعى أنه مهان .

فانتازيا .. العنف القبيح

متى ضرب الباب الزجاجي بقدمه دخل البار ، وراح الباب الزجاجي وجاء ، وأمطرت السماء فى الخارج ، ينظر للمروحة العاطلة : لا تدور .

يطلب نصف زجاجة براندى « متوسطة السعر والجودة » وزجاجة صودا « حالما يفتحها الجرسون تفور — وإلا فهى فاسدة » وطلب طبقاً به شرائح ليمون حلو ، صب كأساً وشربها دفعة واحدة ..

يشرب كأسه الثانية دفعة واحدة أيضا ، ينظر للمروحة العاطلة لا تدور — ويكون قد شرب كأسه الرابعة . كأسه الرابعة .. كأسه الرابعة ..

على البار ، يجلس الجميل ، لا تتجاوز سنه الثانية والعشرين لا يكف عن الحديث بصوت عال مع العجوز الايطالى المتصابى.رفيقان لا يفترقان . العجوز الايطالى يدفع الحساب دائماً ويسخو فى البقشيش . الجميل صورة مماثلة للممثل الأمريكى الذى يؤدى دور « الدركى » فى أفلام شركة « بارمونت » الأمريكية : بنطلون ضيق ، إسراف فى الحركة وانفعالات حادة وانضباط مفاجىء ، يونانى الأب ، الأم من أسرة مسيحية أتت من لبنان واستوطنت بمصر منذ أعوام بعيدة ،

من العنق تتدلى سلسلة ذهبية ، تنتهى بصليب ذهبى يتأرجح على الصدر العارى الأملس ، كعب الحذاء يشبه الكوب ، القميص المفتوح . أحمر أحمر أحمر .. وياقته طويلة حادة الأطراف) .

ينظر للمروحة العاطلة : تدور : ويتذكر أشياء فى حياته ، ويشعر برغبة فى البكاء ، ولكنه يقاوم ، ويشرب كأساً والمروحة مازالت تدور ، يشير للجرسون ويدفع الحساب ، وتعاوده الرغبة فى البكاء ، يشرب كأسه الأخيرة ويغمغم : السفلة ، ويبصق ويندفع للخارج : يتوقف المطر ، والمروحة العاطلة تدور لا تزال .

تحت ضوء اللمبات الأصفر يلمع أسفلت الشارع الأسود المغسول ، لأعمدة النور ظلالٌ ساقطة ، يشعر بثقل الظل .

يمشى خلف ثلاث فتيات يلبسن « المينى جيب » ، واحدة منهن قصيرة وسمراء ونحيلة اسمها « إيناس » طالبة بكلية الفنون الجميلة ، بالسنة الثانية قسم الديكور ، لا تحب اللوبيا ولا الفاصوليا ، تحب « مامتها » جداً جداً وتصارحها بكل شيء ، لا تحب الفول الأخضر أيضاً ، تحب الأطفال حتى سن العاشرة تحلم بالسفر لألمانيا الغربية — تحب أصدقاءها جداً جداً — لها أصدقاء هناك ، تكره القعود على كرسى لمدة ثلاث دقائق بأية سينما حتى ولو كان الفيلم « زوربا اليونانى » .

النسور المدربة يا الله هناك عند المنحنى .. النسور المدربة جيداً يا الله .. كل نسر يا الله قبض بمخالبه القوية على فتاة .. لا يلتهمها بعد .. يطرح فتاته أرضاً ويوسع فتاته ضرباً .. قابضاً على لمة شعرها .. شعرها القصير يا الله .. ويجرجرها على الأرض (التم جمع كبير وتحركت عربة الأخلاق : كسرت الحلقة وتفرق الجمع وأتى الهدوء المعتاد المألوف) .

قال لنفسه : هناك ، فى القسم ، تكتب كل فريسة إقراراً واحداً بعدم العودة. للبس « المينى جيب » وينتهى كل شيء .. كل شيء يا الله .. كل شيء .

انتظم فى الإيقاع الجماعى : بهدوء كالمعتاد ، الأضواء على الأسفلت تلمع .. الأسفلت الأسود ، أعمدة النور واقفة كالرجال .. واقفة تسقط الظلال على أرض الشارع المبلول الأسود الأسفلتى اللامع .

وجد نفسه وحيداً وعاودته الرغبة فى البكاء ، وانتظر شارة العبور ، وفى الميدان وقف أمام فاترينة محل يبيع الملابس النسائية ، فوق قطعة ملابس داخلية كان تمساح صغير من البلاستيك يزحف ببطء .. ولمح الرجل القصير الأبجر يقف خلفه ، وشعر برعدة شديدة لما أشار القصير الأبجر ــ بصحيفة الصباح التى يمسكها بيده ــ إلى شارع جانبى خافت الإضاءة .

هبط الدرجات الست وبلغ مدخل القبو ، شعر بالرطوبة وشم رائحة الرطوبة ، وانهزم بصره أمام تماسك اللون الأسود ، وظل ينتظر ، وسمع وقع الخطوات وعاش التوقع : واحد .. اثنين .. ثلاثة .. أربعة .. خمسة ، ستة ويأتى القصير الأبجر ويضربه بعنف وحقد وكره راهن ، ربما يضربه القصير الأبجر ــ هذه المرة ــ حتى الموت .

شموس

(أ)

سيارة الرجال الثلاثة ــ وقفت ، بجواره ، فجأة ــ بحللهم السوداء ذات اللمعة المخيفة . الثلاثة ــ كالغربان ، وقد طوقوا أعناقهم برباطات سوداء تتدلى بميل على قمصانهم البيضاء بياقاتهم الطويلة الحادة . وعلى صداريهم كانت القرنفلة البنفسجية مرسومة .

(ب)

كان مع المارة وأعمدة النور وأسفلت الشارع والعربات وسائر الأشياء ــ لما مزقت ضلوع صدره حربة النار ذات الشعب : التى يمسك بها الخوف صاحب الدرع والخوذة .

(ج)

ولّى البرد المهلك عن بدنه وفارقته الرعشة الزرقاء ــ بفضل رب الموت وبأمر رب الموت المطلع على أعمار كافة البشر : الذى صرف السيارة لغاية أخرى ، وبلل

إصبعه بلعابه الأصفر المر ومروه على الجرح الميت ـــ فإذا بالجرح الذى كان مميتاً يصير إلى جرح غير مميت وإن بقى الوخذ الموجع .

(د)

هو المحب للسير مع الحذر الواجب ـــ وقف ، أمام محل يبيع اللب والفول السودانى والحمص فى قراطيس ، واشترى ـــ هو الذى يحب الفول السودانى ـــ قرطاس حمص تغطيه طبقة بيضاء من السكر .

(هـ)

سار بالشارع مع الناس ، يمص السكر ويشعر بحلاوته ، ويجرش الحمص بأسنان رجل مكتملة . وما هو بالمخمور ، وما هو بالراغب فى الخمرة ، لكنها السنوات تطوح به، تطوح به ـــ وهاهو يهبط السلم عارياً ببدن يرتعش .

١ – جاء المدينة بملابس ذات ألوان ، وكان شاباً ، وكان يملك مالاً (بعت الأرض التى ورثتها عن أمى بعد أن ماتت ، بعت الأرض بعد نزاع مميت مع أبى الكهل المقعد الذى ما لبث أن مات ، فدخلت عراكاً مع خالى وعمى وقريتى التى تطارد من يخاصم أهله كما تطارد ثعالب الحقول وذئاب البر) .

٢ – ماتت ، ومات ، ورأيتهما فى كيسين أبيضين ، ورأيت الحفرة مظلمة ، النهار أيضاً مفزع أقضيه حتى يحل الغروب المرعب بحجرتى ـــ وقد قنعت بها مسكناً بعد أن أنفقت الكثير من مالى القليل على الخمرة والدخان والأكل الرخيص (ممدد على سريره الخشبى ، نصف يقظان ، يرى السياج ـــ الذى صنعته أشجار السيسبان ـــ من نافذة لها قضبان من حديد أسود وشبكة من السلك القديمة ـــ ممزقة) .

٣ – يعرف كل خمارات المدينة ، يسعى ـــ برغبة دائمة فى الكلام والمشاركة ـــ إلى تلك الخمارات التى يتردد عليها نصف المشهور ونصف الموهوب

من ممثلى السينما والتليفزيون والإذاعة والمسرح ، وموهوب نصف مشهور فرض عليه أو قدر له ألا يبلغ الطريق حتى منتهاه ، شعراء وكتاب قصة ورجال صحافة ــ أصحاب ميول سياسية تجلب السخط على أهلها .

٤ - تنقطع عنى المياه وأنا أستحم ــ ربما بسبب هؤلاء . وربما لأنى ، وإن كنت أجزم ، آه ، لا أذكر ، هل ارتكبت ذنباً ؟ لِمَ تغمز لى لمبات الشارع ، لم يطاردنى بشر ينظرون إلى ساعاتهم فور دخولى أى مكان ؟ (يضربونه بالكتف من غير سبب ، ويتخطاه الأتوبيس المسرع ولا يقف إلا وهو مزدحم ، يعامله الكل ــ الباعة والمارة والصحاب ــ تلك المعاملة التى لا تليق بكلب ، تطارده الوساوس ، ولا يقف له التاكسى ، حواليه دوماً عربات : عربات إسعاف وعربات شرطة وعربات جيش وعربات صحافة وعربات القطاع الخاص والعام) .

٥ - أى ، الى متى؟، إلى متى يسرقنى الجرسون ويدس لى صاحب المطعم الحصى بالطعام ؟، لم لا يرن جرس التليفون لما أطلبها ؟ وإن رن لا أسمع ردها !! ولو رد أسمع من أريدها تقول إنها ليست هى !!

٦ - على كرسيين من خيرزان وقش ، قعدنا على كازينو مطل على النيل به شجر وورد ــ بعد أن فشلنا فى الحصول على مسكن لنا .

قالت : أشعر ببدنى قرية بعيدة هناك ، الليل بنجوم قليلة متباعدة تعارك ظلمة تحجب تلال الشرق الزرقاء ، وهناك وعد بمطر ، أما الرعد فلا أسمعه ولا أحسه .

٧ - قالت : أمر البيت لا يهمنى الآن ، لا شيء يهمنى الآن ، لا أود أن أكون معك ، ولا أود أن أكون مع أحد ، ولا أود أن أكون وحيدة وأود أن يتوقف كلية شعورى ببدنى الذى أكرهه .

٨ - وقفت غاضبة ، وأخفته عنى بثوبها الواسع ، قالت : أردت بدنى ، وتظن أنك تمكنت ، تدس نفسك الخوافة وتنتظر. امرأة أنا ، وأنا قرية ووطن ، وأنت سيد بدنى ، يالك من فالح .

٩ – تقول إننى أدبر لها ــ أنا الذى أقرأ الكتب ، وهى ألا تدبر لى ؟، لقد صنعناه معاً ، وهى بمقدورها أن تهبنى الطفل أو تمنع عنى الطفل ، وبمقدورها أن تخنقه ، لكن ــ هل تكون المحبوبة قاتلة ؟ هى المحبوبة ولا أريد أن تكون قاتلة .

(و)

الزجاج عكر ، وأنا وجه مملوء بالتجاعيد ، جفونه وارمة والبرص يرقد فوق حاجبه الأيسر ، ينتظر الموت الذى ينتظره ، والأيام التى مرت من العصى أن تعود : هذا ما يحزننى .

إلى الشاطىء الآخر

ناديته ، وهببت واقفا ، كنت فرحاً به . كنت طائراً لا أظن إلا أنه أسود ، وها هو فى أحضانى بيضة دافئة ، كم هو رائع صديقى هذا .

قال « تعال .. قم يارجل .. ذات يوم سترفع من مقهاك هذا الكئيب إلى الحفرة على خشبة » .

ناولته سيجارة رفضها ، وسعل ، وسب البرد والدخان وكذا ليالى الصيف التى تجعل الآدمى منا ينام عارياً،وتجعل ــ ليالى الصيف تلك ــ الفرد منا لا ينام ونافذة حجرته مغلقة،وسألنى عنها .

قلت « هى تعرف أننى هنا .. دائماً .. بهذا المقهى .. ومع ذلك تمر لأراها ــ لكن دون أن تلتفت إلىّ » .

وشققت صدرى ، ومن البيوت المهدمة المحترقة انتزعت قلبى وهو ينتفض ــ المسكين ــ فى كفى صغيرا ، وأسلمته له . ورآها منقوشة بالإبر ، وقال « حلوة .. عرفت كيف تنتقى ثوبها وكيف تهذب شعرها ليبدو وجهها الحزين هكذا ضاحكاً : عارية القدمين ينعلها ذاك ، القدمان أرنبان صغيران، من ثوبها

الأبيض القصير النظيف رأيت الساقين كوبين من الخمرة باللبن ، تمسك منديلاً منقوشاً صغيراً فى كفها تهصره وتخضب الكف الصغيرة المرتعشة ـــ يالوعتى ـــ بالدم ، يالله كم هى قلقة ، ما أروع حزنها ذاك كأنه كوبان من القهوة باللبن : تبرق به العينان ـــ من خلف نظارتها الطبية ـــ كأنهما كوبان من القهوة باللبن .

وكان يتكلم هو وكنت صامتاً ، وكنت أراها مستعجلة تضرب الشارع بنعليها فيفر الأرنبان ، وتقطع الطريق القصير إلىّ مارقة ما بين العربات ـــ حزينة ضاحكة ، ومن فتحة الصدر رأيتهما : فى عشهما .. يمامتين فزعتين بزغب وبمنقارين ، وأغلقت عينى ـــ أنا الذى أفزعتهما ، وسمعت رفيف الأجنحة العارية من الريش .

وقال هو: « الدواء الداء » . وشعرت بشهيتى تتفتح للخمر . واستضافنى هو، كوبى نشعت على سطحه الخمرة الباكية قطرات من اللؤلؤ النقى ، كوبى قبضت بكفى عليه وسمعت صوت حبات اللؤلؤ تتكسر وشعرت بالرعشة المشتهاة ، حركت كوبى وسمعت صوت الخمرة وهى ترتج وصوت النسغ فى عروق وصوت قوالب الثلج الصغيرة وهى ترتطم بالزجاج .

كأسى السابعة ، ذابت قوالب الثلج الصغيرة فى كأسى السابعة ، وصديقى سخى اليد والقلب ، وهى أمامى فوق ورائى هنا هناك : فى نيل رائق .. ما أقرب شطيه .. ما أبعد شطيه ، يا ذراعيها اضربا بمجدافين .. أنتما : الفأس وساق الشجرة ، أيتها السماء فوق يا عيونها التى تطل بالنجوم .. ارقدى يا أيتها العيون لأرقد فأنا جد مخمور وصديقى تركنى وحدى .. وأنا جد حزين .. أنا هالك سيدتى .. الطريق بعيدة والسير أتعب أقدامى .. يا لطرقات تلك المدينة ذات القباب .. يالى من تعس .. يالى من فاشل بأكفان بيضاء .. هذا يوم بخمسين ألف سنة والأمس كان كذلك ،، وغداً ،، سيدتى ،، بسأعرج وحدى أنا العاشق ـــ عاجزاً عن الفعل .. مؤمن كطبعى بالكلمات :

« ميم صاد راء .. السنوات .. الماء النار .. اللبن .. الخمر .. الزرع .. القوارب . ميم صاد راء . الرمح الريح .. القلاع .. المآذن .. السهم .. الأهرامات البيوت .. ميم صاد راء .. الطفل القوس .. الحشائش . الدم .. الحرب ، العيون .. سيناء الرايات .. الحب الحب الحب » .

الدرس

ثم أضاف باللاتينية : لأن خلقي يا بني سيكون أسداً هصوراً لا يفتش إلا عن فريسته .

– الأب بيرار –

ماذا يعني هذا ، إنه فخ دون ريب ، لنستمر فى اللعب بحذر .

– جوليان –

– الأحمر والأسود ، ستاندال –

رفع المزلاج الحديدى الثقيل ليفتح الباب الخشبى الثقيل من الداخل انفرجت أصابع اليد فى قسوة ــ كما ترى ، عروق اليد نافرة وقد حالت الى اللون الأزرق بعد الوفاة .

انقلب على الباب بوجهه ــ وقد أيقن كلياً عجزه ، كان يبغى فتح الباب ليفلت من مطاردة ، شعر بماسورة البندقية تلامس ظهره ، وسبق هذا شعور هائل بالرعب ــ خلفه المطاردة : بخطواته الواسعة وقدميه الثقيلتين تحملان البدن العظيم وتهرسان أحجار الجير البيضاء الرخوة التى تغطى السطح ، انظر لحجم القدم

انها لإنسان بدائى ولا شك ، من جانبى أفضل أن أسميه بالإنسان الأول أو إنسان العهد القديم . ولن نترك للبندقية كسلاح قريب العهد أن تضللنا وتطمس شخصية المطارد — لا القاتل — بالتحديد هذا ما أعنيه بالطبع ليس بإمكانك أو بإمكان غيرك أن يرمى الفاعل بأية صفة لا تتناسب مع الفعل ، إن نوعية الفعل هى التى تحدد لى الصفة التى أطلقها على الفاعل .

كان الأمر هكذا إذن ..

ارتمى بوجهه — ولكن بقسوة وعنف وبقوة اندفاع — أجزم أنها مقصودة ثم حدث الجرح المميت الذى نراه بالجبهة هنا من مفرق الشعر حتى قصبة الأنف ، ومنه — من فتحة الجرح — يمكن لكفك أن تنفذ وتخرج لولا الدم الذى انفجر بغزارة ثم جمد وتيبس: إنه ذلك اللون الأسود المتفحم وقد مر على الوفاة ما يتجاوز العشر ساعات

الاستطراد المنطقى وحده هو الذى سيقودنا إلى النتائج المنطقية المقنعة : اصطدام الجبهة العنيف بالباب الثقيل أحدث الشق المؤلم ، وحدثت الوفاة ، ثم أتت الرصاصة متأخرة — ربما أقل من عشر الثانية بعد الوفاة .

كان صاحبنا وقد شك فى قدرته على النجاة — هذه المرة لم أقل الفرار— قبض على المزلاج الحديدى الثقيل ودفعه قليلاً : بهاتين اليدين المتصلبتين ، تلك الأصابع المنفرجة والعروق النافرة ، وضرب جبهته بالباب الثقيل الموصد بكل ما أوتى من قوة الراغب فى الحياة الهارب من الموت ، وبرعب شديد من المطارد — هكذا تمت الوفاة .

الأمر كله فى ظنى — بل فى يقينى — لم يكن أكثر من لعبة ، لعبة سمجة ولا شك ، ولكن لِمَ ندع الأمور تضللنا نحن الرجال — بعد تاريخ طويل أنجزنا فيه تفوقاً مذهلاً فى الكشف عن أشد الجرائم غموضاً : بنعمة العقل وصلابة المنطق وخبرة التدريب وقوة السلاح وحقائق العلم .

نعم .. دعنى أكرر — كيف نسمح لأنفسنا وتحت أيدينا العديد من الوسائل المتقدمة إلى أقصى حد فى مواجهة العنف اليومى المتكرر ، كيف نسمح

لنفوسنا بأن تخدع،أنت لا ترى مقدار ما يصيبنا ـــ ولا أكون مغالياً حين أقول يلاحقنا ـــ من سخرية مرة لن نحتملها ، وقد تدفعنا نحن الذين لم نهن ولم نعرف اليأس بعد ، نحن المنوط بنا تنبيه الآخرين إلى الفجأة وحمايتهم منها ـــ إلى الانتحار .. هل نسقط أخيراً ضحايا خدعة تجوز على العامة فتصيب روحهم ببلبلة تؤدى إلى مقتل حتمى .

الأمر ألخصة فى أن الرجل المتوفى أراد أن ينفلت من ظلمة المكان ومن مطاردة البدائى الواسع الخطوة الكبير القدم : انظر إلى الأحجار الجيرية المتفتتة ـــ هاك طبع القدم : من هنا إلى هنا ..

كان المتوفى يجرى.وجرى البدائى خلفه مدفوعاً بلذة الطفل ورغبته فى المحاكاة .

وأنت معى فى أن « من أين للبدائى عقل الرجل الناضج مثلى ومثلك !! ثم وأن البدائى لاشك قد شاهد الرجل المتوفى فى المكان قبل ذلك مرة بل مرات عديدة : رآه يغتسل وينام ويشخر ويأكل ويقضى حاجة ويحمل بندقية ، وأنبهك أن البندقية أصلاً ملك للمتوفى ـــ بهذا تشير كل الدلائل : من أين للرجل الأول رجل العهد القديم أن يحصل على بندقية ؟ بل كيف له وهو صاحب العقل البدائى أن يدرك ماهية البندقية كأداة قاتل !!

لم يكن الأمر أكثر من عبث طفولى بحت من جانب الرجل الأول : محاكاة للرجل المتوفى فى عملية الجرى،تلتها اللذة الطليقة التى تخلقها روح المطاردة ـــ وهذا لا يتوفر لعقل البدائى فحسب وإنما لأى حيوان أو حشرة خسيسة كشعور غريزى .

كان يعابثه ، ألصق فوهة البندقية بالظهر ، وبالمصادفة أو بدافع المحاكاة اصطدم الإصبع بالزناد ، وتنطلق الرصاصة ، ولكن بعد فوات الأوان ، بعد أن يكون رجل زماننا قد قضى على نفسه منتحراً : باليأس من رفع المزلاج وفتح الباب والخوف من رجل العهد القديم ، الخوف غير المبرر ، وانطلقت رصاصة ثانية وثالثة ورابعة وخامسة حتى الرصاصة الألف : أحدثت هذه الثقوب بالظهر ، فأحرقت الثوب وتركت ابن زماننا عرياناً وجعلت ظهره كمصفاة بها ألف ثقب .

لو كان البدائى يملك قدرات الوعى ــ التى هى منحة التجريب والتاريخ ــ إذن لما أطلق الرصاصة الأولى وقد مات الرجل قبلها بعشر الثانية من اصطدام الرأس بالباب .. فما بالك بألف .. ماحاجة الميت لألف رصاصة ليموت .. هل هى رغبة الرجل البدائى فى التأكد من موت الرجل : الذى تراه أمامك بفضل جسده العارض ضئيلاً متناهى الضآلة ، هل كان رجل العهد القديم يخاف المواجهة الصريحة المباشرة وهو العظيم الجرم الفائق القوة ــ حتى فيما لو جردناه من سلاحه وهو بندقية ليست حديثة الطراز ولا يوجد بخزانتها سوى ألف رصاصة ؟ أنت واهم حين تظن ذلك يشككك فى قدرات رجل العهد القديم الطبيعية ، وها أنا أضع تلك الفرضية أمامك .

« هل كان الأمر سيتغير وترى جثة رجل العهد القديم بدلاً من جثة رجل زماننا فيما لو نزعنا البندقية كأداة قتل من يد الأول وأسلمناها ليد الآخر ؟ » .

أقول لك:لا .. سيظل التفوق الطبيعى للفرد القديم على الفرد الجديد ...

ها هى وجوه الخدعة تتكشف أمامنا .. وها أنا أراها كشمس الظهيرة هناك عند خط الاستواء ، وشىء واحد كان بإمكانه أن ينقذ رجلنا المنتحر : المواجهة .

لو واجهه ابن زماننا البدائى لرأى البدائى ــ بدلا من ظهره ــ تقلصات فى الوجه وجحوظاً فى العينين وفماً فاغراً ، أشياء تنطق بالخوف الصريح ، هنا كان البدائى لاشك سيتراجع بهدى التجربة والغريزة الالهية ــ التى لن نسمح لأحد بأن يشككنا فيها ، ولما حدث شىء ــ أى شىء للحمامة المذعورة : تلك التى تعرف حكايتها .

أنا وهى .. وزهور العالم

كنا بالحديقة ـــ أنا وهى ، وكنت طامعاً فى علاقة تربطنى بها : أية علاقة .

وكان بالحديقة شجر مورق ، وحشائش خضراء ، وطير بأجنحة ، وعين ماء ـــ أراها مرة ياقوتة ومرة زمردة .

إنه الربيع : وتلك شمسه اللينة تنفذ من بين أفرع الشجر بشعاع كأنه الفضة النقية ـــ وقد رمت فوق الحشائش:الضوء واللون والظل والشكل .

كان للشجر رائحة ، وللأرض رائحة ، وللحشائش رائحة ، ولشعرها رائحة ، ولفمى رائحة .

هو الربيع ، وتلك طيور الربيع عند عين الماء تطلب الماء،وتغتسل وتنفض عن ريشها الماء،وتتمرغ بالحشائش وتنط وترف فى الجو بأجنحة وتصوصو وتحتمى بأفرع الشجر .

ـــ احب الموت وكلما أجدنى على حافته أحب الحياة .
ـــ أود لو أمتلك زهرة سوداء .

ـــ ثمة زهور سوداء بالعالم .. ثمة زهور سوداء .

* * *

بالحديقة كنا ــ أنا وهى ، وكنت طامعاً فى علاقة تربطنى بها : أية علاقة .

كان بالحديقة شجر سقط ورقه وحشائش يابسة وكل الطيور ، وكانت الشمس طالعة ، وعين الماء قل فيها الماء وغطاها الورق اليابس والكلس ، إنه الخريف .

ـــ أحب الحياة ، وكلما أجدنى فيها أعرف أنها الموت ..
ـــ أود لو أمتلك زهرة بيضاء ..
ـــ ثمة زهور بيضاء بالعالم .. ثمة زهور بيضاء .

الرقصة المُبَاحة

إهداء

إلى ادوار الخراط وعبد الفتاح الجمل وغالب هلسا
وإلى مديحة محمد ابراهيم : أم إبنتىّ « أسماء وهالة » :

عُقدى مُفصّل — بينْ كل لؤلؤتينْ خرزة .

أغنية العاشق إيليا

(الى صاحب القلب الأبيض والعقل الأبيض)

كان العاشق إيليا يسير بلا هدف ـــ على غير عادته فى مثل هذا الوقت المبكر من بعد غروب شمس هذا اليوم الحار . وكان العاشق إيليا حزيناً لأن سامية ـــ الفتاة التى يحبها العاشق إيليا ـــ لا تسير بجانبه الآن .

* * *

كان العاشق إيليا مازال يسير بلا هدف فى الشارع الذى تقع على جانبيه أغلب دور السينما بالمدينة،وقد استقرت يده اليمنى المضمومة بجيب بنطلونه الأيمن واستقرت يده اليسرى المضمومة بجيب بنطلونه الأيسر ـــ بينما الراديو الصغير بجيب قميصه المقلم بخطوط بيضاء وخطوط سوداء يرسل أغنية مهداة لفريق الاسماعيلية الذى فاز أخيرا ببطولة الأندية الأفريقية . وكان إيليا يفكر فى سامية ويشعر بأنه أكثر أبناء الله ألماً على الأرض ، وما كان إيليا ليرحم نفسه لو لم يشعر بهذا الشعور ولرمى نفسه بخيانة سامية محبوبته التى لا تسير بجانبه الآن .

* * *

الكثرة من الناس — التى تسير مع إيليا فى نفس الشارع — تجعل الشارع مزدحماً . بعض الناس خرج تواً من دار سينما انتهت حفلتها فى السادسة وبعض الناس كان سيدخل دار سينما ابتداء حفلتها من السادسة ، وهناك الواقفون أمام واجهات المحلات المضيئة والمصنوعة من الزجاج يتأملون الأشياء تحت الضوء من أحذية حريمى ورجالى وأولاد وشنط أيضاً وزجاجات عطر وساعات وخواتم وولاعات وراديوهات وتليفزيونات متعددة الأحجام والماركات وثلاجات بشتى المقاسات وملابس خارجية وداخلية للجنسين ولكل الأعمار ولكل الأذواق ، بعض الناس كان يقف ليتفرج،وبعض الناس كان يدخل ويشترى ، وكان للمحلات أسماء « ميكى وريفولى وستار والهبى هوم والسلفر شوز » .

* * *

كان كل ما يستطيع أن يصنعه العاشق إيليا — حيث أنه يسير بمفرده ولا تسير معه سامية محبوبته المفضلة الموجودة الآن مع أسرتها بالصعيد ، أن ينقل عينيه ويقرأ أسماء المحلات ويتأمل صنوف الملصقات والاعلانات على الحوائط وأعمدة النور ، وأن يسأل نفسه « ماذا أفعل ؟ » وأن يسأل الأب المقدس « ماذا أفعل ؟ » وأن يسأل الأم المقدسة « ماذا أفعل ؟ » .

* * *

توقف أمام صورة فدائى يحمل بندقية ، وصورة رجل فرنسى يلبس معطفاً ويسمى بالغامض ويعرض فيلمه لرابع أسبوع بدار سينما رمسيس ، ولرابع أسبوع أيضا بسينما ميامى. كانت الفتاة الملقبة بسندريلا الشاشة العربية تلبس « مايوهاً » ترك ظهرها عارياً وهى نائمة تحت شمسية على البلاج وأمامها البحر له زبد ، وكان طفل نظيف يشرب حليب « أسترا » من زجاجة بها « بزازة » وهو يبتسم ، وكانت الفتاة ممزقة الثوب وحولها صحراء وخيمة مزقتها الرياح وسلك شائك .

* * *

حاول إيليا البكاء وكان راغباً فيه ولكنه فشل ، وكانت ألياف برتقالة قد اختبأت بين أسنانه تسبب له ضيقاً ، ظل يبحث عنها بلسانه حتى عثر عليها

أخيراً ، قذفها مع البصقة فى الهواء وها هو يحس براحة مَن تخلص من هم صغير . وعاودته ذكرى حبيبته سامية فاغتم ، وبرق خاطر نفذه فى الحال « استدعى صورة مدير بريد العتبة رئيس والد سامية فى العمل والذى أمر بنقل والد سامية إلى مكتب بريد صغير بمدينة صغيرة بالصعيد » ، بصق إيليا مرة ثانية ، « كان الرجل سمينا حليق الذقن والشارب له بطن منتفخة تحت جاكتة سوداء وله رأس مستدير وعنق غليظ وعربة خاصة ووجه صامت مصنوع من الشمع ، وكان إيليا يرفع يده ويشير بالسبابة وهو يشرح الأمر ، كان مرتبكا فى البداية ثم استقام لسانه وخرج الكلام من فمه سهلا وقد أيقن من عدالة قضيته ، وكان الوجه المصنوع من الشمع صامتاً فثار إيليا وشتم وبصق للمرة الثالثة .

* * *

تلك هى المرة الأولى التى شعر فيها العاشق إيليا ــ وهو تحت الضوء وفى الزحام ــ أنه وحيد ، وفوق واجهات الحوانيت كانت الإعلانات الملونة تنطفىء وتضيء لتدهش أبناء الريف والمدن الصغيرة ، لو كانت سامية مع إيليا لبحثا عن الوجوه المندهشة ولنظر أحدهما للآخر وابتسما، فتلك واحدة فقط من ألعابهما الكثيرة التى تجلب السرور لقلبيهما العاشقين ، ولكن سامية الآن مع أسرتها بالصعيد البعيد حيث ينام الرجل الصعيدى وبندقيته وزوجته وأولاده والحمل والبقرة والكلب والحمار فى حجرة واحدة ، وحيث تسلك الذئاب والثعالب تلك الدروب الضيقة على المارة ، وحيث يتعذر عليك أيها الغريب أن تميز الآدمى من الوحش والناس والأشياء، وإيليا تحت الضوء الآن، وإيليا وحيد ، وإيليا حزين .

* * *

عن يمين إيليا العاشق ــ هناك على الطوار الأيسر ــ كانت فوانيس الشارع مضيئة ، أما فوانيس الطوار الأيمن ــ حيث يسير العاشق إيليا ــ فمطفأة ، لأن ذلك يتفق وظروف الحرب التى تعيشها المدينة الكبيرة وخلفها المدن الصغيرة ثم القرى القريبة والنائية ضد عدو خسيس لا يتورع عن قتل الأهالى غير العسكريين ــ بل يقتلهم بالفعل ، لكن الشارع رغم ذلك كان يعيش حياته بالطريقة التى اعتادها وبنفس الطريقة التى ما زال يألفها منذ آلاف السنين . وكان الراديو القابع بجيب قميص إيليا المقلم بخطوط بيضاء وخطوط سوداء سريع

التقلب ــ فها هو الرجل الذى يغنى قد توقف وها هو رجل يتكلم :

« قالت وكالات الأنباء الغربية المعادية لنا والتى تساند العدو وتشجعه على العدوان المستمر على مواقعنا العسكرية والاقتصادية والمدنية ــ فى شبه اعتراف كما قالت الصحف العربية والاذاعات العربية ــ إن الطريقة العادية التى تسير بها الحياة فى الشارع المصرى تعتبر أقوى أنواع التحدى والصمود أمام غارات اسرائيل التى لن تحصل بالقطع على النصر السهل .. نعم لم تحدث الغارات الإسرائيلية التأثير النفسى المطلوب وفشل مخطط اسرائيل فى إسقاط نظام الحكم المصرى » .

* * *

ها هم الناس عن يمين إيليا وعن شمال إيليا وأمام إيليا وخلف إيليا ــ رغم العدو ــ يشكلون الطوابير ويتوقفون أمام باعة المثلجات ويطفئون الحر داخل صدورهم بزجاجات الكوكاكولا والبيبسى كولا والسيكو ليمون والسيكو برتقال والسيكو فراولة وغير ذلك من صنوف المثلجات ــ ما عدا البيرة فهى تشرب من محلات لها واجهات من زجاج نظيف تضاء من الداخل،وأصحاب تلك المحلات حصلوا من الحكومة على تراخيص خاصة بمقتضاها يقدمون لرواد محلاتهم المشروبات الروحية،ويتعرضون لعقاب قانونى هو الغرامة المالية أولا ثم اغلاق المحل فيما لو تكرر وسمح أحدهم لصغار السن بتناول أى مشروب روحى .

هذه الأمور كانت تقلق بال العاشق إيليا فيما قبل،فحجمه وطوله و ملامحه الصغيرة لا تتناسب مع سنه التى تقول إنه بلغ مبلغ الرجال منذ شهر و نصف شهر ، نعم كان إيليا يتخلص من المأزق تلو المأزق بأن يبرز بطاقته الشخصية فى الوقت الملائم ليفصح عن سنه وهويته كموظف له راتب أول كل شهر جدير باحترام الآخرين ، ولو لم يكن إيليا كبير عائلته ووحيدهاوعائلها لكان الآن جنديا يحيا حياة الجنود الخشنة ..

وتعرف سامية ذلك من خطاباته التى ستنقطع ، وتبكى سامية وتردد « الحب أقوى من الموت ــ الحب أقوى من الموت » .. ثم يأتى النسيان وذلك ما لابد أن يكون فى يوم من الأيام ..

وهكذا أيضا كانت تصورات إيليا تجبره على أن يعود حزينا من جديد .

* * *

لم يكن العاشق إيليا يعتقد أنه سيفكر فى أى من تلك الأمور الآن كأن يكون إيليا طفلاً أو أن يكون إيليا رجلاً ، كان إيليا يدرك نفسه القلقة ويبعث فيها الأطمئنان ببطاقته الشخصية ، ولكن بماذا يدرك إيليا نفسه أمام الألم ، هل هو طفل أو هو رجل ؟ ، وان كان بالأمس قد شاهد ــ بشغف من يهمه الأمر ــ الرقيب السينمائى وقد ظهر أخيرا على شاشة التليفزيون وكان شاباً يلبس بذلة سوداء وكرافتة تسقط بميل على صدره .

(قال الرقيب : الحكمة التى تجعلنا نكتب على بعض الأفلام للكبار فقط هو أننا نريد حماية صغار السن من أفلام الرعب والجريمة والجنس ، وقال مرافقه وكان عالما من علماء النفس وكان يكلم مقدمة البرنامج ذات الأسنان الجميلة البيضاء والابتسامة الحلوة : الصغير صغير القلب والعقل لا يحتمل ما يحتمله الكبار ، وقال الأستاذ الثالث الذى كان موجوداً وقدمته المقدمة للرقيب وابتسم الرقيب وقال إنه يعرفه ، وابتسمت المقدمة ولمعت أسنانها البيضاء وتوجهت بكلامها للمشاهدين وقدمت الأستاذ الثالث ، قال انه درس علم الاجتماع بأكبر الجامعات الامريكية وقالت إنه عائد بالأمس فقط من بعثة استمرت ستة أعوام ، وقاطعها عالم الاجتماع مصححاً « خمسة أعوام فقط » ، وابتسمت المقدمة وضحك الكل بصوت مرتفع ، وتكلم عالم الاجتماع مع من حوله ثم توجه إلى المساعدين فى لقطة كبيرة : الصغار كالقردة يحبون التقليد ومن السهل أن ينحرفوا نحو الجريمة ولابد من حمايتهم وحماية المجتمع ، وهذا ما يفعله القانون وهذا ما يجعل المشرعين يسنون القوانين ولذا يجب معاقبة من يخالف القانون بعقوبة كافية ، ووافق الجميع وانتهى البرنامج » .

كان ذلك أول أمس وليس أمس كما اعتقد إيليا،وكان إيليا فى بيت عمته بعد أن فرغ من توديع سامية العزيزة التى هى بالصعيد الآن مع والدها موظف البريد، الذى نقل لأنه ساخن الطبع،ولم يكن على وفاق مع رئيسه مدير مكتب بريد العتبة ، وهذا ما يجعل العاشق إيليا وحيدا وحزيناً تحت الضوء وفى الزحام ، وهذا ما يجعل إيليا يسير فى الشارع بلا هدف .

* * *

كانت أغلبية من الشباب صغار السن تقف أمام دور السينما التى من الدرجة الثانية؛والتى تتجاوز عن شرط السن بنصف قرش يعطيه الولد الصغير السن للرجل الواقف أمام باب السينما فيدخل فيلماً للكبار فقط ، قال العاشق إيليا مكلماً نفسه وهو يبتسم : كل القائمين على أبواب « السينمات » هكذا .. حتى « سينمات الدرجة الأولى هكذا تتغاضى عن الصغار الداخلين مع أسرهم « أفلاماً للكبار فقط » .. وبالتحديد تلك الأسر ذات المقام تلك التى تجلس على مقاعد « أ » الممتازة ، وقال العاشق إيليا لنفسه وهو مقطب : لو كانت البنت سامية معى الآن لدخلنا فيلماً للكبار فقط .. ولاحتفلنا أنا وهى بانتصار جيلنا على الرقيب ولدخلنا محلاً له واجهات زجاجية وشربت أنا البيرة وشربت سامية الليمون أو الايس كريم وربما بيرة لو أحبت ، وقال إيليا : نعم سأصرف الجنيه الذى فى جيبى وكذلك العشرة قروش الورقية وأصير مفلساً وأكون سعيداً .. ولكن سامية لا توجد معى الآن وهى هناك بالصعيد مع أب ساخن الطبع ورجال ملثمين يحملون البنادق .. سامية بمفردها تواجه الوحش ، وتنهد إيليا : مسكينة أنت يا حبيبتى سامية ، وعاد إيليا العاشق حزيناً ووحيداً من جديد .

* * *

كان الشبان يلبسون قمصاناً إما بنصف كم وإما بكم كامل وإما بأكمام « مشمرة » ، وكان من المألوف أن يسود الشباب إحساس عام بذلك الحر المألوف فى مثل هذا الشهر من السنة ، أعفوا أنفسهم جميعا من غلق الزرار العلوى لقمصانهم ، ظهرت صدورهم العارية الطليقة يعلوها أحياناً شعر وأحياناً زغب وغالبا ما كانت الصدور ملساء ، وكان الضوء الكثير يسقط على الصدور ويجعل جلدها يلمع ، ورأى إيليا الصدر الأسود كالرخام والصدر الأسمر الداكن كركوة القهوة والصدر الأسمر فقط والأسمر الفاقع والأشقر والشديد الصفرة والأصفر فقط ، ومن بعض الصدور تتدلى السلاسل وتنتهى بمصحف أو صليب من الفضة أو البرونز أو النحاس أو الذهب الحقيقى أو الذهب المخادع ، ومن بعض المحلات كانت الأغانى العاطفية تصل لأذن العاشق إيليا من جرامفونات أو ركوردرات أو من الراديو وتذكره بسامية الغالية ، وبين الحين والحين كان الراديو الترانزستور القابع بجيب إيليا يقطع إرساله العادى ويتلو بياناً عسكرياً ، وكان العاشق إيليا يرى أن ذلك يتناسب مع ميلو درأما الحياة ويتمشى مع جلال موقفه الحزين ، لذا سمع العاشق إيليا أقرب تعليق عسكرى بصورة تجعل كل من يراه على

اهبة الاستعداد بأن يشهد : أن العاشق إيليا مهتم بالسياسة لأقصى حد .

* * *

ولكن هل حقا أكل الوحش سامية ! .. سأل العاشق إيليا نفسه بلهفه جعلت قلبه يدق بسرعة أكثر من المعتاد ، وقال إيليا انه لا يصدق تلك الخرافة ولكنه بهذه الوسيلة يخوف نفسه ويحصل على الألم اللذيذ ، إيليا يفضل سامية على بقية بنات العالم لأنها الوحيدة دون بنات العالم التى تحب إيليا بشعره الأفريقى الأجعد الأسود الكثيف الخشن .. سامية تحب إيليا دون سائر المخلوقات التى تسعى فوق كوكب الأرض .. وإيليا لا يريد من العالم سوى سامية .. ومن اليوم سيعيش إيليا على ذكرى سامية مخلصاً لها وإلى الأبد ــ كما تعاهدا .

« جرح كل منهما إصبعه ، بالدم رسم إيليا قلبه يخترقه سهم وكتب اسمه واسم سامية على الورقة وأعطى الورقة لسامية ، وكذلك فعلت سامية جرحت إصبعها ورسمت على الورقة قلباً يخترقه سهم وبدمها كتبت اسم إيليا واسمها وأهدت الورقة لإيليا » .

سيحتفظ إيليا بالورقة إلى الأبد فسامية جعلت إيليا يحس بأنه سعيد فى اللحظات السعيدة التى قضاها معها فوق حشائش الحدائق العامة أو متجاورين بدار سينما مظلمة أو على كورنيش النيل ، كان إيليا يتحرك بخفة ورشاقة كالروح ، وكان يحس بالسعادة أحيانا وهو واقف وأحيانا وهو جالس وأحيانا وهو يسير وأحيانا وهو يشاهد مباراة كرة القدم ، سامية حلوة متوسطة الطول سمراء بخديها حمرة خفيفة وغمازتان ، سامية ليست قصيرة وليست سمينة وشعرها الأسود الناعم اللامع يصلح ضفيرتين طويلتين ، إلا أن وجهها يصبح صغيراً وتتضح الظلال الزرقاء تحت جفونها العلوية والسفلية وتبرق من عينيها السوداوين لمعة حزينة ، وحين تجمع سامية شعرها وتصنع منه كحكة يرى إيليا الكعكة ويرى أن ذلك لا يناسبها ، ومتى رمت سامية شعرها خصلتين من أمام وأخلته سائباً من الخلف وعقصته يرى إيليا ذلك الفرس ويعود وجه سامية كما كان ، يتمنى إيليا لو يصدق دق قلبه السريع فتلك عادة تسبق اللقاء وتصبح سامية فى مواجهته كما يحبها أن تكون « بحذاء واطىء كأحذية الصبيان وبدون جورب على ساقها وجيب فوق الركبة أو مينى جيب أو ميكروجيب أو بنطلون ، يمسكها من يدها ويطيران

فوق الرؤوس كما تفعل الملائكة فى الصور والرسوم ، ويشربان البيرة بالجنيه والعشرة قروش الورقية » .

سامية ثالث فتاة يحبها العاشق إيليا ، الأولى كان اسمها هدى وكانت صديقة لهدى أخت العاشق إيليا وزميلتها بالمدرسة الإعدادية ، والثانية كان اسمها آمال وكانت صديقة لهدى أخت العاشق إيليا وزميلتها بنفس المدرسة الإعدادية ، وأخيرا سامية التى كانت صديقة لهدى أخت العاشق إيليا وزميلتها بنفس المدرسة الإعدادية ، وسامية لازالت بالمدرسة حتى الآن لأنها تحب التعلم ووالدها قادر على مصاريف التعليم ، أما هدى فتعمل الآن بمصنع نسيج مع هدى أخت العاشق إيليا ، وقال العاشق إيليا مكلماً نفسه : لابد وأن البنت هدى أختى تحب شاباً من الحى أو زميلاً لها بالمصنع وربما كان طالباً مازال ، ولكن هدى ماكرة وقادرة على إخفاء أمورها الخاصة ، ولام العاشق إيليا أخته وقال إنها لا تثق فيه هو الذى يعرف معنى الحب ، وقال إنه كان مخطئاً حين باح لها بعلاقاته بحبيباته الثلاث ، وقال إنه غير مخطىء وقال أنه مخطىء وقال أخيرا إنه غير مخطىء ، قال : هدى تخاف من أمها التى عملت خياطة بعد وفاة زوجها والد هدى وإيليا حتى خف بصرها ، كل ذلك فعلته أمه من أجل هدى وأجل إيليا . ورفضت أزواجاً كثيرين كى لا يكون مصيرهما الشارع والبهدلة من زوج الأم لذلك فهى قاسية أحياناً على هدى لأن هدى بنت ولكنها تحب هدى وإيليا . وإيليا يختلف مع أمه أحياناً ويوافقها أحياناً ويحبها دائماً ، ويحب سامية أكثر من هدى حبيبته الأولى وآمال حبيبته الثانية ، وقبض إيليا على الصليب البرونزى المعلق على صدره الذى أهدته له سامية وقال لنفسه : لو طلب منى أحدهم أن أقايضه بهذا الصليب على صليب من الفضة الخالصة لرفضت وحتى ولو كان صليبه من الذهب عيار ٢٤ لرفضت .. نعم هذا الصليب رمز كبير لحبنا الكبير أنا وسامية ، وحين تنبه إيليا أنه نطق اسم سامية — البعيدة عنه الآن — عاوده الحزن والشعور بالوحدة من جديد .

* * *

كان العاشق إيليا قد بلغ نهاية الشارع الذى على جانبيه أغلب دور السينما بالمدينة وقال لنفسه : من العدل أن ينقل والد سامية من عمله بالمركز الرئيسى بالعتبة إلى مكتب فرعى بأقاصى الصعيد لأنه ساخن الطبع وليس على ود مع

رئيسه ولكن سامية مظلومة .. سامية المسكينة ما ذنبها !! ، ومشى إيليا فى شارع جانبى قليل الأهمية وإن كان على ناصيته بنك أهلى حوله كشافات تضىء بقوة كضوء الشمس ، كان إيليا يسير ويفكر وكان الضوء يخفت بالتدريج ، وقال إيليا منذ سافرت سامية وأنا لم أنظر لفتاة غير سامية .. آه لو تعلمين أيتها الشيطانة سامية مقدار حبى لك مقدار إخلاصى لك ، عند منتصف الشارع عرج إيليا وسلك دربا قليل الشأن أيضا وشعر إيليا بشراسة الظل وحاول أن يتذكر اسم الدرب وفشل ، وقال إيليا : أنا متأكد الآن من أننى صاحب ضمير .. لم أنظر لفتاة بعد سفر سامية .. وبعد ما أنهيت علاقتى بهدى لم أكن ارتاح للون عينيها الزرقاوين .. أما البنت آمال فحين واتتها الفرصة وتعرفت على ولد وسيم بوجه أشقر كالخواجه يعمل كومبارسا بالسينما قطعت علاقتها بى وقالت إنها ستصبح ممثلة فى السينما فى يوم من الأيام و تملك عربة حمراء وفيلا على النيل وتسوق العربة وترى الماء الأزرق كل صباح من نافذة يتعلق بها ورد حقيقى ، وصرخ إيليا مخلصا لآمال كأخ : هذا الولد كذاب .. وقالت آمال مؤكدة ومتبرمة : ليس هناك من ولد ولكنها بنفسها دخلت سينما كوزمو وشاهدت الفتاة التى كانت تسكن فى حارة فى بداية حياتها وهى تسوق العربة الحمراء وقد صارت ممثلة مشهورة تملك فيلا على النيل لها نافذة يتعلق بها ورد حقيقى ، وصرخ فيها إيليا مخلصا كأخ وقال هذا شغل سينما ، وقال لنفسه : لقد ضاعت آمال ، وكان قد بلغ نهاية الدرب المسدود فمال ومشى فى الشارع الموصل للأتوبيس، وكان عمال المجارى هناك يصلحون المجارى وقد علقوا فانوساً دهنوا زجاجه باللون الأحمر ، لاحت زجاجة الفانوس لعينى إيليا بقعاً حمراء شاحبة وبدا له أن هذا أمر طبيعى من فانوس صغير يتغذى فتيله المشتعل بزيت البترول الوسخ ، كان الفانوس مثبتاً على حامل خشبى يغلق الشارع من منتصفه ، على الحامل كان هناك كتابة باللون الأحمر تحذر من الخطر ، ولم يكن عبور المشاة ممنوعاً فلم يعترض واحد من الواقفين طريق إيليا حتى العسكرى الذى كان موجوداً يشرب الشاى من كوز من الصفيح لم ينظر لإيليا ليسأله عن بطاقته ووجهته وما إلى ذلك فى مثل هذا الوقت المتأخر ، كان العسكرى مشغولاً بالحديث مع عمال المجارى ، وميز إيليا من لهجة عمال المجارى أنهم خليط من صعايدة وأولاد ريف بحرى وأولاد نفس المدينة التى يعيش فيها إيليا وكانت سامية تعيش معه فيها وكانا سعيدين مع سائر صنوف البشر من صعايدة وعمال مجارى ورجال شرطة ومسلمين وأقباط وأغنياء وفقراء وأولاد عرب وأجانب .. مدينة كبير بها التاكسى والعربة الملاكى والعربة الكارو والتروماى والتروللى والأتوبيس والبسكليت ، وقال إيليا وهو يسير إن القاهرة رمز لمصر كلها ، وفكر إيليا العاشق

فى البغل والحمار والحصان ولا يدرى لذلك سبباً سوى أنه مرتبك وعاشق ، وعاد مرة ثانية وفكر فى البغل والحمار والحصان من حيث يرمز لكل منهم للغباء ، كان إيليا مندهشا ومتعجبا كيف لا تسقط تلك الحيوانات الغبية التعيسة التى لا تقرأ فى الحفر والمجارى العديدة التى يجرى إصلاحها من جانب عمال المجارى ، وإيليا رأى بغالا وحميرا وخيولا واقعة على الأرض وكان ذلك إمّا لأن الأرض زلقة موحلة مثلا وإما لأن الحمولة التى تجرها الحيوانات الغبية التعيسة والتى لاتقرأ ثقيلة .

* * *

عاد إيليا العاشق يفكر فى حبيبته سامية من جديد وحين تصور نفسه وقد سقط فى حفرة يجرى إصلاحها من جانب عمال المجارى تخيل سامية وهى تضحك من منظره ، وقال إيليا إن الخجل من الموقف ربما يدفعه إلى الجرى ولا يعود يرى وجه سامية إلا بعد مدة طويلة وربما لا يراها بالمرة ويبحث عن فتاة أخرى بمعاونة أخته هدى ، لهذا السبب طرد العاشق إيليا هذا الخاطر الخبيث وقال إنه من ذلك النوع من الناس الذى يخاف الشك ويخاف اليقين ، وشم رائحة فم سامية فى الهواء المحيط ، وقال إيليا إنه يكره رائحة الجوع وإن لكل فم رائحة،وتخف رائحة الفم حين يأكل الانسان ، وقال إنه يحب رائحة فم سامية وسامية من أجله لا تأكل البيض ومن أجل سامية يمضع هو اللبان قبل اللقاء،وقال يوم يكون لى مرتب طيب سأتزوج من سامية وسيقبل والدها ذلك وكذلك أم سامية وأمى ستقبل أيضاً لأن هدى ستكون قد تزوجت وأمى قادرة على إعالة نفسها من عملها كخياطة وأمى لا يهمها غير سعادتى وسعادة هدى ، وجرى إيليا نحوالأتوبيس القادم والذى كان مزدحماً لأن الكل الآن فى وقت من اللازم للإنسان منهم أن يقضيه فى بيته — حتى ولو كان عاشقاً مثل إيليا ..

الحكاية المثال

— ١ —

يحكى أن فطناً من زماننا — وكان فقيراً أقرع بغير سكن — اختار صحبة الأموات : فهناك يقتات من خبز الصدقات، وهناك مسكنه — طال عمره أم قصر .

ولمّا وجد الفقير الأقرع كل المقابر المسقوفة مشغولة بالأحياء، طرد الكلب الضال الأجرب ، واحتل مكانه : حفرة بعيدة ضيقة لمّت عظام ميت .
– الميِّت قليل الشأن لا ريب –
قالها ، وكشح التراب الملوث بعلّة الكلب خارج الحفرة، وكذا عظام الميت النكرة — بينما الكلب الضال ينبح ولا يقدم على الفعل .

شرّق الفقير بعقله الفطن وغربّ :
الناس مراتب ، والحيوان مراتب ، والقبور مراتب ، والأحياء فى بطن القبور مراتب — فهل تبقى المراتب بعد الممات يانكرة ؟ خبرنى يامن عرفت مرتبتك بين الموتى ؟
إنسان وحيوان ، رجل وكلب ، أقرع وأجرب ، ضال أعجمى وضال بعقلٍ ، فما قيمة العقل يا أجرب ؟، وأنت هل عندك الجواب يا أقرع ؟

ما الذى أضناهما وعذبهما وسهدهما وأقامهما وأقعدهما فى الدنيا ؟
كيال الدنيا يكيل بمكيالين ؟ لماذا ؟ لا سَلِم ولا دام عيشه .

وصرَّ الفقير الأقرع الفطن ما اهتدى إليه ودسه فى ركن قصى من واعيته ، حتى لا يتهم ـــ هو العارف بزمانه العسكرى ـــ بالكفر أو الشغب ، وتوسد ذراعيه ورقد داخل حفرة القبر ـــ وكان الكلب الأجرب الضال قد سبقه ورقد فوق كوم التراب والعظم خارج الحفرة .
رأى الأقرع يبول ويشرب بوله ، ورأى الأقرع يتخلص من حاجته ويأكلها ، فهب الأقرع من نومه هلوعاً ببدن بارد والأيام قلب الصيف .

قال : الخير فى العتمة .. والله ستار .. وعصيان العبد عقوبته السجن أو الإعدام ، وانهمك فى الفعل ـــ وما أن تخلص من ذلك الذى اهتدى إليه ومحاه من واعيته حتى أحس بالأمن والأمان وراحة السلام وريح السلام الرخاء وطعم السلام الحلو .

ومدَّ يديه ـــ برفق وحب ـــ وحمل الكلب الأجرب بين ذراعيه وأنزله إلى الحفرة واحتضنه ، وناما بواعية بيضاء لا تعرف الحقد ولا الفروق ولا تطالب بميزات ، وما فتحا العيون إلا مع إشراقة شمس النهار .



اليوم رحمة ..
ويوم الرحمة يوم للجميع ـــ الموتى والأحياء ، فالموتى يرحمون بصدقة من حى قادر لحى محتاج ، الأموات (بسم الله الرحمن الرحيم) ببطن القبور : أبناء وأزواج وأمهات وآباء وجدود وجدات لا يشكون من جوع أو عطش ، والأطفال (والحمد لله رب العالمين) لا يصرخون على لعبة أو ثدى ، والأحياء (قل أعوذ برب الناس) فوق القبور مشتبكون بالصوت : حسنة قليلة تمنع بلوى كبيرة .. يا غالى ليتنى أنا .. بيب بيب .. يا زينة الشباب .. بيب .. أعمى وكسيح ..(ألم نشرح لك صدرك).. أنا لا أطلب مكرمة من أم عجرمة .. لله يا محسنين .. بيب بيب .. فتّنى للهوان يارجلى .. بيب ..(ألف لام ميم ذلك الكتاب لا ريب فيه).

والأحياء : قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق .
نسوة : باكيات ومولولات ونائحات ولاطمات خدود .
ورجال : فى الحزن أجلد وفى مقام الرغبة أصرح .
وامرأة : فى كل أحوالها ــ بخصر وثديين ورموش وكفل وفرج .

وبائع مزامير : غريب ، جاء من مكان بعيد ، بيدٍ وجيب ومزمار وفم وقلب ، زمّر للأشواق والتلامس والتماحك وللمواعيد ولقاء العيون وللصد بالوجه والقبول بالقفا (فيوم الرحمة يوم الذكور والإناث) .

وصغار : منقسمون ــ جماعة فرحة تنفخ فى المزامير ، وجماعة فرحة تتطلع إلى النافخين فى المزامير ، وجماعة سعيدة تحجل ، وجماعة سعيدة تصفق ، وقلة سعيدة تنفض التراب عن الحذاء الجديد وتبتعد عن مواطن الزحام كى لا يتلوث الثوب الجديد،وقراء قرآن ومتسولة أصحاب عاهات وحراس مقابر ــ فى يوم مشهود : لأن أيام العام طويلة وممدودة وأيام الرحمة قليلة معدودة .

وفقير فطن لم يقبع بحفرة ــ بانتظار أهل ميت نكرة لا خير فيهم ولا خير عندهم ــ بل جال بالمقابر وعرض عاهته حتى غاب الشفق وحلت العتمة،فعاد إلى حفرته وقد نال من حسنات المحسنين : ما يملأ كفيه مرتين تمراً وستة قروش وكعكتين بالسمن والسمسم والسكر واللبن وأربع كعكات بسكر ولبن .. وعشرة كعكات بالكَرَمْ ولا سمن فيها ولا سكر ولا لبن .

— ٣ —

مكث بالحفرة يومين وبعض يوم ــ حتى فرغ زاده فقصد جاره ساكن أقرب قبر ، وبعد السلام تم التعارف ودار الكلام وفهم الفقير الفطن : أن القبور كالبيوت تُدخل من أبوابها وأن الرأس الكبير اسمه الباشا لأنه يسكن قبر الباشا وهو الناطق بالكلمة الأولى وصاحب الكلمة الثالثة وهو اليد القابضة واليد المبسوطة ، وارتاح فؤاده لما علم أن الجميع يرحبون بوجوده بينهم ــ فتشجع وطلب من جاره طعاماً لكن الجار اعتذر بلغة لا تحرج . قال : « أنا صاحب مرض أقوم بعمل هين وجهدى محدود والأجر هنا بقدر العمل .. اذهب إلى الباشا واطلب العمل تجده .. كل شيء عندنا يا أقرع مقدر محسوب،لا حاسد ولا محسود .. والعمل قسمة بيننا .. والنظام مطلب مطلوب وهو والحمد لله موجود،فلا تخف ولا تحزن

وتوكل على الله وخذ بعضك وتوجه إلى الباشا تجد خلاصك وتعرف رِجْلك من رأسك .

— ٤ —

فى قبر كأنه القصر — بل هو القصر : به المكيف والثلاجة والتليفزيون والراديو .. أرضه مفروشة وسقفه مدهون — يقعد الباشا على كرسيه وسط صحبه وخدمه عزيز الأهل والنفس بوجه مبتسم وبدن عفى يلفه الحرير المنقوش ، قال الباشا : أهلا بك يا أقرع رد الأقرع : أهلا بك يا باشا . قال الباشا : البصير قرأ كتابك .. فنحن نحتاط ولا نخاف .. انظر يا أقرع ، وأدار الباشا قرص دولابه فأنار وجه الدولاب وتحركت فوقه الصور . ورأى الأقرع : الأقرع وهو يبول .. وهو ينتف ما تحت إبطيه ويكوره ويرمى به الكلب الأجرب ممازحاً .. وها هو الأقرع يجاهد ليخرج الريح السامة من فتحته . أوقف الباشا تتابع الصور — وقال : خير الكلام القصير .. لم تكن عينا للنهاب — فلا تكن .. عد إلى حفرتك وكن الوحش يحرس صيده .. الصيف هين والشتاء ستغلبه بلبس الوبر .. وإن جاء المطر فسقف جارك الذى يحرسك وتحرسه — يحميك .. كن العين والأذن،ولا تكن اللسان.ولا تسأل وتجلد على السهر بالأفيون،وطعامك سيأتيك فى المواقيت .. وكل رغائبك مجابة .. العمل ياأقرع العمل .. انصرف يا خازن ..

— ٥ —

نعم . هو خازن قاعد على حفرة ظاهرها التراب والعظم،وباطنها الحشيش والأفيون والكوكايين والهروين وإبرة الماكس وبرشامة الهلواس .

— ٦ —

الخازن الأقرع — الذى طرد الكلب الأجرب وتنكر لصحبته — ببدن عفىّ وعقل فطن عفىّ ، وهو فى وحدته وسهره وصمته وبفضل مَصّةٍ للأفيون

(قعربئر) مُلمّ بما يخفيه الحكام فى جرارهم :

* الحشاش العسكرى يقبض على الأمور بيد من حديد تضرب بالحديد وتكوى بالحديد ويشنق بالظن ، ورجال المقابر تحت إمرة الباشا ورجاله .

* والنهاب الذى عاش تحت ظل الحشاش فى أمان ـــ وقد اجتمع له المال وكثر الأعوان وانتشروا كالجراد الحاصد ـــ يجهر بالعصيان،وقد يتمكن من تراب الأرض ويقعد على تلّها فى القريب .

* والقواد يحيا تحت ظلّ الحشاش ويعلن له الولاء فى كل آن ، إلا أنه خبيث الطبع لاعب على الحبلين .

وزن الأقرع الفطن بميزان الصائغ قوة المتعاركين،وبان له أن كفة النهاب راجحة ، وفى هذا زوال مكانة الرأس الكبير أو قطع الرأس الكبير وحبس الأتباع إلا من أعلن الولاء فى حينه.وتلاعبت بالأقرع الفطن عواصف الفكر :

إن أعلنت الولاء للنهاب ـــ بعد فلاحه ـــ نفدت بالروح والجسد ، ولو انتكست فعلة النهاب هانت روحى وتعذب جسدى ، وفى التمهل روية مرذولة من كافة الأطراف ، هل حسدك الزمان يا أقرع أم أن الجبن طعام الخاملين والقانعين والمهانين إلى يوم الدين ؟ ، وفى المغامرة خسارة للقمة مضمونة وبدن برأس أقرع أو كسب لما تحت بدن الأقرع من ثروة ، وقد تفوز بلقب الباشا يا أقرع ذلك الذى يراهن على العسكرى الحشاش ـــ لما تفتدى قومك سكان المقابر .. ومن ثم تفوز بقصره وما حوى من نفيس وتجلس حريمه على حجرك .. والأيام دولة والمال دولة بين الناس ، ومن عز بزّ..قامر يا أقرع .. قامر .

— ٧ —

الباشا الذى يدس رأسه الأقرع ـــ منذ زمان ـــ تحت عمامة كبيرة من حرير الهند بعد ما يدهنها بمراهم فرنساوية لطيفة الرائحة ذات أثر طيب على قروحه ـــ خلع عمامته وطواها ودسها فى صندوق مطعم بالصدف والعاج ، واحتفظ بها كتذكار لجهاده الشاق ، وتقدم من لابس الحلة حاسر الرأس ـــ ليلبس قلنسوة الحكم ، بعد ذلك عاد واستوى على سرير الحكم محروساً بالجند ، واستمع إلى لابس الحلة وهو يتلو مراسم التتويج وتعاليم التاج من كتاب :

« يا أقرع بن حابس يا أقرع
إنك إن يُصرع أخوك تُصرع »

— ما اليانكى ؟
— بعض الجهال تمكن منهم الظن الفاسد « اليانكى نظير الموت : كلاهما يسلبك ظلك » وهذا — والله حق ناقص : فاليانكى بظلٍّ كبير (وما الموت هكذا) واليانكى يحجب بظله الكبير كل ما عداه من ظلال — إلا أن الظلال تبقى ظلالاً فى ظل واحد كبير (وما هكذا يفعل الموت)،
— اليانكى منا وفينا وبنا .

— لماذا كان رجال اليانكى أقوياء ؟
— الممتازون قلة .. أصحاب مال — والمال عافية ، والمنتخبون أهل بصيرة وهم أوفر عدداً من المختارين ، إلا أن المختار هو الذى يقرأ فصيلة الدم المنتخب،ويصله بدم من نوع دمه حتى يصح بدن المنتخب (فالعقل السليم فى البدن السليم)
— فروق أخرى بين المختار والمنتخب ؟
— المختار مختار والمنتخب منتخب — والفروق بينة لكل ذى عينين !! وفى الزيادة إفادة — لا الهراوة بُمبة النترون ولا الثلاجة قُلّة .
— وما بين اليانكى ومعاونيه ؟
الكل واحد ، والواحد كل ، وفى البعد عن الصواب صواب،وفى القرب من الصواب صواب ، والإقدام خير من الخوف ، ومن اغتنم فقد جنى عديد الفوائد ، وإليك تلك الحكاية (المثال) :

« يحكى أن فطناً من زماننا — وكان فقيراً أقرع بغير سكن — اختار صحبة الأموات : فهناك مسكنه وهناك يقتات من خبز الصدقات ، وهناك قد يهتدى للذى أضناه وعذّبه وسهّده وأقعده من أمر تلك الدنيا التى تكيل بمكيالين .. » .

السيد أحمد السيد

— ١ —

البيت حجرتان ، قديم ، بحى شعبى قديم ، وهو ميراث من أب مات وأم ماتت للأختين . الأخت الكبرى تسكن فى حجرة ، والحجرة الأخرى مؤجرة للسيد أحمد السيد .

والبارحة أتت الأخت الصغرى ، وهى عجوز ، لتزور أختها الكبرى ، ولسبب ما لا يعلمه إلا علام الغيوب نشب بين الأختين خلاف .

قالت الأخت الصغرى : « أنت تسكنين فى حجرة وهذا حقك : وحقى هو إيجار الحجرة الأخرى التى يسكنها السيد أحمد السيد » . ردت الأخت الكبرى — وهى كاذبة — إن : « السيد أحمد السيد لم يدفع إيجار الشهر الذى فات .. كذا إيجار هذا الشهر » . هنا صرخت الأخت الصغرى قائلة بأنها ستطرد السيد أحمد السيد . فنبهتها الأخت الكبرى إلى أن ذلك غير جائز : « انتظرى حتى يمر شهر ثالث » . (ومن ثم فعلى الشقيقة الصغرى أن ترسل إنذارا على يد محضر ، ثم يكون حجز ، وبعد ذلك ستصدر المحكمة أمر الطرد) .

— ٢ —

كان السيد أحمد السيد يستمع لكلام الأختين وهو يرتجف : إنه الشتاء وهى السماء تمطر فى الخارج بغير توقف وهو خوف مبهم لازمه من الصبا الباكر ، ثمة حادث سيحدث له فجأة ، سبقه تدبير محكم ، لن يقدر على دفعه مهما حاول — وتحسس السيد أحمد السيد جرحا بالغا فوق حاجبه الأيسر .

« كانت ليلة ممطرة كتلك الليلة ، والعتمة سلبت من بصره النور ، يسير بهدى من غريزته التى حفظت مواطن الحفر ومسالك الدورب الضيقة الملتوية ، بقدمين أثقل خطوهما الوحل الذى يفوح برائحة تقلقل معدته وتضغط على قلبه وتهدده بالتوقف ، وفجأة ، صدمه جسم حى ، وسمع صراخ امرأة ، وفجأة : ارتد النور إلى عينيه أصفر كأنها السيوف الصدئة قد تقاطعت ، ليرى ضوء الفوانيس يطل من كوى بالحوائط ومن فتحات البيوت ، ولم يبرح مكانه ، كانوا رجالا وشبابا ونسوة يسدون عليه كل منفذ ، ولم يقاوم ، وكان عاجزا عن الدفاع بلسانه الذى شل فجأة ، ولما أفاق كان جسده يفور كالقدر فوق النار .. وقد عصبوا وجهه بخرقة قديمة ودسوا فى فتحة الجرح البن المصحون ، ولما حاول فتح شفتيه ظنه رب الدار الشيخ يريد الدفاع عن نفسه — فقال : « لقد قالت لنا يا ولدى .. قالت إنك لم تكن تقصدها بفاحشة » ، وسمع السيد أحمد السيد مصمصة شفاه النسوة المشفقات ، وكان راغبا فى النوم ، وفجأة وجد نفسه يبكى بدون توقف) .

رغبته فى الخروج قوية — لكنه المطر والوحل والعتمة ، وهو راغب فى السير بدون توقف فى شوارع خالية من الوحل والعتمة والحراس .. ويكون هناك بار خال حتى من البارمان .. ويظل يشرب ويشرب فجسده عطش للخمر ، لكنه عاد — على غير رغبة منه — يقرأ على ضوء فانوس فى كتاب بونابرت فى مصر ، وكم كانت دهشته بالغة حين وقع بصره على كلمات لصيدلى إيطالى :

« الكل خائف ، لا يدور حديث إلا عن المتاعب والفقر المنتشر والسرقات والقتل ، فليس هناك أمن — لا على الحياة ولا على الأملاك ، إنهم يسفكون دم الإنسان كأنه ثور ، والحراس فى جولاتهم بالليل والنهار يحاكمون ويحكمون

وينفذون أحكامهم فورا دون استئناف ، وهم يسيرون بصحبة الجلادين ، وما إن يصدر الأمر حتى يسقط رأس شيطان مسكين » .

أهي محض صدفة ، أم هو بيد محكمة ، أم أن الأيام تتشابه ، أم أنه ليس أكثر من صيدلى إيطالى يحسن الكلام كالفرنسى بونابرت الذى ادعى « أن أراضى المماليك المصادرة ملك للأمة » ، « ومع ذلك وزعت لإشباع ذلك الإله الشره — ونعنى به مالية الجيش — وهكذا ظل الفلاح فلاحاً » .

هنا توقف السيد أحمد السيد عن القراءة وقد سمع وقع خطوات ، ثبت عينيه فى الشخص الذى دخل الحجرة — ولم يكن له به سابق معرفة ، وأغمض عينيه وصرخ :

« القول الأخير يا سيدى تعقيب لمؤلف كتاب بونابرت فى مصر وليس لى على أية حال .. أما بونابرت يا سيدى فقد قال عن مصر لحكومة الإدارة : « هذه الأمة تختلف كل الاختلاف عن الفكرة التى أخذناها عنها من رحالتنا .. إنها أمة هادئة باسلة معتزة بنفسها » .

— ٣ —

هم السيد أحمد السيد للدفاع عن نفسه أمام تهديد الأخت الصغرى التى قالت إنها ستنهش لحمه ، لكنه لزم الصمت لأن الأخت الكبرى غمزت له بعينها ، وها هو يتعرج سالما مع الدروب متأبطاً كتاب بونابرت فى مصر ، قاصداً مقاهى قلب القاهرة فله هناك صحاب ، وبالنهار يقل توقع السيد أحمد السيد للكوارث .

— ٤ —

« ها مقهى .. وها صاحب » .

كان الصاحب متجهما ، سأله السيد أحمد السيد « خيرا » ، رد الصاحب « أمر عائلى » . مضى السيد أحمد السيد ينقر بأصابعه على الطاولة ، قال

الصاحب « هذا ما يقلقنى .. كف أرجوك » . دس السيد أحمد السيد يده فى جيب سرواله ومضى يعبث فى كم من القروش المعدنية ، وثبت بصره على لطخة بسقف المقهى أشبه بسمكة الكابوريا . قام الصاحب ورد السلام مسرعا . وطلب السيد أحمد السيد من الجرسون الواقف المحملق فيه قهوة على الريحة ، وكلم نفسه :

« سألته بتلهف فأجابنى بفتور .. لقد ضايقته ، ومضى مسرعا وكأنه يخشى أن ألحق به .. كأنه سليم وكأننى أجرب .. لقد ضايقنى ، وأنا لم أكن بحاجة لفنجان القهوة . لكن كنت أريد إبعاد الجرسون » .

— ٥ —

غاب الجرسون والصاحب المهتم بالسياسة كان صامتاً ، كرر السيد أحمد السيد الطلب على الجرسون ، فزعق الجرسون « قهوة عالريحة » ، قال السيد أحمد السيد يستنفر همة صاحبه على الكلام معه:« ضجة فارغة .. ما هذا .. نجاح نيكسون وهزيمة ماكجفرن وأصوات اليهود .. أى رئيس أمريكى ما هو إلا ممثل يقوم بدور فى لعبة على مسرح السياسة الدولية .

ما هو الا خادم لرأس المال الأمريكى يا صاحبى .. متى نفهم يا صاحبى أن أمريكا لن تقف معنا نحن العرب ضد اسرائيل حتى فيما لو تولى رئاسة حكومتها ملاك بأجنحة بيضاء .. تلك طبيعة نظام يا صاحبى .. إنه رأس المال يا صاحبى .. إنها امريكا التى تباعد بينى وبينك يا صاحبى » .

همهم الصاحب وأخرج علبة سجائره وأشعل منها واحدة لنفسه ووضع العلبة فى جيبه وغاب برهة ثم أخرجها وقدم للسيد أحمد السيد سيجارة . وجاء الجرسون بالقهوة ، ورشف السيد أحمد السيد وقال بصوت هامس لصاحبه: « فى مدينة كتلك يموت الإنسان بالأفعال الصغيرة .. لقد طلبت منه قهوة على الريحة .. ومع ذلك فها أنا اشرب قهوة سكر زيادة » . قال الصاحب « لا تهتم » . حدث السيد أحمد السيد نفسه « ما كان يجب أن آخذ منه السيجارة .. ربما بدا منى هذا سلوكا جارحا .. لكنه ما كان ليهتم .. كما انى فشلت فى أن أجعله يبادلنى

الحوار برغم انى قلت كلاما يوافق هواه « على أيه حال أنا مؤمن بما قلب وهذا يكفينى كعزاء » ، وقال لصاحبه « سأقوم » ، وكذب ليخفى اضطرابه « معى موعد » . قال الصاحب : « أحيانا أجلس هنا .. أنت تعرف » . قال السيد أحمد السيد : « سأدفع ثمن القهوة » رد الصاحب « لا تهتم » .

— ٦ —

«.. هاك مقهى .. وها صاحب »

قال الصاحب المرح « ليس معى مال » . رد السيد أحمد السيد « لا أريد مالا » . سأل الصاحب الماكر « ولا حتى أجرة الاتوبيس » . قال السيد أحمد السيد « معى مال معى » ، وصفق وطلب لنفسه قهوة على الريحة ، وسأل صاحبه إن كان يبغى شرب شىء . ضحك الصاحب وقال للجرسون:« قهوة على الريحة لاثنين على حساب البيك » وأشار للسيد أحمد السيد . ودخل المقهى بائع يانصيب أعرج واشترى الصاحب ورقة ، وأتت متسولة تحمل طفلة مشوهة الوجه واليدين والساقين- قال السيد أحمد السيد « أعرفها .. مهاجرة .. وهذا الذى بالطفلة من فعل نابالم العدو الحارق » . قال الصاحب مبتسما فى خبث « إنها تصلح زوجة وأم وأنت تصلح أبا صالحا لطفلة مسكينة .. وطائرات اسرائيل رمت مدن القنال بكل أنواع القنابل ما عدا قنابل النابالم وسأل الصاحب بخبث « لماذا غاب الجرسون ؟ .. هه .. ازعق عليه .. ازعق فأنا ضيفك » . نادى السيد أحمد السيد الجرسون وكرر الطلب وأخرج من جيبه ثلاث سجائر أعطى للجرسون واحدة وللصاحب واحدة وأشعل لنفسه واحدة . سأله الصاحب « ما حال قلبك ؟ » . وجاء الجرسون حاملا فنجانين من القهوة وكوبين كبيرين من الماء . ورشف السيد أحمد السيد رشفة وقال « تلك قهوة مضبوطة .. لو أضاف الشيطان نصف ملعقة سكر بدلا من ملعقة لشربت أنا قهوة على الريحة » . وكرر الصاحب سؤاله « قلبك كيف حاله » أعنى ما أخبار تلك التى لا أحد يعرفها سواك » . وكان السيد أحمد السيد كان ممثلا يقف على مسرح يعرض ميلودراما هكذا رآه الصاحب ، وسمعه يصرخ « من المحزن ان يركز المرء كل مشاعره فى شخص واحد وفى قلب واحد » . قال الصاحب « لمن هذا القول .. انه ليس قولك على أية حال » ، أشار السيد لكتاب بونابرت فى مصر وقال:« قول لبونابرت فى رسالة لأخيه جوزيف » . ضحك الصاحب وقال :« يوسف .. يوسف يا

سيد أحمد . قال السيد أحمد « لا تسخر منى يا صاحبى ففى كتاب بونابرت فى مصر أقوال صالحة لمثل هذا الزمان .. أقوال تعنى الكثير .. فقط لو تسمع وتتفكر .. أرجوك .. لا تحسبنى عبيط » . ومضى السيد يقلب صفحات الكتاب ويقرأه :

(يقول المؤلف:« لو ظلت قلوبهم العتيقة كنظمهم لقاتلوا كما قاتل أسلافهم من قبل دون نظر للعواقب ولكن قلوبهم كانت عصرية »)،(ويقول الجنرال كفاريللى « أنا أزعم أن القوانين التى تقدس الملكية تقدس الاغتصاب والسرقة ») (ويقول بونابرت « إن البحر الذى لم نعد سادة عليه يفصلنا عن أرض الوطن ، ولكن ليس هناك بحر يفصلنا عن افريقيا وآسيا ، وعدونا كبير ، وعندنا من الرجال ما يكفى نواة لجيوشنا ، ونحن لا نعانى نقصا فى الذخيرة ») (وقال كليبر عن بونابرت « إنه عاجز عن تنظيم أى شىء أو إدارته ، ومع ذلك فما دام يريد أن يفعل كل شىء ، فهو ينظم ويدير ، ومن هنا الفوضى والإسراف فى كل شىء ، ومن هنا حاجتنا لكل شىء ، ومن هنا الفقر الذى نعانيه »).

فجأة دخل المقهى عدد مهول من الناس ، فهب الصاحب واقفا كمن لدغته عقرب ــ قال للسيد « عما قليل سيذيع التلفزيون مباراة اليوم فى كرة القدم . سأشاهد المباراة فى البيت » ، وضحك السيد أحمد وقال:« خذنى معك فتلك فرصتى لأركب اتوبيسا غير مزدحم » . قال الصاحب بلهجة عاطفية:« لو تركتك لقرأت لى الكتاب بكامله .. ستفقد بصرك فى قراءة الكتب .. صدقنى .. ولكن لماذا لا تكتب ؟ ..هه !! » . أجاب السيد أحمد وهو يلهث خلف صاحبه السريع الخطو « لست موهوبا يا صاحبى .. لست موهوباً » .

— ٧ —

طال بهما الوقوف والأتوبيس لم يصل : وكان الفتى طويل الشعر والسوالف ، وكانت الفتاة قصيرة الشعر تلبس جونلة قصيرة زرقاء وبلوزة بيضاء مشدودة عند العنق برباط أحمر ، قال الولد للبنت « لو ركبنا المترو ..ألم أقل لك .. كان يجب أن نركب المترو » ، ردت البنت على الولد « ونمشى محطتين .. لقد تأخرت وماما تعرف موعد خروجى من المدرسة » .قال الولد للبنت:« نركب ونتمشى المحطتين

معاً ». قالت البنت بدلال وهى تعبث بسلسلة يتدلى منها مصحف « سيصل الأتوبيس بعد قليل » ، قال الولد الذى اساء فهم البنت « طظ » .. ودق الأرض بكعبيه ومضى ، ورفعت البنت حقيبتها وأخفت ثدييها عن نظر الرجل الغاضب الذى كان يتابع حديثهامع الولد والذى كان يلبس بالطو مرفوع الياقة وعلى جبهته علامة من أثر السجود.ولما لم يغير الرجل موقفه من البنت علاوة على أنه بصق — أسرعت البنت تجرى لتلحق بصاحبها .

لما جاء الأتوبيس تضارب الناس بالمناكب ، وتعذر على السيد أحمد الركوب ، ونظر يمنة ويسرة وأيقن أنه فقد صاحبه وأن الصاحب بلغ غايته ، فولىّ وجهه صوب مقهى قريب وكان حسن الحظ فها هو صاحب بديل .

— ٨ —

كان الراديو يذيع مباراة الكرة ، وكان الصاحب مستمعاً بأذنيه قارئاً بعينيه التفاصيل التى تسبق المباراة فى صحيفة « المساء » بملحقها الرياضى ، وكانت بقية الصحيفة ملقاة على كرسى مجاور ، استأذن السيد صاحبه فى الاطلاع على الجريدة ، رد الصاحب:« خذها .. خذها لك » ، وقد صارت الصحيفة ملكا للسيد أحمد وجد اعلاناً فقطعه بحرص ، لمحه الصاحب فخطف منه القصاصة وقد ظنها ذات قيمة عينية — لكن خاب قصده فدارى خجله بُقراءة الاعلان بصوت مسموع « حفلة ساهرة كبرى لجماعة سيدات مصر بفندق النيل هيلتون بقاعة ألف ليلة وليلة غداً لصالح اقامة دار ضيافة والعشاء يعقبه برنامج ساهر تحييه نخبة من الفنانين والفنانات » ، ضحك الصاحب بعصبية ، وقال السيد « قد تحضر » — وقال معتذرا لصاحبه ، وكان فى قرارة نفسه تعيسا لأنه عاجز عن التصريح باسمها « نعم إنها مدام تامبيبه : الحسناء الرياضية الجسم .. واحدة من نجوم التيفولى بالقاهرة .. أثار سخطها أن يصدر بونابرت الأمر بأن أرتداء ثياب النساء رمز على الجبن .. لم تطق التهجم على بنات جنسها .. فأعلنت أنها على استعداد لمبارزة بونابرت .. وأنها ستريه والمسدس فى يدها .. أن الخوف — حتى الخوف منه — لا يملأ قلوب جميع النساء » .

— ٩ —

عند محطة الأتوبيس حكى السيد لصاحب قابله حكاية الولد مع البنت مع الرجل الغاضب المتدين ، وقال إن أهداب البنت كانت طويلة ، سأله الصاحب عن معنى ذلك فأجاب بأن مؤلف كتاب القاهرة وهو إنجليزى يقول — ولا تأخذ يا صاحبى من قول الرجل المعنى البسيط « إن أهداب المصريين الطويلة هى سلاح ضد التراب لا مجرد زينة » .

— ١٠ —

قالت العجوز للسيد أحمد السيد إن أختها عادت لبيتها فى الحى المجاور « لاردها الله » ، قالت إن أختها مريضة بالقلب وستموت حتما فى بحر هذا العام « لكنها بمفردها » وإن الله كان عادلاً حين جعل أختها الصغرى لا تنجب من يرثها .

وقال نابليون بسانت هيلانة لرفيقه جورجيو :

« إن المرء فى هذه الدنيا يجب أن يبدو صديقاً للناس ، وأن يبذل الوعود الكثيرة ، ولا يفى بوعد منها » .

وقال ج كريستوفر هيرولد — مؤلف كتاب بونابرت فى مصر — للسيد أحمد السيد :

« ولكن الأجيال القادمة ستعجب بعمق ما فيها من ذكاء وبصر — إن قمبيز وأخرسبيس والاسكندر الأكبر وعمرو بن العاص وسليم الأول — كلهم دخلوا مصر من صحراء غزة » .

وسأل الرجل — الذى دخل الحجرة فجأة — السيد أحمد السيد : « قل لى .. من هو أخرسبيس هذا ؟ » . أجاب السيد أحمد السيد — وقد دفن وجهه تحت الغطاء — بصوت أقرب الى الصياح :

« لا أعرف .. لا أعرف »

وختم روفان تقريره قائلاً :

« وحين استأذنت للانصراف ، لم يقدم لى الشربات ولا العطر ولا المنديل التقليدى ، فأيّد إغفال هذه المجاملات رأيى ... » .

الغجرى

رزق لا ينحدر من أصل غجرى

بنت الناس القاصدة بيوت العرب البعيدة أحست بتعب ، فمالت على خيام الغجر القريبة ، وقعدت تحت ظل نخلة ووليدها فى حجرها ، وحطت يدها على قلبها وماتت .

من فتحة الخيمة أطلت الغجرية العجوز على الميتة وظنتها نائمة ، ففتشت بعينها الواحدة عن عقد بالرقبة أو أساور باليدين ، ولما خاب ظنها فتشت بأصابع أمهر الحواة عن مال بالجيوب ــ فخاب ظنها أيضا ، هنا ارتابت (البدن يابس وبارد) فقبضت على المعصم . هكذا أدركت الغجرية العجوز أن الميتة ميتة . حملت الوليد وكلمته ــ هو الذى لا يعرف الكلام :

« أنت رزق ساقه الله إلىّ .. بعد ما أغير ملامحك بإبرة الوشم سأطرق أبواب أصحاب البيوت ــ وأقول باكية : مات أبوه وهو فى بطن أمه .. والبارحة ماتت أمه .. وحيدتى تركت لى اليتيم قطعة لحم ببطن وفم .. يا أولاد الحلال تصدقوا على اليتيم بكسرة أو تمرة يرحم الله موتاكم » .

رزق كائن أرضى صاعد

فى حضن الجدة وعلى كتف الجدة وَبِحِجْرِ الجدة ـــ عاش رزق عامه الأول وعامه الثانى وعامه الثالث متسولا بلسان الجدة ، ولما بلغ عامه الرابع خرج إلى الطرقات يتسول بلسانه هو ـــ ممسكا بيد الجدة العمياء حقا وصدقا ، وعاش رزق متسولا حتى بلغ سن السابعة .

كيف بدل رزق جلد اليتيم بجلد الغجرى

بعقل عمره سبع سنوات فكر رزق ـــ بعد موت الجدة :

« بطنى تشتكى الجوع والخبز بالأفران .. واللحم فى الطير والحيوان .. والثمر على فروع الشجر ، وأنا متسول ـــ لأن لكل شىء على الأرض صاحبا يحرسه ، وما فوق الأرض من خيرات يجعل الأرض تصرخ من ثقل ما فوقها وتنادينى : الخوف علة الجوعان يا رزق .

هكذا برع رزق فى نط الحوائط واقتناص طيور النسوة الغافلات وشق جيوب الغير بحد الموسى .. وبالخطاف والقصبة قطع الحبل العالى واستولى على ثياب العروسين العاريين .. وبالليل طرق الباب وقال لأهل الدار: « أنا يتيم بلا دار » فأرقدوه على فراش، فنفخ بطنه ولعب لعبة الحيوان ولما ناموا حمل الفراش وطار بجناح الطير .

وها هو الغجرى ببطن لا تشتكى الجوع وحلق لا يعرف العطش وبدن حر لا يغله قيد : يأكل اللحم الحرام مشويا ومقليا فى الدهن، ويشرب البيرة الحرام من زجاجة أو فى سطل، ويدخن الحشيش المكروه فى السيجارة أو الجوزة، ويمص الأفيون وقد يغليه مع القهوة، ويعاشر من بنات الغجر من تروق فى عينيه ويسرق قرشها الذى أخفته بين ثدييها عن أعين أهلها الغجر .

حكاية الغجرى مع ست الدار

فى العام الذى شح فيه الزيت والكيروسين والسكر وتغيرت العملة من فضة إلى نيكل ـــ تزوج الغجرى رزق من الغجرية ست الدار ، وبقى ـــ ككل الغجر المتزوجين ـــ فى الخيمة لا يبرحها إلا إلى خيمة مجاورة . هذا بينما ست الدار تلف

وتدور تحت شمس الصيف وتحت سماء الشتاء الممطرة،تقرأ الطالع أحيانا وتتسول وقتا وتسرق إن واتتها الفرصة وتنام مع هذا وذاك فى العراء ــ لتفى بحاجة رجلها الغجرى إلى الأكل والخمر والمخدر .

وفى يوم قالت ست الدار لرزق : زهقت..

رد رزق : نفترق .

قالت ست الدار : لا .. تزوج من ثانية تطعمك .. وسأبقى أنا بجوارك خادمة مزاجك وزوجة تنجب البنت والولد .

قال رزق : واحدة لا تفى بحاجة اثنين .

قالت : تزوج من اثنتين أو ثلاث .

سألها رزق : ولو جاء ولد أو أتت بنت ؟ .

قالت ست الدار : تزوج ما تشاء ومن تشاء من بنات الغجر يا رزق .

هذا ما جعل رزق يتزوج من هندة وسعدة ومنصورة ، وفى العام الذى تربع فيه النطع على عرش البلاد تزوج من انشراح و قمر (لقد تجاوز الملعون الحد وتخطى شريعة الله ــ ولكن لا لوم عليه فهو غجرى) . أما ست الدار ــ أول الزوجات وأكبر الزوجات ــ فهى سيدة الخيمة : الآمرة .. الناهية .. الموقعة أقسى العقوبات على المقصرات ، ومن رضيت عنها ست الدار من حريم الغجرى نام معها الزوج الغجرى ليلة .

أفسحوا يا غجر .. الحظ فى طريقه إلى خيمة رزق

(الشمس غربت ، واليوم يوم السوق فى القرى ، عما قليل يجتمع شمل الكل وينهق الحمار ويهز الكلب ذيله وتأكل القطة . والزوجات جلبن الماء من البئر فى الصباح ــ والحوض مملوء ، وشمس هذا النهار كانت حامية ، والأرض تبخ ــ الآن ــ ناراً) .

قامت ست الدار ورشت تراب الأرض بالماء ، وفرشت سجادة من قماش قديم أمام الخيمة ــ تمدد فوقها الغجرى لما تنفست الأرض الهواء الطرى . وقمر أصغر الزوجات سبقت الأخريات ، ولعبت بأصابعها فى ثدييها ورمت فى حجر الغجرى جنيهين من ورق ملون جديد ، وضربت الكلب بساقها وناحت من ألم فى

العرقوب وقالت : كيسه مملوء بورق مثل هذا سيسهر معنا الليلة وسيتركنا لما يطلع الفجر فهو متزوج .. بفمه سمكة ميتة .. قلت له اغسل فمك بالصابون .. لولاك الخائب لبانة سيروح العفن من الفم وتبقى رائحة اللبان الحلوة .

زجاجة ويسكى للغجرى

رحب الغجرى بالغريب ، وأمسك بالزجاجة التى جاء بها الضيف ــ وقلبها بين يديه ، وسأل : حلوى ؟ . قال الغريب : لا .. خمرة من أحسن صنف . فرح الغجرى وهلل : اللمبة يا انشراح .. ارفعيها لفوق حتى أرى ، وأخرج الزجاجة من العلبة ورفعها لفوق ، ورأى الغجرى على نور الفتيل المشتعل : رجلا منتعلا يمشى فوق أرض خضراء .. على رأسه قبعة وبيده عصا قصيرة سوداء .. بحلة صدرها قصير وذيلها المشقوق طويل ، فقال للغريب : بعد ما نفرغ من الشرب سآخذ أنا الزجاجة والعلبة . قال الغريب : خذها .. عندى مثلها . وغمز الغجرى لقمر : رتبى الفراش ، قال للغريب : ستنام عندنا .. أنت ضيفى ، ودخل الخيمة خلف قمر وقرص أذنيها : قد أعجز أنا عن كشف سر الباشا .. حاولى مع الباشا ولك منى رطل من بسبوسة الأشرم . لكن الغريب لما سكر ــ رمى نساء الغجرى بكلام فاحش .. وحكى حكاية فاضحة وقرص فخذ ست الدار .. وقاء على حجر هندة .. وجرى لسانه جريان الخيل ففضح سره دون جهد من أحد .

الغجرى يفكر دون توقف

(صاحب حرفة ارتحل إلى بلد عربى مجاور وعاد بعد عامين من البلد الغنى بكل هذا المال) ضرب الغجرى الكف بالكف ــ وزعق فى السماء : واه .. لابد من السفر .

شرب أقة من الخمر ــ فى اليوم الأول ــ وفكر : كيف يا رزق ؟

فى اليوم الثانى ــ شرب المخدر وسأل نفسه : كيف أسافر وأنا لا أحسن حرفة ؟

وفى اليوم الثالث أكل الأفيون سيد الكيوف ــ وفكر : لكل سؤال جوابه .. الحكومة هى التى تقول للمسافر سافر .. والمخبر عين الحكومة التى ترى وأذن

الحكومة التى تسمع ويد الحكومة التى تجرجر العاصى إلى المخافر .. والمخبر لا يعجز عن حيلة تجعل الحكومة تقول للغجرى : سافر يا رزق .. مع السلامة .

صداقة الغجرى مع المخبر عبد العاطى والصول عبد البارى

(قال المخبر المخمور للغجرى المخمور : بعد يومين سأرد على ما تبغى وزيادة) .

(بلع المخبر دخان المخدر وكح وقال : يقول الصول عبد البارى — قل لرزق يدخل دكانه مصور يرسم ملامح وجهه حتى تعرفه الحكومة . سأل الغجرى : قد أضار لو عرفت الحكومة وجهى ؟ . قال المخبر : لا تخف) .

(سأل المخبر الغجرى بلسان مر من طعم الأفيون : وأين شهادة ميلادك يا رزق ؟ وأين شهادة خروجك من الخدمة فى جيش الحكومة ؟ . رد الغجرى فى خوف : لا شهادات عندى . قال المخبر : لا تخف .. سأحضر مساء غد مع الصول عبد البارى .. الصول عبد البارى ابن مزاج جلّال عقد .. هات نصف جنيه يارزق) .

(قال الصول عبد البارى لرزق ورمش بعينه لانشراح : قم الآن واذهب إلى طبيب .. خذ معك المخبر عبد العاطى .. ادفع للطبيب وسيحدد لك الطبيب السن التى تعفيك من الخدمة فى جيش الحكومة .. واترك الباق لله ولى .. سأجعلك يا رزق من حملة الشهادات) .

وها هو الغجرى — بعد مرور نصف عام — يحمل جواز سفر بصورة عليها أختام وتواريخ وأرقام وتوقيعات من ناس يلبسون الحلل ويجلسون خلف طاولات على كراسى هناك بدواوين الحكومة ، بالمال وبفضل معرفته بعبد البارى وعبد العاطى — شهد الكل للغجرى : أنت مواطن .. أنت يا رزق بنّاء عمره فوق الأربعين .. لا تشتك الفقر يا رزق .. سافر فبلاد العرب واسعة .. إخلط الرمل بالأسمنت وضع الطوبة على الطوبة حتى يحك سطح العمارة أنف السماء .

ما جرى من رزق وما جرى لرزق فى بلاد العرب

عارك الكلب الذى يحرس القصر وخرج من المعركة بيد أقصر من يد،وراوغ سلاح الشرطة الفتاك . وحطم زجاج العربات الواقفة تنتظر أصحابها . وفك أحزمة الحجاج النائمين فى حماية الحرمين — وفاز بمالهم . ونام مع شيوخ مخنثين وعجائز شمطاوات . وعاد بعد غيبة طالت إلى خيام الغجر بجيوب منفوخة وثياب جديدة وراديو يغنى بكل اللغات ، يشعل السيجارة من قداحة ولا يشرب إلا الخمر الملفوفة فى علب ، ولما زار المدينة رأى العمارات ورأى الأرض الفضاء فدفع لصاحب الأرض الفضاء المال واشتراها ، ومكث فى الخيام أسبوعا ويومين وليلة مع زوجاته — وقد انجبن جميعا فى غيابه — ثم قفل عائدا إلى بلاد العرب فى غزوة جديدة .

الحاج رزق يُكَفِّر عن معاصيه

وعمل الحاج رزق بنصيحة صديقه عبد البارى : طلق انشراح ومنصورة واشترى الحاج رزق الأسمنت والحديد وأحجار الرخام من السوق السوداء ودفع للبناء والفعلة المال وأمرهم ببناء المسجد والحجرة الواسعة أسفل العمارة (عمل بنصيحة صديقه عبد البارى : بناء المسجد يارزق سيجعل الحكومة تعفيك من الضريبة المفروضة على العقار) .

وعمل الحاج رزق بنصيحة صديقه عبد البارى : طلق انشراح ومنصورة تصبح يا رزق نظيفا أمام الله والقانون والناس (انشراح تزوجها عبد البارى لتعيش مع لطيفة أم أولاده فى حى السبتية ببولاق المحروسة ببركة سيدى أبى العلاء . ومنصورة تزوجها عبد العاطى بعد ما طلق أم سماح ومحروس) وذلك كله فعله الحاج رزق بوحى من ضميره .

(١) العنزة ذبحها واحتفظ بجلدها وباع ابنها وأكل لحمها مع جماعة الغجر فى يوم مشهود .

(٢) باع الحمار والخيمتين وطرد الكلب والقطة .

(٣) أمر زوجاته بمفارقة الخيام مع أولادهن والعيش بالحجرات التى تشغل سطح العمارة .. وأمرهن بعدم الاختلاط بالسكان .. وأمرهن بالتلون مع الحياة الجديدة المحترمة .. والزوجة التى يريدها منهن ستهبط لتبيت معه على سرير طرى الفرش فى الحجرة الواسعة الملاصقة للمسجد .

آخر صورة للغجرى مع السيد عبد الصمد

قال رزق للسيد عبد الصمد : إشرب قهوتك ياسيد عبد الصمد قبل ما تبرد .. يوم سكنت عندى يا سيد عبد الصمد كان الماء يصل إلى الدور الخامس .. فى هذه الأيام لا يصل الماء إلى الدور الخامس .. حين تريد الحكومية أن يصل الماء إلى الدور الخامس سيصل الماء إلى الدور الخامس .. أنا يا سيد عبد الصمد برىء من كل ذنب .. لما بنيت العمارة اشتريت مواسير ماء قطرها شبرين .. غيرى من أصحاب العمارات اشترى مواسير ماء قطرها أقل من شبر .. وفى العام الماضى — أنت تعلم أنى بنيت خزانين للماء أعلى العمارة .. غيرك يسرف فى الماء .. أنا لا أقول أنت مسرف يا سيد عبد الصمد .. كذا لا لوم على .. اللوم على سكان العمارة المسرفين .. اذهب وكلمهم يا سيد عبد الصمد فأنا زهقت والله من كثرة الكلام .

قال السيد عبد الصمد : لو بات الماء فى الخزانين يا حاج لوجدت أنا الماء بالنهار .. ولكن أهل بيتك هم المسرفون .. إنهم لا ينامون الليل ودبيبهم والله يا حاج لا يجعلنى أنام .

انتفض الغجرى : اسمع يا سيد عبد الصمد .. هل أحرق أولادى ؟ ، (ورفع إصبعه فى وجه السيد عبد الصمد) بالقطع لا .. أنت دفعت لى أجر عامين مقبلين فى مسكن من حجرتين .. ها هو مالك خذه (ووضع المال على الطاولة أمامه) وأنت لو عشت فى مكان أنا صاحبه عشرين سنة كم ستدفع لى ؟ (وأخرج رزمتين من المال ورماهما فوق الطاولة ، وأخرج القداحة من جيبه وأشعلها) نعم لن أحرق أولادى يا سيد عبد الصمد (ودلق الكحول من زجاجة الكحول فى الأوراق المالية وأشعل فيها النار) افتح عينيك يا سيد عبد الصمد .. وانظر إلى المال وهو يحترق .. والآن — هل من كلام باق فى صدرك يا سيد عبد الصمد ؟

كلام للبحر

سماها أبوها « فاطمة » على اسم أمه الميتة ومات ، الا أن أهل حارة السبع نخلات ينادونها « بطة » . وأهل الحارات فى مصر محيرون ـــ القملة عندهم بيبة . والاسم هنا حمال أوجه يا بحر ـــ فانتظر (بعد موت الوالد « عجلان » عملت الأم عمل الأرامل قليلات الحيلة : تجلس على حجر وتبيع لأولاد وبنات الحارة أزهار عباد الشمس ملفوفة فى قراطيس من ورق مصور ، وتقعد على الأرض وترص فوق الحجر شرائح البطيخ والشمام ـــ لما يكون الأوان أوان البطيخ والشمام) .

لم تكن « بطة » وقتها طفلة خائفة تمسك بجلباب أمها ولا تفلته إلا إذا سمعت صوت صفارة الجدع بائع البالونات . والجدع بائع البالونات الملونة هذا يا بحر ـــ جدع ماجن ، وأنا أزيدك به علما . (يربط الجدع بالوناته المنفوخة بخيوط متينة فى عود طويل من الحطب ويتركها ترقص فى الهواء بكل لون فوق الرقاب الممدودة ، ويحتمى من عيون الكبار بالأركان ويفتح حجره ويقول للبنت « أقعدى » ، ويضع بالونة غير منفوخة فى فم البنت ويقول للبنت « انفخى » ، ويعرك بيديه صدر البنت (ويقبض) مع حركة البسط والمد أثناء نفخ البنت للبالونة ، ويحدث الجدع الخبيث نفسه الخبيثة « كل طفلة امرأة لا تبوح .. وكل امرأة طفلة بصدر منفوخ قد تبوح وَلا تبوح ـــ لكن القرب من هذا الصنف غير مضمون وغير مأمون وأنا أطلب السلامة .. ويكفيك يا طباخ الصدود أنك طبخت وتطبخ لأصحاب القدور) .

أما الآخر يا بحر ذلك الذى طبخ له بائع البالونات صدر « فاطمة » فكان صاحب دكان على مدخل حارة السبع نخلات ، صاحب دكان من ذلك النوع من أصحاب الدكاكين .

(كل السلع المرصوصة على رفوف دكانه وفى السقوف حصل عليها ولم يدفع ثمنها بعد ـــ أخذها من تاجر بالموسكى يقال له تاجر الألف صنف صاحب الملايين ، وصاحب الملايين هذا يعامل أصحاب الدكاكين بعرف يسمونه عرف السوق ، يقول تاجر الألف صنف صاحب الملايين لأصحاب الدكاكين : خذوا ما يلزمكم من بضاعتى ، واتركوا لى على تلك الكمبيالات بصمات أصابعكم حتى يضرب القانون ـــ وهو حليفى ـ بيده الطويلة وهى من حديد رقبة المنحرف منكم والأعوج وابن الهرمة الذى يشكو كذبا من الإفلاس ، بيعوا بالعجل أو بالآجل .. وارفعوا سعر السلعة واخسروا فى الميزان ـــ لا دخل لى بأحدكم ما دام لا يدلس علىّ ، بيعوا واكسبوا ـــ كل شيخ بطريقته ـــ وردوا لى ثمن ما أخذتم لأحصل أنا أيضا على مكسبى وهو والله ملاليم .. هكذا حتى يدور الدولاب ويرمى فى حجركم وحجرى ، وتلك سوقكم يا أولاد العريان ـــ والمال دولة بين الأغنياء منكم) .

لكن ما لنا نحن وحكاية تاجر الألف صنف مع تجار الحارات ـــ نحن نحكى عن تاجر بالذات له دكان على مدخل حارة السبع نخلات . هذا التاجر يا بحر أغرى « بطة » بقرص نعناع لتقترب منه وغافلها ومرر راحته على صدر بطة فجفلت « بطة » من وجع الخضر الطالعين ، خلاصة الأمر جرت « بطة » ، وخاف العجوز من فضيحة بجلاجل فيما لو تكلمت « بطة » ، ولام نفسه وقال « الأخذ والرد يتعب قلبى أنا العجوز .. لماذا النظر من بعيد ؟ .. بين البائع والمشترى نعم ولا .. والزمان زمان البيع والشراء .. والقوم فقراء .. سأكلم أم « بطة » وعلى الله التوفيق .

وقام من فوره وقفل الدكان وقصد أم « بطة » حرم المرحوم « عجلان » ومعه قمع السكر الملفوف وزجاجتين من شربات الورد . وعلى ضرب الطبل دق العجوز باب بستان « بطة » فردت بطة « ادخل يا حلالى » ، لكن العجوز ما هش وما نش ولا رفع العصا ولا نط الحائط ، مد كفه المبسوط بحب الفول السودانى ـــ وقال لبطة « وحق هذى النعمة دفعت المال لأرى طيرك يا بيضاء عن قرب » ، ومد الكف وقال لطير بطة « القط يا طير » .

(وها هما يا بحر ـــ كل حمامة بيضاء بجناحين تروم الطيران فى الكون الفسيح ، لكن الحريصة عرفت كيف تعامل طيرها وتحبيه فى الحبس : تلبس الثوب الضيق بشق من العنق حتى الفلقة ثم تغلق الشق بخيطين ، اما المتعة فمكانها الحمام ـــ مع النفس ومع مرآة صافية وصابونة معطرة ذات رغوة وفيرة أو ثمرة موز طرية تشبه العضو ويطلقون عليها أدباً إصبع الإنسان .. آه يا بحر ـــ لعن الله الكلام فى مثل هذا المقام ..وما أغربك أيها الإنسان لما تجبرك الظروف على الهنك والرنك فى الخفاء .. وأف منها تلك الحياة التى دامت عامين و نصف عام : كأنها الكوابيس فى المنام) .

قالت « بطة » لأمها « على غير عادته أغلق الدكان ودخل الدار العصر والمؤذن يقول « الله اكبر » ، ورقد على السرير وناداني فقلت نعم وقلت خير ، قال أحس بوجع ، قلت أين ؟ قال « هنا » ـــ وأشار الى القلب والجنبين ، قلت « سلامتك » .. بعد ما تشرب المغلى ستعود اليك عافيتك ويبتعد الشر » ، وكنت أمام النار لما سمعت الطرق على الباب ، فقمت وفتحت فما رأت عينى الضيف الذى هو لا إنس ولا جان ، وأنا راجعة سمعت صوت النزاع بين الإثنين ، ولما وصلت إلى الفراش كان الملاك قد مضى ومعه الروح ، وتركني مع الجسد الميت ، وها أنا يا أم أملك البيت والدكان بلا رجل بكح حتى يخاف الطامع فلا ينط الحيطان .. وأنا شابة ويدى يغطيها الذهب من هنا الى هنا ، وها أنا يا أم أدرك بعد ماشق الفأس الرأس أن كل بضاعة المرحوم ملك غيره ، والآن ، هل أغلق الدكان ؟ وآكل من بيع الذهب قطعة قطعة حتى ينفذ فأبيع البيت وأعيش بقية عمرى على الخبز واليمك كزلطة أم كرملة وفتفوتة أم وزة وشمعة ؟ أم أفتح الدكان وأعيش عيشة زوجى لما كان معنا فى الحياة ؟

أأُجر الدكان يا أم ـــ لغريب ـــ وأحيا حياة ناس الحارة صباحى الفول بالزيت وليلى الفول والطعمية ؟ » قالت أم بطة « ما كان كان والفالحة من دبرت أمر عيشها وحال دنياها ـــ لا تلك التى تضع يدها على خدها وتبكى تقلّب الأيام » .

قالت « بطة » « نطقت الصدق يا أمى .. ما ولّى مر وفات .. كيف أدبر يا أم لأكون الأرملة المرغوبة من الرجال ؟ »

قالت أم بطة لبطة « جمالك يستر عيوبك والمرغوبة من الكل لو ابتسمت للكل فقدت سعرها فى سوق الرجال » قالت بطة « تعملين أنت يا أم بالدكان وأحبس أنا نفسى فى البيت فأحتفظ بحسن السمعة وبمظهر زوجات التجار الوقورات — لما أغلق بابى فى وجه غيرك ، ومن اليوم وحتى ينقضى عام سأرفض الخطاب ولو كانوا المئات وأقول « الميت عزيز » ، بذا يرتفع قدرى ويرتفع سعرى .. ويتكلم الناس عنى أنا الوفية . فتموت حاسدتى من الكمد ، وتنصحنى العجوز المأجورة من صاحب المال « لا تدفنى شبابك يا بنية ، فالموت حق على الحى .. والحياة حق للحى » — فأرد « بعد اكتمال الحول يا خالة » ويحضر صاحب المقام والمال بعد انصرام الحول ومعه الشيخ والشهود ويدق بابى فأفتح بابى على مصراعيه » .

ذاك ما قدرته « بطة » ، لكن الأقدار فى بلاد العرب عربية مولدة تحت الضحك من المفارقات الماسخة . لما طرق الطارق باب « بطة » فتحت « بطة » ووجدت أمامها الثور على هيئة إنسان وبثياب انسان : هذا فتوة الحارة الملقب بالطبل يا بطة .. والطبل .. يا بحر .. يأكل لقمته بفرض الإتاوات على الضعاف وكسر عظام الأقوياء .

قالت بطة لنفسها « الثور نطاح تغضبه كلمة لا الحمراء .. الأسلم أن أحاوره وأداوره حتى يأتى الفرج » وقالت بطة للطبل « يعلم الله أنك خير رجل يا طبل .. وكل أنثى تتمناك .. غب يومين وتعال ثم غب شهرين وتعال — هكذا حتى تتعود العين على رؤياك ويشتعل فؤادى إذا ما غبت » .

وجاء الفرج المنتظر — وكان حلو الصورة ، له ثلاث زوجات فاتنات — لكن الوارث يحب امتلاك كل تحفة جميلة يعجز عن امتلاكها الغير ، سمع عن « بطة » ورفضها للرجال ، فراهن أصحابه وكانوا على مائدة القمار فقال: « هى لى ولو خسرت ربع مليون جنيه » .

قالت بطة لحلو الصورة الواقف على الباب « الفتوة يقف فى طريقك » .
فرد عليها وقال « أنا أيضا فتوة بمالى ، والجنيه يذبح كما تذبح السكين » .

أخفت بسهام الرموش سواد وبياض العينين وقالت « أنا لك .. زحزح العقبة

وتعال .. وقدم الصداق ألفين .. والمؤخر ضعفين والعصمة بيدى » .

(أواه يا بحر من المال — أنظر : ها هو يصرع الواحد القوى) .

أرسل الوارث فى طلب الفتوة،وقال له لما جاء:يا طبل لى مطلب وسيكلمك رسولى على انفراد .. واللقاء بينك وبين الرسول هناك فى مكان بعيد .. ما رأيك فى الخرابة الواقعة خلف بيت الصراماتى فى وقت بين المغرب والعشاء ؟ »

قال الطبل الأجوف — وهو لا يدرى ما يحاك له:« موافق .. أفديك بنور العين .. كم سآخذ نظير خدماتى ؟ »

قال حلو الصورة « ورقتين .. كل ورقة خضراء بمأذنة » .

سال لعاب الفتوة وذهب إلى الخرابة بعد المغرب ، وقبل آذان العشاء جاء رسول حلو الصورة راكبا عربة فيها ضابط بنجمة على الكتفين وعسكر بسلاح وخبير بباطن الأرض، نَبَش الأرض التى يقف فوقها الطبل وأخرج لفة قماش بها حشيش وأفيون ، لما وزنوها فاقت الأقتين . وبعدها ذهبت الحكومة بالفتوة إلى قاضى المخدرات الذى حكم عليه بالسجن مع العمل الشاق لمدة عشر سنوات ، ذهب الوارث حلو الصورة إلى بيت « بطة » وأركبها العربة التى تجرها الخيل.وتحت الرايات والنور وعلى رنين الصاجات بأصابع الراقصات — ألبسها الخاتم الثمين والسوارين ورفع كأسه وخاطب أحبابه الأكابر:« ليالى العرس بعدد أصابع اليدين ، والخمرة فرنساوى وانجليزى وألمانى يا إخوان » .

(عشر سنوات يا بحر — عاشتها فاطمة كأنها عشر ساعات وأنجبت منه البنتين والولد الجميل ، وعشر سنوات عاشها حلو الصورة مع فاطمة — نصفها الأول حلم جميل ونصفها الأخير كابوس ثقيل ، فكل يوم يمر يعجل بخروج الفتوة من السجن — والطبل على ظهر الأرض يدّ ثقيلة وغل ورغبة أكيدة فى الحرق والتحطيم) .

دفع الوارث للمخبرين والعساكر المال الكثير رشوة للسجانين ليهدموا بنيان الطبل القوى حيث يتحول إلى أنقاض .. وليلعبوا ألعابهم الماكرة حتى يتعود الطبل على المذلة والطاعة واحترام كلمة السيد فالدنيا يا بحر عبد وسيد والسيد مطاع .

« هل أفلحوا ؟ » ، سؤال سأله الوارث لنفسه وللمخبرين والعساكر مئات المرات

وكان الجواب : « عيب يا ابن الذوات .. نحن الحكومة .. والحكومة لا تخاتل .. الفتوة الآن بالسجن أجبن من قطة وأضعف من نملة .. وأحقر من صرصار .. فالسجن يا ابن الأكابر تأديب وتهذيب وإصلاح » .

وكان لحلو الصورة العيون والآذان التى يدفع لها المال المعلوم لتنقل له كلام العامة ــ آباء وأخوة وأمهات وزوجات كافة المساجين بكافة سجون مصر .

(وكلام العامة من أهل مصر يا بحر كطعامهم ــ الفول بالكمون .. والسمك المملح بالليمون ، وخيالهم جامح ، يقول الواحد للآخر « اسمع يا ... » ويغمز ــ فيفهم الآخر أنه لا يكلمه ولكنه يكلم العين والأذن المأجورة ، ثم يكمل الواحد كلامه « غيره بالسجن يكسر الحجر .. أما هو فيبلع الحجر .. والثأر كما يقولون القدر تغلى وتفور .. حاول الهروب مرتين وفشل .. لو عشنا سنرى الجزار يذبح الخرفان ، ويبيع الرطل للقادر منا بقرشين وللشقيان بمليمين) .

ضاعت الحقيقة لما اختلط كلام الناس بكلام العيون العسكر بكلام المخبرين بكلام السجانين، وتاه عقل الوارث فكثر شروده وقل طعامه وزاد طلبه للخمرة، فهزل بدنه وبهت النور فى عينيه وتقطع نومه وارتخى عضوه وغاصت نضرة وجهه ، وتخيل الحبل ثعبانا ، وظل الحائط إنسانا وخبط الصحون بأيدى الطباخين فرقعة سلاح ، وخبر حاله الأطباء ، فرفعوا راية الإستسلام وقالوا « عجز طبنا » ، وقبل حلول الموعد، الذى يخشاه حلو الصورة خشية الموت، بأسبوعين ــ نام حلو الصورة على فراشه ومات بيده لا بيد طبل .

والآن ، دعنا ــ يا بحر ــ من طقوس الحزن التى تفرضها الأعراف العربية على أرملة ابن الأسرة الغنية ــ كأن : (تلبس مجروحة القلب الثوب الأسود حزنا على زوجها الميت ، وتدفع المال لصحف الصباح فتكتب نعيه على صفحاتها مصحوبا بصورته وتجعل الشيخ الذى يراه الناس على شاشة التليفزيون يرتل على روحه سورتين من القرآن الكريم ليلة مأتمه ، وتحضر فرقة موسيقا ملجأ الأيتام لتتقدم نعشه ، ثم تتقبل العزاء فى الميت من رجل عسكرى صاحب منصب كبير) .

دعنا من كل ذلك يا بحر ، وتعال نشهد المشهد الأخير ــ بين الأرملة الجليلة وسبع البرمبة فتوة زمانه :

(أحاط الخدم المسلحون بسيدتهم الجليلة وقالوا « نرميه بطلقات البنادق والمسدسات » .

ردت السيدة الجليلة : « لا .. احرسونى .. وارشدوه إلى أقصر طريق .. ودلوه على قصرى أنا أعرف منكم بما أريد » . تفرق الخدم على السمع والطاعة . وبقيت السيدة الجليلة بحجرة النوم الموصدة تنتظره ، تنهشها نيران رغبة قديمة لم يخمدها رجل له قوة الثور ، وقالت لم لا أكون السمكة فى الماء .. والصياد الذى بلا شبكة يصيد باليدين ؟ » ، وكان ان دهنت الجسد بزيت الكافور والشعر بزيت القرنفل والإبطين بالعنبر والثنيات بعطر يقال له الفارسى الحار ، ثم لفت فواكهها بملاءة حمراء من حرير هندى ، وسمعت خطوة القادم ففتحت الباب وأدارت ظهرها للقادم — وقسمت بيد عادلة شعرها إلى نصفين ورمت النصف على الظهر والنصف على الصدر وكلمت الواقف « كنت صاحب حق .. والسجن للرجال . هل أتيت تطلب حقك يا طبل ؟ ؟ »

قال الطبل « أتيت لأبوس القدم وأعلن الندم » .
قالت « أنت خبيث يا طبل تلعب معى لعبة القط مع الفأرة .. وأنا ما تنكرت لحقك » .

قال الطبل « لا تذكرينى بما فات .. فما فات فات .. أنا طامع فى التوبة ولا يدوم على حال غير وجه رب السموات » . ولما نظرت إليه خاب الأمل — فصرخت صرخة اللبؤة فى الغاب « يتمت أولادى و خربت بيتى وحرقت كبدى يا كلب .. لا تجعلنى أراك وابحث عن طعامك مع الكلاب .. ففى الفضلات المرمية بالطرقات ما يكفيك ويكفيها » . وما ان فارق الطبل الذليل المكان حتى سارعت السيدة الجليلة ودخلت الحمام — ومعها الكلب المدرب على الفعل وكافة الحركات — ونادت أمها بالتليفون من الحمام ، فردت عليها مدام عجلان — وكيلة شركة كان ياما كان الفرنساوية « تعالى القصر الليلة وسنتشاور فى الأمر » . ذلك كل ما جرى يا بحر .. ولو كان هناك المزيد لزدت .

حاشية :

من يومها وأهل حارة السبع نخلات يميزون السيدة الجليلة عن سمياتها بقولهم « بطة ملبن وشطة » . وإليك يا بحر تفسير المعنى الخفى لقولهم « بطة ملبن وشطة » .

« البطة من البط ، والبط طير معروف نظيف يعشق الماء ويعيش فى البيوت .. لحمه أبيض كثير طيب الطعم ، والملبن حلوى بيضاء طرية ـــ يحبها الكبير لأنه بلا أسنان ، ويأكلها الصغير فيرعى السوس فى أسنانه ، أما الشطة فبهار حار يسيل الدموع من العينين ، ويحرق اللسان ويلهب الحلق والشفتين ويملأ الفم باللعاب فيسيل من الشدقين أبيض الرغوة حتى تظن الإنسان كلبا » .

حاشية ثانية :

ما من نخلة واحدة بحارة السبع نخلات ـــ ومع ذلك يصر الكل أنها حارة السبع نخلات ، ربما (فى الزمن البعيد) كانت هناك سبع نخلات بالحارة .. أما الآن (ونحن فى عام ١٩٧٨) فلا ، لماذا (وحتى متى ؟) تغفل الحكومات المتعاقبة التى تتبادل الأماكن (وهى رشيلة) عن أهمية الاسم للمكان ؟

حاشية ثالثة :

من أين لحلو الصورة ذلك المال الذى لا ينفد ـــ وهو لا يعمل ؟

أبوه ـــ عليه رحمة الله ـــ كان بلا نعلين ، سريع القدمين يخطف ويجرى ، وفى يوم تعثر ووقع فأمسكت به الشرطة ، وبالسجن تاجر الرجل فى المخدرات وكسب المال الكثير ـــ رغم ذلك لم يحب الرجل حياة السجون ، عاون الرجل ـــ فى ظل الحريات ـــ تجار السوق السوداء وشاركهم . ولعب معهم لعبة إخفاء السلعة فى مكان بعيد .. وطرح سلعة بديلة أقل جودة فى المكان القريب ، وفى تنقلاته خلف السلعة بين القرى والمدن ـــ لحق به عهد الانفتاح السعيد ـــ فضارب الرجل بما جمع من مال وربح : وتلك خبطته الكبيرة التى جعلت منه الاسم اللامع فى دنيا السوق والمجتمعات .. فسموه عاشق الخيل ـــ لأنه حقا كان يعشق تربية الخيل .. ونادوه بملك البيض .. ولقبوه بالثعلب الأعظم ـــ لأنه كان يطعم الثعالب الدجاج ـــ حتى تسمن الثعالب فيذبحها ويسلخ جلدها ويبيع لنسوة الأكابر فروها .. ويرمى لحمها فى الثلاجات بانتظار حضور الجزار الغشاش وباعة الكباب ، وبعد موت الأب توزعت الثروة على الأولاد والبنات ـــ فباع حلو الصورة ما يخصه لأخوته ، وحفظ كل ماله فى البنوك الأجنبية ، وجهر فى مجالسه التى تضم الوجهاء ـــ هو الذى لا يفرق بين حرف الألف وحرف الخاء « لماذا أتعب ؟ مالى فى البنوك سهام تصيب ـــ المال فى البنوك يجرى فى البلدان ويربح ـــ وأنا بينكم قاعد سعيد ..

وحفظ المال فى البنوك الأجنبية ــ يا أخوان ــ يجعل بالكم فى أمان ويجنبكم الخوف من التفكير فى أمور مثل تلك التى تكلمنا عنها الراديوهات .. وما حدث من الغوغاء فى الشهر المشئوم قد يكون مقدمة من المقدمات .. والبنوك بدعة إنسان له عقل شيطان » .

حاشية أخيرة :

مال السفيه فى البنوك المتحدة ــ رغم تعدد الجنسيات ــ سهام تصيب المجموع المهلهل ، والجماعة المتحدة الواعية ببيانها ــ يا بحر ــ لها الغلبة ولها الأرض بطيباتها ... هل تفهمنى يا بحر ؟

الرقصة المباحة

مهداه للشيخ سيد ، ومحروس الترزى
ومحب طالب الطب بالسيده عائشه

ارقص ياغريب : رقصتك ويا الغجر مباحة
رقصتك وسط الغجر مباحة
م الحياة وسط الغجر مباحة ياامه
للشتاء : هزه ياامه
للربيع : هزه ياامه
للخريف : هزه ياامه
والصيف لنا ياغريب وعيش « الدميرة »
والشرف لنا ياغريب وعيش الدميرة
عيش الدميرة ياغريب والشمس الكبيرة
وانته ياغريب رقصتك ويا الغجر مباحة

« أغنية من جنوب مصر »

كان أسماعيل أب على يمضغ عود نعناع أخضر ، ويشعر بألم حاد في أسنانه وضروسه وفكه ومفاصله ، وحين أتى الحاج عبد الكريم محمد عبد الله صاحب البستان نسى اسماعيل الألم وهرول مستقبلا الحاج . وتبسم .. وقبل يد الحاج .. وقدر الوقت بـ: قبل الظهر بقليل : كان ظل الحاج مائلاً تحت قدميه باتجاه الغرب ، تذكر اسماعيل أب على أنه فلاح أرض البستان وحارس ثماره — قال يخاطب الحاج مبتسماً : « باكر أسقى أشجار الليمون فهى فى حاجة لماء .. سأرمى تحتها بالسباخ » وقال فيما يشبه اللوم للحاج : « الشجر محتاج سماد يا حاج .. فى الصباح الباكر يأتينى السماد .. باكر الأحد يأتى الولد حجازى من طرفكم ومعه السماد .. أنا غداً سأسقى الشجر .. »

تحت ظل تكعيبة العنب وقف الحاج عبد الكريم وبجواره اسماعيل ، كان الهواء رطبا وطريا وطازجا يدخل الصدر فينعشه ، قال اسماعيل : « النبات ليس كالإنسان .. الإنسان كافر وجاحد ».تناول الحاج بندقيته من على كتفه بسرعة وثبتها وشد الزناد وأطلق رصاصتين . ومن وسط الحشائش وورق العنب الجاف المكوم أخرج اسماعيل الثعبان الكبير الميت ، بالمنجل شق اسماعيل بطن الثعبان الصفراء ورماه فى الشمس وغطاه بالتراب الساخن ، طوق أسود غليظ كان يلتف

برقبة الثعبان ، قال اسماعيل بفرح أطفال — وتذكر أن عمره قارب على السبعين : «لو لم تقتله ياحاج لنبت له جناحان .. هذا أخطر أنواع الثعابين .. أنا أعرف . »

أخرج الحاج حافظته الكبيرة المنتفخة والمرسوم عليها ثلاث أهرامات وثلاث نخلات وجمل قاعد وجمل واقف يركبه رجل بيده عصا ، قال اسماعيل مذكرا الحاج بالثعبان الميت المدفون تحت التراب الساخن : « سأسلخ جلده باكر .. ومن جوفه سأملأ سطلين من الشحم .. وأدهن عقب الساقية .. سيلف العامود خفيفاً كما لو كان طائرا بجناحين حتى لو ساقت الساقية معزة جرباء . » ، ضج الحاج بضحكة نزّت بالدهن المكوم على صدره العريض الغليظ المشعر ، وناول اسماعيل الجنيه الجديد والمرسوم عليه أبو الهول الأخضر ، وأدخل الحاج حافظته الجلدية ذات اللون الليموني بجيب صديريه الصوفى الأسود اللامع ورمى بسلام الله على اسماعيل وتوكل ، ونادى اسماعيل ربه فى السماء بصوت يسمعه الحاج عبد الكريم : « بحق نبيك محمد اجعل اليابس أخضر إذا داسته قدم الحاج محمد .. آمين يارب . » ، ونادى بصوت أعلى : « باكر ارسل حجازى بالسباخ .. لا تنسَ ياحاج بحق النبى »

* * *

اسماعيل أب على جلس تحت حائط الساقية ،انتهى لتوه من فتل حبل غليظ من ألياف النخيل البنية اللون المكومة تحت قدميه الممدودتين أمامه ، النسيم رطب محمل برائحة الليمون والبرتقال ، الشمس حمراء بلا حرارة معلقة فوق سن الجبل الغربى ، برغوثة ملعونة قرصت اسماعيل فخلع جلبابه الأزرق المصبوغ بسرعة البرق ، شم اسماعيل رائحة عرقه ، رأى نفسه عارياً كما ولدته أمه « ولْعانه » وبحث عن البرغوثة التى قرصته للمرة الثانية ، اقتنع اسماعيل بأن البرغوثة قرصته تحت الجلد فلبس جلبابه ومد ذراعه وقاس الحبل وحك وسطه وقال : « ثمانية عشر ذراعا .. أفتل ذراعين ويصبح الحبل بعمق بئر الساقية » . شبك الحبل بخنصر قدمه اليمنى ومد ساقه ومضى يفتل بهمة .

« الحمد لله »، قال اسماعيل — ورمى الحبل بعيدا . وتملكت اسماعيل حالة من الصفاء والابتهاج جعلته يجزم بأن الدم يجرى صافياً فى عروقه كما يجرى الماء الرائق فى

القنوات ، وإذا كان الماء الصافى يلمع كالفضة النقية دافئا تحت شمس الظهيرة ــ فكذلك أيضا داخل اسماعيل ــ والصحيح : يتوهج الآن بمثل الشفق الأحمر الذى يلون الأفق الغربى . خمسة فناجيل من القهوة السادة شربها اسماعيل وامتص فصا من الأفيون دفع ربع جنيه لـ « فكرى الكور » ثمنا له .

الجنيه الذى أعطاه الحاج عبد الكريم لاسماعيل كان جديداً ولامعاً وكانت أطرافه الأربعة مستقيمة حادة ، بطرف واحد من أطراف الجنيه الجديد اللامع كان بمقدور اسماعيل أن يذبح طائراً جارحاً لو أراد : هذا كما يقول المثل الجارى بين الناس ، رغبة كانت ملحة فى الاحتفاظ بالجنيه الجديد اللامع الحاد الأطراف ، والحاج عبد الكريم لن يدخل البستان إلا مع قطف الثمار، وأبو الهول كان يتربع وسط الجنيه بلونه الأخضر الزاهى .

للحظة أحس اسماعيل بمرارة الأفيون فى حلقه ورمى نفسه بالتعاسة وقال : « هيه » ، وسمع « هيه » ترد لأذنيه مرة أخرى وسمع صوتاً هناك تحت تكعيبة العنب ، وأتت رعشة مفاجئة هزت جسد اسماعيل القليل اللحم ، وضح لاسماعيل أن أنثى الثعبان القريبة أتت لتنتقم لذكرها المقتول ، شد اسماعيل الفأس القريبة وتقدم وزايلته الرعشة وتملكه إحساس وحشى غامر .

* * *

الغلامان جريا ، مد اسماعيل يده وتناول سروال القماش الملقى فوق الحشائش الندية وجرى يلاحقهما وجعّر : « يا كفرة .. يا أنجاس يا أولاد الشياطين . » الولد الكبير قفز السياج الطينى الذى يطاول قامته ثلاث مرات ــ واختفى : وحاول الأصغر مع السور المرتفع مرة بعد المرة وفشل : خذلته قامته القصيرة وجسمه البدين ، واسماعيل أضمر بأنه لو أمسك بالولد فسيرفعه لأعلى وبكل قوة سيرميه على الأرض « هكذا ألف مرة : المخنث ابن الـ .. » . جسم اسماعيل كان ينتفض من الغضب والأرض ربما كانت تتقلقل تحت قدميه : هذا ، فللسماء سبع طبقات وللأرض سبع طبقات تهتز لهذا الفعل .

أفلت الولد ، كانت المسافة بينه وبين اسماعيل قصيرة ــ لكن الولد كف عن محاولة طلوع السور ولجأ إلى الأشجار الكثيرة والمساحة الواسعة .

« أحدهما فلت أما الأخر فهو فأر فى المصيدة : خمسة وعشرون فدانا استقامت فوقها أشجار البرتقال والليمون والجوافة وطوقت بسور قوى مرتفع . »

ـــ هكذا وضح الأمر لاسماعيل فعاوده الهدوء وصرخ : « سأمسكك يابن الكلب . » . بدت رؤوس الأشجار ـــ وكان يوسف الأعور قد نادى المصلين من فوق جامع عبد الله لصلاة المغرب من وقت قريب ـــ سوداء كالفحم المحروق جيدا والمنطفىء بالماء ـــ كوجه « بربرية » زوجة اسماعيل أب على .. كذا بنفس لبدة الشعر الأسود الأجعد الخشن .

ـــ « أمسك به وأفعل »

سريعا مر الخاطر بذهن اسماعيل ، رأسه شعر بها ساخنة تحت نار الغضب الشديدة ، سأل اسماعيل نفسه : « لو طلبت العون من عافيتى ونور عينى هل أفشل ؟ .. منذ سبعين سنة وأنا أعمل . »

صرخ اسماعيل بنشوة :

ـــ « يا ولد .. لك الأمان منى . »

قرر اسماعيل فتح باب الجنينة الخشبى الكبير المطل على شارع عبد الله ليستعين بشخص من المارة أو من المصلين ، قبض على ذراع المزلاج الحديدى ورفعه وتعمد أن يضربه بالباب الخشبى ليصدر صوتاً مرتفعاً ، وصرخ من جديد وأحس بقلبه يدق بين ضلوعه بشدة وبسرعة وبنشوة .

ـــ « أمامك فرصة العمر .. اظهر ولك منى الأمان »

سمع رائحة هسهسة الطيور ـــ المعتادة قبل الغروب ـــ فوق الشجر ، وشم لزهر الليمون وللبرتقال رائحة أكثر نفاذا اختلطت برائحة عرقه القوى ، وشعر بمسام جسمه تتفتح كلها فجأة ـــ وتضخ العرق الذى يبلل جلبابه ويجعله نديا .

ـــ « سأفتح الباب يا بن القحبة » .

* * *

هبط المصلون الثلاث درجات الحجرية لمدخل جامع عبد الله بسرعة وتحلقوا حول اسماعيل ، بأقصى غضب استطاعه وبأعلى صوت استطاعه زعق :

ـــ « أولاد الكلب .. الاتنين .. الأنجاس .. ابن الجنية هرب .. الثانى

بالداخل .. رجل وامرأة .. الأسافل .. الأنثى بالداخل . امسكوه ابن الضلالى ابن الزانية ».

* * *

فوق سقف الساقية دفن الولد وجهه بكوم من خوص النخيل الجاف وستره بذراعيه الملمومتين .

صرخ منصور الصادق :

— ها هو .

امتدت رقاب الرجال بعيون النسور ، بحلقوا ، كشف حسان النوالى ملامح الولد قبل أى من الرجال وزعق :

— عبده .. عبده ابن شحات الجبالى .

كالسيف يمضى فى اللحم الحى شق شحات الجبالى لحم الرجال ، وشق صدره إلى نصفين وصرخ بالألم العظيم ، وبكى الطفل أعلى السقيفة ، وأسفل السقيفة صرخ شحات :

— عبده .. يابن الكافرة .. من منكما ؟ أنت أم هو ؟ .. من الذكر ؟

— أنا ..

سريعة خفيضة حزينة فرحة طرية خائفة دقت الكلمة طبلة كل أذن ، وتمثل شحات لحم زوجته الطرى وجسم ابنه الأبيض الرجراج باللحم وعيون عبده الصفراء كأمه .

— كذاب .. كذاب يابن العاهرة .. سآكل لحمك،مع من ؟ .. مع من ؟

— مصطفى ..

— .. ابن من ؟ .. بالبلد ألف مصطفى يابن الكلبة.

— ابن فكرى .

— ابن فكرى الكور !

« مصطفى ابن فكرى الكور » : كررها شحات عدة مرات ، كان كنادبة تخبط على دف لا تتوقف .

—أشار شحات لبئر الساقية العميق المعتم .

« أرمى رمتك .. مصطفى الذكر يا كلب » .

ولمعت عيون شحات وقدحت الشرر ، وهمهم الرجال ، واشتد نحيب الولد ، زعق شحات :

— من يحمل عنى العار ؟

قال يوسف الأعور :

— الضنا غالى يا شحات .

صرخ شحات ورد صوته من تجويف البئر :

— والشرف غالى .

قال الصادق محمد : « أطفال .. أطفال صغار ياشحات » .

صرخ شحات : « أنا وأنت كنا صغار . هل كنا ؟ .. بداء الصغر يموت الأشيب .. إنها دودة ملعونة تنهش فى اللحم وبحسم وقطع أشار شحات لبئر » الساقية ، رآه الرجال ذئبا جائعاً داهمهم منفلتاً من ظلام المكان : لا شيء يصده الآن .. سينهش فى اللحم الحى ، لاذوا جميعا بالصمت وسمعوا : صوت اصطدام الجسم الحى بالماء : أقرب ما يكون لصوت اصطدام حجر كبير بالماء .

* * *

أتى الحاج عبد الكريم فور سماعه الخبر ، جثا شحات فوق جثة ابنه يبكى ، بكى كما لم تبك امرأة يوماً فى القرية على ميت عزيز ، وقال الحاج عبد الكريم :

— كفى يا شحات .. كفى .

قال شحات : « أنا فقير يا حاج .. فقير لا أملك غير شرفى » .

قال الحاج : « لا غنى غير الله يا شحات . »

قال يوسف الأعور : « كلنا فقراء ياشحات ولا نملك غير شرفنا . »

— هل كنت تحترمنى يا حاج ؟ هل كان يحترمنى أحد ؟ من كان يحمل عنى العار ؟ أنا الآن أملك شرفى .

قال الحاج مواسياً : « أعانك الله يا شحات . »

* * *

ضم جمع الرجال فكرى الكور ، الحق كان وجه الرجل أمام الملأ أشد صفرة من وجوه الموتى ، بحث الرجل عن ابنه الشارد بين الشقوق وتحت الأحجار وما عثر له على أثر ، ومابقى لفكرى غير الوهن والخزى ورقبته التى قدمها لشحات الذى ساحت دموعه .

— ما الذى يرضيك ؟ أنا فقير مثلك ولا أملك غير شرفى .. أنت جارى يا شحات .

قال شحات : « عافاك الله يا فكرى .. الحاج يحكم بينى وبينك » .

فرد الحاج : « إبنك يا فكرى يترك البلد .. يرحل لا يعود .. لا يدخل البلد نهائيا » .

قال الشحات : « رضيت بحكم الرجال يا فكرى ؟ »

أقبلت الهواجس دفعة واحدة « يعيش مصطفى غريباً .. يموت غريباً .. تماما كالغجر الرحل : عديمى الشرف سارق الدجاج » ، أزاح فكرى الهواجس .. فهو عاقل والفرد لا يعارك بلداً ، قال بحزن :

— أمر الرجال ينفذ يا شحات .. قبلت ياحاج . غادر شحات المكان،قال للرجال بأسى :

— ادفنوا الجثة .. صلوا على روح الميت يارجال .

* * *

نصف الليل ولّى ، والنوم أيضا ولّى ، واسماعيل اب على طرد أكثر من مرّة رغبته فى برْبريّة زوجته الراقدة تتقلّب بجواره على الحصيرة ، وعلى الأجران وداخل الحقول وفوق المصاطب وبالجحور وتحت الأغطية : رجال ورجال .. ورجال ونساء .. ونساء ونساء .. وبنات وبنات .. وقطط وقطط .. وكلاب وكلاب .. وضفادع .. وجرذان وجرذان ، وقالت الأفكار السود لاسماعيل اب على : ابحث عن مصطفى .. اقطع البلد شبر شبرا .. اقتله .. واشرب دمه .. انتقم للجار وحقه فى الشرف .. مصطفى يستحق الموت عشر مرات خنقا .

لم يكن اسماعيل راغبا فى النوم وفى برْبريّة زوجته يوما من الأيام كرغبته الآن . قال اسماعيل مطمئنا نفسه مناديا النوم : سيحيا عمره بعيدا وغريبا وبلا شرف .. وكذلك سيموت ميتة الغجر الرحل ..

ومد يده ولامس ظهر بربرية اليابس وشدها إليه .

رؤيـــــا

آتاك الميت الحى عابثا – بغير ظل وقد لفته الخالدة برايتها ، وحلته بأساور من فضة وأقراط من ذهب – وقد تدلى من جيبه عُقد من الجوهر يضوى .

وكنت قد فرغت لتوك من ثرثرة يومية معتادة مع زميل لك غادرك وبقيت أنت بانتظار زميل لك آخر تقتله . وتتعاونان معا على قتل الوقت ، ولم تكن تتوقع أن يأتى الحى إلى هذا المقهى الكئيب ، لقد باغتك وطوح بكأسك ، وخاطبك أنت المخمور : « اليوم خمر وغدا أمر .. إنها ما تزال تطلب الضحايا .. قم » ومد لك يدا من نور ، وطالعت بعينيك الأرضيتين الابتسامة تطل من عينيه السماويتين وتبعته خاشعا متصدعا حتى بلغتماها – وقد سجى الليل ، ورأيتها : زيتونة مباركة .. أصلها ثابت وفرعها فى السماء . « إنه الوادى المقدس .. وتلك هى الشجرة » ركعت على ركبتيك وكلمك « أن يذبل ورقها ويجف فرعها – فهو الماء عنها قد شح أو هى الجذور اصطدمت بصخرة : هذا ما علمتنا اياه الأيام » ، وقال « ألا يأتى الماء من العالى – فقد منع ساكن العلا الماء ليهلك زرعك قوت أولادك » وقال : « جادله .. وأعلم إنه قاتلى » ناديت : يا ساكن العلا .. لقد

منعت عنى الماء وهو خالق كل شيء حى .. الماء لزرعى يا ساكن العلا ..

– يابن أدم .. ستهلك شجرة الجد القائمة منذ الأزل . وسيهلك الزرع وكذا النسل .

« اغلق عينا وافتح عينا حتى يرى الذئب فيك .. آه .. افتح العينين ليرى البندقيتين .. آه .. اطلقهما .. هو خصمك : إن لم تقتله قتلك .

« إرفع فأسك المصرية ، وبيديك القادرتين هاتين : إضرب . واجرح الأرض كما لو كنت تقتل حية : مزق جسد الصخرة .. وارفع حاجز الموت عن الشجرة التى تمنحك الظل والثمرة » .

الفلسطينى

(١)

خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب .

(٢)

حشت فمها بخرقة قماش .. وأطبقت عليها بأسنانها ، وصرخت صرخة الألم والخلاص : وكان دافئا .. وكان دافئا ، وغابت عن الوعى .

(٣)

لما حامت الطائرة : الطائرة بجناحين . صرخت الحصاة البيضاء : « العدوة » . فتلونت الحرباء بلون الرمل . وزفر الجبل ووضع كفه الغليظة على صدره حتى لا ينشق إلى نصفين : « آه .. لو لم أكن للأرض وفى الأرض وتدا » . وكشح كشاف بعيدُ الضوء مرة للشمال ومرة لليمين ، فلمعت الرمال كالترتر . وانغرس الرضيع فى حضن أمه ولم يفارق فمه الثدى .

(٤)

كان على مبعدة منها يحبو فى ظل عينيها الحارستين ، وحامت الطائرة ذات وجه الكوكلييس بعينه الواحدة المخوفة ، فعاد إليها صارخا ، لمته ، وأعطته ثديها ، ومسحت دمعه بكمها ، حتى لا يختلط دمع العين بلبن الثدى .

(٥)

بفرح كانت ترقبه وهو يحبو ، وحامت الطائرة التى تحمل فى جوفها قنبلة ناسفة وقنبلة حارقة ، فعاد إليها باكيا ، لمته ، ونضت ثديها الذى دهنته بعصير ثمرة الحنظل المرة ، مص مصة ، وبصق ، وتأهب للبكاء فدندنت تناغيه : « حميدة ولدت ولد .. سمته عبد الصمد .. حامت فوقه طيارة ... »

(٦)

لما حامت الطائرة الكافرة بكل حى . وكانت هى تغزل بالمغزل من فرو الشاة خيوطا من الصوف ، توقفت ، ونظرت إليه :
رفع قائمتيه فى الهواء ، وتصلب على قدميه ، وخطا خطوتين ووقع ، تقدمت إليه ، وقبلته ، وتفلت على الأرض – على الشيطان – حيث وقع .

(٧)

ظلت ترقبه وهو يتابع الطائرة بعينين سوداوين ، ورأت فى عينيه : بئرا وليلا وخرزة زرقاء .

(٨)

تحت ليل الله الأسود وقمر الله الأخضر : مضت تخلص الخيوط وقد تشابكت – بينما رشق الولد ريشة حمامة بجنب تمرة بلح صفراء ، ورشق ريشة بخلفية التمرة ، ورشق ريشة بجنب التمرة الأيمن : لقد فرغ من صنع لعبة .. لقد

فرغ من صنع طائرة ، من تمرة صفراء رشق فيها ثلاث ريشات من جناح حمامة سوداء برقبتها طوق أبيض .

(٩)

الطائرة رأت اللعبة . وكانت اللعبة على شكل طائرة . الطائرة التى يجرى خلفها خيط الدخان الأبيض تكره اللعب .. كل اللعب .

(١٠)

قالت السماء للمتعال الجالس على العرش :

« سيدى .. لقد رأيت بعينى الزرقاء الكبيرة المخادعة تلك .. كل مايجرى .. إنها مشيئتك .. ولكنه فلسطينى .. وأنا أيضا فلسطينية » .

غـدا أيضـا الأحـد

(أ) أعرف أنها تمر على المقهى كل يوم أحد .. متى تعرف هى ؟

(ب) لم تمر . الحصان العجوز الأبيض كان يجر العربة المحملة بأكياس الدقيق . أنا الأرق والحصان العجوز والحوذى العجوز والشرطى الساهر والمومس المخمورة .

(ج) هذا موعدها الثانى : اغفر لها يا قلبى وقد عرفت .

(د) أيتها الكارهة : أحبك .

(هـ) الآن : لا أحبك .

(و) أنت لا تستحقين ، نعم ، ورميت زهرة القرنفل — وقد عريتها من ورقها — فى كوب الخمرة ، وشربت ، وشربت ..

(ز) يا أيها العالم — أنت شاهدى : أنا لا هو .. أنا الذى أحبها ..

(ح) رغم السنوات : اليوم الأحد .

الغـول

وقف المطرود من أهله ، وتفل على الأهل القساة ، ورمى بنظرة أخيرة على البيوت القصية . وكم كانت فرحتة كبيرة بوفاء الحيوان لما وجد قطته الحبلى تتبعه .

سار وسارت خلفه وطال سيرهما إلى أن أوغلا فى القفر فاستبد بهما العطش والجوع — وكانت القطة الحبلى قد ولدت عددا من القطط الصغار العميان . وسدت جوعها بلحم واحد من أولادها الصغار ، وروت عطشها بدمه ، قلد المطرود من أهله فعلة الحيوان — إلا أنه لم يستطب اللحم النىء ، فضرب حجرين وأشعل النار فى حطب لمه وشوى قطة وأكلها ، وما أن أحس بقسوة العطش حتى شرب دم ضحية جديدة .

وهكذا مر اليوم حتى وجد المطرود نفسه فى يوم هو وقطته يتعاركان ، إلى أن دان له النصر فأكل لحمها . وواجه صاحبنا ابن ذلك الزمان وحده الجوع والعطش والوحدة والخوف من الوحش ، فقرض أظافره ، وقضم نصف أصابعه ، وأوقد النار العاليه ليرهب الوحش ويهدى الضال والضارب فى القفر ، فقد يعود يوما إلى دنيا الناس .

وما أن واجه المطرود الإنسان الضال حتى غلب عليه الخوف من العودة إلى الجماعة ، فصرع ابن جنسه وشرب دمه والتهم لحمه نيئا ومشويا .

ومع الوقت تمكنت منه العادة ، وأصبح هذا طبعه ، وبمرور الزمن ذاع صيتة لما هاجم جماعة الأحياء ، وتفنّين الناس فى وصفه ورسمه ، وأصبحت الأم ترهب ابنها إن عصاها بالغول ، وتحذر زوجها المسافر والد ابنها من الغول .

هى وهو

– لم يكن الظلام قليلا ، رأيت اليد المرفوعة ولمعة السكين ، كنت قد بوغتّ وها أنا هنا .

رفعت يدها عن جبهته ، وقامت .. طارت حمامتان ، والنار ماتزال مشتعلة . ظهرها له ، تعبث بعلب الأدوية فوق طاولة قريبة ، ربما لتخفى دموعها : كانت الضربة نافذة .. وكان الجرح غائرا .

رفعت يدها فى وجهه – قالت « يدى هذه ليست يدك .. ويدك لن تكون أبدا يده .. حاول ... هل تحاول ؟ » .

وقالت لنفسها :

سأحميّه بماء ساخن .. وأرش جلده بماء الورد .. وأدهن جسده بزيت الكافور .. وأرمى على جبهته خصلة من شعره أشبك فيها خرزة زرقاء وعجينة من مسك ، وأصنع من شعر رأسه ضفيرتين سوداوين خشنتين .. حين ذاك سيكون قادرا ..

الجوع

جاوز الحد وخاف من قسوة التشريع فثقب الحائط بالهمّة واليدين وبذراع من حديد ، هكذا فر الآدمى ذات يوم بعيد — من جحيم الأهل ونعيم الحضر إلى جحيم البيد : حيث الوحش وحيث لا ماء ولا بشر . والآدمى لا يواجه الوحش إلا بالنار التى تولد من ضرْب حجر بحجر. فر آدمى ذات يوم بعيد من جحيم التشريع .

البكـاء

قطع رجل – ذات يوم – بقضيب من حديد ذيل حية ، فهربت الحية من بيتة – واحتمت ببيت أرملة عجوز .
قالت الأرملة العجوز – وكانت حكيمة – لنفسها :
« حياتى فى دجاجاتى .. فأنا أقايض صاحب الدكان – يأخذ البيض ويعطينى كيس الشاى وقرطاس السكر وعلبة الكبريت .. كذا الزبال يأخذ زبل دجاجى ويعطينى الإبرة وشلة الخيط وحفنة الملح وحبات الفلفل .. والحية رفيقة قبر ، وهى فى الدنيا رسول موت بخاخة سم بنات قاتل .. الحية تحب البيضة مطبوخة بالبصل .. سأطبخ للحية كل يوم بيضة بالبصل .

هذا مافعلتة العجوز من أجل الحية . وعلى هذا الحال مرت الأيام وفى يوم باضت الحية بيضها الارقط أخفته كما تفعل كل حية أم .. ثم جاء يوم وطلعت ديدان تتلوى تحت أرجل الدجاج الآمن . وماهى إلا ايام – وإذا بالديدان حيات تسعى فى أركان البيت الآمن . ويوم وجدت الأرملة العجوز دجاجة قتيلة – قعدت على تراب الأرض والدجاجة القتيلة فى حجرها وظلت تبكى ضعفها وخيبة حكمتها وهوان أرملة عجوز أجبرها الزمان على مواجهة صغار حية مقطوعة الذيل .

أما الحية التى قطع رجل ذات يوم ذيلها بقضيب من حديد – فقد لمّت صغارها وشمّتهم الواحد بعد الواحد وكانت قد شمّت الدجاجة المقتولة ، ولما تمكنت من فاعل الفعلة أطبقت على عنقه بأسنانها ومنعت عنه الهواء ، ولم تتركه إلا جثة بغير روح ، ثم فارقت الحيّة الوفية المكان يتبعها صغارها إلى عراء رحب لاأمان فيه . بينما الأرملة العجوز – فى جحرها الضيق – مع دجاجاتها وقتيلين تبكى ولا تعرف متى تتوقف عن البكاء .

هكذا تم الفراق .

الضحك

العليلة عليلة من سنين .. خاب طب الأطبة .. كما خابت وصفتك ياعجوز يامجربة .. فهل تفلح ساحرة مقنعة وقرد لعاق ؟

زعقت (والناس حولها دائرة محكمة) : هاتوا العليلة ، ومن جرابها اخرجت الطين والحجر وأكياس اللون وعيدان الحطب المعطر والسفودين ورشت اللون على تراب الأرض . ورسمت آية الحق ورموز الباطل ، وضربت الحجر بالحجر فتطاير الشرر الأحمر واشتعلت النار حمراء فى الحطب (هكذا خلقت الساحرة العارفة من اللهب الصغير الراقص — الحدود التى تفصل بين لابسة وعريان) ودقت الطبل فرقص القرد وظل يرقص ، وكلما زادت فى الدق زاد القرد فى الرقص ، إلا أنها توقفت بغتة عن الدق على طلبها — وصرخت فى القرد الذى لم يتوقف عن الرقص : قدامك بيتك .. بدِّدْ خوفك — وارجع لأمك . وما إن تخطى القرد حاجز اللهب وعيون الجمر المبحلقة وهمَّ بالفعل بعدما طلع (وكان قد عرّى الجسد) — حتى هاجت الحلقة .

الخوف

تزوج صاحب حانوت — لا ينجب — من جميلة ، وحرص عليها كما يحرص على بضاعتة . فالجميلة صورة فى إطار : تزار ولا تزور ، كريمة فى نعيم البيت — مع طير مغرد فى اقفاص ، وسمك زينة ملون يسبح فى آنية من زجاج ، حوراء مطوقة الجيد بعقود مفصلة من كريم الحجر ، بخلاليل من فضة وأساور من ذهب ، تلبس الثياب الغالية موشّاة بالقصب والمناديل مولونه ومعطرة ومطرزة بترتر وخرز .

والأيام — كما شاء خالق الأيام — قسمة بين ليل ونهار ، ونهار ابن زماننا صاحب الحانوت أبيض : أبيض بالنور السماوى .. وأبيض بالربح لما تتزاحم الخليقة على السلعة الشحيحة ، أما الليل فوسواس خوان .

كلما جاء ليل : أغرق رب البيت صاحب المال وحارس الجمال البيت بالنور الفاضح وأطلق الكلب النابح .. وعرى الخليلة ولاعبها وأرضاها بالفاكهة والحلوى ولحس ومص ، وبعدما ينال البعل مراده ينام ويشخر — حتى يذهب هذا الليل ويطلع نهار أبيض جديد ، بربح أبيض جديد .

على هذا المنوال — كرت الايام ، وذات ليل — وعلى نباح الكلب الأمين — هب

صاحب الحانوت من النوم هلوعا : فها هى خيالات تتحرك فى النور تبغى المال او تبغى الجمال – وهو حريص على المال والجمال .

رمى الخيالات بكل ماوصلت إليه يده من أشياء ، وسقط خيال فحمله زميلاه وفرا من النور إلى العتمة ولم ينم هو تلك الليلة . ولما طلع النهار رأى الدم على السجاجيد ، وأيقن بفطنته أن الدم الذى سال من الخيال قد يفقد الخيال حياته . هنا زاد خوفه من انتقام خيالين لصاحبهما الميت ، فأشترى بندقية تزهق روحين وكف عن البيع واغلق حانوته ، واذا ماجاء الليل – فهو سهران قابض على بندقيته يحمى المال والجمال ، وبين الحين والحين يطلق رصاصتين فى الهواء ..

المـوت

يروى أن الملاك العبوس عزرائيل أراد أن يعابث روحين لعبد وعبدة يعملان فى غيط السيد ، فتنكر على هيئة شيخ ضرير بلحية ، تحت إبطة لوح وبيدة ريشة ودواة .

استبد العجب بالعبدين الغافلين : ما حاجة شيخ ضرير إلى اللوح والريشة والدواة .. ولم لا يدب بعصا كسائر العميان ؟

وقالت العبدة لزوجها العبد : لو أمرتنى سألته ؟ .. إلا أن الملاك الذى سمع حديثهما قال : العبد لا يسأل يابنية .
فسأله العبد : وهل أنت سيد ؟
قال الملاك : أنا سيد لا أسأل .. وأنا عبد لا أسأل .
ركع العبدان وقالا : يالك من حكيم .. علمنا أيها السيد الحكيم حكمة تنفعنا .
قال الملاك : ستموت زوجتك من فعلك .. وتموت ياعبد من فعل زوجتك .
قال العبدان : فسر لنا قولك الملغز ياحكيم .
قال الحكيم : عطشان .. وشرّبة من بئر السيد تسقينى .
قال العبدان : سنسقى السيد الحكيم من بئر السيد العذبة .

أنزلت الزوجة الدلو فى البئر ، وهى تسحبه رأت سمكة كبيرة بعيون مضيئة ، فتركت الدلو وهبطت سلالم البئر ، ولم تكن على قدر من الحكمة حتى تدرك أن الملاك عزرائيل قادر على أن يكون سمكة كبيرة بعيون مضيئة ، يراوغ ويعض كل من يمسكه .

فلما عضتها السمكة صرخت : الحقنى يازوجى .. سارع الزوج العبد لنجدة زوجته العبدة ، وهبط البئر .. وهنا تمكن الملاك عزرائيل من الإثنين ، فشهق شهقة كبيرة ولم الهواء النافع ، وزفر زفرة كبيرة وبخ الهواء الضار..ليموت العبد والعبدة اختناقا فى بئر السيد .

أشكال

ها أنا راكع أغسل بدموع المعذب المقهور قدميك .

ياربى ، يامن خلقتنى من طين . أنا أصير بأمرك البغل الذى يجر العربة المحملة بكل صنوف الثمر الحلو الملون فواح الرائحة .. بغل من هذا النوع ياربى : بغل لا يقول لا ولا يقول نعم . بغل يسير ويحرن وقتاً وبعد الجلد يواصل المسير . بغل يشتهى كل صنوف الثمر الملون الحلو .. فقط يشتهيه ثم لا شيء آخر .

أقول إنى بغل يشتهى ويستعيض عن متعة الأكل بمتعة الاشتهاء . فليس من الضرورى أن يأكل بغل ، فالدجاجة لا تأكل بيضها .
إن الاشتهاء حرية مأمونة حتى وإن كانت منقوصة . أما مبتغى – الطعام فقد يقع يوماً فى قبضة العسكرى ، ويدفن فى السجن المعتم الرطب ، لا هو بالحى ولا هو بالميت ، ولا صديق له إلا الحشرة والرائحة النتنة .

كُن المصرى الصالح : كُن السيد

تزوج – هو الفارّ من أهله – زوجة جميلة فارّة من أهلها ، ووعدها بمسكن :

هكذا لبس ثوب الوحش ملك الحيوان ، وقصد العراء . ولما وجد الماء يشق المجرى فى بطن الصخر بنى بيته وسوّره بالشجر الذى التف على الشجر .

جاء الضال وطلب منه الطعام فأطعمه ولم يطلب منه الثمن . وبعد رحيل الضال بأيام عاد الضال ومعه أهله ليشكره وليشكروه ، فأطعمهم وأصروا على دفع الثمن . وهكذا شيد حانوت « كل واشكر » الذى صار واحة للمسافرين .

قسم أوقات اليوم مع زوجته يتناوبان العمل ، ولما فاضل بين ربح المرأة وربح الرجل ، وسفاهة السكران ونصاحة الواعى .. قرّ قراره على أن تقوم زوجته بالبيع أغلب أوقات اليوم ، وشدّد عليها :
« إرمى ذلك المشترى بنظرة تمسك وتفلت ، ولا ترقدى على ظهرك فنخسر الجلد والسقط ، وتبقى المهانة بعد العودة إلى أيام عشناها – أنا الفارّ وأنت الفارّة – وخبرنا مرّها » .

وتحت إلحاح الراغبين فى النوم شيدّ الفندق من طابقين فوقهما طابق مفصّل لا يبلغ الماشى نهايته . هكذا خلق الدنيا كاملة : أكل ، وشرب ، ورقص ، وجنس ، ونوم ، وأطفال – هم أحفاده وهو جدهم الشرعى . وهاهم يلعبون فى الكرمة تحت الشمس ، وينتظرون ابتسامته العصيّة .

* * *

دجاجة تبيض ، وبيض يفقس ، ودجاج يطلع – هكذا المال يلد المال . فإن لم تحكم به الغير حكمك الغير ، وهم الكثرة وأنت القلة ، أنت الفرد وهم الجماعة . وهكذا الجماعة إن اشتريت قليلها أخضعت كثيرها ، ليكونوا لك اليد التى تبنى وتزرع وتقلع وتصفق ويكونوا الفم الهاتف بالحمد .

* * *

سألها : ماحاجتك للاسم ؟ وما حاجتى للاسم ؟

قالت : تنادينى حورية – وانا فى الماء حورية – وأناديك بهاء ، فيدوم بيننا التعارف .. لا تضل ولا تدق الطبل واهتدى بشمسك ..

هل فهمت .. أم أكرر قولى يابهاء ؟!

---

* هذه القصة كانت مخطوطة ضمن مخطوطات وأوراق يحيى الطاهر عبد الله . وكان يحيى الطاهر – قبل وفاته – قد أشار إلى هذه القصة خلال حوار مع صديقه حسين حموده عن « مشروعاته » القصصية التى لم يكتمل بعضها ولم يكتب بعضها كتابة نهائية .

ويقول الأستاذ ادوار الخراط إن يحيى الطاهر كان قد أشار إلى هذه القصة باعتبارها قصة مكتملة

إلى سنوحى

(١)	على البيت سقطت القنبلة : يالونه الأزرق .. يالونه الأزرق .
على القلب سقطت القنبلة : يارنة الفضة .. يارنّة الفضة .

(٢)	نذرت أنا للشارع ، ونذرت هى للأوجاع . علاقتنا بلا غايات بعيدة ، لا الخمرة ولا أنْ تصالحنى تلك التى أحبها ـــ سيقيم البيت الذى دمرته القنبلة .

(٣)	صوتها قادم من صحراء أعرفها ولا أبوح حتى لا أسقط فى أيدى الشرطة . صوتها قادم بالأزرق والفضة .

(٤)	فى النوم رأيت نفسى مهرة سوداء ، نعم : فى الحلم كنت المهرة السوداء .

فى الحلم يعشق الموتى

سمعت الصوت « الجبل ياسارية .. الجبل »
ورأيت :

طائرة العدو تطير ، وتكرهنى ، دمرت بيتى بقنبلة ، ودمت قلبى بقنبلة ، ودمت قلب محبوبتى بقنبلة – وكنت قد سمعت الصوت .

لم يعد قلبى فى بدنى ، فحملنى ذلك على قطع الصحراء . لم يلمنى أحد ، ولم يبصق فى وجهى أحد ، ولم أسمع أية إهانة ، ولم يرد إسمى على فم أى مخبر .

بيدى (صنعتها) ، زرقاء من ورق ، لكنها تطير ، طائرتى ، أنا ، الملاح الماهر صانع الصندوق والقارب ، الروح الحية الهائمة بغير ظل ، عدوى أدمية بقنبلة ، والعاشق والعاشقة أرميهما بوردتين .

« لا تفلت الخيط » ، أنت من صلبى ، « لا تفلت الخيط » .

الرسـول

رسول الموت – وهو مخادع قادر – خلع أثواب الحرير وعقود وأقراط وخلاخيل الزينة : وتنكر فى هيئة سمكة حية تسبح فى ماء حلو .

رسول الموت – وهو مخادع قادر – خلع أثوابه الحريريه والعقد والقرط .

رسول الموت المحب للزينة – وهو مخادع قادر – خلع أثواب الحرير والعقد والقرطين والخلخال – وتنكر فى هيئة سمكة كبيرة حية تسبح فى ماء بئر حلوة الماء ونادى رب الدار عليه بلغة السمك « تعال » الرسول قابض الأرواح – وهو مخادع قادر – خلع ثياب الحرير .

ابريل ١٩٨١

★ تعتبر هذه القصة آخر ماكتب يحيى الطاهر فى حياته حيث توفى فى ٩ من أبريل ١٩٨١ .

حكايات

للأمير حتى ينام

من الزرقة الداكنة حكاية

الحمد لله الذى لم يسلبنى كل نعمة فمنحنى نعمة الخيال ..
والصلاة على النبى الذى أجار غزالة البر لما استجارت به من شر صاحبها اللئيم ..
والثناء الثناء عليك أميرى ..

(أقول)

إن الكونت الإيطالى شاذ الطبع ، دخل مدينة الشتاء بالصيف ، فما أن حدقت فيه شمس صيف المدينة ــ هو الغريب ــ بعين كبيرة ورمته بألف رمش من نور وألف رمش من نار ــ حتى سارع بخلع كل ثيابه وأبقى على البنطلون القصير ولولا الملامة لخلعه ، ودس رأسه الأصلع تحت قبعة زرقاء ، وأشار بيده الممسكة بالغليون ــ فهرول نحوه الجندى الأسكتلندى بخوذته ذات الريش الأزرق وثيابه الزرقاء الزاهية وسيفه المتدلى من جنبه ومد يديه بزجاجتين من الويسكى ، شرب الكونت المحب للشراب زجاجة وهو واقف وزجاجة وهو قاعد على درج المطار ، وفرك راحتيه فتحركت باتجاهه عربة زرقاء مقفلة نوافذها تغطيها الستائر الزرقاء وهبط منها رجل ضخم حمل الكونت وأقعده على الكرسى الخلفى ، واعتلى الجندى الأسكتلندى حصانه وتقدم العربة شاهراً سيفه .

(أقول)

من شرفة الفندق المطل على النيل أطل الكونت الثمل،ورأى النيل رجالاً بثياب الموج الداكنة الزرقة وقد تناثرت حواليهم النجوم الزرقاء ــ فهاجت روحه واشتاقت للفعل : رسم على الورق البيوت السبعة،وأحاطها بسور من حديد مدبب ينفذ فى اللحم وجعل بوابة السور فى حماية كلاب تنهش اللحم ، كل بيت من البيوت السبعة بحديقة وحوض ماء به سمك ملون ونافورة ، وداخل السور كان اسطبل خيل ، البيت الأول من طابق واحد والثانى من طابقين ــ وهكذا تدرج (١ = ١ ، ٢ = ٢ ، ٧ = ٧) ، ودهن البيوت بلون أزرق بقتم (من ١ الى ٧ أو من ٧ الى ١) ، ورفع الكونت منظاره واختار من الرجال ستة (البناء ماهر ، والحداد قوى ، والحوذى شاب ، وفالح الأرض فحل ، وصانع الآثاث بيدين مدربتين رائعتين ، والنقاش مرح) .

(أقول)

أخيرا تكلم الكونت بالإيطالية ، وهو راقد على بطنه فوق مرتبة من المطاط محشوة بهواء رطب من تحت شمسية يتدلى منها ورق الزينة الأزرق : براڤو .. لقد وثقتم بى وقد وهبتكم البيوت ... وها أنتم أمامى سادة بحلل سوداء وأحذية تلمع تتمخطون فى مناديل .. كل شىء هنا داخل السور صار لكم .. واليوم للخمر والمتعة الصافية .. ومن غد سأعلمكم لعبة الورق فخلال شهر سنستقبل هنا أضيافنا وهم من علية القوم .. سيكون كل منكم قد أحسن الإمساك بالشوكة والسكين وعرف كيف ينزع اللحم من العظم .. سأبذر فى نفوسكم المتباعدة روح الجماعة التى ترفض أن تُغْلَبَ ــ تلك التى تخطط للنصر الذى سيجعل منكم الأغنياء السادة بحق لهذا العالم الذى لا يحترم إلا السيد الغنى .. لقد اكتسبت أنا تلك الروح بعد جهاد شاق وحياة دون كادت تحشرنى فى زمرة الموتى عرياناً جائعاً .

ورفع الكونت كوبه ــ فرفع الأسافل أكوابهم وقرعوها كأنهم السادة منذ زمان بعيد .

(أقول)

مر الشهر وتلاه شهر وشهر ، وهاهم القوم يستقبلون أضيافهم من ثراة العالم ـــ الطامعين فى كسب مستحيل ـــ برفع القبعات ، يرطنون مع بعضهم بالطليانية ويكلمون أبناء جلدتهم بخلطة من كلام العرب وكلام الطليان ، يلعبون الورق بخفة الحواة ويحسنون الغمز واللمز الذى نهايته الظفر بمال خصومهم ، ويشربون من جيد الخمر: البئر والنهر والبحر فلا تدور لهم أدمغة ، ويأكلون من اللحم المشوى والمقلى والمسلوق: التلال والجبال والسهول والوديان ـــ فلا يصيبهم مغص أو وجع .

(أقول)

بعد الثناء عليك أميرى والصلاة على النبى - لله الحمد على هذه الخاتمة الحسنة :

فها هى ذى العربة قادمة من البعيد بستائر زرقاء مسدلة ـــ وقد داست بعجلاتها فوق بشر وشجر وحيوان وطير داجن وهدمت بيوت النمل ووقفت أمام البوابة وهبط منها الرجال الأقوياء الصالحون لكل شيء . رفع الكونت قبعته الزرقاء بيد ، وأشار بيد ممسكة بالغليون للكلاب فكفت عن النباح ، وبأسى قال الكونت للرجال : كيف جاء الموعد هكذا سريعاً ، ولم يسمع جواباً ، فركب العربة . وركب بعده الرجال . وركضت الخيل . وتصاعد الغبار فغطى كل شيء ..

حكاية صيف

بعد رحيل الكونت (**ذلك الذى حكيت لك حكايته أميرى**) ثار الغبار الكثير فى أعقاب العربة فحجبها عن أعين البشر .

هنا ـــ أقول أنا : إن ثمة صيفاً أقبل ، لا ككل صيف؛ فهذا الحر فى الجوف لا يلطفه ماء ، ورطوبة الجو تخنق الأنفاس ، والشمس الكبيرة القريبة من الأرض لا غاية لها إلا أن يشب الحريق بعالمنا فى التو واللحظة .

(**والله واحد يا أميرى والشمس بوجهين**) .

قالت الأم : أبوك رحمة الله عليه كان طيباً ، يمشى فى حاله ، ويطلب من الحوائط أن تداريه ، والكونت يا ولدى اشترى الأرض من جدك بماله .

ردَّ البكرى : جدى كان يسكر وكان يقامر ـــ وتلك شيمة الرجال ، لكن بأى حق يرث القرين الأرض ، لا هو كونت ، ولا هو ابن كونت ، ولا من سلالة كونت ، كذا لا أنا ولا أنت نعرف طليانى حتى نحكم إن كان كلامه طليانى أم غير طليانى ؟ كما أن اسمه القرين !!، طظ ، سأمنعه بعصاى هذه من زراعة الأرض .

صرخت الأم ، فتجمع الجيران ، ودار جدال ، لكن البكرى شق الجمع وبيده عصاه ــ والأرض مقصده ــ ومن خلفه سارت أمه تلطم ومعها جمع من النسوة المولولات .

صرخ البكرى فى القرين : انزل من فوق البغلة وكلمنى .
قال القرين لنفسه : هذا كلام قبيح .. وسروالى ابتل ، وهذه الرائحة الكريهة التى أشمها بنتُ خوفى (وهمز القرين بغلته فركضت) .

(وآه ياأميرى الليل أيضاً برأسين ، والله فى ملكه لا شريك له) .

قال القرين للحداد : اصنع لى حجرة جدرانها من الصاج المتين ، بسقف من الصاج المتين ، ولها باب من الصاج المتين يغلق من الداخل بلسان متين ، واجعل للباب عيناً مسحورة ــ أرى منها الطارق ولا يرانى ، ولك منى يا أيها الحداد عشرة جنيهات ورقية،وعشرة جنيهات ورقية،وعشرة جنيهات ورقية .

وقال القرين للقتلة الثلاثة ــ ورسم لهم البيت والشجرة والمنحنى والتل والترعة : أريده حياً ، مربوطاً بالحبال ، سأبصق على وجهه الكلب ابن الكلب ــ أنا القرين ، وسأدفع لكم عشرة جنيها ورقية،وعشرة جنيهات ورقية وعشرة جنيهات ورقية،وفوقها عشرة جنيهات ورقية .

وقال القرين لنفسه ــ بعد أن فارقه القتلة : قلت لهم إنه كلب وابن كلب ونسيت أن أقول لهم إنه ثعلب وابن ثعلب ، قد يضللهم ويغطس فى الترعة أو يلبد فى جحر وينتظر الحين المناسب ليثب علىّ هنا ، ربما فى ثياب خادمى الذى يحمل لى قلة الماء وصينية الطعام ...

حكاية عبد الحليم أفندى
وما جرى له مع المرأة الخرقاء

أنا لم أشهد تلك الأيام لكنى حضرت ليلة أحياها ثلاثة ، ثلاثة من أفضل الرواة — يا أميرى ، خطفهم الموت الظالم فى عام واحد ، عليهم رحمة الله ، لقد كانت خسارتنا فيهم كبيرة ...

* أكتع يدق على عود ، فيبكى وتر ويضحك وتر ..

* وأخرس يرسم الدنيا بالصرخة والإشارة : دنيا ببحر وشجر وطير وناس ...

* أما الأهتم فكان ضارب دُفّ لا نظير له ..

بعدما أكلوا الأكلة الدسمة وشربوا وشمّوا ، صرخ الأخرس ، فدق الأكتع على عوده وضرب الأهتم على دُفّه — ذلك الضرب السريع المسمى بالقادوس ، وقالوا : فى ليلة — كأنها الليلة ، ورب الكون شاهد على صدق ما نحكى نزل الإنجليز من القوارب ، ونصبوا الخيام — هناك فى فضاء الأرض الرملية .. وظلوا على حالهم قرابة الشهر بينما النهر يفصل بينهم وبين بيوت ناس الشرق حتى جاء ذلك اليوم :

تِفل ولد من أولاد ناس الشرق تفلة ، وراهن الولد أنداده — قال : ما قولكم لو عبرت النهر من الشرق إلى الغرب وعدت قبل أن تجف تَفْلتى ؟.

رد الأولاد : نسميك البطل .. ونحكى حكايتك لكل الناس قال الولد : لا .. قولوا عبد الحليم أفندى راح وعبد الحليم أفندى جاء .. لقبونى بالأفندى .. ونادونى ياأفندى ..

ضحك الأولاد وقالوا : أمرك يا أفندى .. تمام يا أفندينا .

خلع الولد خرقته ، ورمى فى الماء بدنه ، وعارك الموجة حتى بلغ بر الغرب ببطن منفوخة — فكلم نفسه : هنا فوق الرمل الناعم أقف وأبول وأفرغ القربة .

وسمع الانجليزى يناديه بلسان أعوج : لا تخف أنا كبير مطبخ الانجليز ، وناداه الانجليزى بلسان حلو ملوى : سبحان من صور بدنك ورسم وجهك ، وناداه الانجليزى بلسان أحمر : اسمح لى بلمس بدنك وتقبيل خدك .

خلاصة القول — يا أخوان ، أن الكلام الحلو الملون فرض الطريق إلى خيام الانجليز بالورد والحناء .

واسمعوا يا سامعين : قال الانجليزى لعبد الحليم : أدخل الحمام واستحم — وناوله صابونة معطرة . دخل الولد الحمام وحك جلده ، وطرد القملة والبرغوثة ، وخرج الولد من الحمام ببنطلون أزرق وچاكت أبيض وبشبشب فى القدم ، وقعد على كرسى .

وجاء مُزيِّن الانجليز وقص شعر رأس عبد الحليم ودهنه بدهان طيب الرائحة .

وكما ضحك الأولاد من عبد الحليم لما قال لهم : نادونى يا أفندى ، ضحكت الأقدار من الأولاد ، وها هو عبد الحليم أمام عيون الكبار والصغار أفندى بحق ، يلوح بيديه بينما رسول الانجليز يلوح بمنديل أبيض ، أما القارب فكان بموتور يهدر : فو .. فو .

ذهب عبد الحليم أفندى للمنادى ، فدار المنادى الأعمى فى الدروب . ومن القارب كلم الإنجليزى رسول الإنجليز الناس بلسان أعوج وطلب منهم بناء سور من الحجر ، وأعطاهم ريالات الفضة ، واشترى من أم الأولاد البيضة والدجاجة ، كما باعت له البنت الأرنب والحمامة .

صلوا على طه النبى :

فى نهارين أقام الرجال السور وشيدوا البيت اللطيف الذى سكنه كبير الانجليز ، وبنوا المطبخ والورشة والمخزن ، وأصلحوا الطرق ورصفوها لتهبط فوقها طائرات بمراوح وطائرات بأجنحة .

وفى شهرين ــ وبفضل كبير مطبخ الانجليز ــ تعلم عبد الحليم كيف يطبخ طبيخ الانجليز وكيف يصنع الفطيرة الحلوة والفطيرة المالحة ، وعرف رطانة الانجليز فصار يرطن كالانجليز .

وقال المعلم لتلميذه : إذا جاء الصيف البس له الحلة الفاتحة من قماش الشاركسكين .. وامسك بيدك منشة ــ ففى الصيف يكثر الذباب يا عبد الحليم .

وقال الخواجا لابن البلاد :

وفى الشتاء البس الحلة من قماش غامق .. والصوف الانجليزى كما تعلم خير صوف يا حليم ..

وتحت نور الكهرباء تلاصق الجسد بالجسد ، وقال المحب : لو صاحبت كبار القوم سيحترمك صغار القوم ويقفون لك ويطلبون منك العون ... ساعدهم يانور العين، واحمل شكواهم لكبار القوم القادرين على حل المشاكل واخراج الناس من الحبوس .. هكذا يكبر اسمك ويطير صيتك .. وتصبح كما أردت أنا لك أن تصبح يا حليم .

وكما تدور السواقى دارت الأيام ، وسافر الانجليزى معلم عبد الحليم مع بقية أهله الانجليزى الى بلاد الانجليز .. وجاء ضابط من بر مصر وسكنوا المطار وحكموه .

وفى اليوم الذى هطلت دموع الحزن من عينى عبد الحليم وهو يودع معلمه الانجليزى ، هطلت دموع الفرح من عينى عبد الحليم وهو يسمع الأمر من المصرى كبير ضباط المطار : أنت من اليوم كبير مطبخ المطار .

وهكذا — يا أخوان — صار عبد الحليم كبير مطبخ مطار مصر ، يجلس على كرسى ، بينما الكل خلية نحل تعمل : يغسلون الأطباق وينشفونها بالمناشف .. ويلمعون الحلل والشوكات والسكاكين بدقيق الفيم .. وينزعون القشرة عن الثمرة .. ويهركون الأخضر ويصحنون اليابس ثم يطبخون وجبة الطعام ليأكل ضباط مصر .

على صوت المؤذن والديك تصحو أم عبد الحليم من نوم حلو ، وتحمل إبريق الماء الأحمر بيد والطست الأبيض بيد ، وتقول بصوت خفيض : يا عبد الحليم . يصحو عبد الحليم وينظر لساعته ويغسل وجهه دون أن يفارق سريره ، وبعدما يشرب فنجان قهوة بلبن وسكر — يدخن سيجارة من صنف انجليزى رسم على طرفها القط الأسود قاعداً على كرسى وفوق رأسه برنيطة ، وقد دخن عبد الحليم سيجارته يفارق سريره ، ويحلق ذقنه أمام مرآة بلجيكية ويلبس حلة نظيفة مكوية ، ويشرب فنجان قهوة بسكر ، وينظر لساعته ويخرج ليمتع العين برؤية بنات الصبح حاملات الجرار ، ويركب القارب من بر الشرق إلى بر الغرب ، وهناك فى المطبخ يجلس على كرسى وينظر إلى ساعته ، ويسألهم : هل سلقتم البيض ؟ ويسمع ردهم : سلقناه ، فيسأل : والزبدة والجبن والمربات ؟، ويأتيه ردهم : بالأطباق ، ويسألهم : وهل شطرتم الارغفة ؟ فيجيبوا : شطرناها .. وينظر عبد الحليم أفندى لساعته ويقول : الآن قدموا وجبة الفطور لضباط مصر وهاتوا لى فطورى .

وهكذا يا سادة — كما يفطر ضباط مصر يفطر عبد الحليم أفندى : خبز مشطور مدهون بزبدة وبيضة مسلوقة وبيضة مقلية .. وصحن مربى وقطعة جبن رومية ، ثم يشرب فنجان قهوة من غير سكر ، ويدخن سيجارة وينظر لساعته ويأمرهم : بعد ما تغسلوا الأطباق وكافة المواعين هاتوا من صنف الخضر كذا ومن صنف اللحوم كذا .. ومن صنف الفاكهة كيت وكيت .

وهكذا يا سادة يختار عبد الحليم أفندى نوع الطعام الذى سيأكله ضباط مصر فى وجبة الغداء ، وينظر إلى ساعته ويقوم من كرسيه ويتبعه تابع ، وهناك فى

البيت اللطيف ــ يقف وخلفه التابع أمام سيدة المكان زوجة كبير ضباط المطار التى تقول :

أريد من صنف الخضار كذا ومن اللحوم كذا ومن الفاكهة كيت وكيت ، فيقول عبد الحليم أفندى لتابعه : اذهب إلى المطبخ الكبير .. وهات سلة بها من صنف الخضار كذا ومن صنف اللحوم كذا ومن صنف الفاكهة كيت وكيت ، وقبل أن يعود التابع ــ يدخل عبد الحليم أفندى المطبخ الصغير ويغسل القدور والصحون والشوكات والسكاكين والملاعق وينشفها بالمناشف ، ولما يعود التابع يأمره عبد الحليم أفندى بغسل الخضر ونزع القشر عن الثمر ومسح قعر الحلل بالسمن وبياض البيض ، وبعد ذلك يطبخ عبد الحليم أفندى ما ستأكله زوجة كبير ضباط المطار مع ابنها حسام الدين وزوجها كبير ضباط مصر ، ويعود إلى المطبخ الكبير ليأكل من طعام لم يطبخه لنفسه .

زوجة كبير ضباط المطار هذه يا حضرات : كانت كريمة صفات مقيمة حفلات لها من الصاحبات العشرات وكلامها مسك وعنبر. بفضلها عرف الأكابر ونسوة الأكابر وأبناء الأكابر عبد الحليم الذى يتكلم كلام الانجليز ويطبخ طبيخ الانجليز ويصنع أحلى حلوى ، وبفضلها طار صيت عبد الحليم فبلغ المدن وعرفه المأمور والحكمدار ومفتش الصحة ، كما عرفته زوجة المأمور والحكمدار وزوجة مفتش الصحة ، وكذلك عرفه أبناء المأمور والحكمدار أما غبريال مفتش الصحة فلم يكن عنده أولاد حتى يعرفوا عبد الحليم أفندى .

لا غرابة ولا حسد يا أخوان ولكنها الحقيقة نحكيها كما جرت بغير زيادة وبغير نقصان :

قام الشيخ المسن ولم يقعد إلا بعد أن قعد عبد الحليم . وقبلت أم الخطاف يد عبد الحليم لأنه أخرج ابنها من ظلام السجون ، وجاء الخطاف بنفسه أيضاً قبل يد عبد الحليم وأعلن التوبة على يديه . والنتاش أيضاً قبل يد عبد الحليم ــ وقال : أنت الذى أنقذتنى من ضرب الكرابيج . وخطيب الجمعة قال عنه : عبد الحليم أفندى ــ الذى يتكلم بلسانين ــ صورة للعبد الحامد الشاكر ، يتكلم أمه ــ التى ربته ــ بصوت خفيض ، ويشكر ربه الذى ساق إليه الانجليزى الذى علمه الحرفة التى فتحت له أبواب بيوت أفاضل الناس ، وعبد الحليم أفندى يسير بيننا

وفى صدره أسرار البيوت العالية ـــ فإذا كلمناه عن ساكنة القصر مثلاً .. كلمنا بالمدح فيها والثناء عليها .

مع هؤلاء ـــ يا مستمع ـــ عاش عبد الحليم أفندى عيشة العزيز المكرم ، وتلك كانت عاداته : بعد ما يتناول ضباط مصر فى المطار طعام عشائهم ، يعود عبد الحليم بالقارب من الغرب إلى الشرق ويدخل بيته فيستحم ويبدل ثوبه ، ويسير ، مع المساء ، على قدميه تحيط به الأشجار ، وفى قهوة العنبة يجلس مع خِلاّنه فيلعب مع واحد عشرة طاولة ويدخن شيشة ثم يلعب عشرة طاولة مع آخر ويشرب كأسين من كونياك فرنسا ، ويخاطب صحبة الأفندية ضاحكاً : الشط هو الذى يفصل بين الإنجليزى والفرنساوى ، ثم ينظر لساعته ويقوم ، ويركب عربة يجرها حصان توصله حتى بيته .

على هذا المنوال مرت السنوات ، وعلى هذا المنوال سارت حياة عبد الحليم ، لم يغير عادة ولم يبدل مسلكاً إلى أن جاء اليوم الذى أوقفته فيه امرأة ـــ وكان فى طريقه إلى قهوة العنبة .

قالت المرأة : ولدى الغائب يا عبد الحليم أفندى .

رد عبد الحليم أفندى على الفور : يعود سالماً بإذن الله .

قالت المرأة : هذا مكتوب منه ، وقدمت ورقة لعبد الحليم أفندى ، وقالت : اقرأ كلامه لى أنا أمه يا عبد الحليم أفندى واسمعنى حتى يرتاح بالى وتبرد نار شوقى .

وقع عبد الحليم أفندى فى حيص بيص وأحس أنه سمكة فى شبكة ، وقال فى سِرّه : الخرقاء بنت الخرقاء تقول لى اقرأ أنا الذى لا أقرأ ، وتذكر معلمه الانجليزى فعاتبه : لا أنا ولا أنت حسبنا حساب هذا اليوم .

طار الوقت فلعب الفأر فى عِبّ المرأة وولولت : لماذا أنت ساكت يا عبد الحليم ؟.. تكلم يا عبد الحليم أفندى وخبرنى .. هل جرى مكروه لولدى .؟ انطق يا عبد الحليم أفندى .

صرخ فيها عبد الحليم وهو الحليم : لا تصرخى فى وجهى أنا لا أقرأ الورق ، ورمى الورقة على الأرض .

هنا جعرت المرأة الملهوفة بالصوت العالى : آه .. مت فى بلاد الناس البعيدة يا ولدى .

أطبق عبد الحليم على فم المرأة وأسكتها ، وقال لها مستعطفاً : لا تصرخى حتى لا يلتم حولى العاطل والباطل ، ورفع كفيه عن فمها ، وانحنى على الأرض وناولها الورقة ، وقال لها : أنا لا أقرأ ولا أكتب يا أم .. أنا أفندى بثوبى يا أم .. وها أنا ياأم أشق ثوبى أمامك .

ولم يذهب عبد الحليم أفندى على قهوة العنبة فى هذا اليوم ، عاد إلى داره ، وأغلق بابه ، ودس نفسه فى حضن أمه .

تلك هى حكاية عبد الحليم أفندى مع المرأة الخرقاء ، رويتها لك – ياأميرى – كما سمعتها من الرواة الثلاثة ، أنا الذى لم أشهد زمانها ، والله على صدق ماحكيت لك – ياأميرى – شهيد .

حكاية الريفية

صفية :

العذراء يتيمة الأبوين تبيع السلة التى تصنعها أم الأم من خوص النخيل ، لتأكل من كد يدها وعرق جبينها ، وتحيا ككل بنات الفقراء فى قفص ، بانتظار زوج فقير يمسك بيدها ويقودها للعيش معه فى قفص ، وتمر الأيام وتفقد الحلوة ابتسامة الفم وعافية البدن، ويبقى الأبناء والزوج المكدود والصيف والبرد والحشرة الضارة وتراب الأرض وعفونة المِشّ ورغيف الشعير باليد ، ولا فكاك لبنت الفقراء من ظلمة المصير المحتوم المسطور فى لوح الغيب إلا بالفعل الزاعق ... ثم يأتى النور ويحكون عنها فى الحكايات :

(ولما كثر الكلام وشاع عن جمال الفقيرة وبلغ مسامع الغنىّ فى قصره ، تعلق بها قلبه قبل أن يراها ، وقال لرسله هاتوها ، فلما أحضروها ورأى الغنى شعر الخيل على رقبة الطير والوردة الحمراء بعين بقرة متوحشة ، قال : سبحانك ربى .. كأنها الطبيعة أم الكائنات ، وأرسل فى طلب القاضى ، فجاء القاضى فى الحال وكتب فى كتابه : على شريعة الله وعلى سنة خير الأنام تزوج صاحب القصر وخزانة المال من ذات الضفيرتين أخت الشمس والقمر)

يوم الثلاثاء :

يلتقى أكابر القوم فى البورصة ويلعبون لعبة « الإنسان والقدر » بالخيط ودمية الخشب :

* فيذبح الجزار البقرة
* ويرتفع سعر الطماطم من قرش إلى قرشين .
* وتفقد الأم ابنها فى زحام اليوم العظيم ، فتسأل عنه المتسول الأعمى .
* وتصرخ أخت الأيتام : الغشاش سرقنى فى الميزان وباعنى البطاطس معطوبة .
* ويمد الحصان الشريد فمه ويأكل من غلة مكومة فتنهال على بدنه عصا التاجر والمشترى والوسيط والكيال ، فيغادر المكان وهو يصهل : هيهات هيهات يا أراذل الناس .. من منكم يجسر فيعتلى ظهرى ويجبرنى على جر عربة بعد موت صاحبى .
* وللخارجين من السوق يغنى المجنون من فوق حائط متهدم :

« ولع الوابور ياجودة ... القطنة أكلتها الدودة »

« والبنات عايزة تتجوز ... والصبيان نفسها مسدودة »

فيضحك صاحب العقل من خرقه ، ويضحك رب العلم من ركاكة شعره ، ويرميه صبى بحجر ، وتدس بائعة الأساور الزجاجية حفنة بلح فى حجره وتطلب من الله أن يلطف بحالها وحال زوجها المريض وحال المجنون .

يوم الثلاثاء :

باغتت صفية ابن الأكابر ولطمته على خده لطمة أوجعته فطار الشرر من عينيه وصرخ فى صحبه : اضربوها ، لكنهم وجدوا الأنثى الضعيفة محاطة بعشرات الأنفس لحمايتها من غضبة الذكر المفترى .

قال المضروب : والله بلا سبب .

ردت صفية : كاذب .
وقالت بائعة اللبن الحامض : قرصها بفخذها .

وردت القريبة منها : لا يا أم حفصة .... رماها بالكلام اللين فرمته بالخشن المؤلم .

ودق العجوز الحدوة بحافر الحمار وتكلم فى عبه : من جاور الحداد اكتوى بناره ... ومن خرج من داره قَلَّ مقداره .

بعد وقوع الواقعة :

تزاحم شباب الفقراء — على باب صفية ـ المغلق — يخطبون ودها ويباركون عفتها وينادونها لتعيش فى حماية سواعدهم كريمة النفس ، فسألتهم : ومن يطعم الجدة العجوز ؟.. وتملصت من وعدهم وخاطبتهم بلسان يحفظ قول السابقين لكل ثمرة أوان قطف،ولكل زرع وقت حصاد .

ونهرت صفية مالك القيراطين المتزوج من امرأتين ونعتته بالغراب . وقالت صفية للعجوز الميسور الحال : لكل حبة مكيال ياجدى .. ولما تقدم لخطبتها ابن الأكابر — الذى لطمته فى السوق بلا سبب — رفضته : وهى موقنة من أنه ما جاء إلا لينتقم .. يريد أن يدس لها الفخ تحت ورقة سيكتبها شيخ ويشهد على ما فيها شهود .. ثم يكون الهوان الذى ما بعده هوان .

النعيم :

تزوجت صفية من غريب عن القرية : لعب فى تجارة الحبوب والأقطان لعبة حققت له حظ التجار وصيت التجار ومكانة التجار المرموقة — فملك البيت المرتفع السقف الذى يقوم على أعمدة بيضاء من الحجر ، وعاشت صفية — كما تروى الحكاية :

(فراشها ليّن من ريش النعام ، وحلوها الفاكهة طازجة ومطبوخة ، وطعامها لحمة فى صينية أو حمامة مشوية ، بدولابها الثوب الملون والثوب المنقوش والثوب المخرم ، وصندوق زينتها مقفل على المكحلة والسوار والحجر الكريم . تحت قدميها

عبدة سوداء وعن يمينها جارية بيضاء تروح بمروحة ، لو صرخت حضر الطبيب ولو زعقت هرول خدم ، وإن طاف بخيالها خاطر سبب الضيق نظرت من شرفة ذات خروم لترى الماء الجارى والنبات المتحرك وقبة السماء خضراء) .

الحافة :

كان من عادة صفية — فى الليلة التى يكتمل فيها القمر — أن تركب العربة التى يجرها حصانان أبيضان يسوطهما حوذى بجيبه المسدس الفاتك بالأرواح ، وتنظر من وراء ستائر الدانتيل المخرمة إلى ابن العامة وهو يفر خوفاً من العجلات وأرجل الخيل والسوط كما تفر أشجار النخيل وأشجار مخاط النبى وكلاب الطريق — فتضحك صفية من القلب ، وكلما راح بصر صفية إلى القاعدين والنائمين أمام الدور المبنية من الصفيح والعيدان والطين والقش — انكمش القلب .

(أنت ياصفية بنت هؤلاء — رغم النعيم الذى تتقلبين فيه ، لقد هربت — وإلى الأبد من مصيرهم المعتم .. إلا أنك — وإلى الأبد — مربوطة بسلاسل من حديد إلى أبدان أهلك الفقراء التى نخرها دود القبور منذ زمان بعيد ، الحق حقٌ يا صفية — فتكلمى بالحق :

ذاكرة الفقراء تعرف النسيان ... أما ذاكرة الأغنياء فلا تعرف النسيان قط ... لم يحضر الأغنياء يوم عرسك .. وفى العيدين لم تزرك غنية واحدة .. وفى أيام المرض التى مرت بزوجك — لم يسأل عن صحته غنى واحد ، زوجك مثلك يا صفية من صلب فقراء — ضحكت له الدنيا كما ضحكت ذات يوم من الأيام) .

الهاوية :

السائرون فى طريق الانتقام أحكموا غلق المصيدة على الزوجين : فباتا لا يلتقيان تحت نور ... وعلقا الأمل على الأيام حتى تزول الغمة .. إلا أن الأيام جعلت واحدهما يقنع بنقيصة الآخر ويسخط على نقيصته هو — ومن هنا نبت الشعور بالشفقة على الآخر المصحوب برعدة الخوف من الآخر ، وهكذا استعصى الحب الذى يوحد الأجساد ويثمر البنين .

السلام :

جاء يوم ورأى ملاك الموت — وهو يطوف — شجرة الحياة تحمل فرعين يابسين متباعدين ... فقصفهما .. وطوحهما لريح الخريف الأبدية .

حكاية أم دليلة .. طاهية الموت

بعينيّ هاتين — وأنا أعرف أنهما طعام الدود الملعون فى يوم معلوم — رأيت البنت يا أميرى تركع على ركبتها وتبلل بالدموع قدم والدها — وتقول : زوجنى يا أبى من الغنى ولا تجعلنى كشجرة جف عودها ومال فرعها لما غاب عنها الماء .

وبأذنى هاتين — سمعت الأب الأمين يحاول رد ابنته عن مرادها بالكلمة اللينة وبحكمة الأقدمين — قال : يا ابنتى .. المال يصلح حال بيتى أنا الفقير .. لكن الرجل عجوز .. وأنت بستان بثمر .. وهذا يغرى الغير باعتلاء حيطانك .

ناحت البنت — ودموعها علىَ الخدين دجلة والفرات : لا تخف يا أبى .. قلبى البارد هو الذى أحب ذهبه البارد .

ومالت الأم إلى صف ابنتها وناصرتها ووسوست فى أذنها : البنت سر أمها .. ولنا كلام .

هنا قلت أنا لنفسى : وقع المحظور يا ولد .. وها هو الزمان يكرر على مسمع الدنيا — حكاية أم دليلة طاهية الموت .

وها أنا أسوق إليك الحكاية القديمة يا أميرى ، من بدايتها إلى منتهاها بتفصيل محكم :

قالت أم دليلة لزوجها ــ وعصرت على الفول ليمونة : لا تجزع من قولهم (الرجل الفقير باع ابنته للعجوز الغنى) واسمع قولى (قل للعجوز الغنى الراغب فى مصاهرتك والزواج من ابنتك .. سآخذ مهر ابنتى ثقلها من نقى الذهب .. ولن تدخل بنتى قصرك العالى إلا بعد مرور شهر)،(وحين يصرخ الغنى : هاتوا الميزان) (سنمسك نحن بطرف الخيط ونشد عامة الفقراء إلى بيتنا ليمدحنا لسانهم ويرفعنا إلى مراتب الأغنياء) .. لو سألتنى (كيف يكون ذلك ؟) سأرد عليك بالآتى (سنذبح كل يوم وحتى يمر شهر بهيمة ليأكل الفقير والمسكين وابن السبيل .. سيكون شهرنا بثلاثين يوماً تتدحرج .. حين ذلك ستطلع عيون فقراء المسلمين إلى شمس يومنا كما لو كانت هلال العيد .. هكذا يحسبون اليوم عاماً .. وثلاثون عاماً من اللحم يا زوجى ستردم الحفرة التى حفرتها أعوام الشدة بدماغ الفقير) .. وهذا كلام الفقير لصاحبه الفقير ــ بينما اصبعه يشير الينا : (ها هم الأغنياء منذ زمن بعيد يصاهرون ابن طبقتهم الغنى) .

وقالت أم دليلة لدليلة الراقدة فى حضنها : لن أخاطبك كما خاطبت الأم البلهاء ابنتها ــ وقالت (اغرفى من ماله وارمى فى حجر أمك) ولكنى سأعلمك فى شهر واحد أنا المجربة طبخة الموت .

أ - وضع القدر على الكانون :

تحت الخميلة ــ همست دليلة فى أذن بعلها العجوز : أحس برفسة الجنين فى بطنى .

قطف العجوز الغنى من كل خد برقوقة وزعق فى خدمه : إلىّ بالحكيم الفاهم .

ولما جاء الحكيم الفاهم دخل حجرة نوم دليلة وبعد ما رد الباب عاين جسد دليلة وفتح الباب وقال للعجوز : مبروك ــ ادخل ورش ماء الورد على وجه أم وارث مالك واسمك .

حط العجوز كفه على قلبه وأنّ : انجدنى أيها الحكيم الفاهم فقلبى لا يحتمل الفرح .

ب – القدر فوق نار هادئة :

دست دليلة قشر البيض تحت فراشها ، ورقدت وتقلبت وجعرت : آه يا ضلوعى . جاء العجوز يجرى كصبى ، ووقف أمام سرير دليلة وهو يلهث ، وشوح بيديه فى وجه خدمه وقال : هاتوا الحكيم المعالج ، وراح يلف ويدور حول سرير دليلة ، يفرك قلبه تارة ويفرك راحتيه تارة أخرى — حتى جاء الحكيم المعالج . رد الحكيم المعالج الباب وعاين جسد دليلة وفتح الباب وهو يضرب الكف بالكف — وقال للزوج العجوز : تلك حالة محيرة ونادرة .. أما الجنين فبخير وهذا من فضل الله ، وفتش الحكيم المعالج فى جسد الغنى وقال : كن على حذر .. فنسيانك لِسنّك يفتك بقلبك لا تفعل كما يفعل الشباب .

ج – تحت القدر نار حامية :

كسرت دليلة مرآة قصرها الشتوى وصرخت : الجرح فى رقبتى ، ركضت الوصيفة — وهى عين لسيدها ، وقالت سلم عقل سيدتى يا سيدى . وضع العجوز راحته على قلبه ليحميه من الوقوع ، وهرول حتى بلغ غرفة الزينة وخاطب دليلة : سبحان الله فى طبعك يادليلة .. أنا انا لا أرى الجرح .. لكنى أرى رقبتك كبرج لبنان المطل على دمشق. بكت دليلة وظلت تلطم خديها وصرخت : ها هو زوجى يتهمنى بالعمى وها هو يلاطفنى بكلام جميل لأنه يظن أننى بلهاء ولم تسكت إلا بعد ما أحضروا الحكيم العارف الذى طلع برج لبنان ورأى دمشق ولما نزل خرج من غرفة نوم دليلة وهمس فى أذن العجوز الغنى : وريثك بخير .. وسيدة بيتك مريضة بالوهم .. لاطفها .. وأحطها بالمغنيات والماشطة والمدلكات والمضحك الخصى وضاربات الدفوف .. وعامل قلبك العجوز برفق .. لا تحزن ولا تفرح .

د — بعدما ينضج الطبيخ – ترفع القدر :

فى القصر الصيفى — سألت دليلة زوجها الغنى العجوز : متى يبتسم لى الزمان وأراك وقد نفضت المرض عن بدنك آه .. متى يقبل هذا اليوم ؟.. وقت ذاك نجلس أنا وأنت متجاورين على كرسيين ونطل من شرفة قصرنا العالى .. ونمتع

العيون برؤية الماء والخضرة ووجوه ناس هذا الزمان ، وصرخت دليلة فى الخدم : إلينا بكرسيين .. أنا وزوجى هناك بشرفة قصرنا العالى .. إلينا بسلال الفاكهة وجوزة الهند .. وهاتوا لنا أطباق الجوز والفستق واللوز المقشور ، وحطت دليلة يد زوجها العليل فوق كتفها وزحفت به إلى الشرفة ، وهمست فى أذنه : فعلت مافعلت خشية أن تموت ولا يتحقق حلمى ، وبالشرفة زقت دليلة بأطراف أصابعها حبة عين جمل فى حلقوم بعلها الغنى العجوز ، وسألته — وأشارت بيدها : تلك البنت الماشية تدب وتتثنى — هل تعرفها ؟.. نظر العجوز إلى أسفل ورأى : الماء والشجر والزرع والزراع والحصاد والحاصد .. والأجران وحامل المذراة .. لكنه لم يعثر على بنت ماشية أو واقفة — فقال لنفسه : من الأسلم لى أن أجاريها حتى لا تتهمنى بأنى أتهمها بالعمى ، وقال لدليلة : ها .. تقصدين تلك البنت الحافية .. أعرفها .. إنها بنت نافخ الكور . فسألته : مالى أراها معلقة البصر بشرفة قصرنا وكأنها تقول لى : قومى لأجلس مكانك . قال الغنى العجوز هذا حال الفقراء يا دليلة .. يتطلعون بعيونهم إلى فوق — فرؤية الأغنياء تبهجهم وتجلب لقلوبهم المسرة .. كشرت دليلة : البنت تنظر إليك أنت لأنك تعرفها وها هى تشير بيدها نحوك .. وأنا ألمح بعينك الرغبة.أسند العجوز رأسه على صدر دليلة وسقطت عمامته فلم يلتقطها وقال : آه يا دليلة .. هذه البنت نملة .. وكذا كل بنات العالم .. أما أنت يا دليلة فقمر فى السماء . مالت دليلة وقبلت رأسه الأصلع ، وتمتمت : أنا أحبك وأغار عليك يا مالك قلبىءأحلفك بالله وبرسوله الكريم — لا تطلقنى من أجل تلك الجربوعة .. لا تطلقنى يا سيد بدنى .. فأنا من حبك لا أنام الليل .

كح العجوز — وقال : وأنا يا دليلة لا أنام الليل ، ولا أنام النهار ... وهذا مافعله بى حبك .

هـ – رش الملح والتوابل :

كحلت دليلة الرموش ورشت العطر على الثوب المنقوش وربطت العنق النافر بمنديل ملون وأمسكت بيدها وردة وطلعت على زوجها الراقد فوق سرير المرض بوجه يضحك وجسد يرقص وقالت : والآن قل قولك يا رجلى ، ومالت فقطف العجوز من الغصن الدانى قبلة ، وقال : أنا فى النعيم وأنت حورية .. وأنا فى الجحيم وأنت جنية ... أخ . كل مرادى ضجعة فوق صدرك .. ثم أغمض العين . فتحت دليلة ذراعيها — وقالت : تعالى يا رجلى .. هنا — يا والد ابنى ستستريح .. تعال ..

حكاية الصعيدى

الذى هدّه التعب فنام تحت حائط الجامع القديم

صحا على صرخة،ووجدها فوق رأسه تبكى ، تلبس الأسود وتحمل بين يديها طفلاً ميتاً . قالت . يا فلان يابن فلانة هل ضاقت بك الدنيا الواسعة فلم تجد غير هذا المكان تزاحمنا فيه أنا وأولادى .. لقد قتلت ابنى يا قليل النظر .. وحتى يخفّ حزنى على ولدى عليك أن تفارق بيوتها قبل أن يدركك صبح .

لتّ الصعيدى فى الكلام وعجن — قال : أتيت إلى المكان ولم يكن بالمكان غيرى .

فصرخت فيه : لو لم أكن جنّية مؤمنة ، بنت جنّية مؤمنة ، بنت جنىّ مؤمن ، لركبت كتفيك عامين قمريين كما تركب الدواب يا دابة .

ضرط الصعيدى ضرطتين،ولمّ ذيل ثوبه وأطبق عليه بأسنانه وانطلق يسابق الريح وهو لا يصدق أنه أفلت من شر جنية تسكن الخفاء،ولا يراها ابن آدم إلا حين تريد هى لابن آدم أن يراها .. بعد وقت صدق أنه نجا،وسأل نفسه : كيف أبارح أم القرى التى تلمّ عظام جدودى ؟.. سأذهب إلى حامل البخارى،حافظ كتاب الله المهاب من الجن وأشتكى الجنية .

وقال :

وجدته قاعداً تحت العنبة وأمامه الحطب مشتعل ، جعلت المسافة بينى وبينه قصبة ونصف قصبة وقلت السلام عليكم ، ولمّالم أسمع رده تقدمت وجعلت المسافة بينى وبينه قصبة وقلت السلام عليكم ، ولما لم أسمع رده تقدمت وجعلت المسافة بينى وبينه نصف قصبة ورددت السلام فلم يرد ــ بينما النار التى أشعلها لا تزال مشتعلة ، قلت ــ وقد فهمت : انتهى كل شىء إذن .. جاء الطوّاف قبلى وقضى الأمر ، وحفنت من تراب الأرض بالكفين وكشحته على النار فخمدت ، وقعدت أبكى .

(كانت اليد الكبيرة يا أميرى قد رسمت له الطريق ــ خطين حديدين تجرى فوقهما القطارات .. وأعمدة خشب تشد أسلاك التلغراف) .

لما وجد الصعيدى الطريق مرسومة أمامه مشى فيها ، ظل يمشى وبلاد الله تترى حتى بلغ أم المدن، فدخلها حافياً متورم القدمين فى اليوم الخامس من ذى الحجة وكان العام عام الذئب والدبية ، وفى بحر من الحديد والنار رأى الإنسان يحجل ويطلب الصدقة ورآه على البسكليت ورآه يدب ورآه بالأتوبيس وبالترولى وبالترماى ورآه يطير ورآه يسوق العربة ، وقف يتفرج ويتعجب ونسى زمانه حتى جاء الرجل وسأله عن شخصيته . قال : فلان ابن فلان . قال الرجل : أنا أسأل عن بطاقتك ؟. قال : معى بطاقة . قال الرجل : هات ، وأخذ الرجل البطاقة ــ وقال : أنت المرسوم أمامى ... يبقى الكلام المكتوب وتلك معضلة فأنا لا أقرأ . قال الصعيدى لنفسه : مادام لا يقرأ .. ومادام الكلام المكتوب كله عنى أنا .. وأنا الذى قلت هذا الكلام لكاتب البطاقات فكتب كاتب البطاقات بطاقتى ... إذن تلك فرصتى للتباهى ، وقال للرجل : أنا أقرأ ، ومضى ينظر فى البطاقة ويتذكر كل ما قاله لكاتب البطاقة ويقوله للرجل . باغته الرجل ولطمه على فمه ليسكت فسكت ، وظل الرجل يضربه بالكف على القفا وهو ساكت ، ولم يكف الرجل عن ضربه حتى وقع الصعيدى فى أول يوم له بأم المدن على الأرض مغشياً غليه ، أفاق فوجد حواليه ناساً يجهلهم ويجهل قدر الشر وقدر الخير فى نفوسهم (الشر مطوى داخل كل نفس ولا يعلم دواخل النفوس يا أميرى الا الله) كان عليه أن يتكلم معهم ليعرف مقاصدهم فتكلم ، وكان عليهم أن يردوا على كلامه فردوا ، وفهم الصعيدى أن الناس حوله (متفرج ومشفق ومصلح وناصح) ...

قالوا : لا عليك .. الرجل شرطة ، وقالوا : أنت هنا ولست هناك ، ونصحوه أن يغير محل إقامته وقالوا : بسيطة .. شُجَّ حاجبك الأيسر ، وقالوا مادمت من صعيد مصر فقل لنا إلى أى طائفة من الصعايدة تريد أن تذهب ؟ وعددوا له قومه: (باعة خضار وبوابون وعمال بناء وباعة جوالون) . قال لهم : لا مال معى أشترى به الشيء لأبيعه ، وقال لا أملك غير بدنى ..

قالوا : اذهب إلى عمال البناء ، ووصفوا له الطريق . ذهب إلى عمال البناء وكان النهار قد انقضى فوجدهم قد أشعلوا النار وتحلقوها . رد السلام وقال : أنا ابن فلان . قالوا : أهلاً أنت مِنَّا . وحكى حكايته . قالوا له : ماحدث لك يا فلان حدث لعبد الحليم أفندى . تحسس جرحه وأَنَّ ، قال : ليت أمى ما تزوجت أبى — وكان قاعداً فرقد . أقاموه ، وسقوه العدس الساخن ودعكوا قدميه بالماء الساخن والملح ، ولاموه ، لأنه أتى بمفرده ، وقالوا له : الأرض مرسومة يا فلان .. ونحن لا نمشى هنا فرادى وإذا مشينا فنحن قوم نعرف الحد ولا نتجاوز الحدود ، واعتذروا عن ضيق ذات اليد ، وقالوا : اليوم يوافق قبل نهاية الأسبوع بيوم،وها نحن لا نملك المال لنشترى البن لجرحك ، وقام واحد منهم ودفس الرماد فى جرحه ، ووعدوه بشراء البُن لما يقبضوا راتب الأسبوع . وقالوا له : لما ينتهى نهار الغد ينتهى الأسبوع .

ولما انتهى الأسبوع اشترى الصعايدة البن ودفسوه فى جرح الصعيدى ، واشتروا « منديل محلاوى » وربطوا به الجرح . وتتالت الأسابيع وجاء الشهر وشفى الصعيدى من جرحه وأورام قدميه وطابت له الحياة مع أهله الصعايدة — إلا أنه فى الليالى المقمرة كان يتجنبهم وينام مبكراً قبل أن تطلع القمرة . وظل يتنقل معهم من مكان لمكان،ويبنى معهم العمارات من الطوب والحديد والرمل والأسمنت ويغنى مواويل حمراء ومربعات زرقاء واللوبالى الأخضر،لكنه لم يسمع صوت سواقى أم القرى .

ومن زملاء العمل اختار له معارف من أبناء المدن الحرفيين سكان الحارات (الحدادون ... النجارون .. عمال رصف البلاط .. النقاشون) يزورهم فى بيوتهم،ويشرب معهم ومع نسوتهم الشاى ويأكل مع أطفالهم البطاطا .

دعوه مرة إلى حفل ختان أحياه مطرب بأرغول وراقصة لحمها أبيض تدق الصاجات فيقوم ناس ويقعد ناس . قام مع القائمين وقعد مع القاعدين — وكان قد شرب الحشيش مع من شربوا الحشيش ، وتذكر أم القرى البعيدة فترحم على روح جدوده وهاجت شجونه وتقدم من المكرفون وأمسك بشلن ورق وأمر المطرب بالغناء لأم القرى ، وتكلم فى المكرفون فلعلع صوته : السلام على الصعايدة الرجال يبنون العمارات ويعمرون أم المدن . قام واحد من الحرفيين أهل الحىّ ودفع للمغنى والراقصة ربع جنيه وتكلم فى المكرفون وقال : السلام على أرباب الحرفة الرجال من أبناء أم المدن فهم الذين يعمرون أم المدن . وعلى كلام الحرفى قعدت الراقصة تعجن لحمها الأبيض وغنى المغنى أغنية .

وكادت تنشب مشادة بين الحرفى والصعيدى،لولا الصعيدى العاقل الذى قام ودفع للراقصة والمغنى نصف جنيه وقال فى المكرفون : السلام على الجميع .. السلام على كل الحاضرين من صعايدة وأهل حرفة .. السلام على الرجال يبنون العمارات ويعمرون أم المدن . وقام حرفى خفيف الدم وحيا الصعيدى العاقل ودفع نصف جنيه للراقصة والمغنى ، وقال فى المكرفون : الصعايدة ونحن نبنى العمارات ونعمر أم المدن ولا نسكن فى العمارات .. السلام على سكان العمارات .

فضحك الكل ، وهكذا انتهت الليلة بخير .. ومن تلك الليلة وصاحبنا الصعيدى يكلم نفسه : نحن الصعايدة نبنى العمارات .. ونحن وأهل الحرفة لا نسكن العمارات لكننا نحن الصعايدة نترك الصعيدى منا — وهو أكبرنا سنا — على باب كل عمارة نبنيها ، وسأل نفسه : متى يأتى دورى لاستريح وأقعد على دكة ..

ظل صاحبنا يضرب فى المقبل بعد ما طرح ونسى الحاضر ، قال : الطيب محمد وقع من فوق إلى تحت فقصفت رقبته وفقد دوره .. ومحمود الساكت فقد دوره — لما قبض عزرائيل روحه وهو نائم .. كذا عبد البارى حين أراد أن يتمخط وهو قاعد بيننا فتمخط روحه .. يأتى دورى لأصير بواباً قبل عبد الحارس وعبد الملاك،وبعد حجاج ومحمود الظنى وعبد الحاكم ..

وفى نهار مشمس،وكان يطلع الدعامات الخشبية المربوطة بالحبال وعلى كتفيه حمولة الرمل والأسمنت ـــ طرح صاحبنا وضرب ونسى الحاضر ، قال : لما ننتهى من بناء هذه العمارة سيقعد على بابها عبد الحاكم ونمضى لنبنى العمارة التى سأقعد على بابها أنا فوق دكة من خشب .

فى هذا النهار – يأأميرى – ضيّع الصعيدى عمره كما ضيعت بائعة اللبنِ الحمقاء اللبنَ .

حكاية برأس وذيل

ياأميرى :

مر شتاء ، وهذا شتاء ، وكل الوصفات لم تفلح فى القضاء على وجع الروماتزم ، وأم شعلان حرم جاد المولى شعلان تولول ، والصاحب المجرب ينصح جاد المولى أن تأكل أم شعلان لحم قطة سوداء ، قطة سوداء وبالبيت قطة بيضاء !! قطة بيضاء ، لا قطة سوداء — يا جاد المولى ، فلماذا قطة سوداء ؟.

(هو السر — يا أميرى — أحاط به كالسوار بالمعصم، كالعسكر بسوق الخميس ما دام البيع والشراء لا يتم بغير الكلام ، هو السر وهو عاجز بعقله حتى آخر العمر وكذا الكل عاجز — إلى أن يأمر الله الحريق فى ذلك اليوم لتحترق الدنيا التى لا تزال تخالف) .

اشترى العبد العاجز — جاد المولى — فص أفيون من فكرى الكور ودفع له من جهد بدنه ربع ريال ، والشابة (حلوة رغم الصفرة والقشف وتسوس الأسنان) صنعت له فنجان القهوة — كما أمر — سادة ، فشربه ومص فص

الأفيون وأطبق على حمامة راقدة على بيضها ونزع ريشها ريشة ريشة وقام وعاشر أم شعلان ــ وتلك عادته لما ينتوى التدبير والتفكير :

(هى شابة ــ رغم قساوة الأيام ، حلوة ــ رغم ندرة الصابون ، وحرام يارب أن تصير كسيحة ، وحرام والله أن يطلقها ــ لا قدر الله ــ فهى مطيعة أنجبت وكلفته فوق العشرة جنيهات مهراً دفعها وعليه خمسة جنيهات يدفعها لو طلق ــ لطف الله ــ فالطلاق بغيض والحياة مع كسيحة بغيضة ، والزواج من ثانية بطلاق الأولى = خمسة عشر جنيهاً × زمن نحن فيه + ما يحكم به القاضى ومن جاوروه – لا أرانا الله أياهم ، والزواج من ثانية بغير طلاق الأولى = عشرة جنيهات فى زمن نحن فيه !!) .

خبط جاد المولى جبهته ثلاث خبطات موجعة فقامت أم شعلان وصنعت له فنجان قهوة آخر شربه وضاحكها فرقدت فعاشرها وضحك فضحكت فظل يضاحكها حتى نامت .

(الأفيون ــ يا أميرى : رعاك الله ــ يشعل النار فى الرأس ويصنع الوهج الحق والوهج الخادع لتلوح الطريق البعيدة قريبة : وجاد المولى شعلان الآن (الذى لا نراه) بليل أسود يمسك بجذع لشجرة سنط سوداء يهزه لتساقط الثمار السوداء المرة فيجمعها بعد ضني من أرض سوداء متشققة ويهرول فى طرقات سوداء حتى يبلغ داره (فنراه تحت لمبة جاز،هى الشيطان بعينه،بألسنه من نار ودخان يطوح بسكاكين مثلومة من ظل وسكاكين من نور) وها هو جاد المولى يرى أم ابنه تحضن شعلان ابنه النائم دوماء،ويرى القطة صاحية بيضاء ويرى الثمر المر بكفيه أسود فيرميه فى حلة ماء ويوقد النار بالحطب والكبريت ويرقب الماء الذى سيصير لمّا يغلى أسود والقطة بيضاء حتى يلونها الماء الأسود ولا فرق بين لحم قطة سوداء وقطة بيضاء ــ لكنه ما وقر فى النفس من زمان بعيد صنع للجدود كل هذه القبور : وبذلك خبرنا الغراب الأسود) .

هو الأفيون ــ ياأميرى ، كذا هى قدرة ابن آدم صاحب الحظ القليل من علم العلام الرحمن على العرش استوى :

قال جاد المولى : ها هو ثمر السنط المر فى الماء .. والماء غلى وصار أسود ...

أدلقُ الماء مغلياً على القطة البيضاء فتدوخ وتصير سوداء .. ثم أهزُّ أم شعلان فتصحو من نوم وترى القطة سوداء فيدخلها اليقين .. وبالقضيب وهو من حديد أضرب القطة وأضرب حتى تصير ضعيفة فأذبحها ــ كما أمر الله .

ذلك ــ سيدى الأمير ــ ما فعله ابن أدم الملقب بجاد المولى شعلان ، كان قد دبر وعرف ما يريد ، فلما فعل فى القطة فعلته فهمت الأعجمية الحيوان ويا للعجب ما يريد ، ربما ــ سيدى الأمير ، عافاك الله ــ لأن الماء كان مغلياً ، خمشته القطة فى ركبته وعضته بعد أن ولولت كما تولول بنت حواء ، فصحت أم شعلان وصحا شعلان من نوم طال : على ولولة أنثى وصرخة ذكر ، وخجل جاد المولى من خوفه وأربعة عيون تراه يواجه قطة تكورت ــ فواجه القطة وضرب ضربة الخائف فخابت وضرب ضربة الذكر فأصاب وضرب ضربة الأب وأصاب وضرب ضربة الكاره وأصاب فضرب وضرب كاتماً صراخها ، بينما القطة،الدم اللحم،تخمش وتصرخ تخمش وتصرخ ، آه يا مولاى حتى ماتت ...

وتلك – أميرى – نهاية حكاية الأعرج والكسيحة .

حكاية بزخارف

كان أبوه يملح اللفت ويلونه بزهر العصفر ويبيعه — تلك أميرى أول ضربة على قفا عباس من دنيا ظالمة بنت كلب والت الضرب بغير رحمة :

طلق أبوه أمه وكان أسمها أسماء بعد أن أنجب منها سبعة ماتوا الواحد بعد الواحد — وبقى عباس ليرى أمه العجوز ممزقة الثوب حافية تجمع وسخ البهائم وتبيع للكل وقود الأفران حتى للكاره ما دامت تبيع ومنا دام يدفع .

وتزوج أبوه من بنت بائعة كرشة اسمها صالحة فكانت شديدة القسوة عليه لأنه مولع بالحرب وفرقعة البمب — بينما البيت حجرة ضيقة وصالة ضيقة .

ومن بائعة الكرشة — التى اسمها صالحة — أنجب أبوه البنت وسماها غالية ، وكانت كأمها مليحة الوجه مدورة البدن حلوة اللسان ، كلامها أثواب من حرير هفهاف مطرز بالترتر الغماز ناعم نعومة بطن حية خداعة تلدغ : لقد رضعت غالية من ثدى أمها اللبن الأسود ، أمّا عباس — يا أميرى — فكان عليه أن يناديها: يا أختى وأن ينادى أمها: يا أمى .

يا لها من حياة دون ، يالتلك الأيام من أيام ، كل يوم بليلة طويلة ونهار

طويل ، وجلد عباس جلد آدمى ، وجلد الآدمى لم يكن فى يوم من الأيام جلد جاموسة بليدة ، كما أن الآدمى لا يملك قوة ثور نطاح حتى يغضب غضبة ثور نطاح ، وأنت عليم بل أنت أعلم الناس يا أميرى أن لكل ليل أسود نهاره الأبيض ولكل النهارات السود لياليها البيض — كذا الصغار أبناء الفقراء يكبرون فيحطمون الزجاجات ويخرجون للدنيا فى الشوارع بملابس الحيوان رجالا يلتقطون الرزق بمناقير الطير : خطافون سفهاء جهلة .. يتجنبون النور الفضاح .. قتلة لا يقتلهم إلا العشق .. غايتهم الفوضى واقلاق المدن الآمنة — لهذا تبغضهم الحكومات وتطاردهم الشرطة .

إلى هؤلاء — اميرى — كان لابد أن ينتمى عباس لما قال لنفسه (الشارع أفضل من البيت ألف مرة) إلا أن عباس اختار — بتوفيق من الله — ثوب الثعلب الذى يموت حين تريد منه أن يموت — بهذا : نال رضا حلوانى فعمل صبى حلوانى ، ولما انتهى أجل الحلوانى مات الحلوانى فبكاه عباس لينال عطف صاحب مقهى كان صديقاً للحلوانى ، وبالمقهى قضى عباس السنوات وتدرج من مرمطون إلى صبى جرسون وعرف العاطل والباطل وصبية الورش والمخبر وشارب الكحول وباعة الصحف والصاحب الذى يشتم صاحبه من خلف ظهره وهذا الذى لو غضب لحطم الكراسى وقلب الطاولات .

من هنا — سيدى الأمير — من مقهى ببابين كل باب يطل على حارة صار لعباس ثلاثة أثواب : ثوب ثعلب ماكر وثوب قرد وثوب قط له سبعة أرواح ، يخلع هذا الثوب ليلبس هذا الثوب أو ذلك حتى جاء يوم ووقفت — هناك بالشارع — عربة بحجم مركب وعلى شاكلة أوزة ، وهبط منها رجل بملبس حسن يخطر كأنه يمشى فوق ماء ودخل حارة أفضت به إلى حارة إلى أن بلغ المقهى وقد أدركه تعب فجلس وطلب كوب ينسون رغبة منه فى ملاطفة الروح الشعبية . جاء عباس ورحب واختفى يزعق وأقبل ينقر على الصينية بالملعقة نقرات لو سمعتها راقصة طلقت الرقص لعادت للرقص غير أسفانة . قال الرجل المبتهج وكان غنياً لعباس « اترك المقهى وتعالى معى » ، وصرخ عباس: أنا ؟

ذلك ما حدث — يا أميرى — ولك أن تعجب ، لكنها دنيا بنت هوى تدير ظهرها لسنين، ثم تقبل بوجه ضاحك وجيد مثقل بالأجراس .

هناك ببيت الغنى تعلم عباس حروف الهجاء الثمانى والعشرين ــ هكذا سريعاً ــ لينظم من الحروف العقود من خرز يلونه ليزين عنق ومعصمى ولى نعمته الذى علمه كيف يمسك السكينة بيمينه والشوكة بيسراه . هذا بينما الغنى، بحق يتناول إفطاره وغداه وعشاه بصحبة عباس بالنادى : لحوم مقلية ولحوم مشوية .. بط وديوك رومية وسمك ودجاج وفاكهة أيضاً ونبيذ ، وما بين الغداء والعشاء من وقت يقضيانه معا ــ الغنى وعباس ــ بحمام السباحة مع العراة من الرجال والأولاد والنسوة والشابات . ما مر شهران ــ يا أميرى ــ حتى تحول عباس إلى شخص يجهله كل من عرفه : طبع رقيق .. وأصابع رقت ما شاء الله وصار لها ملمس الحرير .. بروح شفافة تعشق كل فتاة بشعر مبلول .. وولع لاحدَّ له بالتصاوير والرسوم والموسيقا وغناء المغنيين ولسينما بحدائق الشرق تعرض الأفلام بلون وصوت .

هنا « يا أميرى » دعنى أحكى لك فيلم شافه عباس تسع مرات وأعجب به الإعجاب كله : ناس عراة يلبسون الريش يسكنون غابة ويقتلون الناس بنبال مسمومة لأنهم لا يسكنون معهم فى الغابة (فجأة) يأتى ناس يلبسون الملابس ويركبون الخيل ويحملون البنادق ويطلقون الرصاص من بنادقهم على العراة ليموتوا جميعاً ــ إلا كبيرهم صاحب الريش الكثير الذى راوغ الرصاص ونط (فجأة) فوق ظهر حصان أسرع من موتوسيكل وأسرع من نعامة . وها هو الوغد (فجأة) يخطف الفتاة الرحيمة التى عالجت جروح الرجال من النبال المسمومة وطبعت على خد كل منهم قبلة ــ ما عدا الفتى الوسيم فقد أعطته فمها ليشرب منه ماء الحياة لأن جرحه كان قتالا ، وها هو الوسيم يطارد بحصانه لابس الريش الكثير ــ ليرد الفضل لصاحبة الفضل،ولكن ما كاد الوسيم يلحق بالوغد حتى سقط حصانه (فجأة) فى حفرة ماكرة ذات عين كبيرة سوداء ، وهاهو الوغد يسوق الفتاة كما لو كانت معزة ، لايدرى عباس ان كان الوغد سيذبحها أم سيحلبها ــ إلا أن عباس صرخ فى الوسيم «هنا» وأشار عباس إلى كتف يختفى خلف مزق الثوب الطويل (فجأة) لنرى كل العيون الراغبة فى الوغد : شجرة انفلقت ــ بعد أن شبت فيها النار الحمراء ــ إلى ساقين من جمر ، وصرخ عباس فى الوسيم « اسرع » وصرخ فى الفتاة « قاومى » فأمسكت هى ببلطة وتقدم الوغد وواجه الكل بعينى مارد مخيف فقالوا « لا دخل لنا » ، ولكن الفتاة رمز المقاومة لا تزال تمسك بالبلطة : عارية الفخذين ــ ولا ملامة عليها ، (فجأة) دخل الوسيم الشجاع وقتل الوغد ــ حتى لا تصير الجميلة قاتلة .

وانتهى الفيلم — يا أميرى — بقبلة طويلة تحبب الإنسان منا فى الأفلام وتجعل كل صناع الأفلام ، أبناء زماننا ينهون أفلاهم بالقبل التى تحببنا فى الأفلام ، بعد هذا الفيلم — وهذا ما جعلنى أحكى لك « يا اميرى » حكاية هذا الفيلم : أتقن عباس الحاذق صناعة الكلام ففتل من الكلمات حبالا تصلح لشنق آدمى وربط دابة وتقييد وحش وإغلاق طريق — كما أفلح فى كتابة حكاية مشوقة عن رجال يعاركون الحيوان المفترس ويهزمونه ويصنعون من جلده النعال التى يلبسونها ، ذلك ما كان ، بينما — أنا — سيدى الأمير — نسيت إخبارك بخبر الرجل الغنى الذى يسكن بيتاً من أربعة طوابق بكل طابق أربع شرفات ، وكان بالبيت حديقة بها شجر لا يثمر وأشجار ورد مزهرة تنشر العطر ، وكان الرجل الغنى يحب مثله فى عفة جعلته يلبس قناعاً : لا يمس أحداً ولا يدع أحداً يمسّه — فقط يحب ويذبل كما تفعل زهرة النرجس المحبة لنفسها وللماء . تلك كانت حاله مع عباس حتى أدركه وأدرك عباس اليوم الذى تحكى من أجله الحكايات وتنشد الأناشيد ويجن من يجن من بنى الإنسان :

كانت بالطابق الرابع للعمارة المقابلة ورآها عباس وقال « يا أيها النور » ، فأغلقت هى باب الشرفة وغابت ، وأشرقت فى اليوم الثانى وكان يوم ثلاثاء فقال عباس « يا أيها النور » ومضت وهى غاضبة ولم تغلق باب الشرفة واحتجبت يوم الأربعاء لتطل يوم الخميس وبدت كما لو كانت غاضبة ، ولما هم عباس بفتح فمه أدارت ظهرها وتكرر هذا منه ومنها ، وفى اليوم الذى يستريح فيه المسيحى أطلت بوجه هو الأزاهير ومررت كفها على شفتيها ونثرت فى الهواء زهرتين شم ريحهما عباس فداخ وأفاق وطالبها بلقاء عاجل فى النادى فهزت رأسها رافضة ورمت على جبينها من شعرها خصلة ، وقال عباس الملهوف « بسينما حدائق الشرق » — فرمت هى رأسها إلى الخلف رافضة وأعادت خصلة الشعر إلى مكانها ، وفتح عباس فمه وأغلقه ولما حركت يدها وأشارت إلى حديقة بيتهم ورسمت الشجر ورسمت الغروب .

أخ ، ليت اللقاء ما تم تحت الشجر الذى يشتعل بالنور إذا ما داهم الغروب بيوت السادة ...

أخ ، يا أميرى ، كان الرجل سيدا وكان فاضلا وكان كهلا احتاط لحماية عرض زوجته الخامسة الحلوة من طيش يتملك نفس كل شابة حلوة ومن ضعف

قديم فى طبيعة الأنثى ومن أحابيل السفهاء مثل عباس : سوّر البيت وحصنه بالحديد والسلك والشجر والأجراس والكلاب السود والطهاة السود والخدم السود ...

وكان عند السيد الكهل « يا أميرى » عصا من العاج يهش بها وبها يجلد — تجعل كل من يراه يخافه فيحترمه ويفسح له الطريق إن كان ماشياً يتريض أو راكباً عربته التى يسوقها سائق بسوط ، هكذا « يا أميرى » بات من المقدر لعباس أن يقع صيداً : يتوجع ويستنجد بالله فى السماء وبرحماء الناس على الأرض ، حتى قيض الله له ذلك الشرطى فجره للمخفر سارقاً لا عاشقاً ، وخرج من المخفر إلى مستشفى يصحبه شرطى فقد ثبت أنه السارق لا العاشق ، ولما طابت جروحه وجد نفسه حيواناً فى قفص من حديد ورجل هناك خارج القفص — لا يعرفه — يسبه لرجال جادين بوجوه صارمة لبسوا الأسود كالقسس يسمعون من فوق منصة عالية فيهزون أدمغتهم ويهمهمون وكبيرهم أمسك بمطرقة،قرع بها لما تجاوز الرجل الذى يسب عباس فسب أم عباس والحلوانى وصاحب المقهى ، أحنى الرجل الشتام رأسه وقال إنهم — أم عباس والحلوانى وصاحب المقهى — زرعوا بذرة الشر السوداء فى نفس عباس .. فلما مد له السيد الكريم يده الكريمة عضها عباس فأدماها ودمر حياة صاحبها الغنى الخير الذى أصيب الآن بصدمة قد تجعله — وقد كان عباس بالنسبة له بمثابة الابن — مطيعاً لأوامر الطب حتى نهاية عمره : يشرب اللبن الساخن مخلوطا بالويسكى وحب الحبهان .. مطلقاً هو الغنى كل طيبات الدنيا الزاهرة كما يعلم سيدى القاضى وسادتى القضاة الأفاضل .

ومن عجب— مولاى الأمير — أن الرجل الشتام قص أدق التفاصيل فى حياة عباس بما يدلل على نفوذه وسعة اطلاعه فى الكتب والملفات السرية الكثيرة التى دونت فيها سيرة عباس وغير عباس من بنى الإنسان .

وبعد « أميرى » وقد بلغتك سيرة الكل — ها أنا أنهى على الباقى من سيرة عباس (حمته سنه الصغيرة من عقوبة السجن فهو بعد حدث — كما قال القاضى : رغم ما شاف لا يفقه من أمور الدنيا قدر خردلة .. ليوكل شأنه إذن لإصلاحية تربّيهُ وتهذب روحه وتعيد خلق الإنسان فيه من جديد . تمالك عباس نفسه فلم يصرخ ، سمع الحكم الظالم الصادر من ناس لا يعرفهم بإيعاز من رجل شتام لا ريب مأجور من زوج المحبوبة الجميلة التى لن ينساها عباس — فالحب لا

يموت هكذا سريعاً .. كما أن مقادير الناس لا شك ليست بأيديهم فها أنت يا عباس الرجل تُعامَل معاملة طفل لتصير حياتك المقبلة بالإصلاحية بأيدى بشر فى الغالب الأعم كالكل قساة لا يرحمون ، وبفرض أنهم رحماء فلا نبيذ عندهم ولا لحم ولا تصاوير ولا موسيقا ولا شرفات ولا حمام ساخن ولا سينما حدائق الشرق تلك التى تعرض الأفلام بلون وصوت .

نعم ـــ لا أنت ولا حتى أنا كنت أتوقع تلك النهاية الظالمة لعباس يا أميرى.

حكاية ميلودرامية

البيت

بمدينة الفسطاط ، من طابقين من حجر أبيض ، بكل طابق أربع حجرات مرتفعة السقف ، الطابق العلوى للمعيشة ، وبالطابق السفلى : حجرة الزاد وحجرة الغلة وحجرة الراحة وحجرة الواجب ـــ وتلك حجرة منفية عن سائر الحجرات وقريبة من المرحاض والحمام وقد أعدت لاستقبال الضيف الرجل .

وهو بيت من بيوت أشراف ذلك الزمان البعيد ، فى زمن لاحق ملكت مفتاحه ـــ بحق المصاهرة ـــ سيدة تركية ، وقد آل بعد موتها إلى ورثة سفهاء ـــ باعوه لما اختلفوا فى أمر إصلاح درجه الخشبى الذى يوصل الصاعد من الطابق الأول إلى الطابق الثانى .

بابه الكبير من خشب الأثل ، يغلق من الخارج بسلسلة متينة الحلقات يطبق على طرفيها قفل كبير ، ويغلق من الداخل بمتراس ، فإذا ما جاء القادم طرق الباب بكف من حديد قابضة على خوخة من حديد مثبتة هناك فوق الباب ـــ ووقف ينتظر ، ومن فرجة بصدر الباب تطل عيون أهل الدار ـــ حتى يستبينوا العدو من الصديق .

كواء الطرابيش :

مالك البيت الجديد ، قبطى مؤمن ، اختار الحياة بمصر العتيقة ــ بالقرب من بابليون الدير والحصن والرمز والذكرى الحية ، وحوّل حجرة الضيف إلى دكانه ، وعاش بالدور السفلى مع أمه العجوز ، ولما ماتت أمه لم يطق حياة الوحدة فى البيت الكبير ــ فأصلح السلم ، وتزوج من قبطية شابة عاش معها بالطابق العلوى حياة سعيدة ــ وكانت أما لابنه جرجس .

جرجس ولعبة الزمان :

ورث البيت عن أبيه وورث الحرفة ، لكن يد الزمان المخاتل امتدت ورفعت الطربوش عن رأس المسالم وباركت المتزلف ودقت عنق لابس الطربوش (المكابر والعنيد والمتمسك بعهد ولّى وفات) ، وها هو جرجس يميل على قميص نوم السيدة المخرم وفستان البنت القصير وقميص رجل البيت العارى الرأس (دنيا غرور كاذبة .. مثل السواقى النادبة)

مرقص مواطن صالح :

مرقص ابن جرجس والد حنا ــ جمع الأحياء من أهله وخطب فيهم ليقنعهم ببيع الدكانة وكذا حجرات الطابق الأرضى ، وقال : أنتم أبناء وأحفاد كواء الطرابيش . أرغمكم الزمان العاتى على الرضوخ لحكمه .. قولوا معى الحمد لك فى ملكوتك أيها الرب الممتحن فتلك مشيئتك .. خلقت حنا ابننا وحامل اسم أسرتنا لا يحسن العدو ولا يفرق بين التمرة والجمرة .. ولولا عيون المحبة الحارسة ــ نحن أهله ــ لهام على وجهه وتاه فى زحام الشوارع .. وها أنا اليوم بينكم العجوز المحنى الظهر الذى لا طاقة له على العمل .. لكن لا تتركوا اليأس يتمكن من نفوسكم المؤمنة .. واعلموا أن ابننا حنا يصلح للزواج .. وعلينا نحن أبناء وأحفاد كواء الطرابيش أن نساعده وننتظر عطاء الرب .. والآن : هلموا يا أبناء الرب وكلوا من طيبات ما أحضرت (شرائح لحم الخنزير ولحم الضأن وفاكهة الصيف وشراب العنب والروم والبراندى والشموع لتمثال العذراء) .

محمد كمبل الأول :

مالك الطابق الارضى ، السيد الجديد ، بدين ببطن وقلب من البلاستيك ، بعين من زجاج وعين ضيقة مزرورة .. يداريهما بنظارة سوداء كبيرة ، يملك بيتاً بباب الشعرية تعيش فيه أم أولاده زبدة مع أهلها وأهله ، وله شقة بشارع سليمان

باشا الفرنساوى ــ يحيا فيها مع خليلته الراقصة الكتوم التى عاونته بإخلاص فى أعماله « ببيروت » قبل نشوب الحرب الأهلية ، له فى البنوك البعيدة مال جامد وله فى أسواق البلاد مال يتحرك ، بماله حول دكانة الكواء إلى بوتيك ميامى ــ حبس الضوء فى أقفاص من زجاج سبحت فى مائه الملون ثياب الأنثى الداخلية وزجاجات عطرها وعلب زينتها وآلات كى شعرها الكهربائية وكذا سيجارتها الأمريكية المفضلة « كنت » ذات النكهة الفخرة .

وكيل الأعمال :

صباح يوم افتتاح بوتيك ميامى ــ جاء العمال ورشوا الرمل أمام البوتيك ــ وصفّوا أكاليل الورد وعلقوا الصورة وقد كتب تحتها بخط كبير (كبير العائلة بطل يوليو ومايو .وأكتوبر وكل شهور السنة) .

وفى غروب يوم افتتاح بوتيك ميامى هبط محمد كمبل الثانى من عربة أمريكية سوداء وتقدم ــ تحيط به عصبة من صحبه وأتباعه الأشداء ــ وأمسك بالمقص وقص الشريط ، بينما المسجل يصدح بالأغنية التى يفضلها محمد كميل الأول (الطشت قال لى قومى استحمى يا بنت يا ..)

وفى صباح اليوم التالى لافتتاح بوتيك ميامى ــ نشرت الصحف الصباحية الثلاث صورة لمحمد كميل الثانى وهو يضحك وقد أحاط به جمع يضحك كما نشرت إعلانا عن بوتيك ميامى ــ هذا نصه : محمد كمبل اخوان يبشر المواطنين بمصر القديمة وينقل أعماله من بيروت ويخطو أول خطوة له مع بداية عصر الانفتاح على طريق العلم والإيمان .

الإصبع الثالثة :

لمّ محمد كمبل الصغير الملقب بالإصبع الثالثة حبات مسبحته الملونة ودسها فى جيبه ، وأخرج منديله ففاح عطر فرنسى وتمخط وفرك راحتيه وأخذ سمت محمد كمبل الأول ــ وقال للرجال الواقفين بجوار الشاحنتين : افرغوا الحمولة وأدخلوها المخازن ــ وأشار بإصبعه إلى الطابق الأرضى للبيت .

العشاء الأخير والأحد الأخير :

مذ رأى حنا المال وجل اهتمامه بهذا الورق الملون والصور المطبوعة عليه ، أكل

مع أهله وشرب بفكر شارد ــ فلم يفرط كما أفرطوا ، وسأل حنا حنا : كيف أحصل على الصرة المدسوسة فوق الدولاب دون أن يرونى ؟ ورد حنا على حنا ــ بعد عناء : لما يناموا ، وشعر حنا بضيق فقام وقعد وقام وقعد ــ وقال : ليتهم ينامون، وكلما سمع ضحكات أهله وصوت سعالهم وصوت مضغهم ورشفهم ــ أحس بأنه يعانى عناء يفوق احتماله،فطلب من العذراء أم المسيح أن تساعده . هذا بينما أهله يأكلون ويشربون ويأكلون ويشربون بشعور المحروم الراغب فى شبع مقيم وشراب مقيم ، حتى أتت عربة الإسعاف الحكومية وحملتهم نصف موتى يمسكون ببطونهم المنفوخة ــ إلى المستشفى الحكومى حيث ماتوا .

حنا آخر الأحياء :

داس على الزجاجات الفارغة والمليئة وداس على قراطيس المانجو وحبات الكمثرى المبعثرة وطلع فوق كرسى ــ وهكذا وجد نفسه فوق الدولاب : ففك الصرة وأخرج المال وحشا به جيوب سرواله ، وكان حريصاً ــ فلم تقع عليه عين تمثال العذراء .

بعد ما عبر حنا الكوبرى ــ قصد السينما التى كثيرا ما حام حول إعلانها الكبير المعلق وكان لنسوة عاريات يهربن ضاحكات من موجة البحر الساخط .

وكما جاء حنا ووقف يتطلع ، جاء رجال الشرطة أيضاً بعربة الشرطة ــ ووقفوا يتطلعون ، وما أن وقعت عين المخبر السرى على حنا حتى ظنه لرداءة ثوبه واضطراب حاله ــ من الصبية المتسولة .

وهناك فى مكمن الشرطة قلبوا جيوب حنا وأخذوا المال غصباً ودسوه فى خزينة الحكومة وأغلقوها بمفتاحين ، أما حنا فرموه دامع العينين ليبيت ليلتين مع الفاجر والسارق والمخنث وشارب الكحول والمتباهى بذكورته والشمام ومدمن الإبرة ــ فى حجرة ضيقة معتمة رطبة بشقوقها يسكن القمل والنمل والبق البرغوث والوطواط ، ثم ساقوه دامع العينين وتلك نهاية أمره ــ إلى دار رعاية وإصلاح حكومية ــ ستعلمه الحرفة وحسن التعامل مع مجتمعه الإنسانى .

قفص لكل الطيور

١ - وحيداً فى بيتى :

دق بابى — ففتحت ، وعجبت أن يكون الطارق جارى الحريص على وحدته ، فصحت : من .. ؟ وحيد !! وقال هو — دون أن يرد السلام : لا تستغرب زيارتى .. فبينما أنا أفتش وأقلب فى نفسى كعادتى — اكتشفت أنى لم أضحك منذ زمان .. ولما حاولت وفشلت — شعرت بخوف من نفسى . قلت : سلمت يا جارى من كل سوء .. لكن ما تقوله هو الخطر بعينه .. هيا بنا إلى حكيم من زماننا يقال له عبد البصير..

٢ - إلى عبد البصير :

قابلنا عبد البصير بوجه عبوس ، وقال لوحيد : طبُّك عندى .. لكنى اليوم فى أسوأ حال .. فالضرير زوج الخرساء أُختى — والدنيا عليمة بمدى حبى لها — محبوس، وصباح الأحد تجرى محاكمته . فصحت أنا : ولم الخوف يا عبد البصير — والأستاذ فصيح بيننا ونحن أبرياء ؟

صرخ عبد البصير : بالله عليك لاتذكر اسم زفت الطين هذا أمامى .. لقد طلبت منه أن يترافع ويدفع التهمة عن زوج الخرساء أختى — فطلب منى زجاجة

كينا .. ومن أين لى أنا والفقراء أمثالى بثمن زجاجة الكينا ؟ قلت : حياتى فداك يا عبد البصير .. لا تشغل بالك .. أنا لها .. عالج جارى وبمشيئة الرحمن ستصلك اليوم زجاجة الكينا . قال : لما تحضر زجاجة الكينا سأعالج صاحبك .. فعاتبته : ألا تثق بى يا عبد البصير ؟. قال مستنكراً : معاذ الله .. كيف لا أثق بك .. لكننى أحسب الحساب .. ماذا يقول الجار عنى حين يسمع جلجلة الضحكات فى بيتى — بينما زوج أختى المنكوبة داخل قفص من حديد ينتظر أفظع مصير ! قلت — وقد طاب خاطرى : صدقت يا عبد البصير ، وقلت لوحيد : تعال معى يا وحيد لنحضر زجاجة الكينا .

٣ – من أجل زجاجة كينا :

دخلنا دكانة الصيدلى ، وقلت أنا للصيدلى : هات زجاجة كينا ، فلما جاء بها أخذتها منه وناولتها لوحيد ، وسألت الصيدلى : كم ثمنها ؟ . قال الريال لا ينقص مليماً . فلطمت : أفقأ الدمل بريال ؟ قال : وما علاقة الكينا بالدمل ؟ . قلت : بجسمى دمل عمره يوم .. وقد نصحنى صاحب بشرب زجاجة كينا ، وسألنى الصيدلى : وهل صاحبك عليم بالطب ؟ . قلت : لا .. صاحبى يبيع العرقسوس .. ولكن ألا تصلح الكينا لفقء دمل ؟ . قال الصيدلى : لا تخرف .. الدبوس والمرهم يصلحان . فصرخت : انجدنى بربك ، وسارعت بخلع ثوبى وقلت : هنا — وأشرت إلى فخذى ، وغمزت لوحيد — فهرب بزجاجة الكينا . ولما زعق الصيدلى زعقت أنا — فالتمّ الناس . وقال الصيدلى للناس : يا ناس .. هرب السارق وهذا شريكه . وقلت أنا : اخرس يا مأبون .. لماذا طلبت منى أن أخلع ثوبى ؟ . قال : لأرى الدمل . قلت وأين الدمل ؟ . قال بفخذك .

فصرخت فيه . يا كاذب .. يا مفترى ، وكشفت للناس الفخذين ، وقلت : انظروا يا ناس .. بالله عليكم هل رأيتم الدمل .. أم رأيتم اليمانى !؟ .

وندبت : قلت للماكر « برأسى صداع » فقال لى أنا الذى لا علم له بالطب « اخلع ثوبك » ... ولما همّ صرخت لأجمعكم — لتشهدوا معى ما صار اليه حال نفر من ناس هذا الزمان ، قلت قولى هذا — ورأيت أحدهم يخلع نعل الصيدلى ويهوى به على رأس الصيدلى ، كما بصق آخر على وجه الصيدلى ، أما أنا فمضيت إلى بيت عبد البصير لألحق بوحيد .

٤ – الضحك يميت القلب :

قال عبد البصير : لو وقع الرجل ـــ فما موقفك منه يا وحيد ؟ . رد وحيد : أعاونه على النهوض .

قال عبد البصير : ولو كسرت ساقه أو ذراعه ؟ . أجاب وحيد : أصنع له الجبيرة . قال عبد البصير : ولو دقت عنقه ؟ قال وحيد : أترحم عليه .. وأحفر الحفرة وأستر عورته وأواريه . فسأله عبد البصير : هل كان بإمكانك أن تضحك على الرجل فى أى صورة ؟ . قال وحيد : حاشا لله .. كيف أضحك على من يصيبه عطب ؟ . قال عبد البصير : مرحى مرحى ذلك شأن الأصحاء يا وحيد .. ابصق فى عِبّك يا حبة فى عقد من لؤلؤ نضير ، وقال عبد البصير : بنا إلى الأستاذ فصيح . حاول وحيد التملص وقال : ما دمت بعافية وخالياً من المرض ـــ فسأعود إلى وحدتى . فلامه عبد البصير . وقبض على يده بود : يارجل .. أنت من اليوم الفرد فى الجماعة .. هيا ولا تتلكأ ـــ فالخير فى الجماعة .

٥ – مع الأستاذ فصيح فى بيته :

صرخ فينا : لا تدقوا بابى هكذا .. كذا الوقت ليل .

قلنا : للضرورة أحكام يا أستاذ فصيح ..

قال : للنهار عيون .

قلنا : معنا زجاجة كينا .

عاتبنا بلطف : أبواب بيوت الفقراء التى نخرها السوس لا تدق هكذا يا صحاب ..

وفتح الباب ، وخطف منا زجاجة الكينا ، واعتذر عن العتمة ـــ لما رآنا نتعثر ، وقال ، بسراجى زيت قليل أحتفظ به لليلة سوداء ، وفتح طاقة دخل منها نور القمر ، وقعد فى ركن يجرع من فم الزجاجة ، ويشد بأسنانه جلدة تفرقع كلما أخلاها ...

وسأل : ما قضيتكم ؟

قال عبد البصير : الضرير زوج أختى الخرساء ـــ لما أتاه غلام صاحب القلعة ـــ ذهب إلى الحداد والنجار وصانع الأقفاص من جريد النخيل .... وقال

لهم « تنافسوا فى صنع قفص لكل الطيور ــ فى زمن مقداره سنة .. والغالب منكم سيحصل على ألف قطعة من النحاس .. وصاحب القلعة سيهبط بنفسه ليمنح المال ويكلل المنتصر » ... ولما مرت السنة ــ وكانوا قد فرغوا من صنع الأقفاص وبأنتظار هبوط صاحب القلعة الذى لم يهبط ــ ذهبوا إلى القاضى ورفعوا صوتهم بالشكوى فما كان من القاضى إلا أن أمر بالقبض على الضرير زوج الخرساء أختى بنت أمى وأبى .

قال الأستاذ فصيح : لا تقلق يا هذا .. سأنام بعد جرعتين .. وحين يصيح ديك الفجر أيقظنى لأشرب ما بقى من الزجاجة .. ثم أمضى معك لأحصل للضرير على البراءة

يوم الحساب :

دخل القضاة المقنعون ــ فوقفنا .وقعدوا على الكراسى ــ تحت السيف الذى يصارع السيف ــ فقعدنا على الأرض . القاعد بالوسط له وجه الأسد ملك الوحوش ، والذى عن يمينه له وجه النمر الوثاب ، أما الذى عن يساره فكان بوجه الثعلب الواسع الحيلة .

ملت على أذنى وحيد وهمست : لقد تاه الضرير فى الغابة وعما قليل سنرى لحمه فى فم الحيوان المفترس .. وهذا الفصيح ضل طريقه وضللنا معه بعد ما خدعنا وشرب زجاجة الكينا بمفرده .

قال وحيد : كنت أفضل أن أبقى فى بيتى ..

القضية شرم برم :

كشر القضاة الثلاثة فى الضرير المحبوس داخل القفص ــ وزام الأسد : لم غررت بالحداد والنجار وصانع الأقفاص من جريد النخيل ؟ . رد الضرير : لا .. كنت رسولا لصاحب القلعة .. زام الأسد : وهل قابلك صاحب القلعة ؟ . رد الضرير : لا .. ما من أحد قابل صاحب القلعة .. لكن غلامه جاء إلى خُصّىَ وأمرنى أن أبلغ قول صاحب القلعة للحداد والنجار وصانع الأقفاص من جريد النخيل . كشر النمر : لكنك بغير عينين فكيف رأيت الغلام ؟ قال الضرير : زوجتى هى التى رأت .. أما أنا فسمعت . زام الأسد : زوجتك رأت .. أما

أنت فلا .. كيف تقطع إذن بان الرسول هو غلام صاحب القلعة ؟ . قال الضرير : زوجتى وصفت لى صورته . زام الأسد : كيف تصف لك صورته وهى خرساء ؟ . قال الضرير : خرساء نعم .. لكنها تفهمنى وأفهمها . أنا وهى فى المسرة والضراء شريكان نقتسم الكسرة . كشر الذئب : وما هى أوصاف غلام صاحب القلعة ؟ . أجاب الضرير : صبوح الوجه أمرد .. على خده شامة .. جيده المطوق بعقد من لؤلؤ كأنه جيد يمامه .. بمعصمه سوار من نقى الفضة .. وعلى بدنه قميص من حرير أبيض .. والقرط الذهبى يتدلى من أذنه اليسرى .. والكتاب بيمينه .

فعوى الثعلب : تلك العلامات الكل يعرفها عن غلام صاحب القلعة .. والخرساء شريكة للضرير فى التهمة ومكانها داخل القفص لا خارجه .

قبض الحراس على الخرساء المعلقة البصر بالسماء وأدخولها قفص الحديد . وجعر عبد البصير : واأختاه . فهب الأستاذ فصيح وشخط فيه : اخرس انت ، وكح وخاطب القضاة (بعد السلام عليكم .. الرحمة نطلبها منكم — يا ظل صاحب القلعة على الأرض .. ونحتمى بكم من قيظ هذا اليوم ... يقول الفقير الأريب : ما من مخلوق على الأرض التى نعرفها يجسر فيدعى كذبا أن غلام صاحب القلعة قد أتاه .. كما أنه ما من مخلوق ممن نعرفهم يجسر ويتنكر فى ثوب غلام صاحب القلعة .. ذاك يقينى .. فصاحب القلعة قوى مهاب طويل اليد شديد العقاب ... باطش لو أصاب وكلنا تحت القلعة — قضاة ورعية — الضعاف المنخورون المرتعدون من برودة الخشية التى نحن فيها منقوعون .. أليس كذلك ؟ هذا سؤالى الذى أطلب جوابه فورا — من القضاة ومن الحضور ومن الحداد والنجار وصانع الأقفاص من جريد النخيل ؟ .

قال القضاة : نعم .. الأمر كذلك .. وكلنا كذلك .. ولا أحد يجسر ..

وقلنا نحن الحضور : نعم .. لا أحد يجسر .. ونحن كذلك ... وكلنا كذلك .. نحن الرعية من برد الخشية نرتجف

وقال صانع الأقفاص من جريد النخيل والحداد والنجار :
نعم ... نحن كذلك .. من ذا الذى يجسر ..

وسألنا الأستاذ فصيح : والذى يجسر ؟
فهتفنا خلف القضاة : مجنون أو أخرق ..

قال الأستاذ فصيح : ما دام الأمر كذلك .. فالضرير والخرساء لم يكذبا لأنهما كالكل لا يجسران ... وبفرض أن ما زعماه كذبا ـــ فهما ينتسبان إلى الجنون والخرق ـــ وهذا يدفع عنهما التهمة ويحيلهما إلى المورستان أو إلى دار الإصلاح ...

زأر الأسد : دعونا نتشاور .. وساد فى صفوفنا هرج ومرج . وهب عبد البصير ـــ وجعر : واأختاه .. هل سيأخذونك إلى الخانكة أم سيأخذونك إلى دار إصلاح ؟

٨ - الأستاذ فصيح يستمر فى مرافعته :

زأر الأسد : محكمتنا ليس من اختصاصها محاكمة المجانين أو الخرق .. لذا يحال المتهم والمتهمة إلى المورستان أو إلى دار الاصلاح فهذا من اختصاصهما .

قال الاستاذ فصيح : لا يا رمز القوة .. الضرير والخرساء صادقان فى قولهما (ويتمتعان بعقل كامل) فصاحب القلعة ـــ الذى يريد قفصا لكل الطيور ـــ كلم غلامه .. وقد جاء الغلام للضرير والخرساء وكلمهما .. وذهب الضرير بدوره وبشر النجار والحداد وصانع الأقفاص من جريد النخيل ـــ بالجائزة التى رصدها صاحب القلعة لمن يصنع القفص لكل الطيور ... وفات العام ولم يهبط صاحب القلعة ليسلم أيا من الصناع الثلاثة الجائزة ـــ فجاء الطامعون فى مال صاحب القلعة واتهموا الضرير بالكذب .. ولكنهم لو سألوا أنفسهم هذا السؤال الواقعى : لم لم يهبط صاحب القلعة كما وعد ؟ ...

لو أنهم سألوا أنفسهم كما سألت أنا نفسى لأتاهم الجواب كما أتانى .... (ما من أحد حقق الشرط ... ما من قفص مهما كبر حجمه يكفى لحبس كل الطيور) .... ياه ـــ قفص لكل الطيور ؟ ... يا لكم من سذج طامعين فى مال صاحب القلعة ... ها ها .. لعلمكم ـــ يا من سقطتم فى أول اختبار ـــ هناك طيور الجهات وطيور البحر وطيور النهر وطيور الحقل .. وهناك طيور تسكن البيوت وطيور بَنَتْ عشها فى السحاب .... وهناك طيور تبيض ولا تطير .. ومن

الطيور الجارح والأليف والمغرد .. وبعد ، لقد ضيعتم وقت المحكمة الغالى وافتريتم على الأبرياء .

٩ - الجزاء من جنس العمل :

دوت أكفنا بالتصفيق لمرافعة الأستاذ فصيح البليغة . وانشغل القضاة بالتشاور مع بعضهم . وصرخ النجار فى الأستاذ فصيح : خربت بيتى الله يخرب بيتك . وقال صانع الأقفاص : انجدنى يا أستاذ من كرب أوقعتنى أنت فيه . وقال الحداد : لو تعرضت لمكروه يا أستاذ فصيح فستدافع عنى يا حجة أهل زمانك . وقال الأستاذ فصيح : الخراب والمكروه والكرب واقع واقع .. لا تجزعوا .. سأدافع عنكم وسأحصل على أتعابى بطريقتى .. سآخذ الأقفاص الثلاثة .. وسأستخدمها بالطريقة التى تحلو لى : السرير من حديد لأنام عليه .. والطاولة من جريد النخيل .. وما الدولاب إلا من عند النجار .. لكن النجار الصفيق أهاننى .. وها أنا أطالب بزجاجة كينا طولها شبران وسعتها لتران ...

١٠ - الختام مسك وعنبر :

زأر الأسد : الضرير برىء والخرساء بريئة .. والنجار والحداد وصانع الأقفاص من جريد النخيل مدانون ويستحقون الحبس .

قال الأستاذ فصيح : حضرات القضاة ...

فكشر الذئب — وعوى .. ماذا تريد يا بومة ؟ .. خذ الضرير والخرساء واغرب عن وجهنا قبل أن نخلط لحمك بعظمك ...

انحنى الأستاذ فصيح — وقال : حتى تكتمل بهجة المحكمة وبهجتنا — أأمروا المحابيس بخلع ملابسهم .

مد الثعلب لسانه — وعوى : لك ذلك ..

بكى المحابيس — وقالوا : يا ويلنا ها نحن عراة ، وقالوا للأستاذ فصيح : ألم تعدنا — ووعدناك ؟

وكلم الأستاذ فصيح القضاة : ها هم أمامكم يا أفاضل جلد على عظم .. وان كان ثمة لحم — فهو مر لا يؤكل ... ومن كان هذا بدنه — فدماغه فارغة من المخ .. وأنتم يارمز القوة لاشك زاهدون فى تلك الأبدان المرة والأدمغة الفارغة .

هكذا تكلم الفران
٣ أحلام وحكمة و٣ أفعال

قلب لى الزمان وجهه وأدار ظهره ـــ فعز النوم ، وكنت من المؤمنين بقول الحكيم القديم : سافر ففى الأسفار سبع فوائد ـــ هكذا يا أميرى استعرت دابة جارى الطيب ، وقصدت صاحبى الميسور الحال الملقب بابن خلف ـــ المقيم ببلدة العين من أعمال محلة صروف ، وهناك شكوت للصاحب من الفقر وعدم النوم ولعنت الزمان . فخبط ابن خلف على فخده لين المال فى جيوبه وضحك ، وقال : لا عليك من الفقر فهو مرض منتشر .. أما الأرق فميسور علاجه . قلت : كيف ؟ . قال : اصبر .. والله مع الصابرين يا صاحبى ، ونادى غلامه وأمره بإحضار الفران زوج أم أسماء . وبعد ساعة من الزمان ـــ عاد الغلام ومعه زوج أم أسماء الفران . فلما نظرت اليه ووجدته : ضامر العود .. فاحم اللون .. ربعة .. بحاجب مجروح .. على بدنه قميص كله ثقوب من حروق .. وقد تلفع بخرق كعادة أبناء الحرفة ، قلت فى نفسى : سبحانك ربى .. تبوح بسرك لأضعف خلقك .

كلمه ابن خلف : ما تريده من ألوان الطعام .. سنأمر لك به يا فران .. ولنا شرط .

رد الفران : فول بزيت وفول بسمن وفول بطماطم ـــ ذاك مطلبى .. وهات شرطك .

قال ابن خلف : لك عليَّ هذا .. وهاك شرطى .. ستقص على ضيفى من تخاريف نومك ويقظتك حتى ينام .. ولن أسمح لك بدخول الحمام .. فإذا ما فشلت يا فران أمرت خدمى بفتح بطنك وإخراج طعامى منها ..

قال الفران : شرطك هين .. وعلاجى ناجع .. والآن عجل بطلب الطعام فبطنى خاوية ، وأشار الفران إلىّ : أما أنت فسأحكى لك الحلم الأخضر البهيج .. والحلم الأزرق المرعب والحلم الأبيض الذى لا طعم له .

وبسط الفران كفه الخاوية ، وأمسك الهواء بأصبعين ، وكمن يدس النشوق فى أنفه ـــ دس الهواء فى أنفه وعطس ، وقال : لقيته أمام باب الفرن ، ممسكا بلجام بغلة ، ورددت عليه السلام فَرَدَّ ، ولما أعطيته ظهرى ـــ نادانى : إلى أين يا سيدى ؟ . قلت : إلى دار أم أسماء . قال : ولم لا تركب البغلة ؟ . قلت : لا مال معى يا فتى .. لقد عملت اليوم بثمن الأرغفة التى حرقتها . قال : لكن .. تلك بغلتك يا سيدى . فقلت لنفسى : الفتى مجنون أو أخرق .. وعلى العاقل مثلى أن يبتعد أو ينتهز ، وقلت له : ساعدنى على الركوب .. واجعل غايتك درب سعادة ، وقلت لنفسى : سأنزل قبل خُصِّى بخصين حتى أضلله فلا يهتدى بعد ذلك إلى سكنى . وقال هو : ما الضرورة لدرب سعادة هذا يا سيدى وسيدتى بالبيت تنتظرك ؟ . وقلت أنا لنفسى : هِمْ .. سيدته تنتظرنى ؟؟ .. لقد بان المستور ـــ فهذا الولد تيس لسيدة من علية قوم هذا الزمان تبحث عن فحل من عامة الناس ، وسألته : وأين تسكن سيدتك يافتى ؟ . قال : بحى الحدائق والزهور ياسيدى . فقلت له : ها .. حيث يسكن أبناء العرب وأبناء الفرنجة ويختلطون .. ليكن ... أنا لها .. خذنى يا فتى إلى حى الحدائق والزهور هذا .. ولا تقلقنى بعد الآن بقول .. فأنا راغب فى نوم أستعيد به عافيتى ، وقلت فى سرى : وهل ينام المشتاق المحروم ؟؟

وأمام بيت لطيف منير به حديقة صغيرة بسور وباب من حديد تتسلقه ياسمينة نعسانة ـــ هبطت أنا من فوق ظهر البغلة بمساعدة الفتى وتقدمت صوب الباب ـــ فهب بواب نوبى بثوب نظيف شديد البياض وحيانى ، طوحت رأسى ـــ كما يفعل السادة ـــ ورددت التحية ومرقت من الباب ، وسرت ـــ أنا المزهو ـــ بطرقة قصيرة مرصوفة بحصى ملون حتى قابلنى باب مغلق فطرقته ووقفت أنتظر ، وألقيت نظرة عن يمينى ونظرة عن شمالى ـــ وهالنى أن رأيت

أسدين رابضين وعيونهما علىّ ـــ فنطقت بالشهادتين ، ولما سمعت صوت صفارتين ورأيت الأسدين يغمزان لى بعيونهما بضوء ملون أدركت أنهما لعبتان ـــ فبصقت فى عبى وشكرت الله . ومن فرجة الباب أطل غلام أمرد كأنه بدر السما انحنى وتنحى . فمرقت أنا وتحت الثريا وقفت وأغلقت عينى لأحميهما من قسوة الضوء . ولما سمعت صوت خطوات فتحتهما فاذا به أمامى بشارب مفتول وعلى رأسه طرطور .. يمسح دموع عينيه بمنديل ، فقلت ـــ وقدألهمنى الله ما قلته : أنت الباشا رب الدار ... وقد حلت بأهل بيتك مصيبة لم تكن فى الحسبان .. على أية حال أنا حزين وأنا لله وانا اليه راجعون ..

أنآ يا باشا راجع .. سأفارقكم توا لكننى تحت أمركم فى أى وقت ترونه مناسبا ولا مقام فيه لمرض أو موت .

ضحك لابس الطرطور ـــ وقال : أنت خفيف الدم يا سيدى وهذا طالع طيب .. لقد جعلتنى أنا الذى تعرضت لأشد ألوان الإهانات فى حياتى ـــ أضحك . قلت له : لا تهتم .. فالدنيا دون والناس دون والزمان دون . انتفض كالملسوع وسقط من فوق رأسه الطرطور ـــ وتهته : عفوا يا سيدى .. لم أقصد هذا .. كل ما فى الأمر .. بل كل الأمر .. وذاك قصدى .. نعم .. هذا بالتمام والكمال ما أود أن أقوله .. لقد منعتنى سيدتى من طهو وجبة العشاء لك ولها وللمحروسة الصغيرة أطال الله عمرها .. ولكن لو لم تفارق سيدتى المطبخ فورا يا سيدى ـــ فسأفارق أنا البيت حالاً .. لأنى أحترم مهنتى يا سيدى . فصرخت فيه : لا يا طباخ .. لا بريك .. لا تنزع قلبى من موضعه .. تعال وأرنى سيدتك وأنا كفيل باقناعها وستغادر المطبخ بإذن الله .. فانا قادر على إطفاء نارها ولهذا أتيت ، وقلت لنفسى : سأجعلها ترى الخيزرانة .

وهناك بالمطبخ وجدت ، يالدهشتى ، من ؟ يا رب السموات هل أنا بحلم ؟ ، كأنها أم أسماء ، نعم ، تلك هى أم أسماء قاعدة وبحجرها أسماء تلعب فى كوم لحم وكوم قمح ـــ وقد تدلى من أنفها على فمها خيطان من مخاط ، نعم تلك هى تدق الهاون ، وها هى أم أسماء أمامى تلوك قطعة لحم نيئة ، ضربت جبهتى بيدى ـــ لأن اختلاط الأمور ليس بالأمر المحمود وسألت لابس الطرطور ـــ لأقطع الشك باليقين : وأين سيدتك ؟ . قال ـــ وانحنى : ها هى أمامك يا سيدى بهية النور .

فقلت له : انصرف وانتظر بعيدا ، وخاطبت القاعدة بأدب حتى يستبين لى الأمر : لم يا أم أسماء تمنعين الطاهى الماهر من طبخ طعام لنا ؟ . ردت المشئومة : لا تحاول معي .. لن أفارق المطبخ ما حييت .. وها أنت ترانى أدق القمح واللحم فى الهاون لأطبخ لك كفتة . فقلت : أنت أم أسماء اذن .. زعقت : ومن تظن ؟ .. أم بعرة ؟؟ . سألتها ـــ لأفهم منها مغزى ذلك الذى يجرى : وهل لك جدة تركية ماتت بأسطنبول ـــ فورثناها ؟ . قالت : لم وولى النعم صاحب الأمر العادل ـــ أطال الله عمره ـــ خيرنا بين حياتين ولقد اخترت أنا تلك الحياة لى ولك ولأسماء صانها الله من كل سوء .. سنقضى بقية عمرنا نأكل الكفتة يا زوجى الغالى .. وبعد ألا تستحق أم أسماء منك كلمة حمد . بعد هذا القول ارتاح خاطرى ، وناديت الطاهى وأمرته : دع أم أسماء على حالها تطبخ لنفسها ما تشاء .. أما أنا فاطبخ لى قرع كوسة باللحم المفروم وقرعا عسليا باللحم المبروم .. ولحما خالصا ببصل وبفلفل وبثوم .. وعجل بربك يا طباخ . وبالبهو قعدت على كرسى مغمض العينين ـــ أفكر وأطرد كل وسواس خبيث ، ورغم ليونة الكرسى وطراوة قاعدته ـــ الا أنى كنت كالقاعد على جمر ، وكلمت نفسى : لتظل أم أسماء بالمطبخ ـــ هذا فيما لو استمرت هذه الحياة ـــ تدق الكفتة وتطبخ الكفتة وتعيش ما بقى لها من أيام راضية سعيدة .. أما أنا رب هذى الدار وصاحب هذى الدار فسأتزوج من ثلاث كما أحل الدين الإسلامى الحنيف : شامية ومغربية وبنت بلد مصرية لها لون المهلبية وطعم المهلبية وطراوة المهلبية .

وأيقظنى الغلام الأمرد من شرودى الحلو ـــ وقال إن التليفون يطلبنى أنا سيده . فقلت له : وأين هو ؟ خذنى إليه أو قل له تعال . قال الفتى : هاك يا سيدى ، وأرشدنى فقال : من تلك الفتحة تكلم يا سيدى ومن تلك الفتحة يا سيدى استمع . ومن الفتحة قلت لمكلمى : من أنت ؟ . قال زعبوط الخياط . فسألته : ماذا تريد يا زعبوط ؟ . قال : هل أحضر لأخيط لك ثوباً ؟ . قلت له : وتسألنى يا زعبوط ؟؟ . والله إن أمرك لعجيب .. ما الذى منعك عنى طوال تلك السنين يا زعبوط ؟ أحضر ثوبا يا رجل ولا تضيع وقتا . ومن فتحة التليفون العجيب ـــ كلمنى مسمار الجزمجى ـــ فقلت له : تعال يا مسمار وعجل .. أما كنت تعرف يا مسمار أن قدمى الحافية يلزمها حذاء ؟؟ .. باليقين أريده بلون أصفر يا مسمار . ولما اتصل بى رقاق صانع الفطيرة المالحة والفطيرة الحلوة ودعانى إلى حفلة سيخاصر فيها الرجل الأنثى ويرقصان . قلت له : لا مانع عندى يارقاق ، وقلت له : لا مانع عندى البتة .. سأحضر ، وسألته : ما الذى حدث فى الكون يارقاق ؟ وكيف كان ذلك ومتى تم ؟

قال : ما حدث حدث ولا فائدة من التفكير فى الأيام السوداء التى ولت وما كان كان وهو خير .. وكل ذلك تم فى يسر كانفصال الخيطين وقت الفجر . قلت له : هذا بينما كنت أنا الغافل أمام نار الفرن بمخبز اسرافيل ؟؟ .. لقد أجبرنى الظالم على العمل بغير أجر نظير ما حرقت من أرغفة .. تخيل معى هذا يارقاق .. والآن أريد أن أغير حرفتى يا صاحبى — فهى والله مهلكة . وأتانى صوت رقاق كأنه الصراخ : لا يا فران .. لا تفعل .. هذا غير ممكن .. كل منا فى مكانه يخدم الآخر .. أنت تعمل من أجل الغير والغير يعمل من أجلك ذلك هو الشرط الأوحد لولى أمرنا .. ماذا تريد بربك ؟ .. ما الذى تريده بنا ؟ .. لا تفسد حياتنا الجديدة يا فران .. أرجوك . قلت له : لا تقلق .. هذا يكفى يارقاق .. لكنى لا أحسن الرقص . قال : لا تشغل البال بمثل تلك الأمور .. هذا هين .. هنا معلم رقص يعلمك الرقص — وما عليك الا أن تحضر قبل الموعد بوقت .. سلاما. قلت : سلاما يا رقاق .. سلاما . وناديت الغلام الأمرد — وسألته : أين الطعام ؟ قال هناك .. ينتظر الآكلين ، وأشار إلى حجرة — دخلتها فوجدت طاولة فوقها أطباق تبخر ولها رائحة طيبة تسيل اللعاب ، وهجمت على اللحم هجمة ، وباليدين أطبقت على فخذة ، وفصلت العظم عن اللحم بضربة ، ومزقت بأسنانى ما استطعت ، وفتقت بأصابعى ما أمكننى ، ورفعت طبق القرع كوسة الساخن ودلقته فى حلقى — فكوتنى ناره — وجرى اللهب فى بلعومى وأيقظنى من حلم عزيز، أود لو يتحقق أو يتكرر .

* * *

فكرت فى قوله ساعة . ولف هو الفران — من الوهم — سيجارة ، ودخنها بشهقة طويلة ، وطرد الدخان الوهمى عن رئتيه بزفرة طويلة — وكح . فعزمت عليه بسيجارة مرسوم عليها الغزالة — وقلت : هذا صنف رخيص أدخنه أنا بعد الفقر الذى حل بى .. وبمقدورك يا فران أن تدخن منه كل يوم علبة — تعوضك عن تدخين الوهم ونفخ الهواء . قال : أنا لا أجد ما آكله ياحكيم الزمان — فكيف بالله أدخن ؟ تلك هى الأولى .. أما الثانية — فخذ .. اليوم تهبنى أنت سيجارة وبالغد لن أجدك .. وهكذا تسلمنى لآخر والآخر يسلمنى لآخر .. وتدور الدورة وأتحول أنا الفران — على يديك وبفضلك — الى شحاذ .. والثالثة يا اخا العرب — إن من لا يأكل يموت .. أما الذى لا يدخن فلا يموت .. والرابعة ولا مقام لها هنا — اقولها لك رغبة منى فى ابعادك عن كل حماقة فى القول أو فى الفهم ..

قال الفران : طردنى صاحب الفرن وحرمنى من أجرى ــ لأنى حرقت الأرغفة ، لعنة الله على صاحب الفرن ولعنة الله على الأسباب ، كنت واقفا أمام عين الفرن عريانا فى مواجهة النار ، وتحت قسوة الوهج لعنت واقعى وقلت . جهنم أرحم وسرحت بفكرى ــ فوجدتنى أمشى فى طريق معبد على جانبيه أشجار الكافور التى ترمى بالظل اللين ــ حتى بلغت الميدان الواسع وهناك وجدت جمعا هائلا من الناس ــ فداخلنى الشك أنى بيوم الحشر ، وسألت جارى ــ فلكزنى فى جنبى وقال : هس ، ولما نفخ شخص ــ على رأسه ريشة ــ فى نفير أقبل الرجال على صهوات الخيل وترجل سيدهم فحملوه على محفة ، وطلعوا به درجات النصب التذكارى ، بعدها نادى المنادى ــ وقال : السيد الكبير ملك الجاز والغاز لابس القبعة الكبيرة المرشوق بها ريشة نعامة والمتحلى بالحلى والأساور وعظام البشر ــ قال : سأدفع ألف جنيه لمن يحل اللغز ، وتقدم رجل أصلع علق برقبته فوطة ــ وزعق : ما الذى يمشى فى الصباح على أربع وفى الظهيرة على اثنتين .. وعلى ثلاث إذا ما هبط المساء ؟ . هنا صرخت أنا ــ ودفعت كل من حولى باليدين (الإنسان) .. وهكذا بضربة حظ كسبت أنا الألف جنيه ، وأحاط بى الخلق بعضهم يمسح بكفه على كتفى .. وبعضهم يطمع فى مالى الكثير .. ومنهم الحاسد والمادح والنتاش وسارق الكحل من العين .. ومنهم ذلك الذى سألنى : ماذا ستفعل بمالك ؟ . فرددت عليه فى الحال : لن أفعل كما فعل ابن بلدتى الصعيدى المنحوس الذى شترى ميدان العتبة الخضراء .. سأشترى الطعام الذى يكفينى لمدة عامين .. وأولى وجهى نحو الجبل المقطم .. وأزرع شجرة أحتمى بظلها .. والحجر الكبير بإزميلى ــ سأهذب حوافيه وأخلق منه هرما صغيرا بقمة وقاعدة وسرداب وباب .. بعد ذلك أستريح وأقعد تحت ظل الشجرة على دكة بغدادية فوقها فروة من خراف برقة .. وأرمى على كتفى شالاً دمشقيا بشراشيب .. وألمّ بدنى تحت عباءة من جوخ مراكش .. وهكذا أجمع النقود من السياح هواة الفرجة على الأهرامات . جلجل سائلى وشنشل ولكزنى ــ شلت يده ــ لكزة أيقظتنى من حلمى السعيد وأعادتنى إلى واقعى المرير بمخبز إسرافيل .

قال الفران :

ولما حكيت حلمى لأم اسماء زوجتى ــ قالت : يا لك من صعيدى منحوس .. لا يحسن اختيار معارفه ولا يعرف الاقتصاد فى كلامه .. كنا سنقضى

بقية أيامنا فى نعيم يا رجل .. نأكل فى كل وجبة سمك السالمون المملح .. ولكان حلونا دوما عسلا أسود بطحينة .

شردت ساعة وافقت على كلام الفران وكان قد رسم على الأرض بعود : الكلب والكلبة والجرو والعظمة . قال : فى الربيع تصاب عيونه برمد الربيع — فيرفضه أصحاب الأفران لأنه يحرق الرغفان . وذات يوم من أيام الربيع ، قالت أم أسماء لزوجها الفران : ما الحل ؟ وما من صاحب فرن يقبلك عنده هذا بينما أنا جلد على عظم .. والصغيرة السمراء لا تجد بالقربتين اللبن .. **ما رأيك لو خدمت أنا ببيوت الأغنياء ؟**. فصرخ الفران فى وجهها : **لا ياأم أسماء .. حرة العرب تجوع ولا تأكل بثدييها**، وقال لنفسه : نم يا رجل .. وادخل عيادة طبيب وعالج عينيك ، وقال : لما نمت — توجهت إلى عيادة طبيب عيون يقال له « خير الله » وجاء خير الله بوجه هاش باش ومعطف أبيض ، وقال لى — بعد ما فحصنى سأصنع لعينيك عوينات من زجاج ملون تحميهما من ضوء الشمس ووجه نار الفرن . قلت له : أشكرك ، وسألته : ومتى يتم ذلك ؟ . قال : تعال بعد ساعة من الزمان أو ابعث برسول . فصحوت من النوم وقلت لأم أسماء — ورسمت لها الطريق إلى عيادة خير الله طبيب العيون : قولى له : أنا زوجة صاحبك الفران المريض .. أتيت فى الميعاد لآخذ عويناته الملونة . وحملت أم أسماء على كتفها أسماء ومضت . وقلت أنا لنفسى : والآن .. ما الذى ستفعله يا فران — حتى تعود أم أسماء ؟ .. كيف تقضى الوقت وحدك فى مكان هو القبر ؟ . وقلت : حاور أيام الخراء بالنوم والفساء ، ونمت — وذهبت إلى كازينو يطل على النيل وقعدت على كرسى تحت خميلة — بانتظار عودة أم أسماء من عند خير الله طبيب العيون . ومرت أمامى واحدة فى مشيها ميل ورقص — يفوح من بدنها وثوبها عطر ، وجلست بقربى تحت الخميلة التى تلاصق خميلتى . وأغرانى بمغازلتها أنها تقعد وحيدة ، وفكرت فى كلام حلو للين له طلاوة الشعر ، وارتجلت تلك الأبيات :

أنت فى اليم سفينة
يا طرية كالعجينة
يا حلاوة فى حلاوة
أنت ملبن يا سمينة
يا مليحة بخفر
هات خدك ننتصر

يا طحينة بغسل

بعد قبلة نتصل

قلت قولى وانتظرت . فأقبل شاب كأنه الغيمة ورفعنى من فوق الكرسى رفعاً — كأننى كرة اللعب ، وبصق فى وجهى ، وأقعدنى مرة أخرى على الكرسى . فى هذا الوقت وصلت أم أسماء — فأمسكت بتلابيب الشاب وصرخت . والتم ناس . وقامت البنت — التى كنت أعنيها بشعرى واتجهت نحونا . وقلت أنا لام أسماء : أين نظارتى الملونة ؟ . قالت : معى : قلت : هاتيها حتى لا تنكسر . قالت : خذ . قلت : دمت لى يا أم أسماء زوجة صالحة ... لا تفلتى الشاب من يديك .. ولا تكفى عن الصراخ حتى يفصل الناس بيننا ، وقلت للناس يا ناس .. لقد أهاننى أنا العجوز المريض ، ووضعت نظارتى الملونة على عينى — لأمتع البصر برؤية فاتنتى الشابة وأقرأ تفاصيلها ، ولما دنت وقرأت — صرخت : هذا مستحيل . على صرختى انتبهت أم أسماء ، ورأت وصرخت صرخة عظيمة ارتج لها الكازينو ، وسقطت مغشيا عليها . ولطمت أنا خدودى أمام الناس — وقلت : يا للعار .. أسماء بنتى أنا تجلس مع شاب غريب تحت خميلة بكازينو . ولما هم الشاب بمعاونة زوجتى على القيام من سقطتها — صرخت أنا فيه : لا تلمس عرض أشراف العرب يا عديم الحياء والذمة يا سافل ، وتقدمت ورششت المياه على وجه أم أسماء فأفاقت ، وقلت لها : هيا بنا من هنا فتلك أماكن لا يرتادها إلا أوباش الناس .. وخذى البنت ولا تحدثيها عن الذى جرى حتى نتوقى فضيحة يتحدث بها الراكب مع الماشى والقاعد مع الواقف .

هكذا عدنا إلى البيت فى صمت . وفى البيت — منعنى الخجل من النظر إلى أسماء التى غازلتها بالكازينو — فقلت لنفسى نم .. فالنوم خير حل لما أنت به ، ونمت ومن نومى أيقظتنى أم أسماء — وهى تبكى وتتوجع : أنت رجل لا أمان له . سقط قلبى من بين ضلوعى — وقلت : يا امرأة لا تصدقى. صرخت : كيف لا أصدق وقد عرضتنى للإهانة وألم البدن .. صاحبك طبيب العيون طردنى .. وتمرجى صاحبك طبيب العيون لكزنى فى جنبى وركلنى على مؤخرتى . قلت لها — وحمدت الله : اقعدى يا أم أسماء .. واحمدى الله معى يا امرأة .. لقد اختلط الحلم بالواقع ، وحكيت لها ما جرى وما كان بالكازينو .

فقالت : ولكن أسماء يارجل بنت شهرين ومعها ملاك بجناحين يحرسها ..

وهى على كتفى كل الوقت .. لم تغادرنى إلى كازينو أو خلافه . قلت لها : والله لو فعلتها فى يوم لأذبحنها كما تذبح البهيمة — **فأنا رجل عربى محافظ أحمى التقاليد وأصونها ماعشت .**

فردت — بنت الأزقة : **خيبك الله ياعربى** .. ومن تكون تلك التى غازلتها فى الأحلام ؟؟ .. ولعلمك — يا قنطار خشب ويا درهم حلاوة — انى من اليوم سأخدم فى بيوت الأغنياء حتى لا نهلك من الجوع .

* * *

صحوت — يا أميرى — على هزة من يد ابن خلف وهو يقول : قم يارجل .. نحن بالضحى . ففركت عينى — غير مصدق أننى نمت ، لكن الشمس كانت فوقى بعيدة عن سماء الشرق قدر ذراعين . وقال ابن خلف والآن .. قل لى — ما رأيك فى طب الفران ؟ . قلت : والله .. لقد جعلنى أفكر ساعة وأشرد ساعة وأنام أنا المفلس — على حُبٍّ وكره .. وها أنا فى يقظتى — ككل الفقراء — أطمع فى الحصول على الجرة الذهبية .

حكاية للأمير عنوانها : من يعلق الجرس

هذا نور مأتم يا أميرى ، لقد مات الرجل الغنى اليوم والليلة سأقطف لك من حياته الثمرة المرة والثمرة الحلوة فقد تنام .

يوم حفظ كتاب الله :

علقت أمه فى أذنه المخرومة خرزة زرقاء ، وقالت « من شر عين الحاسدة والحاسد » ورشت أرض البيت بالملح . ولما جاء الرجال بالصرة فكّت أمه الصرة وقالت « من مال المسلمين » ونثرت ما فيها أمام عيون النسوة : الجبة حمراء مطرزة بالقصب ، والطربوش مغربى أحمر والمداس الأصفر من جلد الجمل ، والحزام أخضر، والقفطان الأبيض بخطوط سوداء .

ولما لبس صابر — وهذا اسمه — ملابس الشيخ وهم بالخروج مع الرجال، قبلت أمه يده وقالت « يا مولانا » ومسحت دموع الفرحة بطرحتها السوداء .

فى جامع عبد الله :

ركع صابر ركعتين وشكر ربه ، وقام ، وقبل يد مولاه ومعلمه الشيخ سليمان ،

وتسلم من يمينه السيف الخشبي وتقدم ـــ هو الصغير ـــ جمع الرجال ليطوف بهم دروب القرية .

فى بيت أمه وأبيه :

أزاح صحن البصارة وقال لأمه « شبعان يا أمى » وحط يده على خده وفكر : لن أركب قطار الحديد ، ولن تنظر العين مصر أم الدنيا التى يجرى فوق أرضها الترمواى ، ولن تدخل الأزهر يا صابر وتعيش عيشة المجاورين وتصاحب أبناء الشام وعرب المغرب ، وسأل صابر ربه : لم يارب خلقت أبى حارس حقول وأجران الغير يهش الطير عن الحب بمقلاع ؟

وفى بيت أمه وأبيه :

قال لأمه « جوعان يا أمى » ورفع يده من على خده وفكر : لا فائدة من لبس أجنحة الطير ما دمت تملك ثوب الشيوخ ، أنت تحفظ كتاب الله وصوتك لا عيب فيه وكلام الله حلو لما يرتل وكلام الله يليق بالمآتم ويليق بالأعراس ، كن ابن يومك يا صابر ولا تعاند زمانك ، احبس نفسك فى قريتك وانشد القرآن ورتله فى أفراحها ومآتمها ، ولما يتوفر لك المال اشتر الدابة واركبها ، ورتل القرآن فى مآتم وأفراح النجوع البعيدة،ومن يقنع اليوم ببصلة فسيأكل فى الغد اللقمة مغموسة بالعسل ومن يقنع اليوم ببيضة فسيأكل فى يوم بطة .

الأم الحاقدة ـــ ذات الفصول ـــ لا أمان لها :

جاء اليوم البارد فمزق حبلين من حبال صوت الشيخ صابر ..

وجاء اليوم الماطر فقطع حبلين من حبال صوت الشيخ صابر وشرخ القصبة .

خلص الشيخ صابر بقايا اللحم من بين أسنانه بعيدان الكبريت ، وقال : حين تضعف همة الإنسان تقبل الفكرة السوداء وتنهش روحه ليظل قعيد البيت كعجائز النسوة .

وفى يوم سبت طلع على الناس بثوب العارف :

قال : لكل مرض علة ولكل علة سبب .. هناك يا أخوتى داء لا يقتله الا الكى بالنار .. وهناك مرض لا يفيد فيه شراب يبيعه الصيادلة . كما أن العلاج بالعشب لا يتقنه الا أنا الخبير بخلط الأعشاب .. أما النمل الأسود فطرده من البيوت سهل لو كتبت أنا آية من آيات الله على ورقة بحجم إصبعى ـــ ولصقتها أنت بعجينة على باب دارك .. كذا أنا قادر على طرد الجنى ومص سم العقرب .. وأنا أرفع الخوف من كل نفس خوافة قابلها العفريت فى ليلة معتمة،يا أهل قريتى وناسى لا خوف عليكم من لدغة الثعبان وقرصة البرغوث .

ولما خبرته النجوم بيوم سعده :

دخل السوق . وقصد مجلس الشمردلى شيخ تجار السمك ورد السلام . رد الشمردلى على السلام بسلام أفضل من السلام،وقام وصافح الضيف الغريب وأجلسه بجواره على الدكة فوق الفروة وطلب له قهوة ونارجيلة وسأله عن غايته . قال صابر : الخير كل الخير .. بكم تبيع السمك وبكم تشتريه ؟ . قال الشمردلى : أشترى القنطار بنصف فضة وأبيعه بواحد فضة . قال صابر : أنا أبيع لك القنطارين بنصف فضة .. كم قنطارا تشترى ؟ . رد الشمردلى :. ما عندك . قال صابر : عندى الكثير . قال الشمردلى : أشترى منك نصف حاجة السوق .. قل عشرة قناطير . قال الشيخ صابر : الناس تقول (الذى أوله شرط آخره نور) وأنا أقول لك يا شيخ (هات نصف الثمن فورا .. وأنفذ أنا اتفاق بعد يومين والعقد على رقبتى سيف) . قال شيخ السماكين : موافق ومالى حاضر . قال صابر : على بركة الله هات الشهود والموثق .

وهذا نص الاتفاق ـــ يا أميرى :

على بركة الله نشهد نحن الشهود أن شيخ العرب صابر بن فلان من فلانة سيبيع كل عشرة قناطير من السمك الطيب لشيخ السماكين الشمردلى بن فلان من فلانة بسعر القنطار ثمن الفضة والعقد قائم لمدة شهر قمرى وقابل للتجديد لو رضى البائع والمشترى .. وبموجب هذا العقد يدفع الشارى فوراً للبائع نصف الثمن

فضة ، والعقد نافذ المفعول من بعد طلوع شمسين ، والعقد على رقبة البائع سيف .

الكلام الأزرق :

قالت الأم : بعت الهواء يا ولدى وقبضت الفضة .
رد صابر : بعت السمك يا أمى ومن يبيع الهواء لا يقبض الفضة .
قالت الأم:بعت ما لا تملك يا ولدى .
قال صابر : السمك فى الماء يا أمى .
قالت الأم : لكنك لا تملك سمك الماء يا ولدى .
وسألها صابر : ومن يملك سمك الماء يا امى .
قالت الأم : لا أحد يا ولدى لا أحد .

قال صابر لأمه : صرر المال تحت حزامي .. أدخل حارة النجارين فيصنع لى النجار القارب من خشب التوت وأنا أشتريها ، وأبحث عن صياد قليل النط كثير الصيد وأقول له:اركب القارب وارم شبكتك فى الماء ولم السمك من الماء وكومه على الشط وخذ أجرة يومك منى ، والحمال لو رفع السمك وحطه فوق العربة سأدفع له أنا أجرة بدنه وعرق جبينه ، كذا الحوذى سيأخذ أجره منى لما ينقل السمك من شط النهر إلى السوق ، هكذا أفى بشرطى يا أمى وأرفع السيف عن رقبتى .

قالت الأم : حفظ الله عقلك يا ولدى ..

حديث الثعلب وبكاء النواطير :

مر الشهر وقال صابر للشمردلى (نجدد العقد) ومر بعد الشهر شهر وشهر واشترى صابر القارب ومر شهر وشهر وشهر وشهر واشترى صابر القاربين وقال للشمردلى (أنا لا أرغب فى تجديد العقد) ، سأله الشمردلى (لماذا) قال صابر (العقد ظلمنى يا شمردلى نكتب العقد الجديد ــ وتقنع أنت بنصف ما تكسب اليوم) ، وكان صابر كلما مر شهر وشهر يشترى قارب صيد ،

وينادى الصياد الذى يحمل الشبكة على كتفه ويقول له (اطلع فوق القارب فهذا أفضل من مشيك على الشطوط بقدميك) ، بعد عام ونصف عام قال صابر للشمردلى (اقنع بربع ما تكسب يا شمردلى) ، قال الشمردلى (ما الذى غيرك يا رجل ؟) ، قال صابر (كن قنوعا يا صاحبى فأنت تكسب دون أن تقوم من دكتك) ، بعد عام فسخ صابر العقد بينه وبين الشمردلى، ولما باع الشمردلى السمك بالسعر الذى يبيع به صابر اقتسما السوق ، لكن صابر خفض سعر السمك وخفضه فهرب المشترى من الشمردلى وهرب الشمردلى من السوق بما تبقى معه من مال وقضى بقية عمره فى خمارة صاحبها مالطى .

هكذا بقى صابر فى السوق بغير منافس واحتكر بيع السمك :

اشترى قارب الصيد لكل صياد يروح على الشط بقدمين وفوق كتفه شبكة ، وحذر الصيادين من صيد السمك الصغير وقال لهم (السمكة الصغيرة اليوم هى حوت الغد) .

وبدل الموازين وأمر المنادى بأن ينادى فى السوق (البيع من صباح الغد بالكيلو لا بالأقة) ، وجاء بمصنف خبير بأنواع السمك ومنحه الأجر الكبير وقال له (قيِّم أنواع السمك واختر لكل نوع من السمك الاسم وحدد السعر فالناس عبيد وسادة وكذا السمك أيضاً) .

وقال صابر لرجاله :

(اطرحوا نصف حاجة السوق من السمك الحى والباق ملحوه .. بذلك نرفع سعر السمك الحى ، ونحدد نحن سعر السمك المملح) .

وقال صابر لنفسه :
(ها أنا بعقلى الراجح أحكم السوق بقلب الأسد ملك الحيوان) .

حديث صابر مع الزمان :

أطل صابر من شرفة قصره وكلم الزمان :

● ملك السمك الحى والسمك المملح (عجوز) .
● خالق الزحمة بالأسواق (وحيد) .
● مالى يحرك القارب والصياد والحمال والحوذى والعربة والبغل والحمار وريشة الرسام (وأنا جامد) .
● عربتى يجرها حصان أبيض وحصان أسود (وأيامى يجرها ليل أسود ونهار أبيض إلى المقبرة) .
● يفسحون الطريق لى أنا الملك حامل السوط (وأنا راحل وهم باقون) .
● كما يرقد المال فى خزائنى سأرقد (باردا كالفضة)
● يا أيها الزمان أنت الوحيد الذى لم أهزمه (كأنك أنت الملك) .
● بذهبى سأشترى أجمل بناتك أيها الزمان لتلبس بعدى ثوب الحداد . وتنفخ بطنها من أى ابن زانية هذا فيما لو عجزت أنا وعزائى أن تظل ألسنة النار مشتعلة بالأسواق تُحدّث الآتين بخبرى .

ترنيمة للأمير

كنت بزيارة صديقى ، وكان أستاذا ، وهناك التقينا فقلت لنفسى .. أخ .. تلك فتاتك الموعودة .

وكانت هى تكلم الأستاذ وتسمع منه وتضحك وتميل لقدام فتطير خصلة من شعرها الأسود وتحط على جبهتها فتردها بيدها وتعود لوراء كما كانت : كما لو كانت الغصن يا أميرى يواجه نسمة .

بيديها بيديها .. آه بيديها ـــ وقد قامت ـــ صففت الورد ورسمت اللوحة بألوان وعطر يا عقلى وغادرتنا « هكذا سريعاً » وابتسمت وسلمت وابتسمت : كأنها قالت لى أهواك هكذا سريعا ، وهكذا سريعا غادرتنى ، وتلك الرائحة التى خلفتها ما كان بمقدور الورد أن يفوح بمثلها ـــ وهل يجرؤ الورد .

طالبنى صديقى بالبقاء وكنت راغبا فيه : لقد كانت هنا ، وقال لى من عمرى وأنا محتاج للمال لأعيش .. أنا الأستاذ كنت أبغى التطوع بالجيش الذى سافر للحرب باليمن فمرتبات الجند هناك كانت عالية .. لكنى الآن أفكر فى الزواج من تلك التى أحبها ـــ مع أن الفرصة أتتنى الآن لأسافر لليمن معلما براتب يفوق

راتب جنديين إلا أنها لا تحب غير المدن .. وها أنا كما ترى حائر بين حبى ومستقبلى وحبى ، وسألنى أيهما الصحيح الزواج أم السفر ؟ ها هو الفالح يطالبنى بالإجابة ، ولو قلت له (مستقبلك) لقال (حبى) ، وأنا أعرف أنه يقصدها هى ، دعه فهو لا يعلم ، ليكن يا أميرى للصديق على الصديق حق لا يعرفه إلا الصديق ، من جانبى سأدمن الخمرة فهى كفيلة مع الأيام أن تأتى بالنسيان ، نعم سأدمن الخمرة ـــ ما الذى بقى ؟ .

فى البار ـــ بعد السنوات أتتنى أخباره : لقد سافر إلى اليمن وتزوج من يمنية مات زوجها اليمنى فى حادث جد مؤسف فورثت الأرض الواسعة الجيدة تزرعها بُنّاً ، بعد زواجها الثانى لم تعد تبيع البُن أخضر ، فقد أشار عليها صديقى بشراء محمصتين ومطحنين وكذا مصنعا لتعليب البُن وقال لها : بمصر محامص كثيرة ومصانع لتعليب البُنْ كثيرة معروضة للبيع بسعر قليل ـــ وتلك فرصة لابد أن تقتنص ، وافقت هى واشترطت أن لا ينزل هو بالفنادق الكبرى فسمعة الفنادق الكبرى تعرفها هى من أم لها ماتت ، وقالت له من الأفضل لنا شراء بيت بالقاهرة لتكون القاهرة لنا مسكنا شتويا ويبقى اليمن مسكنا صيفيا ، وكان هو قد تعود بفضل ذلك الشعور القديم بالفقر أن يعمل بما تشير به زوجته الغنية التى أطلقت حوله العيون : من وقت يقلع بالطائرة من صنعاء إلى أن يهبط بمطار القاهرة ... يقضى نهاره وبعضا من ليله بين المحامص والمطاحن ومصانع التعليب ويعود إلى البيت ـــ تتبعه العيون ـــ مهدودا فينام .

(فى الحلم قابلها صدفة فلامته وقالت له : لقد شغلت عنى بالمال وبزوجتك الأرملة الغنية اليمنيه ، فقفز من نومه فزعاً لتكسر ساقه ، لكنه أصر على السفر بساق مكسورة : قصد مطار صنعاء وحده وركب الطائرة المقلعة لمصر ، وبمصر بحث عنهاءولما لم يجدها بحث عنى أنا الصديق المخلص مدمن الخمرة فوجدنى فى البار)

ذلك ما قاله لى ...

(سافرت إلى فرنسا لزيارة شقيقها المتزوج من فرنسية وهناك تزوجت من شقيق الفرنسية) وقلت له (هذا كل علمى) .

وكل علمي بعد ذلك ــ يا أميرى :

أن الأستاذ عاد إلى اليمن مغموماً ، أدمن القات يمضغه ويمصه ، حتى قالوا ياأميرى ــ جن ، وفعلت اليمنية كل ما يمكن أن تفعله زوجة مخلصة : أتت له بالحكماء المعالجين من كل بلاد الدنيا .. وبناء على تعاليمهم اشترت له طائرة هليوكبتر كانت تقودها بنفسها ــ هى المحبة ــ خوفا عليه ، وذات يوم غافلها ــ هو المدمن للقات ــ وركب الطائرة وحمل معه خارطة ودليل فرنسا وكان يخفيها فى ثنية سرواله ، وطارت به الطائرة إلى قدره وقدرها ، وكانت هى تطل من بلكون تشير بيدها إلى تلك الحدائق الفرنسية الشهيرة ــ فظن العاشق المجنون مدمن القات أنها تشير إليه هو ، ولما لم يحسن الهبوط اصطدم جسم الطائرة بإفريز البلكون، فاحترقت الطائرة وأحترق هو واحترقت هى ...

وها أنا أيضاً ــ ياأميرى ــ بالخمرة أحترق .

حكاية أخيرة عن الطير الأليف والطير الجارح

أمام دار السينما ــ التى تعرض فيلماً ملوناً عن البنات والبحر ، كانت طيور الهواء تجفف شعر البنت القادمة لتوها من البحر ، وكان الببغاء المحبوس داخل قفص كبير ملون معلق على باب السينما يردد : فيلم ملون .. البنات والبحر فيلم ملون ، وكانت البنت الجميلة التى تنتظر صاحبتها الجميلة ــ تدق بقدمها النشيطة الأرض،تدق الأرض ليرتج الثدى ويبين الفخذ ويلطم الثوب الركبة ــ فيصرخ الببغاء ــ الذى يجهل حب البنت الحلوة لبنت حلوة : البنات والبحر .. فيلم ملون .

الولد ــ القادم من تحت الأشجار ــ وقف ، ورأى .

واليمامة ــ التى ترى بعين سليمان النبى ــ رأت ،وطارت لتخبر سليمان النبى بما رأت ...

والحمامة ــ من فوق برجها العالى ــ رأت ، وحضنت فرخهاء أما البومة ــ فمن عجب أنها لم تهتم ...

ونوارس البحر ــ لم يكن بمقدورها أن تحلق بالأعالى لترى ــ والقواس الطائر ، مر ، وما رمى بسهم العشق قلب البنت ورمى بسهم العشق قلب الولد .

وأنا الذى رأيت ــ تقدمت ، للبنت التى تبيع التذاكر ــ والتى تلبس ملابس الطاووس ، أريد تذكرتين (تذكرة للولد القادم من تحت الأشجار وتذكرة لى) .

لكن البنت ــ التى تلبس ملابس الطاووس ــ صرخت كما يصرخ الببغاء : الفيلم للبنات .. وعن البنات والبحر .

لما رجعت أنا الخائب ــ يا أميرى ، رأيت الولد يدمى بمنقاره أجساد فتيات الإعلان ــ الطالعات والنازلات البحر ــ الواحدة تلو الواحدة .

هكذا ياأميرى فررت ــ من مكانٍ العشق على أرضه مستحيل ، وأنا أضرب الكف بالكف من اختلاط الأمور فى هذا الزمان ، ولسان حالى يقول : لاحول ولا قوة إلا بالله .. وآهٍ من زمان أعيشه .

حكاية على
لسان كلب

أيامى فى الريف

أنا أبن الصدفة العمياء

إسمى محظوظ ، ولاسمى حكاية تحكيها أمى : « ولدت جروين وجروين وجروين .. وكنت أنت أحدهم . وقال صاحب الدار لأم أولاده : « اختارى يا أم أولادى من تلك الجراء جروا يحيا مع أولادنا » . أشارت زوجته إليك — وقالت : الذى نصفه أبيض ونصفه أسود . فقام صاحب الدار وحمل اخوتك ورماهم فى الخلاء البعيد — للجوع والبرد والريح والمطر والحيوان المفترس . وتقدم أبوك منك وشمك ولعقك — وقال : أنت محظوظ . فقلت أنا : ما رأيك لو نسميه محظوظ ؟ . رد أبوك : موافق يا أم محظوظ .

القاتل وأنا فى بيت واحد

لما رأيت صاحب الدار نبحت فى وجهه : أنت رجل بلا قلب ، ونبحت فى وجه أبى — لما رأيته يهز ذيله مرحبا بصاحب الدار : كيف ترحب بقاتل اخوتى !؟ . رد أبى : لقد فعل الرجل ما فعله لأنه كامل العقل يا صغير العقل .

قلت : ما دام العقلاء قتلة .. فلنبحث عن بيت صاحبه مجنون . وتنهدت أمى : حتى المجنون لا يقبل قبيلة من الكلاب فى بيته . وقال أبى : هل يطعم الفقير قبيلة من الكلاب آ!؟ .. هه آ!؟ الرجل غير قادر وعنده قبيلة من الأولاد . وتنهدت أمى : نعم .. الفقر سبب كل بلاء .. الفقر هو القاتل يا ولدى .

صاحب الدار وأبى واللصوص

ــ يا دنيا .. أمورك غريبة « وأحوالك عجيبة » !!

أبى وصاحب الدار ــ كلاهما يبيت خارج الدار. أبى يحرس الدار بالليل من اللص ــ والدار مبنية من صفيح وطين وقش !! . وصاحب الدار يحرس بالليل بستان الغنى من اللص ــ والغنى نائم !! . أبى ينبح كل الليل ــ بسبب ومن غير سبب ــ حتى يخاف اللص فلا يقترب من دار ليس فيها ما يُسرق !! . وصاحب الدار يقضى الليل كله يتمخط ويبصق ــ بسبب ومن غير سبب ــ وقد يطلق رصاصة فى الهواء ثم يزعق « من هناك ؟ » : هكذا يخاف اللص فلا يسرق البستان ! . وأبى لا يملك الدار !! وصاحب الدار لا يملك البستان !!. أما اللصوص فيسهرون خارج الدور ــ لأنهم بغير دور ، وهم أفقر من أبى ومن صاحب الدار .. ولذلك فهم يطمعون فى أشياء صاحب الدار القليلة ــ لولا أبى الصاحى اليقظ !! .. وهم طامعون فى بستان الغنى النائم ــ لولا حارس البستان الساهر والقابض بيديه على بندقية تخرج النار الحارقة من ماسورتها !! .

يوم لا أنساه

جاء ضيوف من أهل المدينة ــ لقضاء يوم فى الريف ، وقفز الأولاد والبنات ــ من العربة المكشوفة التى تشبه الأوزة ــ وعانقوا وقبلوا أولاد صاحب البستان وبنات صاحب البستان .

ونطّت من العربة كلبة بيضاء .. قليلة الحجم .. نظيفة .. يكسوها شعر غزير ، وكان اسمها « لولو » ، وكان برقبة لولو طوق من الجلد تدلت منه أجراس تدق وتنشر النور ، وكانت لولو رشيقة الخطوة .. مشيها على الأرض يشبه الرقص .

أخاف - ياأبى - أن يطير عقلى من رأسى

قلت : ليت أمى فى مثل جمال لولو .
رد أبى : الطبيعة هى التى أهدت لولو شكلها الجميل .. يا جاهل .
صححت كلامى : ليت الطبيعة أهدت أمى مثل جمال لولو .
رد أبى : لولو من عائلة اللولو .. ونحن من عائلة البلدى .. يا مغفل .
قلت : ولم ظلمت الطبيعة أمى وأنصفت لولو ؟ .. الطبيعة غير عادلة يا أبى .
نبح أبى فى وجهى : لا تنبح فى وجه الطبيعة أم الكائنات أيها الغبى .
وتركنى أبى — مع أمى — ونط فوق سور البستان

يا أمى : أخاف أن يطير عقلى من رأسى

قالت أمى : مالكة السيارة هى صاحبة لولو،وهى التى أهدت لولو الطوق وهى التى علمت لولو كل لغات الأرض .

فقلت لأمى : وهكذا ظلمنا صاحب الدار — لأن الدنيا ظلمته .. يا لها من دنيا ظالمة .

قالت أمى : اقنع بنصيبك يا ولدى .. لا تعاند .. هيا بنا نلحق بأبيك .. فهنالك وليمة أقامها صاحب القصر ببستان القصر — حتى يرى الضيوف وهم يأكلون : الخضرة والماء والمنظر الحسن .

عقلى سيطير من رأسى

من فوق سور البستان — نظرنا إلى مكان الأكل .

كانت لولو تأكل من دجاجة مشوية راقدة فى طبق .. وتلعق الخضار والمرق من طبقين .. وتشرب الماء — الذى رشوا عليه ماء الورد والسكر — من طبق ، وكان أمام الضيوف وأهل القصر مائدة فوقها البط المحشو والحمام المشوى والدجاج المقلى واللحم المسلوق ، وكان الضيوف يرمون البقايا من شحم وجلد وعظم فى أطباق ، وكان الخادم الذى يلبس الطرطور يرمى مافى الأطباق على الأرض — لتأكل كلاب

صاحب البستان التى تشبه الذئاب ، وكان صاحب دارنا يقف كالناطور وبجواره خادم بيده دورق الماء الملون .

قلت لأبى : أتينا لنأكل .. وها نحن نتفرج .

كشر أبى : لست وحدك الذى يتفرج ياعِرّة الكلاب .

قلت : هاهى كلاب أرمنت تأكل .

زام أبى : هم أهل المكان ونحن غرباء .. هل فهمت يا بلدى يا ابن البلدى ؟

وقالت أمى : الأكل كثير يا محظوظ .. بعدما تشبع كلاب أرمنت وتعاف الطعام — سنأكل أنا وأنت وأبوك حتى نشبع .. سيبقى الكثير يا ولدى .

هممت بفتح فمى — فزعق أبى : إخرس .. لا تفسد على متعة الشم فهى عندى كمتعة الأكل . ونظر لأمى — وقال ساخراً : إبحثى عن ريشة وضعيها فوق رأس أبنك فهو يظن أنه الملك ..

قلت : لا ياأبى .. سأبحث أنا عن ريشة وأضعها فوق رأسى .

وقفزت من فوق السور ، وجريت إلى الطعام ، وأمسكت بعظمة بها لحم .

معركة غيرت مجرى حياتى

حاول الكلب الأرمنت الصغير نزع العظمة منى — فضربته بالعظمة على رأسه ضربة جعلته يصرخ ، وتقدمت أمه مكشرة فكشرت أنا ولوحت بالعظمة مهدداً — فوقفت فى مكانها تزوم . وقفز الأب ناحيتى فتراجعت خطوتين وملت شبرين — فوقع على الأرض . ولما قام وواجهنى بعينين تشتعل فيهما النار — ضربته على عينه بالعظمة هكذا،لم يعد يبصرنى فطاشت كل ضرباته ، أما أنا فقد أشبعته ضرباً بالعظمة .

المحاكمة

جاء أبى يجرى ، وكان غاضبا ، وعضنى فى أذنى أمام الجميع ، ووصفنى بأبشع الصفات . وهتف ولد من الضيوف :

اتركوا الكلب الصغير يصارع الكلب الكبير .. أريد أن أتفرج . وصرخت بنت من الضيوف :

لا .. لا .. لولو خائفة .. إبعدوا هذا الكلب الصغير المتوحش .

عند ذاك صوب حارس البستان بندقيته ناحيتى — فجريت واختفيت بين الأشجار .. وأنا أنبح وأكيل له السباب : يا ناطور .. يا ناطور .. أنت تتفرج وهم يأكلون .

الخطبة التى جعلتنى أهاجر

هاج أبى وماج ، وارتجل خطبة قال فيها كلاماً له ثقل الأحجار — كان يتساقط فوق رأسى وأنا منكمش تحت الأشجار :

« سيداتى سادتى .. أنا أحييكم برأس محنية .. وأعتذر لكم أيضاً برأس محنية .. فى يوم أغبر ولدت شريكة حياتى هذا الكلب الفاسد .. فى هذا اليوم بكت السماء فسقط المطر وكفت العصافير عن التغريد وجف فى حلوقها النشيد .. ومرت الأيام وكبر الفاسد فقَلَّ ماء النهر وقل حجم القمر فى السماء .. واليوم أفسد الكلب الفاسد متعة الضيوف،وأهان كلاب الأرمنت ، وأفزع المحترمة لولو .. ومن اليوم سأرى أنا الكلب الصالح النور ظلاماً والظلام نوراً .. هكذا تختلط الأمور ياسادة — حين يتطاول مخلوق من مرتبة سفلى على مخلوقات من مرتبة عليا .. ومن اليوم — لا هو ابنى ولا أنا أبوه .. سأطرده ليعيش عيشة الكلاب الضالة .. وسيعلم بعد فوات الأوان — لما تسقط على بدنه عصا الشحاذ — أن انتقام السماء عظيم .. وصدق الذى قال (لا تشتر العبد إلا والعصا معه — إن العبيد لأنجاس مناكيد) .. والسلام عليكم » .

صفق الضيوف وصفروا ، وهتف بعضهم بحياة أبى ، وهتف بعضهم بسقوطى .

الوداع

بحثت أمى عنى ، ووجدتنى ، وقالت وهى تبكى : قلبى هدانى إلى مكانك يا ولدى قبل أنفى ، وقالت : كبد أمك يتمزق يا ولدى .. وأبوك تكلم بلسان الخوف ..

قلت : لا تحملى همك وهمّى يا أمى .. أنا كرهت الحياة هنا .

فسألتنى : وإلى أين أنت ذاهب يا ولدى ؟
قلت : خلف العربة .. إلى المدينة .. وراء لولو .. سأجرب حظى .

الرحيل من الريف

جريت خلف العربة ، وناديت لولو المنكمشة فى حضن صاحبتها : لا تخافى يالولو .. ولا تصدق كلام أبى عنى .. أنا كلب طيب ومعجب بك .. والطريق الطويل يحتاج لأنيس .. أنا ذاهب إلى المدينة وأنت من سكانها .. أنا لا أعرف المدينة وأنت تعرفينها .. ساعدينى يالولو .

أخيرا تكلمت لولو — فابتسمت أنا . قالت لولو : لقد أفزعتنى بتصرفك المتوحش .. لكنى لا أمتنع عن مساعدة من يريد المساعدة . قلت : عشت يا لولو .. ودامت لك النعمة التى تعيشين فيها .

فقالت : أشكرك، والآن كف عن الكلام حتى لا تغضب صاحبتى منى .. وتعال بالغد مع الشمس إلى الفيلا التى ستقف أمامها العربة .. ستجدنى وحدى ألعب فى الحديقة .. باى باى ..

أيامى فى المدينة

ليلة فى شوارع المدينة

ليل المدينة بنهارين .. كل نهار بشمسين ، والناس فى المدينة يجرون على أرض الشوارع كماء السيل .. ملابسهم غريبة ـــ وكأنهم فى مولد أو عيد .

رأيت العجب ـــ وأنا اتسكع فى أسواق المدينة :

الطير الملون المحبوس ـــ يغنى داخل القفص !؟ ، النور بكل لون ، الألوان تغمز وتتبادل الأماكن ، المخلوقات والأحذية والثياب وكرة الطفل ـــ محبوسة داخل أقفاص من زجاج ، المرأة المعلقة على الحائط تصرخ بغير صوت ـــ وهى تغرق فى ماء البحر ـــ ولا أحد ينجدها !! . الحوانيت أغلقت أبوابها ـــ فقل النور واختفى الناس ، لولا وجود العربات وأصحاب العربات لنبحت أنا فى وجه المدينة : يا مدينة هجرك سكانك .

تمكن التعب من بدنى ـــ فوقفت أفكر فى حالى ، وأفقت من أفكارى على قرصة فى أذنى ـــ فهرشت أذنى . وهمس صوت فى أذنى : لا تهرش من فضلك

فأنا نملة . نبحت،بغضب : ابتعدى . همست : ابتعد انت أيها الكلب عن هذا المكان .. وابحث عن مكان آمن يحميك من بندقية الصياد . قلت : أنا غريب يا نملة .. قادم من الريف .. لاصاحب لى هنا ولا بيت . همست النملة : مسكننا قريب .. تعال معى وقابل أمىُ الحكيمة .. أمى ستساعدك ياكلب — فهى تفهم أكثر منى لأنها أكبر منى . قلت : أنت خيرة يا نملة . فهمست فى أذنى : أنا صابرة .. إسمى صابرة .. وسأقدم لك خدمة مقابل خدمة . قلت : اطلبى يا نملة . همست : سأبقى هنا بجوار أذنك وأتفرج على الدنيا .. لأن ما تراه أنت فى ساعات — بفضل خطواتك الواسعة — أراه أنا فى شهر وعامين . قلت : اتفقنا .. موافق يا نملة .

التصقت بساق الشجرة — فزحفت النملة الحكيمة وحطت فوق أذنى وهمست : لو كان بيتى يسعك لقلت لك:« أهلا بك فى بيتى » ..

وأنا لا أنصحك بالبقاء فى المدينة — حتى لا تموت ميتة الكلاب على يد صائد الكلاب . قلت : لا أريد أن أغادر المدينة .. لى صاحبة تعيش بقصر وسأقابلها فى الصباح .

همست النملة الحكيمة فى أذنى : أنت كلب طموح .. ولكن لا تدخل المدينة بالنهار . فسألتها : وهل تبغى لولو هلاكى ؟ .. ردت النملة : لا تفهم كلامى بالمقلوب ولا تظلم لولو .. لولو تعيش فى قصر — ولا يعرف عيشة الشوارع إلا من عاش فى الشوارع .. ولولو قد تمشى فى الشارع — فهل كل من يمشى فى الشارع يعرف عيشة الشارع ؟ . الشارع بحران مالحان يا محظوظ.أنا أحذرك من السير بالنهار فى شوارع المدينة ، لأن صائد الكلاب يعمل بالنهار وينام بالليل ، وتلك خصلة محيرة من خصال أولادآدم .

قلت أنا بحزن وفرح معاً : ضاع لقاء لولو .. والمدينة مباحة بالليل .. ولا أعرف المكان الذى أختفى فيه بالنهار .

ردت النملة الحكيمة : لا .. اذهب الآن إلى قصر لولو واترك ابنتى هناك .. وستقول لها لولو ما تود أن تقوله لك .. وعندما يحل الليل إذهب مرة اخرى إلى القصر لتعرف ما قالته لولو لصابرة،وقد تقابل لولو .. واقض نهارك بالأحياء الشعبية — فصائد الكلاب يعيش هناك،ولكنه يعمل بالمدينة .. ككل سكان الأحياء الشعبية .

نهار بشوارع الأحياء الشعبية

الناس أكوام ، والقمامة أكوام ، والبيوت خالية من الرجال ، عامرة بالنسوة الجالسات أمام الأبواب يطبخن ويغسلن ويأكلن ويرمين بالفضلات لنا نحن الكلاب — لكن الصبى المتشرد يطارد الكلب بالحجر وينزع العظمة من فم الكلب . النهار — هنا — شمس بلا عيون ، والحياة — هنا — عذاب ما بعده عذاب .

ليلة أخرى بالمدينة

على باب فيلا لولو أسندت رأسى — فحدثتنى النملة صابرة بحديث لولو ، قالت صابرة إن لولو تقدر موقفى وتقبل اعتذارى عن موعدى معها « ولولو تعتبرنى من أبناء جنسها الحيوانات — مع إنى من عائلة بلدى » « ولولو تعتذر الليلة عن لقائى لأنها تنام مبكرة » « ولولو تسهر أيام الخميس — لكن خارج البيت » « وهى فى كل مرة مع صاحبتها .. فى زيارة للأصدقاء أو لمشاهدة مسرحية أو سيرك » « ولولو تقول إن اللقاء فى السيرك ممكن .. وعسير فى بيوت الصاحبات ، ولا يجوز فى السينما ، ولا يليق فى المسرح » .

وقالت لى النملة : لولو سترى ألعاب السيرك يوم الخميس المقبل — وهذا من حسن حظك — .. ولولو تركت لك قطعة لحم وفطيرة فوق قاعدة من الحجر يقف عليها تمثال من النحاس لأسد زاقد يبخ الماء من فمه .. نُطّ السور يا محظوظ وخذ قطعة اللحم وخذنى معك — لقد نلت مرادك من هنا . قلت : تعالى يا صابرة .. إن ضاقت عليك أذنى حملتك فى عينى .

من أقوال النملة الحكيمة

حكيت للنملتين ما جرى لى فى الريف — من الألف إلى الياء . فقالت النملة الحكيمة : « أنا لا أحب الانسان ولا أكرهه .. وأعجب من ظلم الانسان لأخيه الإنسان . حياتك مع النمل ستعلمك الصبر .. نحن جموع النمل ننال بالصبر كل ما نريد» .

فى السيرك مع لولو

درت حول مبنى السيرك دورتين من بعيد — حتى لا يعاملنى إنسان معاملة الكلب الشريد ، عرفت مداخل السيرك ومخارجه — لأضمن السلامة إذا ما حدثت المتاعب ، سأدخل فى أعقاب لولو — فيظن الواقف على باب السيرك أنى كلب صاحبة القصر ، وسأجلس بجوار لولو فى أدب ووقار — حتى لا تشك صاحبة لولو فى أمرى وتحسبنى كلب الأنسان الذى يجاورها .

ضربت المروضة الفيل بالعصا وأمرته أن ينام فنام ورفع أرجله فى الهواء ، وصفقت لولو فصفقت أنا ، ولما ضرب المروض الهواء بالسوط .. فرقع السوط وصفر الهواء وخاف الأسد فقعد على الأرض وقلد الفلاحة وهى تعجن العجين ، وقامت لولو وقعدتْ فقمت أنا وقعدت ، ومشى الدب بالدراجة على السلك الرفيع المعلق فى الهواء ، وقالت لولو أيها الدب .. سنلتقى كل يوم خميس من أول كل شهر ، وقلت أنا : ليتنى أراك كل يوم يا دب مرتين .

حديث القلب مع القلب

أمامى شهر ثم ألتقى بلولو فى السيرك .. وبعد الشهر سنلتقى أنا ولولو — ثم نفترق لنلتقى بعد شهر .. هكذا ستمر السنوات والسنوات يا لولو — وأنت بالقصر فى أمان وأنا بالشارع فى هوان .. الشهر زمان يا لولو والشهر مسافة .. والمسافات تباعد بيننا والزمان يعادينى،والسيرك أحلى الأمكنة يا لولو .

أول هزيمة للزمان وهزيمة كاملة للمسافات

قالت لى النملة الحكيمة : لو عرفت الجماعة ما تريد لاقتربت المسافات البعيدة .. قل لى كل ماتريد أن تقوله للولو .. وسأنقل أنا كلامك لجارتى القريبة .. وجارتى ستنقل كلامى إلى جارتها القريبة .. سيجرى كلامك من فم نملة

إلى فم نملة حتى يصل إلى أذن لولو ... وهكذا لا يتعرض النمل للتعب ولا تتعرض أنت للمتاعب .

رسالة إلى لولو

سأعمل بالسيرك يا لولو .. لا تندهشى وخذى الحكمة من فم النمل .. بالصبر سأنال كل ما أريد .. المروض فى السيرك مسلح بالمسدس والسوط ـــ لأنه يخاف من لسعة السوط وغدر المسدس .. أما أنا فسأعلم نفسى بنفسى ـــ فلا تخافى يا لولو .. لن أحتاج إلى من يجلدنى أو يهددنى .. وأنا الآن أبحث عن ألعاب جديدة تصلح للسيرك .. وحتى نلتقى ـــ دمت لى يا لولو .

القفص يتكسر

(١)

حذرتنى لولو : لن يكون موقفك اليوم افضل من موقفك يوم البستان. قلت : حسبت حسابى يا لولو ولن أضيع الفرصة .. الكل هنا يضحك على المهرج وعلى محاولاته الفاشلة فى تقليد الآخرين .. وأنا سأشترك مع المهرج فى نمرته .. إن فشلت فسيضحك الكل علىَّ كما يضحكون على المهرج .. ولو نجحت فسأخرج لسانى للزمان .

(٢)

وقفت على الأرض بساقين ورميت ساقين فى الهواء .. ومشيت على الساقين الأماميتين مرّةً ، وعلى الساقين الخلفيتين مرة ، ووقفت على رأسى .. وكما تتدحرج كرة الحظ تدحرجت .. ودرت كما تدور الساقية .. وها أنا فى الأرض مرة،وها أنا فى الهواء مرة أتفادى ضربات المهرج الطائشة .

(٣)

قال صاحب السيرك ـــ وعقد العمل بين يديه : من سيركى نال شهرةً ..

وليس من العدل أن يعمل مع صاحب سيرك غيرى .. سأدفع له كل ما يريد من مال .

وقالت رشا صاحبة لولو : براڤو ميزو .. وقالت لولو : براڤو .. رائع يا ميزو ..

صوت واحد لم أسمعه .. صوت صابرة .. وقعت صابرة وأنا أصنع مجدى .

أيام الهنا .. كل يوم بسنة

– ون –

صرنا نلتقى أنا ولولو بالسيرك وبالفيلا ، وكان أهل الفيلا يرحبون بى ويفخرون بالرابطة التى تربطنى بلولو وبهم ، واليوم هش صاحب الڤيلا فى وجهى وبش — وقال لضيوفه : ميزو فى سماء الفن نجم .. وارتباطه بالمجتمع الراقى طبيعى .. هذا حقه ، وأشار إلى الحائط: « كنا داخل الإطار الذهبى نبتسم من وراء الزجاج — أنا ولولو ورشا ابنته » ، وكانت الصورة الملونة معلقة فى المكان الذى يستقبل فيه أهل الفيلا ضيوفهم .

– تو –

إسمى ميزو أسكن فيللا ينام فى حديقتها الياسمين ، عندى عربة ليموزين وموتوسيكل، أقوم بألعابى فى السيرك بقبعة ودراجة وعصا ، الطوق فى رقبتى والأجراس فى قدمى من الذهب الخالص ، الباعة ينادون على تماثيلى المصنوعة من الحجر والبلاستيك والشمع والسكر الملون فى القطارات والمقاهى وعربات التروللى باس ، والدمى التى على شاكلتى محبوسة داخل فاترينات كل المحلات ، ولبن ميزو أفضل هدية تقدمها الأم لطفلها ، وكلما سرت فى شوارع المدينة — سد علىّ المعجبون المنافذ وطلبوا بصمتى على صورتى ، ويشق لى حارسى المسلح الفجوة التى أنفذ منها — فيرمينى عشاق بالورود وأصابع الحلوى واللوز المقشور .

– ثرى –

أرسلت الرسول إلى الريف ــ فجاء أبى وأمى واستقر مقامهما فى حجرة تليق بهما بدار الرفق بالحيوان ، وحاول أبى تفسير مواقفه القديمة منى ــ فقلت له : لا عليك ياأبى .. عندما كنت تقسو على بلسانك ــ كنت أنظر فى عينيك وأرى نفسى محاطة بكل حب ، وتركتهما ــ لأنى مرتبط بأداء دورى فى فيلم « ميزو وعصابة المرأة المقنعة »

– فور –

اشتريت نظارة لأمى وأسنان صناعية لأبى ، وقلت لنفسى : لابأس من وجودهما بدار الرفق بالحيوان .. ولا مبرر للحزن،فتلك دورة من دورات الزمان لا ينالها إلا المترف والمحظوظ .

هَبّة الكلاب أبناء الكلاب

تحت شمس الظهيرة ــ نصب العمال الصوان . دقوا أعمدة الخشب فى الأرض ولفوها بالقماش المنقوش .. وعلقوا الرايات واللمبات الملونة .. وصفّوا الكراسى وأكاليل الورد .

وتحت النور ــ جلست أنا ولولو على كرسيين كبيرين .. نبتسم للراقصة التى تدق الصاجات وتتلوى كسمكة فى الماء .. ونتقبل التهانى من أكرم وأعرق عائلات اللولو والوولف والرومى والسلوقى ، وفجأة سمعنا النباح العالى البغيض ودق الطبول ونفخ المزمار البلدى وأفواه تغنى بصوت قبيح:« الدنيا حظوظ .. واليوم يومك يا محظوظ ».، إنها وفود من الكلاب البلدى وكلاب أرمنت زحفت إلى عاصمة البلاد فى مظاهرات صاخبة لتحضر فرحى .

بان الفزع فى وجه كل الحضور : صرخت إناث السلوقى وأغمى على ذكور

اللولو،وتعالت صرخات عائلات الرومى تطلب من الحرس المسلح العون فى وقت الشدة .

نظرت إلى حارسى وأنا أهوهو غاضباً : يالهم من أغبياء .. لقد انقلب عرسى إلى مأتم .. فأشار حارسى إلى بقية الحراس ـــ وصرخ : اطلقوا الرصاص .. دعوا الرصاص يلعلع .

على النجوم مسايرة الموضة

اشتريت سيارة رولز رويس صفراء ، ونزعت طوق الجلد وعلقت فى رقبتى سلسلة من الذهب تدلى منها تمثال لولو ربة الجمال وربة بيتى ، وعلى وسطى علقت الحزام المرصع بالخنافس المنحوتة من الحجر الكريم .

الشهرة كشجرة الفاكهة : طعمها حلو وبذرها مر

وقتى وزع بين السيرك والسينما والتليفزيون والإذاعة والسهرات والمقابلات والاتفاقات ـــ مع المنتجين والموزعين والمخرجين .. وعند الكوافير والمدلك ومقلم الأظافر ، لا أرى أمى وأبى إلا قليلا ـــ ولكنى أرسل لهما الهدايا والتحيات مع سكرتيرتى « ساتى » وسائق عربتى « فرج الله » .

الحرام والحلال

طيبات الأرض كثيرة أمام عينى وفى متناول يدى ـــ لكن أقل القليل منها مباح ، أطبائى فرضوا علىّ النظام القاسى ـــ حتى يحتفظ جسمى برشاقته ومرونته . متعتان لا أسمع فيها رأى الأطباء : تدخين البايب والفرجة على لعب الورق المسماة « كُن كان » .

الماضى يطاردنى « أ »

ابنى من لولو ـــ له وجهى الكبير وجسم أمه الصغير. شكله المضحك أبكانى وأصابنى بأرق جعلنى لا أنام ـــ إلا إذا حضر الطبيب ورشق الإبرة فى جسمى : ليجرى السائل الأصفر فى عروقى .

إسم ابنى « لوز » حرف اللام من لولو .. وحرف الواو من لولو وميزو .. وحرف «ز» من اسمى أنا «ميزو» أبوه ، لكن الصغير الغبى ينطق اسمه هكذا: «لوظ» .. كأنه يريد أن يذكرنى باسمى القديم « محظوظ » .. ذلك الأسم الغليظ على السمع والقلب .

الماضى يطاردنى « ب »

بينما الكوافير يصفف شعرى ـــ أحسست بقرصة فى أذنى ، كتمت الألم ولم أهرش ، أجلت هذا الفعل الذى لا يتفق مع الذوق الراقى ـــ حتى أختلى بنفسى ، ولما اختليت بنفسي ـــ سمعت الصوت يهمس فى اذنى : أنا النملة الحكيمة أم صابرة.. أتيت لأرى ابنتى يا محظوظ ، فنبحت فى غيظ : أنا ميزو .. وصابرة هناك مع محظوظ ، وهرشت أذنى ـــ وأنا أعوى كذئب : والآن الحقى بهما فى نار جهنم أيتها النملة الحكيمة .. وبلغى سلامى إلى صابرة ومحظوظ .

الماضى يطاردنى « ج »

لعقت الدورق الكبير الذى يطفح منه اللبن الدافىء ـــ لتهدأ أعصابى الثائرة ، ونظرت إلى المرآة ـــ وأنا أكلم خيالى : قل لى ياخيالى .. خيال من أنت .. خيال ميزو أم خيال محظوظ !؟، وقبل أن يرد دخل الطبيب ورشق الابرة فى بدنى فجرى السائل الأصفر فى عروقى وتراجع الماضى . ولما أقبل النوم ـــ وألبسنى نظارة سوداء رأيت بها كل شىء يحترق .. كل شىء .. والنار تقترب منى،وأنا لا أتحرك ولا أفعل شيئاً ..

الطوق والإسورة

للشجر المورق العالى .. وللريح المغنية وللإنسان ،
ـــ على الأرض ذات الخير ـــ فى قوته وفى ضعفه .



القسم الأول

الغائب

مع الرجال رحل مصطفى إلى السودان ، وهو بعد صبى . مر عام والعام الثانى يطوى شهره الأخير ، وما من خبر عن الغائب الغالى .

عقل حزينة قلب أم

عقل حزينة مع ابنها : هناك فى البلاد البعيدة . وأذنها اليمنى التى تسمع — هنا : مع الحمام الذى يهدل « الملك لله .. الملك لله » . عينها اليمنى فقدت النور من عامين . بعينها اليسرى ترقب : البشارى الراقد فوق المصطبة التى تطوق جذع شجرة الدوم .

(صار بعد العمر الذى مر كالقفة ، ترفعها من مكان به شمس ، وتضعها بمكان به ظل ، يرقب الشمس الجارية فى السماء ، ويصرخ ، فى وقت:« أبغى الشمس» ،ويصرخ فى وقت آخر: « ابغى الظل » — هكذا طوال النهار ، هكذا يمر النهار ، وهكذا تمر الأيام التى تطوى الأعمار : هى وابنتها تحملان القفة .. من الشمس إلى الظل .. ومن الظل إلى الشمس — لكنه رجلها فى الحلال ووالد مصطفى وفهيمة) .

★ سبق أن نشر « يحيى الطاهر عبد الله » الجزء الأول من هذه الروايه فى مجموعة « الدف والصندوق » فى قصتى « الشهر السادس من العام الثالث » و « الموت فى ثلاث لوحات ».

اليدان تلعبان ــ هنا ــ بالمغزل الذى لا يكف عن الدوران ولَمّ الخيوط ، والعقل ــ هناك ــ مع الغائب فى بلاد الناس البعيدة .

بخيت البشارى فى حديث يقظة

المصباح شح زيته والليل الطويل الأسود قادم ، آه من الوجع والسن ، نومى قليل وبولى لا أتحكم فيه ، حزينة المخرفة تتطير من رؤية النعال مقلوبة ومن الريح لو حملت قشر الثوم ومن قدم تدوس كسرة خبز مرمية ، معذورة : هى امرأة ، الرجل مِنّا كابد ، عقلها مع الولد ــ والولد بالسودان البعيد ، قلب الولد من حجر وأنا قعيد البيت ، أرغب فى النوم .. أشتهيه ، لو نمت وطال النوم ــ بدون أحلام وكوابيس ــ سأذهب إلى الله الرحيم : أنا المسلم ــ وأتخلص من الأوجاع والعمر المكروه وأدخل الجنة ، لو عندى دخان لدخنت ومرَّ هذا الوقت البطىء الثقيل الذى لا أحتمله .

من حِكَم الليل معلم القرى

– ١ –

نجمة مشتعلة هوت من السماء الزرقاء العالية واحترقت قبل أن تبلغ الأرض : ــ لو مست البشر أو الحيوان أو الزرع وحتى الجن؛لتحول فى التو إلى رماد .

– ٢ –

مصطفى الأصغر لكنه سيد فهيمة التى تكبره بعامين ونصف عام :

يضربها وتحبه ، والأم موافقة والأب موافق ، مصطفى حامى فهيمة ومخوفها من العيب ، مصطفى رجل وفهيمة بنت . البنت ثوب أبيض طويل الذيل ، عليها أن تمسك بذيل ثوبها وتمشى فى الطريق محاذرة ، وهل بالطرق غير التراب والوحل والقش !!

الصبيّة مضطربة والليل رفيق الأفكار

هى بنت الأم والأب ، وهو شقيقها ، وهى تحبه ، وهو باليقين يبادلها الحب . فى المرات الأولى كانت تبكى ، بمرور الوقت كانت تتعمد الفعل المعوج ليضربها ، فتتصنع البكاء وتشتمه ، هكذا تشتعل ناره وتحمى فيضرب بعنف ، وجهه الرجل يطفر بالدم الأحمر الدافىء ، والعروق فى رقبته تنفر وتكاد تنفجر .

يا حفيظ من غضبته ، هذا الذى كان يطلع نخل جبانة النصارى بالليل — يكون أحمد المحروق الحارس فى سابع نومة ، يسرق مصطفى البلح ويبيعه ويشترى الدخان ويدخن ، لم تقل فهيمة لأمها حزينة ولا لبخيت والدها إن مصطفى يدخن ، وحتى الآن هما لا يعرفان ، لقد كان مصطفى يهاب أمه ويهاب والده المريض .

ولقد كان يسبح فى الترعة مع الأولاد ، دون علم والده وأمه ، وعلى غير رغبتهما ، خشية أن يغرق ، أو أن تخطف قلبه جميلة من بنات الماء فينساق خلفها إلى الأعماق البعيدة الزرقاء .

خلع كل ملابسه ، وصار عاريا كما ولدته أمه ، تبعته فهيمة — لكن خفية ، ولم تقل لوالديها ، وهل كان بمقدورها أن تقول !؟ ، وحتى الآن لا هو ولا هما يعرفان .

خرج للخلاء وقضى حاجته وعاد للدار ، وتسللت فهيمة متسترة بالليل ، وكان للبول المختلط بالتراب الجاف : رائحة ثمرة جميز خضراء عطنة ، وحين تتذكر فهيمة مصطفى تنتشر فى الجو رائحة ثمرة الجميز الأخضر العطن،وفى الستر كانت فهيمة تشم رائحة عرق مصطفى ورائحة وسخه بملابسه — التى تلم جسده — قبل أن تغسلها .

وها هى الصبيّة ترقب نجمها السارى وقلبها يرجف :

كم هى بعيدة تلك السماء الشديدة الزرقة ، وكم أنت مخوّف — رغم البعدة — أيها الشقيق الغالى الغائب .

الشهر السادس من العام الثالث

همهمت الغجرية لترقص « الحلقان » المتدلية من الأنف والأذنين ، وسحبت من مقطفها صرة من القماش ، فكّتها ، فبان رمل وحجر . مدت حزينة يدها ببيضتين . قالت الغجرية : « ثلاث بيضات » ، وابتسمت وهى ترمى فهيمة بنظرة ، ولمعت سنتها الفضية ، وتمتمت : « مليحة الصبّية .. كالقمر لما يكتمل » . لمحت حزينة « الحلقان » وهى ترقص — قالت : لن أتركها تخطف ابنتى .. تلك التى لا دار لها ، سارقة الكحل من العين ، سارقة الدجاج والأطفال ، لن أتركها تسرق ابنتى ، لكنها تعرف كيف تكلم الحجر وتسمع منه ، ثلاث بيضات ثلاث بيضات ، ههه .

ما قال الحجر وما قالت الغجرية

أراه ، ها هو ، اقتربى يا أم وانظرى :

قطار من حديد أسود رمى خلفه الدخان والأهل والتراب والزرع والبيوت ، وباخرة حملها الماء وجرت بها الريح ، الجبال سوداء ، والرمل الأصفر على الجانبين ، وبالبلاد ملوك ، وشمس جارية فى السماء وشمس تجرى فى الماء ، فى الماء قمر وفى السماء قمر : إنها الأيام والليالى يا خالة ، أبشرى يا أم : فى الشمس الثامنة حط ابنك على البر بسلام .

خبر

من النهر عادت فهيمة ، باب بيتهم الخشبى الموارب ضربت ضلفته الواحدة بقدمها ، وزعقت : « آماه .. آماه » . تملّك حزينة غضب — سمعت خبط الضلفة الخشبية بالحائط الطينى وصراخ فهيمة وصوت الجرة التى سقطت من فوق رأس فهيمة فانكسرت ، قالت حزينة : « الرعناء » . وصرخ البشارى ونفض عن رأسه الغطاء : « البنت تصرخ فى سوق على بضاعة بارت .. ما الذى جرى ؟ .. هل قامت القيامة !؟ .. » صرخت فهيمة : « وصل جواب من عبد الحكم لأهله . قال بخيت البشارى » : البنت ماتزال تنادى فى السوق .. من يكون عبد الحكم ؟ .. مالنا ومال عبد الحكم !؟ . قالت حزينة : « عبد الحكم ابن تفيدة بنت على .. رفيق مصطفى فى غربته » . قال البشارى : « عبد الحكم

بن طه محمد .. تقصدان عبد الحكم ابن طه الحاج محمد .. هبه ؟ » ، وسأل مستفسراً : « ومصطفى !! ما أخبار مصطفى ؟ » . نظرت حزينة للجرة المكسورة وانقبض قلبها : « هذا النذير » ، وردت على بخيت بعد وقت وقد همت بلبس بردة الخروج : « منهم سأعرف .. سأعرف منهم » .

بشارة

فى خطاب عبد الحكم لأهله سلام من مصطفى لأهله : ها قد ارتاح بال حزينة ، جلست مع النسوة ومع تفيدة بنت على أم عبد الحكم ، أكلت تمراً ، وشربت شاياً ، وسمعت خمسة أطنان من الكلام عن الرجال وعن مضمون الخطاب وعن المال ذلك الحلم ، ورددته كالببغاء على مسامع البشارى وفهيمة :

« يبيتون فى خيام تجاورها خيام ، والأرض ذات الخير محتاجة لماء ، يشقون الترع ويقيمون خطوط السكك الحديدية معهم فى الخيام وفى العمل عساكر سود يرطنون رطانة الانجليز الحمر ، وصوت الوحش البعيد يسمعه الرجال ، والثعابين كبيرة برقبتها أطواق سوداء ولها أجنحة ، وكذا العقارب كثيرة ، السودان بلد الأولياء والصالحين وأهل الخير وبلد السحر والأحجبة والمهدى المنتظر، بعض أهل البلد يستطيبون لحم الآدمى ، لكنهم يسكنون الغابات بعيداً عن الرجال .

الحمد لله والشكر لله

باكو دخان معسل كبير مرسوم عليه نجمة قايضت عليه حزينة منصور الصادق صاحب دكانة الأمانة ، أعطت حزينة منصور الصادق ست بيضات وأخذت باكو المعسل وأعطته ليوسف سليم نقيب الشيخ موسى فى جمع النذور ، وطلبت حزينة من يوسف سليم أن يعطى باكو المعسل للشيخ موسى وأن يطلب من الشيخ صاحب الدعوة المقبولة من الله أن يدعو لمصطفى بالسلامة فى بلاد الناس .

نقاش

قال بخيت البشارى لحزينة : « يوسف سليم سيأخذ الدخان لنفسه » ،

وفكر : « باكو دخان كبير مرسوم عليه نجمة » .

فكرت حزينة : « بخيت البشارى كان يريد الدخان لنفسه .. كى يأمرنى بإشعال النار فى الحطب .. ويأمر البنت بوضع الماء فى الجوزة .. وينفخ هو الدخان من فمه وأنفه ويكركر كالسلطان ، يوسف سليم رجل طيب » .

وقالت لبخيت : « يوسف سليم رجل طيب .. فضله الشيخ على سائر أهل البلد واختاره ليكون نقيبه فى جمع النذور .. هل اختارك أنت ؟ » .

فكر بخيت البشارى فى حزينة التى عرفها من المعاشرة الطويلة : « حزينة مناكدة .. هى الآن تريدنى أنا .. تريد لحمى لتنهشه .. أنا رجل البيت .. لما كنت أملك عافية الشباب كنت أغلق فمها .. لما يأتى الليل سأبكى تحت الغطاء،لو صحت حزينة أو فهيمة على صوت بكائى سأصرخ فيهما : اتركانى لحالى .. أبكى من العلة .. لاشىء .. دعانى .. أبكى من العلة » .

قالت فهيمة حتى تبدد الصمت بين الأم والأب : « الشيخ موسى كله خير وبركة » . وفكرت فهيمة : « وهو فى مثل سنى خلع ثوبه ورماه فى الماء فطفا الثوب وقعد عليه الشيخ وعبر النهر من الشرق إلى الغرب وعاد للشرق ولبس ثوبه الذى لم يبتل » .

وعاد بخيت البشارى إلى نفسه يلومها ـــ وقد خاف الضرر المخبوء فى الغيب : « يوسف سليم رجل طيب .. كان يعمل بالتجارة ويكسب ، كانت دكانته حجرة من حجرات بيته،تطل على الشارع .. ولما اختار الشيخ تلك الحجرة لتكون خلوته التى يعبد فيها الواحد الأحد كف يوسف سليم عن الجزارة وأصبح نقيب الشيخ فى جمع النذور ، والشيخ يغلق باب حجرته عليه بالنهار ويظن الجاهل أنه بداخلها بينما الرجل الصالح يجوس هناك بمكة المكرمة حيث قبر الرسول الطاهر .. فى عام حج لمح الحاج حسن عبد الله الشيخ مندساً فى زحام الحجاج فناداه ـــ لكن الشيخ اختفى بقدرة قادر ، نعم فالشيخ لا يحب العلانية فى العبادة .. حتى وقتنا هذا لم يشاهده مخلوق يدخل الجامع ليصلى .. لكن الشيخ يصلى،ويصلى الجمعة بالذات فى المسجد النبوى .. ومن يقول غير ذلك فهو جاهل بمقام الأولياء » .

لولا المرض الذى يقعد بخيت لزار بخيت الشيخ ، وقبل يد الشيخ ، وبكى بين يدى الشيخ ، وجلس مع أحباب الشيخ ومريديه وسمع منهم وسمعوا منه ، وشرب المعسل ، وشم البخور الذى يأتى من مكان بعيد مجهول ، وشارك فى الأذكار ، وأكل اللحم الذى يشد العظام ويجعلها متينة .

جواب

بعد ثلاثة شهور ونصف شهر من وصول رسالة عبد الحكم طه لأهله وصلت رسالة من مصطفى لأهله على عنوان الشيخ الفاضل .

أفاد مصطفى والده البشارى بالخلاف الذى نشب بينه وبين الريس عبد الظاهر ، وطلب من والده عدم التدخل فى موضوع الخلاف وعدم مناقشته فى ذلك الأمر الذى حسم . قال مصطفى :

« أنا رجل أعرف مصلحة نفسى ، فلا تدع الأفكار السوداء تنتابك من ناحيتى .. كتبت أخاطب الريس سعيد عقيل بفلسطين الشام .. أرسلت خطابى بالبريد العاجل .. وفات أسبوع كامل من يوم أرسلت الخطاب .. حال ما يرد الريس سعيد سأسافر من هنا رأساً إلى فلسطين الشام .. سلامى إلى أمى الغالية حزينة وأختى الغالية فهيمة : التى أتمنى لها حياة مستورة تحت سقف بيت ابن حلال ، يأتى ويدق الباب ويقام العرس فى حياتك يا أبى : أطال الله عمرك » .

عطر الحبيب

فرغ الشيخ الفاضل من قراءة الرسالة وهم بطيّها ، فخطفتها حزينة الملهوفة من يده وشمتها وقبلتها ، وكذلك فعلت فهيمة ، وما عاد بخيت البشارى بقادر على كتمان فرحه برسالة الابن فطلبها وشمها وقبلها،وحبس الدموع حتى لا يفضح ضعفه وهو رب البيت مازال .

ذلك المجهول

الفرحة برسالة الابن الغائب أنست الجميع أن يسألوا الشيخ الفاضل عمن كتب الخطاب لمصطفى الأمى . أما الشيخ الفاضل فهو الوحيد الذى قرأ تلك

الجملة على ظهر الخطاب :

« مع تحيات محمد أحمد كاتب الخطاب .. والسلام لساعى البريد » وسأل الشيخ الفاضل نفسه « من أنت يا محمد أحمد ؟ .. ومن أى بلد أنت ؟ ؟ » .

قلب العذراء فى الصندوق

« أ »

فجأة تقل رغبة البنت فى الكلام مع الآخرين من حولها لما تشعر بثقل الحمولة على الصدر ، تطل بعينيها من مرتفع على الصدر الذى انشق وترى الثديين شمسين طالعتين ، فيكثر حوارها مع القلب :

« عريسى قادم على حصانه .. عريسى راكب فوق سرجه .. عريسى يطرق بابنا وأنا التى ستفتح الباب .. إن لم يكن اليوم فغداً .. إن لم يكن اليوم فغداً وتلك مشيئة الله .. يا فرحتى لو جاء غنياً .. ولو جاء فقيراً فهذا نصيبى .. الغنية للغنى والفقيرة للفقير.ولكنى مليحة فهل تراني عيونك أيها الغنى مليحة .. كل ما يروق لك عندى يا رجلى .. هذه هى أشيائى الجميلة فى صندوق الخشبى المحلى بصورة الزناتى خليفة والهلالى سلامة وكليب وجساس والبسوس المولولة : مَكْحلة .. ومناديل ملونة ذات شراشيب .. وزجاجة عطر وثوب منقوش وصابونة معطرة » .

« ب »

فتحت فهيمة صندوقها الخشبى ، وأخرجت من بين طيات الثوب المنقوش رسالة مصطفى ، وشمتها وقبلتها ، وما شبعت وما ارتوت ، ونقلت عينيها بين الصورة المرسومة على الطابع والصورة المرسومة على الصندوق ، وقالت لنفسها وهى تحاورها :

« هذا هو ملك مصر والسودان بطربوش أحمر ونياشين من ذهب على الكتف والصدر وشارب مفتول ! .. وهذا هو الزناتى خليفة المصروع بيد الهلالى سلامة يحمل تحت أنفه شارباً مفتولاً أكبر من شارب الملك ! .. وهذا هو الهلالى قاتل

الزناق بغير نياشين على الصدر والكتف ! .. ومصطفى يوم سافر كان بغير شارب .. فهل له الآن شارب يفتله !؟ » .

من الشام

بعد مضى أربعة شهور من وصول رسالة مصطفى الأولى من السودان،وصلت رسالة مصطفى الثانية من الشام وبها حوالة بريدية ـــ قال مصطفى :

« أنا بخير حال .. وفلسطين الشام جنة الله فى الأرض ولا يشغل البال غير بُعْدِ الأهل . » .

رسالة ثانية من الشام

ما مر شهران آخران حتى وصلت رسالة من مصطفى ، بها مال أقل من المال الذى بعث به من قبل فى رسالته السابقة .. قال مصطفى :

« أنا بخير حال .. ولا وحشة أشد من وحشة الغريب المنقطع عن الأهل والأوطان » .

حديث الشيخ الفاضل مع نفسه

فارق الشيخ الفاضل دار بخيت البشارى،ورمى خلف ظهره خمسة بيوت طينية واطئة وحدث نفسه ـــ هو الذى قرأ الرسالتين :

« جنيهان .. فجنيه .. ثم نصف جنيه ؟! .. ثم يأتى دور « لاشىء » : هكذا يدخل الأبناء الحياة ويجربون ، المال فى يد الصغار مفسدة .. وفى يد الصغير المحروم كمصطفى مفسدة وأى مفسدة » .

وَلَمَّ الشيخ الفاضل فى ذاكرته تلك التفاصيل وابتسم :

١ – ببيت بخيت البشارى سرير جديد : لم يجف جريده الأخضر بعد .

٢ – حزينة تأمر فهيمة بأن تحضر حصيرة وتفرشها على المصطبة ليجلس هو : الحصيرة جديدة ومن عشب السمار .

٣ – أتت فهيمة بكوب الشاى على صينية جديدة مرسوم عليها ورد أحمر كبير محاط بورق أخضر صغير لكنه كثير .

القسم الثانى

١

مايخافه البشر

- أ -

ها هو بخيت البشارى ممدد على سريره ــ الذى صنعه بيديه من جريد النخيل ، قبل أن يقعده المرض من عامين . رفعت حزينة عنه الغطاء ، ورأت الوجه وقد شرب الألوان الثلاثة : الأسود والأزرق والأصفر ، فخمنت أنه الموت . قالت حزينة لبنتها فهيمة : « اركضى يا بنت ولا تعودى بغير الشيخ الفاضل » وقالت حزينة لنفسها ــ وهى ترى الغطاء يطلع وينزل بمكان الصدر : « ها هو يقاوم بعزيمة الرجال » .

- ب -

لم الشيخ الفاضل ذيل قفطانه الحريرى الأبيض من خلف وهم بالجلوس . أقسمت حزينة بمحمد أشرف الخلق صلّى الله عليه وسلم أن لا يوسخ الشيخ الفاضل ثوبه النظيف بالقعود على المصطبة العارية . جرت فهيمة وعادت بحصيرة فرشتها على المصطبة .. وقعد الشيخ الفاضل .

– ج –

خبطات الهواء تحرك الأوراق الخشنة الكبيرة لشجرة الدوم وتجعلها تحتك وتصدر أصواتاً أشبه بزحف الحيات وسط دغل الحلفاء ، وضوء شمس ما قبل الغروب الأصفر اللين يغمر أرض وحوائط الفناء الضيق .

أشار الشيخ الفاضل بالفائدة التى تعود على المريض من شعاع الشمس الأصفر . حزينة القاعدة على الأرض بجوار سرير زوجها لزمت الصمت . فهيمة القاعدة على الأرض بجوار أمها لزمت الصمت ، وقالت لنفسها : « سأجارى أمى فى كل فعل تفعله .. أنا لم أخبر بعد هذا الذى خبرته هى » .

– د –

أدار الشيخ الفاضل وجه بخيت للقبلة الشريفة ، وباعد بين الشفتين وصب الماء الطهور ، ومال على أذنه مجاهراً : « لا إله إلا الله .. سيدنا محمد رسول الله » ، وعاد الشيخ الفاضل وقعد على الحصيرة فوق المصطبة .

– هـ –

سقط الظل الثقيل على الفناء فجأة ، خمن الشيخ الفاضل بعلمه أن ملاك الموت قد حضر . وقالت حزينة المحنكة : « نعم هو ملاك الموت » . وظنت فهيمة من غفلتها أن الشمس سقطت هناك خلف جبل الغرب ، لكنها أغمضت جفنيها — مثل أمها والشيخ الفاضل — لتحمى عينيها — فالتراب مهتاج من ضرب الجناحين الكبيرين .

– و –

سمعت حزينة وسمعت فهيمة وسمع الشيخ الفاضل — صوت الباب الذى انغلق خلف ملاك الموت الحامل روح بخيت البشارى . فما قدرت البنت على كتمان الصرخة العالية ، أما الأم المجربة فقد حبست صرختها وأطلقت دموعها ، فهى تعرف أن هناك واجبات نحو الميت عليها أن تقوم بها قبل أن تقول حان حين العويل . وتمتم الشيخ الفاضل : « إنا لله وإنا إليه راجعون »

النسوة المعزيات يشاركن حزينة الصراخ ويلطمن الخد . وحزينة تعلم أن كل واحدة منهن تنادى موتاها الغوالى ـ لا حباً لبخيت فى حياته ولا جزعاً عليه بعد مماته . أما هى فبعقلها ـ هناك : مع الولد البعيد الذى لن يحضر جنازة والده ، مع الميت ، مع الرجال بالغرفة القريبة .

« يرفعون الشَعْر عن الإبطين والعانة ، ويغسلون الجسد بالماء ، ويدعكونه بعشب العفن المر ، يجمعون من جيوبهم ثمن الأكفان البيضاء ، يحملونه على خشبة ، ويصلون عليه ، ينزلونه فى الحفرة ثم يهيلون التراب عليه ، وعليها هى أن تتدبر فى أجر الفقهاء؛ الذين سيحضرون لتلاوة القرآن على روحه طلباً للمغفرة والرحمة .

٢

على الأحياء واجب نحو أهل الميت

- ١ -

لأن الشيخ الفاضل يعلم حق العلم حرمة البيت فقد قام بواجبه :
اشترى الأكفان البيضاء التى لفت الميت من ماله ، وصلى بالناس إماماً ، ودفع من ماله أجر الفقيه الذى قرأ القرآن على روح بخيت طلباً للرحمة والمغفرة .

- ٢ -

أيام العزاء مرت كلحظة خاطفة :
بخيت البشارى فارق دنيا الأحياء ، فهيمة فى مواجهة حزينة ، وحزينة فى مواجهة فهيمة ، ها هما وحيدتان ، عائلهما الرجل فى بلاد الناس البعيدة ، وها هما ـــ البنت والأم ـــ فى مواجهة عالم الناس وحيدتان .

والنسوة المعزيات شغلن الدار حركة فى الأيام التى مرت ، أحضرن الشاى من بيوتهن لكى تفطر حزينة وفهيمة ، وبالبيض والجبن لتتغدى حزينة وفهيمة ، وغالباً ما كان العشاء اللحم المقلى والخضار المطبوخ .

وفى صوت حزين يفتت الكبد كن يرتجلن المراثى ، بعد تناول الفطور وعقب الغداء وقبل الغروب .

- ٣ -

من مراثى النسوة حفظت فهيمة ما تردده ـــ الآن ـــ بصوت خفيض ، حتى ترد الواجب فى حينه ـــ لكل من شارك فى مأتم الأب ـــ بدلاً من الأم التى شاخت :

« كَتّب الكتاب ياليتنى شفته ، كسرت القلم والحبر نشفته »

« كَتّب الكتاب ياليتنى رأيته ، كسرت القلم والحبر كبّيته »

- ٤ -

لوح الشيخ الفاضل بالسيف الخشبى فى وجه الرجال ـــ من فوق منبر جامع جده عبد الله ـــ وخطب فى المصلين :

« امنعوا نسوتكم من ترديد تلك المراثى .. لن يرحمكم الله إن لم تأمروا حريمكم بالكف عن الفعل الحرام .. والرجال قوامون على النساء .. وتلك عادة جاهلية وأنتم مسلمون .. فلا تعرضوا موتاكم وأنفسكم لعذاب من الله شديد .. وصلوا على أرواح الموتى يغفر الله لهم ولكم ولنا .. إن الله غفور رحيم » .

- ٥ -

كتب الشيخ الفاضل رسالة على عنوان الريس سعيد عقيل بفلسطين الشام وطلب منه أن يسلمها لمصطفى بخيت على عجل . قال الشيخ الفاضل فى الرسالة : « انتقل والدكم بخيت البشارى من الدار الفانية إلى الدار الباقية ، تجمل بالصبر ياولدى ، فليس من ديننا من لطم الخد وشق الجيب ودعا بدعوى الجاهلية ، الدوام لله وحده وكلنا إلى فناء » .

- ٦ -

وصلت رسالة مصطفى على عجل ـــ قال :

« لم أصدق ولن أصدق ، والدى حى ـــ لكنه بعيد ، وأنتم بعيدون ، وتلك إرادة الله ، كان يجب علىّ أن أراه قبل أن يرحل ، مرسل لكم مال لتقوموا بواجب الميت ، والدوام لله وحدة ، ولكم طوال العمر ، وإنا لله وإنا إليه راجعون » .

٣

نهر الحياة لايتوقف عن الجريان

- ١ -

أملت حزينة على الشيخ الفاضل ، فكتب :

« طلب الحدّاد الجبالى يد أختك فهيمة ، أجلنا الرد حتى تصلنا منكم الموافقة » وأضاف الشيخ الفاضل من عنده :

« الحدّاد حسن السمعة طيب المعاشرة ، يملك بيتاً من والده المرحوم الجبالى ، ويرث سبعة قراريط : ثلاثة قراريط من أمه وأربعة قراريط من أبيه ، ولا يأكل من ساعد الحدّاد غير أخته الحدّادة زوج المرحوم القناوى ضاحى ، ولا أعتقد أنه سيغيب عن بالكم أن الناصح ضاحى قادر ، وفقه الله ووفقكم ، ووفقنا جميعاً لما فيه الخير والصواب » .

وذيّل الشيخ الفاضل الخطاب بملحوظة ، أوصى فيها مصطفى بأمه وبذوى الأرحام ، مذكراً إياه بقول النبى : « الجنة تحت أقدام الأمهات » .

استملحت حزينة الملحوظة ، فأمسكت بيد الشيخ الفاضل وقبلتها ، ومثلها فعلت فهيمة .

- ٢ -

أوصلت حزينة وفهيمة الشيخ الفاضل حتى باب الدار .. وخلعت حزينة غطاء رأسها ونفضت شعرها الأبيض ورفعت ذراعيها وتطلعت للسماء الزرقاء المفتوحة ، ونادت الله :

« يا رب اجعل عقله الميزان العادل للأمور ، واجعل خلفه صالحاً ، ومد فى عمره ، لقد وقف الرجل بجوارى أنا وابنتى فى الوقت الصعب » .

- ٣ -

وافق مصطفى على زواج أخته من الحدّاد،وأرسل المال مساهمة منه فى تكاليف عرس الغالية بنت الأم والأب — وقال :

« لو كان بمقدورى إرسال أكثر من المبلغ المرسل لأرسلت والله أعلم »

ووعد مصطفى بإرسال مبلغ شهرى لأمه :

« يعينك على مطالب الحياة التى أعرف أنها قاسية »

تهلل وجه حزينة وكساه الفرح ، ودعت لمصطفى بطول العمر . وطوى الشيخ الفاضل رسالة مصطفى ولمح كتابة على ظهر الورقة فقرأ :

« ربطنى العيش والملح بأسرة شامية ، لها بنت هى عين العقل ووجه القمر ، ربما تم زواجى فى القريب العاجل » .

٤

واضحة شمس هذا النهار ، والحق — مثلها — واضح لا إبهام فيه ، وحزينة لما علمت بخبر زواج ابنها — فى القريب العاجل — غطى الكدر الأزرق وجهها . والشيخ الفاضل رأى وجه حزينة لما غطاه الكدر ، وحزينة غير قادرة على خداعه :

« هكذا — حتى تأتى العاصفة وتعصف بكل البشر — ستظل غيرةُ أم الابن من زوجة الابن غيرةً أبدية » .

القسم الثالث

من فلسطين الشام كانت الأموال المعلومة تصل حزينة بانتظام ، لم تنقطع علم الله إلا فى شهر واحد ، واعتذر مصطفى فى الشهر الذى يليه :

« أسقطت زوجنا الغالية حملها ، كانت بالشهر الرابع ، وهى الآن تتمتع بصحة طيبة ، لولا هذا السبب القهرى ما تأخرنا فى إرسال المعلوم » .

ترددت فهيمة على بيت أمها بحجة الزيارة ، كيف يتقبل العقل تلك الزيارات المتكررة من عروس ، وهل يفوت حزينة أن الحدّاد أيضاً كان يأتى فى أعقاب فهيمة مباشرة كما لو كان قشة تعلقت بذيل ثوبها :

« ههه .. مما يخاف الحدّاد ؟ .. آه .. أن تبوح البنت لأمها بسر لا يريد الحداد لحزينة أن تعرفه !؟ » .

فى كل مرة أتت فهيمة أتى خلفها الحدّاد ، ولا يبقى أكثر من الوقت الذى يشرب فيه كوب الشاى ، وينهض ، ويرمى فهيمة بنظرة عتاب ، فتقوم البنت وتتبع زوجها صامتة ! ، وهما لا يتبادلان الكلام مع بعضهما ولا يكلمان حتى حزينة » .

تخايلت العجوز وخلقت الخلوة التى جمعتها بابنتها ، وها هما على انفراد :
« اطردى الخجل وصارحينى يا بنتى أنا أمك » .
وقالت وهى تناور : « الرجل منهم يفلح أرضه .. يحرثها ويرمى البذور ويتابع الرى .. ثم يحصد ، هل يفلح الحدّاد أرضه !.. أم أن الأرض كافرة لا تعطى ؟ تكلمى » .

ترددت فهيمة ثم باحت : « ينفخ المصباح ويأتى إلى فرشنا .. يلمّنى ويظل يقاوم .. هناك قوة تقيده .. يمر وقت طويل .. يهمد وينفلت فى بكاء مر » .

لامت حزينة ابنتها ، ورمتها بالبله والخيبة الشديدة ، وحذرتها من أن تحكى ما حكته لكائن من كان — وقالت معاتبة :
« وتكتمين عن أمك ليمر كل هذا الوقت !؟ مثل تلك الأمور لا يسكت عليها ، والأمر غير كبير كما تظنين : واحدة من بنات الإنس تريد الحدّاد لنفسها ولا تريده لك يافهيمة .. فاستعانت الشريرة ببنات الجن القادرات ، هكذا تم الفعل الشرير ، والشيخ العليمى ساكن نجع الجبل الغربى يستطيع رد الشر إلى صاحبةِ الشر : بيديه القادرتين سيفكُّ الحبال التى تربط رجولة الحداد » .

قصدت حزينة الشيخ العليمى ، وطرقت باب خلوته بنجع الجبل الغربى ، فأجابها وسمع شكواها ، وأعطاها قلب الهدهد الأبيض وزجاجة صغيرة بها سائل عكر وورقة طويت تسعا وتسعين طية . ومدت حزينة يدها بقطعتين من العملة النحاس . ورفض الشيخ العفيف المال ولم يأخذه إلا بعد إلحاح شديد من حزينة .

أذّنت الديكة من فوق أسطح البيوت ، فهبت حزينة من الفرش ولبست بردة الخروج ، ستتجنب لقاء أى واحدة من بنات الإنس حتى لا يبطل مفعول الورقة . وتحت عتبة دار الحدّاد دفنت الورقة المطوية تسعاً وتسعين طية .

يبقى قلب الهدهد الأبيض : يشوى ، ويصحن لدقيق ناعم ، وينثر الدقيق خلف كل زائر يدوس بقدمه عتبة دار الحدّاد :
« الحذر يا فهيمة يابنتى .. بطل كل شىء لو داست قدم الحداد ذرات الدقيق » .

« هذا السائل العكر لن أبوح لابنتى بسره .. فهو من صلب رجل كامل القدرة من رجال الجن ، على فهيمة أن تضع نقطة واحدة لا تزيد من السائل فى حلة ماء طاهر ، يستحم الحدّاد وتحفظ فهيمة الماء ، وفى اليوم التالى تفعل فهيمة ما فعلته فى اليوم الفائت ، وتزيد النقطة إلى نقطتين ، ويستحم الحدّاد وتحفظ فهيمة الماء ، ويتكرر الفعل لمدة ستة أيام لا تتداخل فيها الجمعة المباركة ، وتزيد النقطة بعدد الأيام : هذا وإلا بطل كل شىء ، قبل طلوع شمس اليوم السابع تستحم فهيمة بالماء الذى جمعته من الستة أيام الماضية ، وتلتقى بالحداد فى فرشه ، وسيتم كل شىء بإذن الله وتنال المراد من رب العباد » .

اعتذر مصطفى عن إرسال مبلغ أكبر من المبلغ الذى يرسله ، بينما الجفوة القائمة بين فهيمه والحدّاد لها تكاليف ، والبنت الجاهلة بالحياة تخل دائماً بالشروط وتفسد كل شىء ، وها هو الحدّاد يتحاشى حزينة حتى فيما لو زارته فى بيته ، يزوغ الحدّاد بعينيه ويتعلل بعلل لاتقنع عقل حزينة ليهرب من البيت وكأن حزينة شيطان والبنت باحت لأمها بأن الحدّاد يضربها ولا يدخل بيته إلا لينام بعد سهر طويل فى الخارج مع العاطل والباطل .

« يشرب الحشيش يا أمى فى غرزة توفيق السيك ، ويمص الأفيون ويدسه فى جيوبه ، ويدارى عجزه بالنظر لحريم الغير ، والحدّادة أخته رمتنى بالتهم الباطلة ، تقول الحدّادة إننى أنقل الأشياء من بيت زوجى لبيت أمى » .

« الحدّادة تشعل النار فى قلب الحداد لتحترق ابنتى » .

« هل تصدقين يا أم .. لقد واجهنى وقال إنى عاقر » .

سيطلق الحدّاد فهيمة ، إن لم يكن اليوم فبعد اليوم بيوم أو بعد شهر أو بعد عام على الأكثر ، الطلاق واقع واقع لا محالة ، والحدّادة أخت الحدّاد تمهد للأمر وتشيع فى كل مكان أن بنت حزينة عاقر ، ومتى طلقت فهيمة من الحدّاد فلن يطلب يدها خاطب ، وستبقى البنت مع حزينة فى بيت البشارى بضاعة بارت : عازب وعاقر وعتبة داست قدم ، الحدّادة تطمع فيما يملك الحداد من قراريط ، والحدّادة لا تريد الخلف للحداد لترثه هى ففى ذلك مصلحة لأولادها من القناوى ضاحى .

« هكذا إذن تجرى الأمور ، لابد من تدبير سريع يسبق المحظور ، ولن يميز عقل الحدّاد المخدور بصفة دائمة ما ستخيطه حزينة بإبرتها .

قالت العجوز للصبية : « ربما كان العجز عندك » .
قالت البنت : « لم يقربنى قط » .
قالت الأم : « نجرب حتى نتأكد » .

* * *

ها هو المعبد القديم المشيد من الحجر الكبير ، تهدم بعض الحجر وسقط من بعض جوانب السور بفعل الزمن العاتى ، إلا أن بوابات المعبد السبع باقيات ، من فوق كل بوابة تطل شمس ذات جناحين يحيط بها ثعبانان حارسان .

هناك بالداخل بهو الأعمدة حيث كانت تقام صلوات أهل الزمن القديم ، لقد حرقوا هنا أكوام البخور الذى جلبوه من أقصى المعمورة ، وبالداخل رب النسل المكشوف العورة المحبوس بغرفته الضيقة ، والمسلة التى لم تكتمل .. المسلة ذات الصوت الرنان ، والبحيرة المقدسة : ماؤها لا يرتفع ولا يهبط رغم عيون الماء التى لا تكف عن البكاء لتصب فى حوض البحيرة الصغير : كنوز الأرض ترقد هنا تحت الماء من قلائد وأساور طوقت رقاب آلاف الملوك والملكات .

أمام بوابة المعبد القديم وقفت حزينة تكلم العرابى أب فكرى على انفراد . ومضت فهيمة تنقل عينيها بين الكباش :
« تلك الكباش كانت بشراً فى الزمن القديم ، وغضبة الله هى التى حولت بشر الزمن القديم إلى حجر ، عقاباً لهم على كفرهم ، نعم .. كيف يتزوج الأخ من أخته ؟! والابن من أمه ؟! وها هم البشر العصاة يرقدون فى صفين متقابلين لهم رؤوس كباش وأجساد أسود .

تقدم العرابى أب فكرى من فهيمة وقال : « اتبعينى » .
ستدخل فهيمة على الرجل الذى كان يتفاخر برجولته فحوله الله إلى حجر أسود بارد وجعله مكشوف العورة إلى أبد الآبدين .

« تركوه مع النسوة ومضوا للحرب ، ودامت الحرب بينهم وبين عدوهم سنين طويلة ، وكان هو يرسل لهم الأبناء وقود الحرب ، ولما تحقق لهم النصر نصبوه إلهاً من دون الواحد الأحد » .

صرَّ المفتاح فى القفل الكبير ، وصرت البوابة الحديدية الكبيرة ، وقال العرابى أب فكرى لفهيمة : « ادخلى » ، فدخلت ، ورد العرابى الباب خلف فهيمة .

فهيمة بمفردها ، والغرفة رطبة معتمة ، والخفافيش تطير قريبة من الوجه وتحرك الهواء الساكن ، وفهيمة تسمع صوت تنفسها وتسمع دق قلبها ، وبالتدريج وضح لعينى فهيمة ــ تحت الضوء الساقط من كوة عالية بالسقف المغلق شبح الرجل الضخم الأسود العارى المكشوف العورة : عينان حمروان كأنهما جمرتان مشتعلتان . حاولت فهيمة أن تطلق صرخة احتبست فى الحلق ، وفشلت فى إيقاف الرعشة الشديدة المفاجئة التى هزت بدنها ــ وهى ترى الرجل الضخم الأسود العارى المكشوف العورة يتحرك ويخطو نحوها .

« ها هو الظلام يطبق كثيفاً .. انطفأ كلياً نور العينين ، وسقطت الروح فى الكعبين ، والعقل ضاع ، أما السمع فحى ما زال يلتقط دبدبة الأقدام الحجرية الكبيرة على الحجر » .

أسلمت فهمية ظهرها لمن فتح الباب وغابت عن الدنيا .

« هذا بيت أمى ، أنا راقدة فوق سرير أبى الميت ، القائمة ترعانى هى أمى : ترطب جبهتى الملتهبة .. وتمسح وجهى الذى يحترق .. وتدلك عنقى .. وتضغط على صدرى ، الماء البارد حلو ، والماء الدافىء حلو ، النوم الطويل المقبل حلو ، أشتهى البلح الرطب ، الأيام مالها تمر سريعة ، أشم رائحة عرقه ، أشم رائحة البول على التراب الجاف ورائحة الجميز الأخضر الغطن ، أشتهيه ، أنت أخى وأنا بنت الأم والأب ، هاك حضنى .. خذنى .. تعال » .

شربت فهيمة شاياً دافئاً ونامت نوماً عميقاً .

القسم الرابع

خير الماكرين

له التدبير الأعلى ، أرسل الموت — فى صورة خنجر بيد مجوسى خسيس — إلى ابن الخطاب عمر وهو أمير المؤمنين ، ورمى النطفة فى بطن فهيمة فإذا هى حبلى بعد عام ونصف عام من زواجها بالحدّاد .

مكرت حزينة — لكن الله خير الماكرين ، وها هى حزينة تجنى الثمرة المرة : لقد خرجت فهيمة من بيت الحدّاد — طالق بالثلاث ، ولم يشفع لها عند الحدّاد أنها حامل فى شهرها الرابع .

رسالة إلى مصطفى ورسالة من مصطفى

لخص الشيخ الفاضل الخبر البغيض وكتب .

« وقع الأمر المكروه من الله والناس ، وبالطلاق الذى لا رجعة فيه انفصلت شقيقتك فهيمة عن الحداد » .

ظلت حزينة تنتظر الرد بفارغ الصبر ، وتصارع الوساوس فى اليقظة والكوابيس فى المنام ، خوفاً من أن تقتل الظنون السوداء ابنها فى بلاد الناس البعيدة ــ لولا جاء رد مصطفى على رسالة الشيخ الفاضل ، بالرسالة مال من مصطفى ووصية :

« نصف المال لابن فهيمة المقبل : لو جاء ولد سموه البشارى » .

إلى السوق

أول يوم ثلاثاء ــ عقب وصول المال من مصطفى ، ذهبت حزينة إلى السوق المقام بالبندر ، واشترت أرنبين كبيرين : ذكر أسود وأنثى بيضاء .

« الأنثى حامل بإذن الله ، وفهيمة بحاجة إلى اللحم حين تلد، وأربع حزمات من الجزر ، تأكل الثمر الحلو والأوراق الخضراء للأرنبين . ولبان حلو للمضغ ، تتحايل به الحامل على الوقت الطويل فهى ممنوعة من بذل الجهد حتى تلد ، وفهيمة راغبة فى العنب الأسود ، والأوان ليس بأوان العنب ، وكم هى كثيرة وغريبة رغبات الحوامل !؟ » .

طريق العودة طويل

قبل أن تبلغ حزينة منتصف الطريق أحست بالتعب ، فجلست تستريح تحت أشجار السنط القليلة الظل . ترقب الطريق بعينها الواحدة لتصطاد بنت إنسان راجعة للبيوت وقد قضت حاجتها من السوق : فالطريق طويل يلزمه أنيس .

الحظ الطيب جاء ، فتلك هى أمينة زوجة التهامى : امرأة يشغلها الأولاد الكثار وهموم الدنيا عن الخوض فى سيرة خلق الله .

حكت حزينة لأمينة عن رغبة فهيمة الحامل فى العنب الأسود قبل أوانه . قالت أمينة إن رغبة فهيمة إنْ لم تتحق ستظهر على جسد مولودها شامة تشبه حبة عنب ، وضحكت أمينة وقالت :

« وربما على شكل عنقود عنب منتفخ الحبات » .

ضحكت حزينة وقالت :

ظلت حزينة تنتظر الرد بفارغ الصبر ، وتصارع الوساوس فى اليقظة والكوابيس فى المنام ، خوفاً من أن تقتل الظنون السوداء ابنها فى بلاد الناس البعيدة ـــ لولا جاء رد مصطفى على رسالة الشيخ الفاضل ، بالرسالة مال من مصطفى ووصية :

« نصف المال لابن فهيمة المقبل : لو جاء ولد سموه البشارى » .

إلى السوق

أول يوم ثلاثاء ـــ عقب وصول المال من مصطفى ، ذهبت حزينة إلى السوق المقام بالبندر ، واشترت أرنبين كبيرين : ذكر أسود وأنثى بيضاء .

« الأنثى حامل بإذن الله ، وفهيمة بحاجة إلى اللحم حين تلد،وأربع حزمات من الجزر ، تأكل الثمر الحلو والأوراق الخضراء للأرنبين . ولبان حلو للمضغ ، تتحايل به الحامل على الوقت الطويل فهى ممنوعة من بذل الجهد حتى تلد ، وفهيمة راغبة فى العنب الأسود ، والأوان ليس بأوان العنب ، وكم هى كثيرة وغريبة رغبات الحوامل !؟ » .

طريق العودة طويل

قبل أن تبلغ حزينة منتصف الطريق أحست بالتعب ، فجلست تستريح تحت أشجار السنط القليلة الظل . ترقب الطريق بعينها الواحدة لتصطاد بنت إنسان راجعة للبيوت وقد قضت حاجتها من السوق : فالطريق طويل يلزمه أنيس .

الحظ الطيب جاء ، فتلك هى أمينة زوجة التهامى : امرأة يشغلها الأولاد الكثار وهموم الدنيا عن الخوض فى سيرة خلق الله .

حكت حزينة لأمينة عن رغبة فهيمة الحامل فى العنب الأسود قبل أوانه . قالت أمينة إن رغبة فهيمة إنْ لم تتحق ستظهر على جسد مولودها شامة تشبه حبة عنب ، وضحكت أمينة وقالت :

« وربما على شكل عنقود عنب منتفخ الحبات » .

ضحكت حزينة وقالت :

« الدلع طبع بنات اليوم .. حملت بمصطفى وحملت بفهيمة ولم ترغب نفسى فى شيء » .

قالت أمينة ـــ رغبة فى المرح ، ولكى يقصر المشوار ، وحتى تتجنب الحديث عن طلاق فهيمة من الحداد ، ولتطرد صورة المتسول المقطوع الساقين بالسوق :

« احمدى الله .. أن تكون بنتك راغبة فى العنب هذا أهون من أن تكون راغبة فى البطيخ » .

وضحكتا ضحكة قصيرة انقطعت ، ولم تجدا بعدها كلاماً تقولانه ، حتى وصلتا مدخل القرية ، وبجوار الزير المملوء بالماء ـــ تحت شجرة النبق المسماة بشجرة الله ـــ ليشرب ابن السبيل العطشان المقبل بوجهه على القرية أو المولى ظهره للقرية ساعياً فى بلاد الله ، تواعدتا على لقاء قريب ، وافترقتا كل تبغى دارها .

القسم الخامس

لماذا نبوية ؟

زار الحدّاد مطلقته ، ليرى المولودة ، دس فى لفة المولودة قطعتين فضيتين ، وتحاشى بعينيه فهيمة ، وقال لحزينة منبهاً :

— « جئت من أجل ابنتى .. والمال لها » .

وعارض فى تسمية البنت بنبوية ، قال الحداد :

— « لماذا نبوية !؟ ، هناك أسماء جميلة كثيرة !! لماذا ترفضان الأسماء الجميلة !؟ ، هه لا أحد يشترى الأسماء الجميلة بالمال ، لماذا نبوية ؟ سأسميها بحورية ، حورية اسم جميل والبنت جميلة ، ألا تشوفان » .

زيارة ثانية

أتى الحدّاد لابنته بأقمشة كستور ملونة « لأن الشتاء مقبل » . وضاق الحداد من إصرار حزينة وفهيمة على مناداة بنته حورية الجميلة بنبوية . وقرر بينه وبين نفسه عدم مناقشة الأمر معهما ، وعليه هو أن ينادى ابنته الجميلة حورية :

— « حزينة عندما تركب رأسها لا يقنعها الكون بأجمعه ، وفهيمة بنت أمها » .

ولام الحدّاد نفسه الراغبة فى إعادة فهيمة لداره . وقال :

ـــ « كنت سأفعل ذلك من أجل حورية » .

واستعاذ الحدّاد بالله من تلك العجوز الداهية المسماة بحزينة :

« جعلتنى أدخل المحكمة لأول مرة فى حياتى ، وأقف أمام القاضى الذى حكم لفهيمة بدفع نفقة العدة ومؤخر الصداق ، ولن ترحمنى حزينة إلا إذا دفعت نفقة للصغيرة ، لن أذهب للمحكمة ، سيتم الأمر برضا كل الأطراف ، لكن العودة لبنت حزينة محال : تلك التى شككت فى رجولتى وأحاطتنى بالنظرات الشامتة » .

القرار

- « سأدفع ريالاً ونصف ريال لابنتى حورية ، سأرسل المال مع أى فرد غيرى ، حورية ستكبر وسأستردها من حضانة فهيمة بأمر من المحكمة ، نعم .. هذا هو قرارى الأخير : البعد عن الشر غنيمة »

وحتى ينتهى الحوار مع النفس كلية ، قرر الحدّاد أن يفاتح أخته الحدادة بشأن زواجه من بنت الصياد .

القسم السادس

على غير توقع حدث كل هذا

- أ -

عبد الحكم طه قدم من فلسطين الشام ، جاء بطرد هدية من مصطفى : قفص صغير به تين جاف وبندق وأقراص قمر الدين وثوب أسود للأم وثوب به نقش للأخت ، ولكل منهما طرحة سوداء ، وللبنت الصغيرة نبوية قطعة قماش تصلح ثلاثة أثواب .. وحذاء أصفر محلى بضفيرة حمراء .. وثور صغير من الحلوى بقرنين مشرعين .

من هدية الابن أهدت حزينة الأحبة :

« ألم يقفوا بجوارى فى ظروفى الصعبة التى مرت ! .. لقد قاموا بما يجب .. وها أنا أرد » .

سِنَّتان ذهبيتان لمعتا لما ضحك عبد الحكم ابن تفيدة ــ وقال :

« مصطفى بخير حال .. ومشتاق للأم وللأخت .. ويتمنى رؤية الصغيرة نبوية ، نعمل مع الجيش الانجليزى .. تحت أمر الريس أحمد الزنباعى .. أحمد الزنباعى بلديات من البر الغربى .. طالبنى بأن أزور أهل بيته .. سأزورهم اليوم .. حملنى أمانة وطالبنى بتوصيلها لأهل بيته ، قد نعود للبلاد فى القريب ، مصطفى طلق زوجته الشامية .. لم يرزق منها بخلف ، مصطفى حملنى مالاً وطالبنى بتسليمه لكم »

وأخرج عبد الحكم حافظة نقوده ـــ كانت من الجلد .. صفراء اللون .. منتفخة .. مطبوع عليها بلون أخضر وجه أبى الهول ، ومن رزمة محكمة بخيط من المطاط استل جنيهاً ، مد عبد الحكم يده بالجنيه لحزينة ، ومدت حزينة يدها وهى تبتسم :

« وقد طلق زوجته .. سيبقى لى بقلبه وماله .. أنا التى حملته ببطنى تسعة أشهر وتحملت وسخه لما كان كومة لحم يقضى حاجته بالعويل .. لن يفسر عبد الحكم ابتسامتى بغير الرغبة فى المال ! .. مع عبد الحكم مال كثير .. ليت مصطفى يعود .. أى كنز ذاك الذى يغرف منه الانجليز .. هى أموال قارون عثر عليها الانجليز ومنها يدفعون لمن يعمل معهم ! .. »

قال عبد الحكم :

« مشغولياتى كثيرة .. وهذه هى زيارتى الثانية لكما .. والوقت ضيق ، اليوم سأزور أهل أمى بنجع الملقطة ، معى رسائل وأمانات من الصحاب زملاء العمل ويجب أن تصل لأهاليهم ، سأزوركما فى القريب .. قبل السفر إن شاء الله .. للسلام » ونظر لفهيمة وابتسم » .

فتح فمه وأغلقه على الذهب الذى لمع :

« ربما تودان إرسال أى شىء لمصطفى »

قالت فهيمة :

« احضر وتناول الغداء معنا .. سأذبح لك حمامة »

وابتسم عبد الحكم مختالاً بسنتيه الذهبيتين ، وردت عليه فهيمة بابتسامة فيها حياء ، وقالت حزينة :

« أنت ضيف .. وأنت كمصطفى .. وأنا أحق من الغير وأسبق من الغير »

قال عبد الحكم : « سأحاول » ، وشكر فهيمة وحزينة على شعورهما الطيب نحوه .

وقال إنه يفضل زيارتهما له فى بيت أمه وأبيه رغبة فى الأنس والمسامرة — وابتسم .

حدثت فهيمة نفسها : « ربما يكون قد ابتسم بكسر عينه »

وهو يودعهما ضغط على كف فهيمة ، واستبقاها فى راحته لوقت ، ولمعت سنتاه الذهبيتان ، ومن المؤكد أنه غمز بكسر عينه :

« هل هو راغب فى الزواج .. أم هو طامع لأنه سمع كلام الغير ؟ .. هو قادر بما معه من مال على الزواج من بنت حسب ونسب تفوق فهيمة فى الحلاوة — لكن قد يشط القلب وربما تزوج العاشق من مطلقة غيره » .

نعم ففهيمة لم تفقد بعد نضارتها وحلاوتها ، وهى ماتزال مرغوبة من الرجال .

زارت حزينة وفهيمة عبد الحكم فى بيت أهله ، تم الاتفاق على أن توصل فهيمة الحاجات المرسلة لمصطفى إلى محطة السكة الحديدية .

قال عبد الحكم : « سأركب قطار الفجر .. سأنتظرك أمام باب المحطة فلا تقطعى تذكرة دخول » .

قالت حزينة : « نبوية بنت فهيمة كما تراها تمشى وتتكلم »

وقالت حزينة لنبوية : تكلمى ياغالية .. قولى لعمك عبد الحكم سلم على خالى مصطفى »

رددت البنت نبوية كلام جدتها : « سلم على خالى مصطفى يا عم عبد الحكم » .

تضايقت فهيمة من أمها : « هذا يذكر عبد الحكم بأننى تزوجت وطلقت وبرقبتى بنت » .

لا حزينة نامت الليل ، ولا فهيمة نامت الليل ، حتى نبوية بنت فهيمة ظلت ساهرة لوقت متأخر من الليل : تقلب الأشياء وتجرى فى المناطق التى يغمرها ضوء القمر وضوء الفانوس .. وتضحك بعلو الصوت .

من دقيق القمح الأبيض صنعتا الأقراص .. سطح الأقراص مغطى بالسكر ومدهون بالسمن البلدى ، والفرن الحامى لم يحرق قرصاً واحداً .

الفجر لم يؤذن بعد ، والقفة بها أقراص ، وبلح ، وغطاء القفة محكم بخيوط القنب .. أزف الوقت : فلتتحرك فهيمة وتقصد محطة القطار بالبندر .

على باب المحطة قابلها عبد الحكم ، أنزل عن رأسها القفة ، ونظر لوجهها فأسبلت عينيها على خجل ، لمست يده وهى تهبط ثديها لمساً خفيفاً .. فارتج الثدى :

« بقصد أم بغير قصد .. فى وداعه وعدنى : بالحرارة التى سرت من كفه إلى كفى » .

طريق العودة طويل من البندر إلى القرية ، فى الذهاب كان أقصر .

النور يرفع العتمة عن البيوت ، ويكنسها ، فتتجمع هناك فى الأفق القصى .. الشمس لم تطلع بعد .. وإن كان هذا نورها .

صراخ له رنين مخبول ، أرتفع ومزق الصمت .

بلغت فهيمة دارها ، وقالت حزينة : « أحترق الحدّاد وبنت الصياد » .

الليل والحر الخانق ، والرغبة فى النوم ممتنعة ، والرأس يدور فى دوامة الأفكار المسعورة ، وفهيمة لا تكف عن الجرى خلف الحقائق :

« بنت الصياد بيضاء الجلد ، كالبطة دهن ولحم ، العينان واسعتان سوداوان بغير كحل ، شعر رأسها الأسود الطويل كرموشها الطوال يلمع » .

« لو كشفت بنت الصياد عن صدرها ، سيرى الحدّاد الثديين المشرعين .. وبياض اللحم .. والحلمة السوداء .. والشق ، سيهم الحدّاد .. ويقاوم .. ويضم الجسد .. ويخاف الفضيحة المقبلة .. فيعض ويمزق اللحم .. ويسكت الصرخة

برش الجاز وحرق الجسد .. ويرش الجاز على نفسه ويموت محترقاً بسره » .
« لو تمكن لحرقنى فأنا أيضاً أعرف سره »
« هل يعرف بالى الراحة بعد اليوم ؟ .. لا أظن »

– ب –

هذه الحرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل ، ومع ذلك فالسلطات تطلب الأكباد للجهادية وهَوَانِ الخدمة فى معسكرات الحمر الملاعين ، القادر على دفع البدلية والفقير طلب من ابنه أن يقطع الأصبع الذى يدوس على الزناد .

اختفت سلع وبارت سلع ، وارتفع سعر الحاجات : ماكان بمليم صار بقرش ، حتى سكر القمح والمكنة والناعم أختفى،والشاى يحلى بقطع الملبس والبنبونى — تلك الحلوى التى تذوب بصعوبة ، شح الجاز والزيت حتى الشموع والمصابيح تضاء بفتائل تغمس فى دهن الحيوان ، أصاب اليسر بعض الناس واشتد فقر العامة وعمت السرقات ، ولا رسائل تذهب إلى الأبناء ولا رسائل تجىء ، فلتحرق هذه النار الانجليز وليحترق هتلر والبقالون والملك وتجار الأكفان .

القسم السابع

– أ –

تلا حسان العاجز فاتحة الكتاب وختم بقراءة سريعة لسورة البقرة ، وطلب من حزينة وفهيمة أن تترحما على أرواح من ماتوا على دين الله وسنة نبيه ، وقام من قعدته ورفع كم يده اليمنى المقطوعة . وأفرغت حزينة مافى مقطفها الصغير من بلح وخبز أصفر .. معجون بلبن وكُركُم — فى كم حسان . ومضى حسان ليقرأ على قبر قريب ، وكانت بانتظاره نسوة قاعدات .

قالت حزينة لفهيمة — وهى تشير إلى النسوة القاعدات :
« حريم الرجال ، من ماتوا بالبر الغربى فى حادثة الآثار »
رجف جسد فهيمة ، أمها تتكلم عن الحادثة القديمة والمعبد القديم ، وهناك أيضاً البهو والغرفة المظلمة والرجل الأسود المكشوف العورة .

قالت فهيمة : « سأقاوم .. سأقاوم بعناد »

بين الدروب الترابية الضيقة المتعددة المتعرجة المحاطة بتلال القبور الراقدة تحت

ظلال الغروب الحمراء المتوهجة بغير حرارة ، كانت حزينة تدب من قدام فى وهن وفهيمة تتبعها ، وأشجار التمر حنة ـــ تحت هبات الريح الخفيفة لا تكف عن إمطارهما بالزهر الأصفر . كانتا تسلكان طريقهما وسط المقابر محاذرتين متطيرتين من هول ما يمكن أن يصيبهما فيما لو داستا عظام ميت .

حادثة الرجال الذين ماتوا فى المعبد القديم ترج عقل فهيمة وحزينة تلح على الأذنين بحكاية سبق أن حكتها أكثر من مرة :

« خرج رجل من النفق ، كان وجه الرجل مترباً والعرق يتساقط من رقبته ويتكوم على صدره كتلة من الطين الأسود ، وكلم الرجل الريس بسيونى ، ونقل الريس بسيونى كلام الرجل لمفتش الآثار الفرنساوى ، رطن المفتش بالفرنساوى ورفع عصاه القصيرة فى الهواء وشوح بها فى وجه الريس بسيونى والرجل المعفر : « ابن العرب يلعب ولا يعمل .. ابن العرب لا يحب العمل » ، زعق الريس بسيونى فى الرجل المعفر فعاد الرجل إلى النفق على الفور لينقل الأمر للرجال .. وصرخت الأرض بأمر ربها وصار الفوق تحت ، حدث ما حدث فى الظهيرة ، ورفعت جثث الرجال قبل الغروب » .

جاهدت فهيمة جهاد الأنثى الضعيفة لتطرد الخيالات والمخاوف السوداء ـــ لكن عقلها عصاها ، فاستسلمت للقوة الغلابة تقودها خلف أمها بغير إرادة .

كلمت نفسها : « فكرى فيما جرى للرجال داخل المعبد ولا تفكرى فيما جرى لك فى المعبد .. لا تطاوعى أفكارك وإلا وجدت نفسك بغرفة الرب الأسود العارى المكشوف العورة »،« المهندس الفرنساوى سقطت به العربة فى النيل ومات غرقاً وكان مخموراً وكانت معه زوجته ، وامرأة الريس بسيونى تنجب الأولاد فيموتون فى شهرهم الأول »

انتهت حكاية « حادثة الرجال فى المعبد » فتوقفت فهيمة تتذكر حكاية أخرى حتى تهرب مما جرى لها فى غرفة الرب بالمعبد . وتذكرت حكاية الجنّيات الثلاث فقالت سأحكيها لنفسى :

« ثلاث أرامل .. ثلاث شقيقات ، يلبسن الأردية السوداء الطويلة التى تغطى الرأس والقدم ، يظهرن فى الظهيرة .. وقت تكون الشمس بوسط السماء : عين حمراء متوهجة كجهنم ، بينما ظِلّ السائر وتد مدقوق بالأرض ، وتلال القبور تفتح أفواهها فتطلع منها ألسنة النار ، ثلاث أرامل .. ثلاث جنيّات ، يمسكن بالرحى الكبيرة التى تدور ولا تتوقف قط : تطحن الكلاب والقطط الضالة .. فتتكسر العظام فى طقطقات عالية ويختلط الدم باللحم ، ويطفر الدم من اللحم ساخناً يضرب وجه الجنيات بينما عيونهن تقدح بالشرر .. ووجوههن تطفح بالشهوة الحمراء وصراخهن المجنون يصل للسماء وترتج له طبقات الأرض .. القادرات .. ذوات أنياب الذئاب ، أصواتهن وكل الأصوات فى أذنى فهيمة :

« كلاب تنبح ، وقطط تموء ، وضفادع تنق ، ولحم يطقطق وماكينة طحين تدق : تك .. تك .... ماكينة طحين تدق بانتظام ولا تتوقف ، وعلى الدق المنتظم المستمر يتقدم الرجل الأسود العارى المكشوف العورة ويدب بقدميه الحجريتين فوق سطح من حجر » .

– ب –

صحت حزينة بالليل الأخير على صوت فهيمة تتضرع : « أماه .. أماه » فهبت من تحت الغطاء فزعة .

قالت فهيمة : « البرد .. البرد يا أماه »

«نعم .. جسد البنت كله يرتعش والرأس ساخن كأنه موقد » .

لمت حزينة كل الأغطية وكومتها فوق الجسد ، وبالخل والماء بللت خرقة ومضت ترطب رأس فهيمة ، وظلت ساهرة حتى طلعت الشمس ، وهالها أن رأت وجه ابنتها وقد شرب الألوان الثلاثة : الأصفر والأسود والأزرق .

قالت لنفسها : « هى الحمى المميتة »

جاء المأمون المذكلم حلاق الصحة ، وحلق شعر رأس فهيمة ، وفصده بالموسى ، وامتص بالمحجام الدم الفاسد ، ملأ خمسة محاجيم من الدم القذر القاتم اللون ، وقال هناك دم فاسد يعكر الدم النقى الذى يحفظ لفهيمة الحياة .. ولو

كانت صحة فهيمة تحتمل لإخرج محجامين آخرين وضمن بذلك سلامتها وقال المأمون المدكلم حلاق الصحة إنه سيعود مريضته بعد آذان الظهر مباشرة ويرى ما يجب .

جاء المأمون المدكلم ورأى فهيمة مازالت على حالها لا تفيق من غيبُوبة حتى تسقط فى غيبوبة ، فأوقد ناراً وحمى مسماراً وكوى رأس فهيمة ثلاث مرات ، وقال المأمون المدكلم : « بذلك أكون قد قتلت الدم الفاسد العكر والأمر بعد ذلك لله وحده يفعل ما يشاء » .

ظل الأمل يبرق ويخفت ، وأذّن يوسف الأعور من فوق جامع عبد الله لصلاة العصر ، وأذن يوسف الأعور من فوق جامع عبد الله لصلاة المغرب ، وأذن يوسف الأعور من فوق جامع عبد الله لصلاة العشاء ، وها هى فهيمة قليلة الخبرة تبتسم .

صرخت حزينة فى وجه القادم ، وشقت ثوبها إلى نصفين :
« لا .. لا .. إنها لا ترحب بك .. لكنها صغيرة وغير قادرة على مواجهة الألم .. إنها لا تريدك أنت ، لكنها تريد للعذاب أن ينتهى وللجسد أن يستريح .. لكنها حمقاء لا تعرف أنك الموت » .

القسم الثامن

نبوية الوارثة لوالدها الحداد شرعاً وقانوناً . الحدّادة أخت الحدّاد الكارهة لنبوية وأم نبوية وجدة نبوية فكرت ودبرت لتمنع عن البنت الصغيرة « حق الله » .
الحدادة قالت :
« أخى رحمة الله عليه باع لى ميراثه من الأم والأب ، وهاهى ورقة البيع مختومة وعليها بصمة إصبع الحدّاد » .
حزينة استجارت بالشيخ الفاضل ليحميها ويبطل ألاعيب الحدّادة .
الحدّادة استعانت بالشيخ يسرى ابن يوسف دياب :
« لم يفلح فى دراسته بالأزهر الشريف — إلا أنه قضى عامين برواق الضعايدة وهو الآن شيخ كتاب القرية ، على يديه يحفظ الصغار القرآن ، للأفراح يرتجل الزجل المفرح ويقوله أمام الميكروفونات ، وللمآتم يرتجل الزجل الحزين وينوح أمام الميكروفونات .

قال الشيخ يسرى للحدّادة :
« اتركى الأمر لى .. والمطلوب منك أن تسرعى وتسجلى ورقة البيع بالشهر العقارى »

وعرض الشيخ يسرى على الحدّادة الزواج من بنتها إنشراح .
ردت الحدّادة :

« البنت صغيرة .. وأنت متزوج من ثلاث »

قال الشيخ يسرى :

« حقى المشروع من الله أربع زوجات »

ردت الحدادة :

« دعنى للوقت حتى أفكر على مهل »

سأل الشيخ :

« فى .. ما ؟ »

أجابت الحدّادة :

« زواج البنتين كلفنى الكثير .. وأنا غير قادرة على تكاليف عرس الثالثة ، كما علىّ أن أستشير السعدى .. لقد كبر الولد وصار رجلاً وهو الذى سيحدد مهر أخته إنشراح » .

الحدادة الماكرة تبتسم :

« سأحصل من الرجل العجوز على مهر كبير .. مهر بنتى سيكون أكبر من مهر قريناتها ، قلت للرجل : سأستشير ابنى السعدى ، سأعود للرجل وأقول : السعدى رافض .. دعنى لفترة حتى أجعل رأسه تلين ، ثم أعود وأقول للرجل العجوز ، الولد يطلب مهراً كبيراً لأخته ، سيقول الرجل العجوز : هذا كثير ، سأرد عليه بعد يومين : اتفقت مع السعدى على كذا من المال .. حاولت معه بقدر ما أستطيع .. لكنه لن يقبل أقل من كذا ، سيوافق الرجل العجوز فالبنت صغيرة ومليحة ووارثة » .

قال الشيخ الفاضل لحزينة :

« سنرفع الأمر للمحكمة .. والقاضى هو الحكم »

القسم التاسع

ولد وبنت

الشيخ الفاضل يملك كرم نخل — لا سور له — خلف داره الكبيرة . وحتى تحصل نبوية على مرجيحة ، ستعقد طرف الحبل الطويل فى ساق نخلة والطرف الآخر فى ساق نخلة ، وما بين النخلتين فضاء متسع تطير فيه نبوية ، وقد بسطت ذراعيها قابضة على الحبل الذى يحز فى عجيزتيها ، ويرفع الهواء الثوب ويلفح الوجه الجميل .. ويجعل الشعر يتطاير .. ويأتى بالبهجة التى تصنع الضحك .

ابن الشيخ الفاضل، من أسماء التى ماتت، مقارب لنبوية فى العمر ، وهو الوحيد الذى يشاركها اللعب لما يعود من المدرسة ، الولد عنده الكثير من الحكايات الحلوة .. يأتى بها من المدرسة ويحكيها لنبوية، فتسمع وتبتسم وأحياناً تقهقه وفى بعض الأحيان تقول له أنت تخرف، فيغضب فتصالحه فيحكى لها حكاية أخرى :

« قرية الكرنك القديم هذه كانت فى الزمن القديم هى والأقصر مملكة مصر والعالم ، كان اسمها طيبة ، وكان للمعبد سور كبير غير متهدم له بوابات وبه كانت

تقام الصلوات ، وحول المعبد كانت بيوت الأهالى ، وبالبر الغربى توجد المقابر ، وكان طريق الكباش يوصل من معبد الكرنك إلى معبد الأقصر وبالعكس ، والمصريون القدماء لم يكفروا بالله كما يظن الأهالى اليوم ، فهم أول ناس عرفوا الله وحنطوا الجسد بسر لم يعرفه البشر بعد ولن يعرفه الدود مهما حاول » .

« الأرض كرة كبيرة تدور فى الفضاء ، وفى الفضاء تدور أقمار وشموس وتلك النجوم التى نراها فى السماء ... »

ضحكت نبوية وظلت تردد نهاية كلمات الولد غير مصدقة :

« وتلك النجوم التى نراها فى السماء ! »

نفخ الولد ، وقال بغيظ :

« أنت غبية » .

عرفت نبوية أنه غضب فقالت لنفسها :

« سأطيب خاطره » .

وقالت نبوية لابن الشيخ الفاضل المحروم من حنان الأم :

« احكى لى حكاية الملك » .

عاد الولد إلى الماضى ، وتذكر ، ونسى غضبه :

« قبلها بيوم قال الناظر لكل المدرسة فى طابور الصباح : باكر يأتى كل منكم نظيف الجسم لابساً أحسن ما عنده وعلى رأسه طربوشه .. ومن محطة الأقصر حتى بوابة معبد الكرنك كنت ترين الناس على الجانبين : طلبة ونظار وأساتذة ومشايخ ونسوان وعساكر وضباط وعمال وكل موظفى المصالح يهتفون « عاش فاروق ملك مصر والسودان » ، ومرت العربة وكان بداخلها الملك وكانت مفتوحة النوافذ تجرها ثمانية خيول بيضاء كاللبن ، وكانت الستائر أيضاً من الحرير الأبيض كاللبن ولكنها كانت مسدلة تمنع العيون عن رؤية الملك .. »

قاطعته نبوية : « هو أعور وله عين من زجاج » .

قال الولد : « كذبُ .. له وجه أحمر يطفر منه الدم » .

قالت البنت : « أنت لم تره » .

رد الولد : « لم يره أحد قط .. لكنى رأيت صورته الملونة فى كتاب المطالعة .. والكتاب عندى وسأجعلك تشوفين الصورة » .

سألت البنت الولد : « يقولون إنه يأكل خروفاً بمفرده » .

قال الولد بقطع : « ليس كذلك ، الطباخ يضع الخروف فى حلة كبيرة بها ماء كثير .. ويضع الحلة فوق نار حامية . فيقل الماء ويقلّ .. حتى يصل إلى ما يملأ كوباً واحداً فيشربه الملك » .

الولد جميل فى عينى البنت .. وهو كل الأولاد ، والولد جميل فى عيون كل بنات القرية وهو كل الأولاد :

« يلبس البنطلون والقميص والجاكت ، ويدخل سينما البندر كل خميس ويطل من البلكون ، يركب البسكلت فيتطاير شعره الناعم ويغطى عينيه المغسولتين المكحلتين بكحل ربانى ، والده يملك الكثير من الأراضى والكروم والخيول والجاموس والحمير والأبقار والماعز ، أمه ذات حسب : جدها يوسف عبد الكريم أغا وأمها زنوبة ووالدها عبد السميع عبد القادر » .

عالم نبوية ضيق : بيتهم ، كرمة النخل ، بيت الشيخ الفاضل ، النهر ــ لكنها ترى عالمها شديد الاتساع :

ــ فجدتها وإن كانت عجوزاً متذمرة دائمة الشكوى قليلة الحركة لا ترى البعيد ولا تسمع غير الصراخ ــ إلا إنها تحب الحلوى تماماً كنبوية .

ــ وصالحة زوجة الشيخ الفاضل أخت أسماء التى ماتت ، تكلفها بقضاء أمور مثل إشعال النار ووضع الجمر فى بوتقة النحاس وشراء دخان المعسل من الدكان البعيد وإبدال ماء الشيشة العكر بماء نقى ــ لكنها كريمة تمنحها خيارة أو شريحة بطيخ أو حفنة بلح .

أما النهر فهى تعشقه : الشمس ترمى باللون فى الماء .. وطيور الماء ترف بأجنحتها وتلتقط السمك الميت الطافى .. والمراكب بأشرعتها البيضاء المنفوخة بالهواء .. والجبل الكبير والرمال الصفراء على البر الآخر والبيوت صغيرة تحت الجبل كأنها الماعز فى المرعى .

ابن الشيخ الفاضل يحب الأرانب الصغيرة والأرانب الكبيرة والأرانب السوداء والأرانب البيضاء وهو حائر : تلك الحيوانات الضئيلة الأجسام ، كيف تطاوعهم

نفوسهم فيسلخون جلودها!؟ ، كيف تشوى على نار وتقلى فى دهن !؟ الأرانب لا يجب أن تطبخ فهى جميلة مدهشة حين تنط وتقرض الحشائش وحين تحتمى بالجحور .

نبوية ترصدت للأرنب المسكين ، أعطته الأمان حتى خرج من جحره ، ولما بعدت المسافة بينه وبين جحره ، رمت نبوية بكل جسمها على الأرض وأطبقت يديها على الأرنب وأمسكته ورفعت نبوية يديها بالأرنب لفوق وقالت للولد : « أنظر » .

قال الولد : « إنه ميت » .

قالت نبوية : « ما مسكت أبداً بأرنب حى .. دائماً يموت بين يدى .. وأنا لا أبغى غير تمرير الراحتين على الفرو الناعم اللين » .

قال الولد وهو مغمض العينين : « لا تمسكيه مرة أخرى حتى لا يموت » .

بكت نبوية وها هى عاجزة عن التوقف وغير قادرة على إسكات رعشة الجسد وعلى إيقاف صدرها الطالع النازل ـــ ولكنها لا تريد إفلات الأرنب الميت من بين يديها .

اقترب أبن الشيخ الفاضل من نبوية وطيب خاطرها وربت على ظهرها بحنو ـــ وقال : « لا تمسكيه مرة أخرى حتى لا يموت » .

ارتفع بكاء نبوية ، فلمّ الولد جسمها الطالع النازل بذراعيه وشدها إلى صدره الصغير ـــ وقال : « كُفّى .. كفى عن البكاء » .

ولما لم تكف نبوية عن البكاء ، لم يقدر ابن الشيخ الفاضل على منع نفسه من البكاء وقد استدعى بخياله صورة أمه المتوفاة .

القسم العاشر

أراجيف وأسمار و .. وقائع أيضاً

١

« أ »

اليهودى الماكر بأنفه المعقوف ، عرض ثلاثة دنان من الخمر للبيع بأقل من ربع الثمن . ابن العرب الغنى قال لنفسه وهو يحاورها : « هذه الصفقة ما أرخصها » . بنت اليهودى الجميلة المختتة بيدها كأس مملوءة بالخمر ، ذاقتها بلسانها ، ورشفت رشفة ظلت تمتصها على مهل ـــ قالت : « خمرتنا جيدة » .

(شعر البنت أصفر كالذهب النقى ، وعلى كل خد وردة حمراء) .

الخمرة سالت من الشفاه ، وجرت فى الشق الذى يفصل بين الثديين وتجمعت عند الصرة .

ـــ ابن العرب قال : « تلك كأسى » .

ـــ بنت سارة قالت : « تلك كأسك » .

الأنف يشم والعين ترى ، وجلد الحية طرى ، وشعر الإبطين والعانة طويل ومرسل ، للعرق رائحة وللعطر رائحة ، الكلب يعوى والحية تلدغ ، والبيارة جميلة بها شجر البرتقال صفوف تقابلها صفوف ، والبنت جميلة (على كل خد تفاحة حمراء وشعرها أشد صفرة من برتقالة ناضجة) ، والأيام تمر ، والأيام لابد أن تمر ، وكرمات العنب طولها دهر وعرضها دهر .

« ب »

اليهودى مالك البيارة الجديد يريد حفر بئر تجلب الماء للشجر . أولاد العرب بسواعدهم القادرة حفروا البئر ، وتدفق الماء . اليهودى المماطل أبداً المحب للمال دوماً ـــ قال : « أدفع الأجر لما تحفروا عمقا للبئر يطاول قامتكم » . فعل أولاد العرب ما أراد الخبيث . فأهال اليهودى كاره العربى التراب على الرجال ودفنهم أحياء ، وقال :

« هذا هو العمق الذى أريده لبئرى » .

- ٢ -

عصابات الصهاينة أعملت السلاح فى ابن العرب وبنت العرب ، والانجليز جلوا عن فلسطين وسلموها لليهود وفاء لعهد قديم ، وجيوش العرب انكسرت بالخيانة والسلاح الفاسد ـــ لكن الله وعد ، ووعد الله حق ، والله لا يخلف الميعاد ، والأولاد يكبرون حتى فى المخيمات ، والأرانب تناسلت وكثر عددها فى بيت المرحوم بخيت البشارى (من ذكر أسود اللون وأنثى بيضاء ، اشترتهما حزينة ذات يوم بعيد من سوق البندر) ، والضباع السود طوقها العدو بالفالوجا ، ونبوية يتيمة الأب والأم شبت عن الطوق ، ونبوية تنظر لثور الحلوى الأحمر اللون ـــ فهى لم تأكله بعد .. ما تزال تحتفظ به .. وإن انكسر أحد قرنيه المشرعين ـــ وتتذكر خالها الغالى بفلسطين الشام .

- ٣ -

عاد الرجال بعد النكبة من فلسطين الشام ، هم هنا بمصر يعملون داخل معسكرات الانجليز بمنطقة القنال ، الرجال يكسبون المال بسواعدهم ويحملون الشوق لأهاليهم ، والشوق فى الصدور كأنه نار الله الموقدة ، لكنهم على أية حال بأرض الوطن ، ومهما طالت الأيام فالعودة للأهل واجبة،ومن بنت العم أو بنت الخال سيتزوجون ويتناسلون ويعمرون الأرض .

مصطفى له الأمر والنهى فى الأربعين رجلا :
(رجال مختارون ، غلاظ شداد ، لا يعصون مصطفى ، ويفعلون ما يؤمرون ، بهم مكر الثعالب ، وخفة القطط ، وشجاعة ابن الوليد ، وحيلة ولين معاوية ، ومهارة الحواة فى الغش ولعب الكوتشينة) .

يختار الرجل منهم فريسته من داخل معسكرات الانجليز ، وتكون الفريسة دائماً إما أسترالى وإما هندى أو أفريقى أفطس الأنف ، يغرون الرجال بلعب الورق ، والقمار كسب وخسارة ، والخمر قرينة القمار ، والخمر تشعل الرأس وتشعل الرغبة فى الكسب ، وخمر عرق البلح مصرية وذات مفعول قوى وسريع (مصطفى جاء معه بزجاجة بها سائل سحرى ـــ جاء به من السودان بلد الحرّ والأحجبة والأولياء الصالحين ـــ اشتراها من ساحر قادر أيام كان يعمل هناك فى زمان فائت) ، وقطرة واحدة على برميل خمر تجعل من يشرب كأساً واحدة ينام نومة أهل الكهف .

وقد نام الجميع ، يصبح المعسكر بغير حراس تحميه ، لا حارس يرى ولا حارس يسمع ولا حارس يطلق النار . يدخل مصطفى المعسكر وخلفه رجاله .

يحصل الرجال على الجبن الأبيض والجبن الرومى والمربى والشاى والزبد والأقمشة الصوفية التى تحمى الأجساد من لسعة البرد .

تمتلىء الزنابيل ، فيحملها الرجال فوق الظهور المحنية .
ما من مرة إلا وقتل مصطفى الكابتن الانجليزى الكبير الرتبة .

يصرخ الكابتن الانجليزى ـــ الأكبر رتبة من زميله المقتول ـــ فى الجنود ويلعلع صوته فى الصباح داخل المعسكر : « إيجبتشن كلفتى آند رابش » .

مخازن مصطفى تحت الأرض ، لا يعرف سرها غيره هو ورجاله ، حتى الجن تعجز عن الوصول إليها ، بمخازن مصطفى ثروة لا تقدر بذهب أو بفضة .

– ٥ –

« أ »

أبناء مصر من كل ملة حملوا السلاح ، حتى رجال بلوكات النظام ، المظاهرات عمت الوادى ، والحكومة المصرية نادت بعدم التعامل مع الانجليزى المعتدى على بر البلاد ، المتعامل مع الانجليزى خائن للأوطان ، الفداء واجب والحكومة ستوفر العمل لابن البلد .

« ب »

اشترى الشيخ الفاضل جرنال المصرى لسان حزب الوفد ، واشترى جريدة الحزب الوطنى « منبر الشرق » لصاحبها « على الغاياتى » كاتب ديوان وطنيتى وصديق محمد فريد : على الغاياتى ومحمد فريد كلاهما حكم عليه الانجليز بالحبس .

« ج »

زعق محمد أحمد الشرقاوى — مراسل جرنال الكتلة وجرنال« الوادى »— فى أولاده وأم أولاده : « ألا تكفوا عن الصراخ يا ملاعين ؟! » .

وكان محمد أحمد الشرقاوى عائداً لتوه من دار أمين أفندى عبد السميع شقيق صالحة أخت الشيخ الفاضل ، وسمع هناك من الجرامفون الذى يملكه أمين أفندى صوت أم كلثوم وهى تغنى على أسطوانة :

« مصر التى فى خاطرى وفى فمى ، أحبها من كل روحى ودمى ، من منكم يحبها حبى لها ، ويفتديها بالعزيز الأكرم » .

دخل محمد أحمد الشرقاوى حجرته ، وأغلق بابها عليه ، وزعم أنه سيكتب مقالاً عنوانه « بحر الماضى يصب فى بحر الحاضر والبحر ليس بملآن » ، سيرسل المقال بالبريد لجرنال الوادى ، أن لم تنشره الوادى خلال أسبوع فسيرسل المقال إلى جريدة الكتلة ، وسيوقع مقاله بإمضاء « الصحفى العجوز » .

قال محمد أحمد الشرقاوى لنفسه :
« أجمع شتات أفكارى أولاً ، سأدون بعض أبيات الشعر المأثورة وبعض الكلمات التى صارت مثلاً ، وبعد ذلك أفرغ لكتابة مقالى بالليل لما ينام الجميع » .

وكتب بخط كوفى جميل :
(بحر الماضى يصب فى بحر الحاضر والبحر ليس بملآن) .

(١) بلادى بلادى لك حبى وفؤادى .

نشيد غناه سيد درويش لثورة ١٩ ، وهو صالح لكل الثورات ويغنيه أى صوت،ورائع لما تغنيه الجموع .. لماذا ؟

(٢) لو لم أكن مصرياً لوددت أن أكون مصرياً .

كان مصطفى كامل رجل قانون يحب مدنية فرنسا ، وكانت الدماء التركية تجرى فى عروقه — ولكنه ولد بمصر وشب بمصر وشرب من نيل مصر .

(٣) لقد ولدتنا أمهاتنا أحراراً .

كلمة رد بها خليفة المسلمين عمر بن الخطاب على عمرو بن العاص حاكم مصر لما اعتدى أبن عمرو على نصرانى وقال مفاخرا : أنا ابن الأكرمين . استعار عرابى كلمة ابن الخطاب وبخّها فى وجه الخديوى . ولم يهبط عرابى من فوق سرجه .

(٤) وطنى لو شغلت بالخلد عنه ، نازعتنى إليه فى الخلد نفسى .

حتى حياة القصور لا تلهى الشعراء عن حب الوطن .

(٥) والله ما دون الجلاء ويومه ، يوم تسميه الكنانة عيداً

(٦)   وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق .

صدقت يابن مصر .. يابن العرب ، وصدق أبن تونس .. أبن العرب .. لما قال :

« إذا الشعب يوماً أراد الحياة ، فلابد أن يستجيب القدر ، ولابد لليل أن ينجلي ، ولابد للقيد أن ينكسر » .

القسم الحادى عشر

الذى لايقدر على منعه أحد

- ١ -

يمامتان فزعتان حطتا على صدر البنت نبوية ، فرحت بهما البنت فرحاً شديدا ، واختلت بنفسها ونظرت إلى صدرها وقالت تحدث اليمامتين :

« مالكما فزعتين !؟ .. مالكما متأهبتين دوماً للانطلاق !؟ »

وكلمت نبوية نفسها :

« هاتان اليمامتان محشوتان برمل وحصى ساخن » .

وتشجعت وأمسكت كل يمامة بيد .

حزينة رأت اليمامتين على صدر بنت بنتها ، وسمعت ابن الشيخ الفاضل ينادى بنت بنتها بصوت صار خشنا كمنجل الحاصد تعمل فى البرسيم ، فقالت لنفسها : « الحذر واجب » ، وقالت تطرد الهاجس الخبيث : « الأيام الطويلة والمعاشرة الطويلة جعلت من الولد والبنت أخوين » .

الشيخ الفاضل وأهل بيته ينظرون لأبنهم القريب دائماً من بنت الحداد ويقولون : « نعم : تربى معها ، لكن ليهتم بدرسه ، العلم وظيفة نافعة تدوم ، أما الأرض فتتفتت مع الزمن المقبل ، نعم : ستقسم الأرض على الأبناء وأبناء الأبناء .

لا أحد من أهل البلدة يرى فى علاقة ابن الشيخ الفاضل بنبوية ما يستحق الكلام فوق المصاطب أو على الفراش بالليل مع الزوجات : « أخ وأخت .. لقد تربيا معاً » .

أما الحدادة فتوغر صدر ابنها السعدى — فى الصباح والمساء — على بنت فهيمة : « البنت لأمها » .

قال السعدى مكلماً نفسه : « أنا لا أصدق .. نبوية ذات الشعر الأسود المدهون والمعقود ضفيرتين لا يمكن أن تكون كأمها فهيمة ، الأنف الشامخ كبرج الحمام ، والعينان السوداوان ليلة شتاء لا تنفذ فيها سكين ، الرموش الطويلة مذراة ، ما يخيفنى هو الشفة العليا الطالعة لقدام ، لكن من المحال أن تكون نبوية كفهيمة ، نبوية فرس أصيل ، ولن يعتلى ظهر الفرس غيرى ، هى بنت خالى وأنا فارسها ، هذه فرسى أنا دون سائر الرجال » .

ما للقاء مبتور بين الولد والبنت !؟ ، فى اللقاء خجل وفى اللقاء ارتباك ، وشعور بخوف مبهم ، وارتفاع بدرجة حرارة الجسمين ، وفى اللقاء أيضاً رغبة فى القرب والملامسة .

قال الولد : « ليت ما فات يعود » .
وقالت البنت : « تلك الطفولة التى مرت ليتها تعود » .

— ٢ —

« أ »

الريح أتت من محبسها البعيد كالخيل الجامحة ، شالت الأعواد اليابسة من فوق

أسطح البيوت ، ونزعت الأوراق الجافة من فروع الشجر ، ولمت التراب الناعم من فوق سطح الأرض ، وضربت الوجوه والبيوت بالورق والقش والتراب ، وحطمت الأبواب الواهنة ولمت نتف السحب القليلة الرمادية المتباعدة فى السماء العالية ــ فتجمعت السحب وأصبحت أشد دكنة .

لما بكت السماء وسقط الدمع الطاهر على الأرض التى تضج من ظلم البشر للبشر ــ رقد التراب المهتاج واختفى الغبار من الجو وعم نور وعادت الريح لمعقلها وصارت السماء أشد زرقة ، وخرج الأولاد الصغار يبحثون عن اللقايا من جعارين وفصوص وخواتم وما تكشف عنه أرض الجدود ذات السر .

« ب »

رحل الشيخ موسى قطب البلد وحاميها ، رحل من يومين ، وقد بكته السماء قبل رحيله بيوم بأمر من الله الذى له ملك السموات والأرض ، ولكل أجل كتاب :

جاء محمد المنشد كعادته ومدح الرسول ، وجاء الرجال كعادتهم وأقاموا حلقة الذكر ، وحان وقت خروج الشيخ من خلوته ــ لكن الشيخ لم يخرج ، ومر الليل بطيئاً ثقيلاً والشيخ لم يطل بعد بطلعته المنيرة على المحب العاشق والمريد المشتاق ، وما من حس بحجرة الشيخ بينما نور الفجر يرفع الظلمة عن البيوت والنخيل والشجر ويجعل الشخص يرى وجه رفيقه .

النفوس داخلها الشك ، فتكلم المحبون بهمس ، ثم ارتفع القول وتضارب :

« نكسر الباب » ، « من يجرؤ .. كشف الستر عقابه شديد » ، « سمعته بالأمس ينادى الله حبيبه : خذنى ، نادى الله ثلاث مرات بصوت مرتفع سمعته .. بصوت كابد العشق » ، « فى الأيام الأخيرة كان دائم الحديث عن الرحيل وعن الموت مفرق الأحبة والجماعات » ، « يا ناس .. ربما طال به الوقت وهو هناك يطوف بمكة المكرمة » ، « لا .. هنا مكانه .. ونحن حمله الثقيل .. فلننتظر عودته » .

« ج »

« يا أيها النهار الطالع كم أنت طويل ، وأنت أيها الليل القادم كم أنت ثقيل ، لا طاقة لنا بك أيها النهار الذى يعقب الليل : يا من حسمت الأمر ».

« شممت عطر الجسد وما شممت عفنه » .

« الخشبة طارت طيراناً » .

« ونحن ما حملنا الخشبة ، هى التى سبحت فى الجو كغمامة مسرعة » .

« آه يا أيتها الحفرة السوداء ، وأنت يا أيها التراب المنهال نحن منك وإليك وها هنا الجسد ، أما الروح فقد عادت لخالقها ، ونحن نعرف قدر الرجال ، ليلة مماته من كل عام سنحييها بالدف وبالطبل وبالمزمار وبالخيل سنتسابق وبالعصى سنلعب وسنقيم الأذكار ونطعم الطعام على حبه مسكينا ويتيماً وأسيراً .

« د »

أحباب الشيخ — وكل البلد أحبابه — جمعوا المال ليبنوا الضريح ، تشاوروا فى أمر النقيب الذى سيتلقى النذور ، البعض يقول إن الشيخ قبل مماته كان قد قرب إليه خليل البياض وكان يهمس له بسره ، والبعض الآخر يقول إن يوسف سليم الجزار لم يخن الأمانة وقد فضله الشيخ على الجميع لمّا اختار حجرة من حجرات بيته لتكون خلوته التى يعبد فيها الواحد الأحد .

وحسم النقاش بالآتى :

(١) البعد عن العدل ولو بشبر واحد لا يعلم عاقبته إلا الله .

(٢) للمحب والمريد الذى يطلب الشفاعة حق تقرير المزار .

(٣) يقيم خليل البياض فى الضريح — حيث دفن جسد الشيخ — ويتلقى النذور .

(٤) يقيم يوسف سليم فى الحجرة — فقد كانت خلوة الشيخ فى الحياة — ويتلقى النذور .

(٥) على يوسف سليم أن لا يستخدم الحجرة فى غرض من أغراض الدنيا ، وأن يحترم حرمتها ما دامت تحمل أشياء الولى الراحل .

القسم الثانى عشر

اللقاء بعد طول غياب

— ١ —

رمت الأم بجسدها القليل اللحم فى حضن الابن ومرغت رأسها المثقل بما حمل من هم الأيام فى صدر الابن وتشممت ثوبه ، ورأت الشعر الأبيض على فوديه :
« هذا فعلته بك وبنا الأيام ياولدى .. لكنما بذراعيك قوة رجلين » .

طافت بالمكان روح بخيت البشارى : الأب والزوج ، وطافت بالمكان روح فهيمة : البنت والأخت ، وقالت الأم : « ياحبيبى .. ياكل الأحبة » ، وعلا بكاء الإثنين : « هذا مقام الفرح وهذا مقام الحزن » .

— ٢ —

جاء المحبون إلى بيت بخيت البشارى ، فقابلهم مصطفى وقابلتهم حزينة ، وتقبلا منهم التهنئة بسلامة العودة والعزاء فى الراحل والراحلة .

وقام مصطفى العائد بواجب الراحل والراحلة فأحضر فقيهاً تلا من القرآن العديد من السور ونفحه مالاً ، وزار مصطفى قبر والده وأخته وقرأ فاتحة الكتاب ورش الماء على قبريهما .

— ٣ —

حكومة الوفد برت بوعدها ووفرت لكل من كان يعمل بمعسكرات الانجليز عملاً ، ومصطفى عُيّن فراشاً بمدرسة البندر — لكن مصطفى لم يذهب ليستلم العمل (ربما يكون السبب هو الراتب القليل ، وربما يكون التعفف أو الكبرياء عن العمل المهين ، وربما كان المال المخبوء سيظهر بعد حين ، على أية حال مصطفى لا ينكر قول أحد ولا يقر قول أحد ، والسر كله فى جوف البئر حزينة : هذه العجوز لا تبوح .. ما بان عليها فقر ولا يسر .. تفتح فمها الأهتم وكأنها ترمى بأسنانها فى وجه مكلمها « الخير فى دجاجاتى وحماماتى .. أبيع البيض وأشترى حاجتى — غيرى لا يعطيه الله — تقصد الحدادة بنت الحداد — وبنت بنتى نبوية سلمت يدها تصنع من الخيط أفضل طواقى الرأس ») .

— ٤ —

أضمرت حزينة — وقد كثر قول القائل والقائلة عن المال المخبوء — أن تباشر ابنها بالسؤال ، وقالت :

« علىّ أن أختار الوقت الحسن .. لما يكون معتدل المزاج » .

— ٥ —

قال مصطفى وكان معتدل المزاج ، وبدأ كلامه بقهقهة عالية :

« أأنت خائفة يا أم من أن تعولى ابنك فى شدته ؟ لا تخافى .. الرجل لا يغلب .. فى رأسى مال كثير » .

قالت حزينة فى عجب :

« فى رأسك !! مال كثير فى رأسك !؟ » .

قال مصطفى ضاحكاً :

« المال أيضا مرمى بالطرقات كالأحجار » .

ردت حزينة وهى تتصنع الفزع :

« أطلب من الله أن يحفظ عقلك من الجنون » .

قال مصطفى يحدث أمه بجد ووضع يده على كتفها :

« لن أعمل تحت أمر مخلوق .. نعم .. لقد تعبت وقاسيت يا والدتى الكثير فى غربتى من أوامر المخاليق .. الأمر مُرّ الطعم .. ومن اليوم سأكون حر نفسى .. أنت لا تعرفين بشاعة حكم الآدمى الحاكم على الآدمى المحكوم .. لا تخافى .. سألتقط رزقى من الطرقات كالأنبياء والطير » .

القسم الثالث عشر

يفيض النهر فيغطى الرمال الواسعة — هناك بالبر الغربى — بالماء النحاسى ، وينحسر مخلفاً الغرين الطيب فوق الرمال ، فيدفن الزراع بذور البطيخ ، وتطلع الأعراش وتفرش سيقانها وأوراقها الخضراء ، ويتفتح النوار وتطل الثمرة ، ويكبر البطيخ ويستدير بقشرته الخضراء من الخارج — لكنه من الداخل شديد الاحمرار شديد الحلاوة قليل الماء .

تأتى القوارب بالتجار فيساومون الملاك — لا الزراع — ويشترون المحصول . وتنقل القوارب المحصول من البر الغربى إلى البر الشرقى . وتتوقف القوارب عند المرساة ، ويفرغ الحمالون الحمولة ، ويرمون الأحمال خلف ظهورهم المقوسة ، ويرفعونها من تحت لفوق ويكومونها أكوام أكوام : « تلك أكوام صغيرة وتلك أكوام كبيرة .. هذا بطيخ مليح وهذا بطيخ ملاحته أقل .. وذاك بطيخ أنشقّ أثناء الرفع والإنزال » .

يقبل صغار التجار على كبار التجار يساومونهم ، ويدور الكلام ما بين أخذ ورد،وزعيق ويفتح الله،والله يسهل لك .

وقد تمت الصفقة،يزعق الحوذية فى حميرهم فتتحرك الحمير تجر عربات الكارو

المحملة بالثمار الحلوة ، وتدرج العجلات على الشارع المرصوف ، وهناك ببندر الأقصر تجد الثمار الحلوة شاريها المقدر الذى لا يبخل على المتعة الطيبة الحلال .

كلهم عند المرساة : تجار كبار وتجار صغار وحمالون ونوتية وأصحاب قوارب وأصحاب عربات كارو .
ومصطفى — هنا أيضاً فى خُص أقامه من بوص الذرة العالى .

هنا — يصنع مصطفى الشاى والقهوة ويقدمها للشاربين ، والباذنجان المقلى بالزيت والفول النابت المغلى فى ماء والحمص المسلوق للآكلين .

هنا المرساة ، وهنا مصطفى، وخُص مصطفى المغطى بالخيش يحميه من الشمس الحارقة فى الصيف، ويرمى بالظل ويمنع البرد الساقط فى الشتاء .

وهنا ، دكة خشبية وحَصر للجالسين ، وهنا الكوتشينة لمن يريد التسلية البريئة .. ومن أراد لعب القمار فليلعب .

ومن هنا : طريقك إلى الأقصر البندر وسوق الثلاثاء ، لا طريق لك إلا من هنا يا ساكن القرى والنجوع — إن كنت راكبا أو كنت سائراً .

القسم الرابع عشر

كل الخيوط تتشابك

- ١ -

« أ »

قال السعدى : « أبغى الزواج من بنت خالى يا أم » .

ردت الحدّادة وكأن العقرب لدغتها : « لو تزوجت من بنت فهيمة فلن تكون ابنى ، سأذبح خلفك حمامة .. كأنك متّ ، وتكون خلفتى كلها من البنات .. والعوض على الله .

صرخ المحب العنيد : « نبوية بنت خالى .. وهى عارى .. وهى دمى... ولحمها من لحمى » .

قالت الأم : نبوية بنت فهيمة لا بنت الحدّاد ، لو عاندت وركبت رأسك سأحرمك من الإرث » .

رمى الولد بقراره القاطع : « افترضى أنها بنت الشيطان ـــ لكنها رغبتى أنا لا أنت » .

أشاحت الأم برأسها وأدارت ظهرها للابن غاضبة . وأدار الولد ظهره لأمه وانفلت غاضبا للخارج ، وصفق الباب الخشبي خلفه بعنف .

« ب »

قال مصطفى — ابن بخيت البشارى من حزينة وشقيق فهيمة — للسعدى ابن الحدّادة : « انتظر حتى أموت أنا وتموت أمى ثم تقدم لنبوية وتزوجها إن رضت بك » .

« ج »

العناد والعشق جعلا السعدى يقرر أن لا يعود إلى أمه وأبيه — قال :

« سأبنى عشى بعيدا عن العمران — هناك عند الساقية المهجورة ، سأطلق لحيتى وشعر رأسى وسأجد سلوتى فى الخمرة والمخدرات ، سينطلق الوحش ويكسر الأبواب وينط الحوائط ويحصل على ما يسكت صراخ بطنه ، وفرصتى آتية آتية .. فى اليوم القريب أو اليوم البعيد ، سأخطف تلك التى أعبدها وأمضى بها لنعيش أنا وهى حتى نهاية العمر : هناك مع الضوارى .ودونكم ودونى يا أهل هذا البلد : النهر والرمال والجبل الكبير » .

تحت ظل شجرة التوت القائمة بفروعها الكثيرة هناك عند الساقية المهجورة — نام السعدى ، وحلم :

« جمحت الفرس ، وألقت من فوق سرجها ابن الشيخ الفاضل ، وجرت ورمت بسرجها ، وشقت الدروب نافرة العُرْف ، والعرف تحت الشمس الطالعة له وهج يعمى البصر .. وكأن العرف من نار ، والخلق تجرى خلف الفرس ، ونبوية وسط الخلائق مفكوكة الشعر ، وقد بلغت الفرس الساقية المهجورة وجدت السعدى الذى نط كالقط واعتلى ظهرها الأملس وقبض على عرفها ، وظل يصفر لها بفمه حتى استكانت ، ومد السعدى يده لنبوية فمدت له نبوية يدها المرتعشة ، ورفعها لفوق وطوقها بساعده ، وشد عرف الفرس ولكزها فى بطنها

بكعب رجله ، وصرخ : هيه .. هاه ، وانطلقت الفرس كالريح : خاضت به الماء .. وتخطت عقبات الرمل المخادع .. وها هو الجبل الغربى الكبير قاب قوسين أو أدنى .

— ٢ —

« أ »

منع مصطفى بنت أخته من الخدمة فى بيت الشيخ الفاضل ، وصرخ فى أذن أمه التى لا تسمع إلا بالصراخ :

« نبوية كبرت يا أم .. وبعنقى دين للشيخ الفاضل سأرده وأنا قادر على رد الدين بإذن الله .. وأنا أكسب من عملى والحمد لله فلماذا تعمل نبوية فى بيوت الغير !؟ » .

وقال مصطفى لنفسه وهو يهم بمغادرة البيت :
« لقد نبهنى السعدى أن البنت كبرت وصارت عروسة » .
بلهجة الولد الحريص بخ أوامر فى وجه نبوية :

« لا تذهبى للنهر .. سأكترى سقاء ، قومى انقعى الفول والحمص .. وسأرسل من طرفى من سيأتى ويأخذه » .

جلست نبوية تتحسر على حالها :

« سأظل هنا بهذا البيت حتى يأتى رجل يوافق عليه خالى وجدتى فيأخذنى لبيت أمه ، أما هو فلن يتقدم لخطبتى أبداً ، هو السماء وأنا الأرض ولن تنطبق السماء على الأرض إلا إذا قامت القيامة ، سأظل فى مكانى هذا بحسرتى ، أنقع الفول والحمص وأكنس تراب البيت وأرشه ، وأسمع كلام العجوز ، كلام العجوز زاد اليوم عن اليوم الذى فات ، ولا أحد فى مواجهة العجوز غيرى أنا التى أسمع كل يوم أن الماضى حلو والحاضر مر ، حتى النهر لن أذهب إليه فقد اكتروا

سقاء ، أنا غازلة الصوف وصانعة الطواقى ورامية الحب للطير — هل يحضر ليرانى فأغسل ثوبه !؟ » .

— ٣ —

رحلت شمس الصيف الكبيرة ، وأقفرت المرساة ، ذهب صغار التجار وكبارهم والنوتية والحمالون وأصحاب العربات وسائقوا العربات إلى حيث يعلم الله . وتلك هى شمس الشتاء بوجهها الضاحك وشعرها الأصفر المحلول . وها هم السياح قادمون من بلادهم — بلاد الغيوم والمطر والثلج الأبيض ، ليتفرجوا على الأثر القديم، وليركبوا العربات تجرها الخيول وليشتروا الطواقى الملونة ويلبسوها ، ولتنقلهم قطارات الماء من بر الشرق إلى بر الغرب ، وليعمروا اللوكاندات .

رحلت شمس الصيف بالبطالة وأتت شمس الشتاء بالعمل .

— « هيا إلى اللوكاندة ياولد .. وأنت يارجل هيا إلى العمل .. ودعوا البطالة يا سكان نجع البحاروة فقد رحل الصيف .. وأنتم لستم ممن يفلحون الأرض ولستم بالملاك ، فلتلبسوا ملابسكم البيضاء وعماماتكم البيضاء وتمنطقوا بالأحزمة الخضراء .. منكم سيكون البارمان ومنكم سيكون الجرسون .. وفيكم المرمطونات » .

فكر مصطفى وهو يرقب النهر — وكان الرجال والصبيان قد مروا عليه ورموه بالسلام وكانوا يلبسون ملابسهم البيضاء وعمائمهم البيضاء وقد تمنطقوا بأحزمة حضراء : « لأنهم يعيشون الصيف فى بطالة ويعملون بالشتاء ويحصلون على أجر وبقشيش كثير ، ولأن الصيف قادم لا محالة بعد الشتاء — فهم مقامرون » .

وفرك مصطفى ورق الكوتشينة الملون بين راحتيه وزعق فى النهر ، ورد عليه النهر :

« مقامرون .. مقامرون إلى أبد الآبدين » .

وقال لنفسه :

« من يعمل بالليل سيأتى إلى خُصّى بالنهار .. ومن يعمل بالنهار سيأتى إلى خصى بالليل » .

حزينة لا ترى إلا السواد يغطى كل شىء ، لقد خف الضوء بعينها التى ترى ، وقلّتْ قدرة الأذن التى تسمع على التقاط الكلام من فم الآخرين حتى لو صرخوا . ونبوية تخفى بطنها المنتفخة عن عين جدتها الكليلة بالثوب الواسع ، وتتوجع بالأنات المكتومة؛فالصرخات العالية قد تسمعها الجدة .

— لكن لما يتكرر رفض البنت للأكل ، ولما ترفض المعدة ما بداخلها من طعام وترميه من الفم ، لما يتكرر القىء وتقل الرغبة فى العمل ويكثر النوم ، فلابد أن فى الأمر شىء لن يفوت على حزينة المجربة دون أن تعرفه .

أتت آمنة أم بدرة القابلة ، واختلت بنبوية داخل الغرفة ، وخرجت آمنة وحدها من الغرفة ، وقالت للجدة تواسيها :

« كان الله فى عونك .. الإناء مشروخ » .

ضرست حزينة أسنانها الهتماء ، وقالت لنفسها :
« لو كنتَ أملك عافيتى لقضيت الأمر بنفسى » .
وشدت عكازها وخرجت للطريق تظلع ، لتنقل الخبر المفجع للابن .

خاتمة

- ١ -

مصطفى الهائج كال لنبوية الضربات الموجعة وجعل الوجه الجميل يتورم ، ولمّ الشعر الذى يحاكى الليالى بكفين نفرت منها العروق.وبقبضتين قويتين رمى بالجسم الذى يبتغيه الرجال على الأرض وجرجر نبوية ، وأشبع بطنها الذى يحمل الحرام رفساً بقدميه ، وتركها — إلى حين : حتى يحفر الحفرة — كومَ لحمٍ مهشم العظام، تتأوه تحت الجدار .

رمى الفأس ، ورفع نبوية ، وأنزلها فى الحفرة ، وأهال التراب على الجسم حتى العنق ، وترك الرأس يطل بينما الشعر يرعى فى التراب . وصرخ مصطفى فى الغيب ، وترجمت حزينة صراخ الأين :

لا كسرة خبز .. ولا جرعة ماء .. حتى تموت وحتى تبوح بمن فعل .

- ٢ -

نبوية تقاوم العطش الشديد .. حلقها جاف لم يجرع الماء منذ عام — لكنها

لن تنادى لتطلب الماء . ونبوية جائعة (تشتهى ثور الحلوى المكسور القرن بداخل صندوقها الخشبى) . ونبوية تنظر للكوة العالية بالحائط ــ تلك التى تأتى بالضوء والبرد للغرفة ــ وتقول : « ما عدت أحس بالبرد .. وهذا الضوء أهوَ ضوء الشمس أم ضوء النجوم .. الضوء لا يعنينى بقدر ما أريد أن أعرف أهو نائم أم مستيقظ .. كم من الأيام مر على وأنا هنا . يومان أم شهر أم عام ؟ أم أعوام طويلة تلك التى مرت .. وتلك العيون الشامتة المطلة من الكوة تسألنى عن اسمه ولن تغادر الكوة حتى أنطق باسمه .. أنا لن أنطق لأننى ميتة ميتة لا محالة .. لا بل لأننى لن أبوح باسم حبيبى وإلا فسيقتله الخال الهائج .. لماذا لا يقترب منى ذكر الأرنب الكبير هذا،ويمرر شعره الناعم فوق جلد وجهى ويدفن جسمه الطرى فى شعرى متمرغاً بفروه الناعم .

– ٣ –

خبط السعدى باب بيت بخيت البشارى بقصبة قدمه بعنف ، وتخطى حزينة القاعدة دون أن يرميها بنظرة من عينيه الحمراوين المشتعلتين كجمرتين ــ إنه يعرف بغيته ولن يضل طريقها .

أخرج من بين طيات ثوبه الممزق المنجل القاطعة الحادة الأسنان ، وقبض على لمّة الشعر الأسود المعفر المهوش كما يمسك بحزمة برسيم ، وحصد العنق الشامخ، فمال البرج وطار الحمام وعوى الذئب على مشهد الدم النافر يغرق الثوب ويجرى على التراب كالحيات ، وحمل الرأس بعيون ماتزال حية تلمع ، وهو يعوى ...

– ٤ –

« أ »

كان مصطفى قاعداً يغسل الأطباق والفناجيل والأكواب من رواسب القهوة والشاى فى جردل به ماء ، وحول مصطفى جلس الرجال يتكلمون ويدخنون

الجوزة ويشربون الشاى والقهوة السوداء بغير سكر ويختلفون على اللعب ، ومصطفى غافل عن هذا العالم — بإرادته — وبعيد .

« ب »

ظهر الشيطان فجأة بلحيته القذرة المهوشة وشعر رأسه المنفوش ، وبصق السعدى على وجه مصطفى ، ورمى فى الجردل المملوء بالأكواب والفناجيل والماء القذر برأس الجميلة .

« ج »

الرجال يطوقون مصطفى بصمت مميت ، كفوا عن اللعب المسموع ، والكلام المسموع ، بينما عيونهم تقول كلاماً ووجوههم تنطق بكلام ، ماالهم لا يمشون ويغادرون المكان ويبقى مصطفى وحده بهذا المكان حتى نهاية العمر .

صرخ مصطفى فى الصمت وفى الرجال وفى كل من يسكن القرية من نسوة وصبية وبيوت ونخيل وحيوان وشجر :

« كلكم يعرف من أنا .. كلكم يعرف من أكون .. كنت صبياً لما سافرت إلى السودان .. وقفت وحدى ورفعت اليد فى وجه الريس عبد الظاهر وألزمته الحد ، عرفت النساء عدد شعر الرأس وأنا صغير ، بالسودان نمت على فراش شيخ عشيرة . أنا الولد الذى لاراح ولا جاء نمت على فراشه وهو شيخ عشيرته يأمر وينهى ويصدر أوامر القتل على ابن آدم ويعتق رقبة ابن آدم بمثل ما يشرب الماء — لكنه العاجز إذا ما أمر زوجته بالحفاظ على فرجها » .

« هناك منكم من عاشرنى بالشام ويعرف أننى تزوجت وأننى عجزت كشيخ العشيرة عن حماية فرج زوجتى فطلقتها ، من منكم لا يعرف النساء ، أنا الذى عرفت تزوجت مرة واحدة ولن أكررها مهما طال بى العمر ، وما فكرت بعد الذى حدث .. وما فكرت قط ، السعدنى ولد ونبوية بنت ، والحدّاد خاله ونبوية ليست بنتى وهى عار السعدى وعارى من بعده ، ضربتها ودفنتها فى حفرة ومنعت عنها الطعام والماء لتبوح باسم الفاعل ، لو عرفت اسمه لمزقت جسمه ولو كان أبن

فرعون .. لشربت من دمه وما كان ليصدنى مخلوق .. لكن السعدى قتلها قبل أن تنطق » .

شعر مصطفى أنه يعوى فى خواء ويمشى فى عتمة تحيطه وتمتد أمامه إلى ما شاء الله ، وأنهم قد أسقطوه من حسابهم ومن عداد الرجال .. إنها فرصتهم — هؤلاء رجال هذا الزمان — ليحطموا رأسه المتكبرة : لقد أصدروا حكمهم .

وشحر مصطفى كالذبيحة :
« أنا .. أنا .. وبعد هذا العمر الذى مر » .
وطلب من نفسه أن تعطيه ما يريد : شللاً كاملاً عن الكلام والحركة والشوف والسمع — ولبّت نفسه ما أراد وأطاعت .

« د »

حمل الرجال مصطفى وأرقدوه فوق العربة ، وجر الحمار العربة ، وصرت العجلات ثم درجت على الشارع الأسفلتى ، وعرجت عند مقام الشيخ موسى ، وحرن الحمار وهو يهبط المنحدر الترابى — لكن السائق صرخ فيه وكال له الضربات الموجعة بفرع الشجرة اليابس فواصل سيره جارياً بالحمولة الخفيفة .

« هـ »

الدمع جف فى المحجرين ، والضوء انطفأ فى العينين منذ زمان ، وها أنت ياحزينة بعد مرور الزمان مع الأبن المقعد داخل المكان ، رحل الزوج ورحلت البنت وهلكت بنت البنت ، وحولك المشفقون والحدادة الشامتة ، ولا ضوء ولا نار بموقد ، وما الحاجة للنار والموقد !؟

« و »

ولّى الليل بالنجوم ، وجاء النهار بالشمس ، وأطل الأرنب الذكر الكبير الخائف

من باب بيت بخيت البشارى المفتوح ، ثم نطَّ للخارج وتبعته الأرانب الكبيرة والصغيرة تسعى للحشائش تحت كرم النخيل غير المسور ــ الذى يملكه الشيخ الفاضل ــ والواقع خلف بيته ...

تصاوير من الماء والتراب والشمس

الناس بالناس .. ، والناس للناس ، وصاحبى الطاعن فى السن فى كرب – فبعد موت ابنه الوحيد ماتت أم ابنه صبح اليوم الأربعاء ، ووقفتى أمام الصاحب مكتوف اليدين مرذولة « إسكافى المودة »

– ١ –

(عصر يوم بعيد) جاء قاسم من بلده البعيد على ظهر مركب تحمل الجرار ، ودخل سوق المدينة وشال كيس بطاطس يزن إردبين ورماه على ظهره،ولف بحمله لفتين ثم حطه على الأرض – وسأل أهل السوق وحكامه :« أى عمل ياجماعة ؟ » .

(وصبح اليوم) أجبر الموت – فى السوق الآمّة أشتات الناس ولمامةّ البلدان – صاحب البدن المهدم على البكاء بعين مملوءة بالدمع والدم .

(وذات يوم : لاهو بالبعيد ولا هو بالقريب) – عاد قاسم إلى السوق بعد غيبة بعين معصوبة بمنديل لما رفعها لقبه الأسافل بالأعور وناداه الأفاضل« ياكريم العين » .

- ٢ -

(مابيكيك ياقاسم ؟ .. كلنا للموت ! ! .. الموت حوالينا) .

كل ناس السوق بألسنة – كأنهم لايملكون إلا ألسنة ! ؟ ، ماقيمة اللسان فى يوم بلاء مثل هذا ؟ ، إسكافى المودة أيضا بلسان أوقعه فى ضيق ونجّاه من مهالك ! ! ، إلا أن اللسان لايعرف إلا الكلام ، والكلام لايفك عقدة ولايربط عقدة فى حال كحال قاسم ، فى حال كحال قاسم الفعل واجب .. الفعل فرض : ولا أحد فى أمان من مكر الدنيا .

- ٣ -

« قاسم .. ياصاحبى .. تعال »

ثلاث كلمات قالها الإسكافى لقاسم بصوت تسمعه كل الخلائق ، وأمسك يد أخيه وابن زمانه .

- ٤ -

وهما فى الطريق إلى خمارة مخالى – لم يتكلم الإسكافى ، أما المنكوب فلم يكف عن البكاء والكلام (الغير القادر اكترى الغسال الذى نزع القميص عن البدن وصب الماء على البدن ولف البدن العريان بالكفن ، الغير القادر شرى قماش الكفن ودفع أجر الخشبة وأجر الحفار ، والتى كانت تمشى فى النور على الأرض راقدة الآن فى الظلمات ببطن الارض بمقابر الصدقة) .

سقت نفسك إلى مأزق ياولد ، فأنت مفلس ، لكنك لازين
ولاشين - مادامت الخمرة سترفع الحزن عن نفس
الصاحب ، ولقاسم بلديات يكسبون ويشربون ، لو كانوا
هناك بالخمارة - سينادون « هات خمرة يامخالى لقاسم وا لإسكافى »
وفى هذا نجاتى من كل ضيق .

« اسكافى المودة »

- ٥ -

خمارة مخالى خالية ، ففى هذا الوقت من أوقات النهار ينشغل روادها من ناس السوق عن الخمرة بأمور العيش .

- ٦ -

ستظل يد الإسكافى مدسوسة فى جيبه : تعبث بالوهم وتخلق الوهم - ولن يخرجها من جيبه إلا بعد مايبلع مخالى الطُعم .

- ٧ -

راح مخالى بالأكواب الفارغة وجاء بالأكواب مملوءة ، وحاور الإسكافى مخالى بكلمتين طيبتين، ثم عبس ورسم ملامح الحزن وجرع كوبه المزّة بقرف، وطلب من

مخالى خمرة له ولقاسم ، وأشار الإسكافى إلى المصيبة التى حلت بقاسم صبح اليوم .

قال الخمار اليونانى « كلنا من التراب وكلنا للتراب » .
وقال المسيحى اليونانى وعينه على قاسم « الصبر حلو والله كبير » .

- ٨ -

نفخ قاسم: « خرج الولد من الدنيا قبلنا — وكنا نتمنى أن نخرج من الدنيا قبله .. وخرجت أم الولد من الدنيا قبلى — وكنتِ أتمنى أن أخرج من الدنيا قبلها » .

وزعق الاسكافى « خمرة يامخالى » .
وقالت الجدود لقاسم « الملاك بحربة .. يجرح البدن ويستل الروح » .

وقال السلف لقاسم: « تبقى الروح معلقة مجروحة بجروح البدن حتى يتصدق أهل الميت على الروح بسورتين من كتاب الله » .

وقال قاسم لقاسم: « أنت غير نافع .. الفقير بعافيته » ،

وقال قاسم للإسكافى: « لا مال معى أدفعه للشيخ ليقرأ القرآن على روح المرحومة » .

قال الإسكافى: « لاتطلب قرّاء القرآن بأجسادهم ياقاسم .. كلهم يطلبون الأجر وأنت لا تملك الفدادين .. حاور الفقر بالحيلة » .

وقال الإسكافى « بالسوق أجهزة تدور فتلف أشرطة بحجم الكف وتتكلم .. ومنها نسمع الأغانى والحكايات،ومنها أيضا نسمع القرآن بالمجان » .

قال قاسم : « لن أطلب من مخلوق جهازه .. أقدر على الحزن .. سأحزن حتى يأخذنى الموت .. اطلب لى خمرة » .

أشرق وجه الإسكافى ثم عبس ونادى مخالى :

« هات لقاسم يامخالى .. ولف لى زجاجة فى الورق » .

« اشرب واشرب ، سأحضر أنا الجهاز . لن أغيب ، لاتقلق ياقاسم وكن بخير » .

« إسكافى المودة »

– ٩ –

بين نور وظلام وعلى أرض موحلة طالعة نازلة وبعد مشقة ؛ بلغ الإسكافى خُصّ رجب جامع الخرق وناداه وسمع رده فحمد الله الموفق . جلسا متقابلين على كوم من الخرق . ورحب رجب بالإسكافى – وقال : « أعمل شاى ؟ » . ورد الإسكافى « لا .. نشرب خمرة » وعرى الزجاجة من الورق ووضعها بينه وبين رجب وطلب من رجب مسمارا ، وبالمسمار نزع السداده وألصق فم الزجاجة بأنفه وشم وقال : « خمرة طيبه » . وطلب من رجب كوبين فأحضرهما . وصب الإسكافى السائل الأسود الطيب فى الكوبين وشرب كوبه على مهل وقال : « خمرة طيبة » . قال رجب « خمرة طيبة.. هذا حق » . وقال الإسكافى : « صبح اليوم ماتت زوجة قاسم » وقال رجب : « والله ما سمعتُ الخبر الا منك » . قال الاسكافى « المسكين كالبيت الذى هدّته دبابة .. لولاى لقتله الحزن » . قال رجب : « مسكين قاسم فقد ابنه وأم ابنه وفقد نور عين ومع العمر فقد عافيته » . قال الإسكافى : « هذا حق .. قاسم وحيد .. والوحدة مرة وصحبة والناس بالناس والخمرة تبعد الوحدة لهذا دعوته إلى خمارة خالى » .. وهو الآن هناك يشرب على حسابى .. سأعود إلى قاسم فقد يفعل المسكين فى نفسه شيئا ، فالخمرة تزيح الحزن فى حين وتجلب الحزن فى حين إلا أن كلام الله وحده يلم

الأحزان من النفوس .. أنت تملك جهاز كهرباء يارجب ؟ رد رجب : « نعم عندى .. أحضرته من ليبيا لما سافرت من عامين .. لكن لاكهربا فى بيتى .. جهازى يعمل بحجارة بطارية .. لكنه الآن بغير حجارة بطارية .. هات حجارة بطارية وتعال مع قاسم وسيعمل الجهاز .. لكن انتظر .. كل الأشرطة التى عندى أشرطة تغنى الأغنيات ولاتقرأ القرآن » . قال الإسكافى : « الغناء أيضا يدفع الحزن .. هات الجهاز » . واحتضن الاسكافى الجهاز – وقال لرجب : انتظر ساعة يارجب ثم تعال الى خمارة مخالى ، سأل رجب – وبان قلقه : « ولماذا لاتحضر أنت وقاسم الى هنا ؟ » رد الإسكافى : « يارجب تعَلّمْ من الدنيا .. هل ينتقل الحزين إلى بيت الفرحان » قال رجب بخوف : « أذهب معك الآن » . قال الإسكافى : « قد يظن العاجز أنك صاحب مكرمة فيزداد حزنه » . وصب من الزجاجة فى كوب رجب وقال : هذه الزجاجة لك يارجب فأنا سأشرب هناك الكثير . ودس يده فى جيبه وسأل رجب مستنكرا ويده تلف فى جيبه : « هل تريد مالا يارجب ؟ .. هل تبغى الضمان الذى يحفظ لك حقك ؟ » تلجلج رجب وأحس بالاهانة ودافع عن نفسه ونفى تهمة النصب عن الإسكافى – وقال : « فهمتنى غلط يابن العم .. أنا قد أعجبك فى المواقف .. لكنى رأيت الموت .. قطعت الأسلاك بأسنانى وهربت من حدود مصر إلى حدود ليبيا .. تسلخ جلدى وأنا أزحف على الرمل الساخن ونفدت بروحى من رصاص القناصة النهابين قطاع الطرق أولاد على بمعجزة من الله .. ووقع قلبى لما رأيت أولاد العرب فى الجيشين متواجهين والسلاح يابن العم يخلط الدم باللحم بالرمل .. وأنا لاأقول لك غير مارأيت .. كن على حريصا .. وأسألك : هل بمقدورى الآن بعد خصام البلدين الحصول على جهاز آخر ؟ .. على أية حال مع السلامة .. سآتى بعد ساعة » .

العرب فى الجيشين متواجهين والسلاح يابن العم يخلط الدم باللحم بالرمل .. وأنا لاأقول لك غير مارأيت : كن على حريصا .. وأسألك : هل بمقدورى الآن بعد خصام البلدين الحصول على جهاز آخر ؟ .. على أية حال مع السلامة .. سآتى بعد ساعة » .

خالى .. ياساكن البيت العالى .. فى خمارتك كهرباء
.. خذ الجهاز وأسمعنا غناء المغنين أبناء أيامنا ..
واسقنا من خمرتك السوداء لننسى سواد أيامنا .
« إسكافى المودة »

— ١٠ —

عودة الأسكافى إلى الخمارة أعادت الأمان الى نفس قاسم ، وبنفس صافية قطرتها الخمرة — باح قاسم للاسكافى بسر لم يبح به للراحلة شريكة عمره : « النعل ابن النعل ماسح النعال دعانى إلى وليمة فطاوعته وذهبت معه ، فى البناء المخصص للعلوم كان تلاميذه يكتبون ويطبعون ويهاجمون الحكومة ويتناقشون بعلو الحس ، فدخلنى رعب وقلت لبكلة : « إين الطعام ياابن النعل » ، قال « فى أوقات الأكل يأكلون وتأكل معهم » ، « كان النعل ابن النعل يتنقل بينهم وكأنهم أبناء عمه ويلمع أحذيتهم ويلم المال ، وأنا كنت آكل فقط لمّا يأكلون ، وجاء الوقت الذى حاصرنا فيه البوليس المسلح ، ونادونا بمكبرات الصوت ، ثم هاجمونا لما تغطرسنا فى الردود ، فسالت دموع وسالت دماء وتكسرت ضلوع وأصابنى البارود فى عينى — إلا أنى زغت ولاأعرف كيف ، ونصحنى بُكلة الكلب بعدم الذهاب إلى المستشفى لأن المستشفى حكومة تبلغ أمر كل صاحب علة فى زمن القلاقل لعسكر الحكومة — وفى هذا سجنى ، وعملت بنصيحة ابن الكلب وفقدت عينى » .

وباح الاسكافى بسر يكتمه – قال « بمعدتى علة موجعة تجعلنى لأرتاح إلا بالحمام أو فى الخلاء أو وأنا وحدى » وضحك الإثنان .. ضحكا بدموع .. فها هما فى الحياة .. هنا فى خمارة مخالى قاعدان يشربان .

– ١١ –

فات وقت طويل وهما يعبان خمرة مخالى السوداء وينشدان الارتواء أو الحريق. لمّا التقت عين قاسم بعينى الاسكافى رمتهما بكلام وزاغت خجلة – تذكر الاسكافى أنه كقاسم لم تدخل معدته اليوم لقمة ، ونادى مخالى « بعت لك الجهاز .. فيما بعد نتفاهم .. أعرف حسابى وتعرف حسابك .. هات الأخضر .. طلع من جيبك وعِدّ وشخلل » . لم يندهش الخمار اليونانى بل فرح وأخفى الحريص فرحه وكذلك الإسكافى غمره سرور أخفاه وقبض على الجنيهات الورقية – وقال : « قليل » . وقال مخالى : « الجهاز قديم » . وقال الإسكافى : « يعوضنى رب المسلمين ياكافر » وابتسم . رد مخالى مبتسما : « أنا نصرانى مؤمن كفرت لما عشت معكم يامسلمين » .

– ١٢ –

دخل رجب خمارة مخالى – فى وقت تهدمت فيه كل الحوائط : لحمة مشوية وخمرة وألفة جمعت أبناء بحر مصر واليونان ، رمى رجب نفسه فى البحر وعام ، وضرب باليدين وعب بالفم حتى انتفخت بطنه وثقلت جفونه ، والبصر فى الرأس الثقيل يبحث عن شط ، والصوت البعيد للمغنية البعيدة من الجهاز البعيد يأتى ويروح : ثم عم صمت .

خذ سيجارة .. جهازك نسيناه البارحة بالخمارة .. لاتخف يارجب .. الجهاز موجود والخمارة موجودة ومخالى موجود .. الليلة نتقابل .. تعال نأكل لقمة وطعمية سخنة .. تعالى نتغذى ..

« إسكافى المودة »

– ١٣ –

بعد ماشربوا من خمرة مخالى السوداء – حتى آخر مليم فى جيب الاسكافى – وبان لهم حرص مخالى وبُعْده عن مجلسهم وتجاهله لأصواتهم المنادية وتصميمه على رمى النار بالزيت ، مد الثلاثة الأيدى فتشابكت ، وأقسموا بالحى والميت والملح والخبز والخمرة – أن يعيشوا من اليوم حتى الممات أخوة وعصا واحدة فى مواجهة الغير والعدوان .

حكى الإسكافى لرجب مادار بالأمس من خلف ظهر رجب وامتعض وجه رجب ثم تذكر القسم فكلم نفسه بصوت مرتفع : « خمنت .. من البداية خفت .. على أية حال نحن أخوة .. لكنى واجهت الموت وخرجت من حلق الموت بجهازى » . رد الإسكافى : « أنت الآن يارجب غير قادر على الحصول على جهاز .. وغير قادر على السفر .. الطريق إلى كل بلدان العرب مسدود ومحظور وتقف على حدوده جيوش مصرية .. والإسكافى فى نظرك نصاب كبير .. يارجل لاتخف .. جهازك ستأخذه الآن وتلمه بيديك » . قاطع رجب الإسكافى : « لم

أقل الإسكافى نصاب .. حاشا لله .. لكن كيف سآخذ جهازى وأنت بعته لمخالى ؟ » . قال قاسم : « الإسكافى لما يقول يفعل .. أنا خبرته » أكمل الإسكافى « إمسك بثوبى يارجب وأصرخ : حرامى سرق جهازى » . حاول رجب مقاطعة الإسكافى فأسكته الإسكافى بيد مرفوعة وكف مبسوطة – وقال « دعنى أكمل كلامى .. أفعل ماأقول لك وامنع ابن أى امرأة من العدوان على بدنى إمنع أنت وقاسم كل يد تطمع فى الأجر من الله لما ترضّ عظام الحرامى » . قال رجب : « لاأفعل أكثر من الإمساك بك والصراخ : حرامى سرق جهازى ثم أحصل بعدها على جهازى ! ! » رد الإسكافى : « نعم .. هيا ولا تضيع الوقت .. مخالى لو أراد شراء ألف جهاز لاشتراه .. أما أنت يارجب فلا وألف لا » .

– ١٤ –

صرخ قاسم صرخة الحيوان المجروح : « لاتلمسوا جسمه » . وصرخ رجب : « لاتلمسوه .. أنا لاأعوز من الإسكافى غير جهازى » . وصرخ مخالى : « هاتوا العسكرى ليمسك حرامى بخمارة مخالى » . وصرخ الإسكافى : « تمهل يامخالى ولاتناد العسكرى .. أنا سرقت جهاز رجب وأنت يامخالى دفعت المال فى جهاز مسروق .. أنت شريكى فى التهمة يا مخالى .. لو جاء العسكرى سيجرنى من قفاى ويجرك من قفاك لأنك تشترى مسروقات .. ياناس نادوا الحكومة لى ولمخالى والسيف الأسود يقطع رقبة الأبيض » . وتعالت أصوات رواد خمارة مخالى : « القانون قانون .. القانون لايرحم .. القانون صريح .. القانون فوق كل الناس .. القانون سيف على رقبة الكل .. الحكومة بالقانون .. والقانون حكومة والحكومة قانون .. إرضخ يامخالى .. إعطى الجهاز لرجب يامخالى .. إقبل كلامنا يامخالى ومالك عند الإسكافى ورجب صاحب حق » . قال مخالى « رجب سيأخذ جهازه ومالى عند الإسكافى آخذه من الإسكافى » . قال الإسكافى « إعطى رجب جهازه ومالك عندى » . قال مخالى « خذ جهازك يارجب وهات فلوسى ياإسكافى » . رد الإسكافى « أنا مفلس يامخالى والمفلس غلب الحكومة .. والحرامى يخاف الحكومة كذا شريك الحرامى يخاف من الحكومة .. اختش يامخالى ياشريكى وابتعد عن شرى وشر حكومتى » . قال ناس الخمارة « ابتعد عن الشر وغنّ له يامخالى » . قال « وخمرتى .. شربوا خمرتى ولم يدفعوا » . قال الإسكافى :

« قدمت لنا خمرة مغشوشة خرمت معدتنا » . رد مخالى « أنت إسكافى لاموظف صحة » . قال الإسكافى « جعلتنا نشرب لأننا لصوص نبيع مانسرق » .

قال اليونانى « بينى وبينك ربنا .. بينى وبينك حد لاتدخل خمارتى » .

رد الاسكافى: « أحضر بمالى وأشرب بمالى » . رد مخالى « ياناس .. الاسكافى يشرب وغيره يدفع » . رد الاسكافى « أنا أشرب وأصحابى يدفعون .. هم أصحابى يامخالى .. انتظر يامخالى .. لاتقلب الأمور .. أنا أشرب خمرة خرا ربت لى العفن فى معدتى وخرمتها وأصحابى يدفعون لك أنت ولايدفعون لى » . قال مخالى: « وجهك نتن لاتدخل خمارتى .. لايدخل الاسكافى خمارتى ياناس » . صرخ الناس فى الاسكافى : « لاتدخل خمارة مخالى ياإسكافى .. لاتدخل .. هذا حق .. العدل حلو .. وهناك بالبلد ألف خمارة » .

ضربتك ضربة ياخالى فضربتنى ضربتين ، غلبتنى ياابن الكلب
« إسكافى المودة »

- ١٥ -

جلس الاسكافى على حائط متهدم بنته الحكومة من سنين أيام الحرب مع اسرائيل – وكلم مخالى الغائب :

« دنيا بلا خمرة لاتسمى دنيا ياابن الكافرة .. وأنا لايطيب لى فى الدنيا عيش بغير خمر .. جاوبنى يايونانى ياخّوان ياخواجا ياذيل الكلب ياآكل لحم الخنزير ؟ .. نسيت السنوات ياخالى .. لا وفاء فى بلادكم ولا لكم صاحب ولا عندكم صاحب .. سأمزق جلدك وأفرى بدنك وألوك عرضك وأقول مخالى لاينام مع زوجته،وزوجته تنام مع الغير من شبان بلادها .. لكن لا .. هذا كلام يهد حيل أولاد العرب ولايحرك شعرة فى رأس الخواجات » .

يأس الاسكافى من الكلام مع مخالى الغائب فكلم نفسه الغائبة أيضا :

« تنقشع الليالى والنهارات وتغور وأغور أنا بعد عمرى الشقى إلى حفرة مظلمة وتأكلنى الديدان ويسيل من فمى وأنفى وأذنى صديد وقيح ثم يحضر إسرافيل وميكائيل وبيد كل منهما مرزبّة ويشبعان الإسكافى ضربا لأنه شرب الخمرة الحرام وفعل الإثم وخالف أمر ربه .

« هنا عاد الإسكافى الخائف من يوم الآخرة إلى دنياه فلم يجد غير أم البنات مبتورة الثديين تلك التى تنام من الغروب للضحى وأطفالها الذكور يموتون — فهاج قلبه الجسور وركل الهواء وسمع صراخ أم بناته فلم يهتم مادام الناس لايسمعون صراخها وماداموا يرونه على الحائط المهدم وحده يدبر أمره بمفرده ، فلا صاحب للفقير مثله فى بلد مثل هذا . من أجل أصحابى فعلت مافعلت ولم يسأل عنى أحد .. وهم هناك بخمارة مخالى وكأنى ماكنت يوما بينهم .. وكأنهم ماعرفونى فى السوق والطريق والخمارة وفيا محباً لهم وللخمرة .. تلك طباع أولاد آدم بمصر فى زمن كزمننا يأكل فيه الأخ لحم أخيه ويبيع لحم بنته التى تحاكى القمرة لعجوز هالك لاينط قناة .. ملعون أبوك يازمن وملعون أبوكم ياناس وملعون كل صاحب يتخلى عن صاحبه فى يوم ضيق .. ماذا تريدون منى ؟ أقعد وسط بناتى وأحشر لحمى فى لحمهم وعلى نور لمبة جاز أعارك الفأر القارض وأفعص البرغوثة مصاصة الدم؟ ؟ أم أقعد فى السوق تحت الشمس أنتف شعر إبطى وألم القمل من ثوبى بينما مخالى يتمخطر بخمارته وعلى رأسه ريشة ! ! » .

رقبتك فى يدى ياامخالى ، السيجارة سلعة والخمرة سلعة ، البقال بائع وأنت ياامخالى بائع ، ومن لايبيع لمن يريد أن يشترى - حتى لو كان إسكافيا - يدخل السجن ويدفع المال غرامة ، والحكومة صاحية ولها رجال فى كل مكان ، إسمعنى ياامخالى ولن يأخذنى أحد بلوم لما تخالف قانون حكومتنا المصرية « إسكافى المودة »

- ١٦ -

كشر الإسكافى وزام لما لقى زوج الميتة بخُص رجب : « عشت معى يومين ياقاسم .. كنا لانفترق .. وأنت اليوم ببيت رجب .. أنت خسيس ياقاسم .. لم تسأل عنى ياواطى ؟ » . دافع قاسم عن حق الصديق المعاتب وأمسك بثوب المحب الغضبان وحلف : « أنا ورجب رحنا السوق وفتشنا كل ركن فلم نجدك .. أين كنت ؟ » .صرخ الإسكافى ونفض يد قاسم عن ثوبه : « كنت بجهنم .. إرفع يدك عن ثوبى .. أنت كذاب وضلالى » . حلف قاسم بالله والنبى والكعبة إنه صادق ، وطلب من الإسكافى أن يقعد ، وسأله . « أين كنت ؟ » لم يقعد الإسكافى وسأل : « أين رجب ؟ » . قال قاسم « راح يصطاد لنأكل » . قال الإسكافى : « راح يسرق الطير من بيوت الحريم الغافلات » ، وقال الإسكافى : « لحم الطير المسروق حرام » . قال قاسم بحسرة « لن تقعد ولن تأكل معنا ياإسكافى ! » . رد الإسكافى « سآكل .. لم لاآكل : ؟ .. ربنا سيحاسبنى على ذنوبى ولن يحاسبنى علي ذنوب رجب » . قال قاسم : « ستقعد ياإسكافى ..

أقعد ياصاحبي وقل لى أين كنت » . قال الإسكافى بقرف « كنت وحدى .. كنت مع نفسى .. قعدت على حائط أمام باب بيت أم بالوظة وكلمت نفسـ ونبحت كالكلب » . شرد قاسم (الإسكافى ملك فى اللعب على الحريم .. معـ على الجدار أمام بيت أم بالوظة ورفع حسه حتى تصحى نائمة النهار ورقاصة الليل وتفتح الباب وتناديه : أدخل ياإسكافى) ، وقال قاسم للإسكافى : « الرقص ببطن عريانه وصرة مكشوفة حرام » .رد الإسكافى « الرقص حرام والكلام عن أم بالوظة بكلام فيه غمز ولمز حرام ياقاسم » . فسأله قاسم « ولكنك فى حياتك لم تخرج من السوق ! ؟ لِمَ قعدت على الحجر أمام بيت أم بالوظة ! ؟ » .

قال الاسكافى « ياقاسم اسكت .. حيلى مهدود والزنا حرام .. من زمان لم أجرب .. الشقيان مثلى متعته خروج البول السخن من قضيبه .. واليوم كلمت الحيطان وكلمت الهواء وكلمت نفسى وقلبت الكون .. كل يوم يمر على ابن آدم يعلمه حاجاتٍ .. الأرض ظلومة ياقاسم .. ظلمتنا وظلمت معنا البغل والحمار والكلب والطير .. حتى الطير فى الدنيا مقسوم ياقاسم .. طير مشرد فى السماء وطير على الأرض يمسك ويذبح .. وهكذا حالنا .. العالى فى العالى يرانا من شباكه دود الأرض فوق التراب — بالقرب من جامع عمرو — فى عراك مع الكلب والبغل والفأر والحمار والقطة والحصان والحشرة الضارة وحولنا القبور مفتوحة بشواهد .. وفى الأبيض كل الألوان ياقاسم .. والأسود هو الأسود والدنيا غالب ومغلوب .. الدنيا مشطورة ياقاسم .. الكبار مع الكبار والصغار مع الصغار فى لعبة الغالب والمغلوب .. والمال يشترى الارض وذمم الأعيان وأبناء صهيون أغنى أغنياء الأرض .. والغنى لما يعضّ يد صاحبه تقوم القيامة ويجن الغلبان فيهلوس ويرى مثلى اليهودى ويعرفه من وجهه ويكلمه ويعرف أن أيام السلامة.سنين حرب .. فالحرب ياقاسم بعلامة،وصاحب المال بغير دين وبغير وطن وإن تكلم بالدين وملك الأوطان بماله .. لو واجه بدنك صيف العام وصيف عام فات أو واجه بدنك الشتاء والشتاء — فاعلم ياقاسم أنك فى حرب ..

وفى زمن الحرب بنى شلتوت الحيطان أمام بيوت الناس ومات شلتوت ميتة البغل العجوز بينما الحيطان التى لم تعرف الحرب وعرفت بول الكلاب قائمة تشهد سنين السلام .. ومن مات أكله الدود ، ومن سيموت سيأكله الدود ، والفاعل الغلبان على الأرض فساء فى ريح أو بدن جائع يأكل حتى أولاده » : قاطعه قاسم : « لم غاب رجب ؟ أخاف على رجب من الوقوع فى يد من لايرحم » . قال الإسكافى : « نعم .. رجب تأخر .. وأنا لاأخاف على رجب فهو قرموط

سمك لايمسك فى الماء ».. قال قاسم : « لو وقع رجب فى يد الحكومة سيحبس .. والحكومة قد تأتى الى مكان رجب وتفتش فتمسكنا وترمينا فى السجن » .

قال الاسكافى : « أنا أكره السجن ولاأخاف السجن .. كنت أقول لك إن الجوعان يأكل أولاده .. وهذا حق .. فأنا فكرت اليوم فى بناتى وأم بناتى وقلت للاسكافى أنت سجان يالإسكافى .. أَجْلَسْتَ أم بناتك فى جحور الحيات وحكمت عليهن بالحرمان ، وخرجت لنور النهار والسوق ومن السوق هربت ياعاطل إلى خمارة مخالى وفى خمارة مخالى هربت من حالك . إلا أنك فى ختام كل يوم تقع فى عين الحفرة التى حفرها الغالب للمغلوب » .

— ١٧ —

قال قاسم «الحرام مُرّ» ، صرخ رجب «قم ياقاسم وتقيأ ماأكلته» . رد قاسم «لم أقصد أن أمزح» . وقال الإسكافى «البطة كبيرة العمر» .

قال رجب : « لكن لحمها كثير وطيب » . رد الإسكافى : « هذا حق » ، وتذكر الإسكافى ماجرى له مع مخالى بخمارة مخالى وقال لصاحبيه « تعالوا نلعب لعبة » . قال قاسم «سيجه نرسمها على التراب وننقل الحجر.. لم يغلبنى فى حياتى مخلوق ». وقال رجب « عندى كوتشينه.. نلعب الورق ». قال الإسكافى «لا.. نلعب مع مخالى ونلعب على مخالى فى الخمارة ونشرة خمرة » . وسأله الصاحبان : « كيف ؟ » . قال الإسكافى « يذهب رجب لمخالى ويلبس ثوب الناصح ويقول : « حاذر يامخالى .. رأيت اليوم الإسكافى مع مخبر .. الإسكافى صديق المخبرين يامخالى .. سيحضر إلى الخمارة ويطلب خمرة .. لو إمتنعت عن البيع يامخالى ستغرمك الحكومة المال وستدفعه ، وبعد ذلك يسوقك مخبر الحكومة إلى السجن محطم الضلوع » (ويقول مخالى : لامال مع الإسكافى) (فيرد رجب : الحكومة تعطى المخبرين المال .. والمخبرين يعطون المال لأصحابهم .. وبعينى رأيت الإسكافى يقبض) . زعق قاسم « المخبر يضر الناس وصاحب المخبر يضر أصحابه .. وضرر الأشخاص حرام » . قال الإسكافى : « أسكت ياقاسم لتنضر مخالى سنلعب لنضر المصران بخمرة فسدانة » . سأل رجب : « كيف

بالإسكافى ؟ قالى لى ياعارف ؟ » . قال الإسكافى : « مخالى يشكر رجب على نصيحته ويعزم عليه بخمرة فيشرب رجب الخمرة ، ويدخل الإسكافى وقاسم فيهب رجب كالملسوع ويرحب بالإسكافى وقاسم ويجلسهما على طاولته ويقسم بأغلظ الإيمان أن يشربا الخمرة ، يقول رجب : الضيف لايدفع سأدفع أنا الحساب - ويتكلم رجب بصوت مرتفع فيهرول مخالى الخائف وهو يقول : الإسكافى ضيفى .. كلكم ضيوفى .. اشربوا على حسابى .. خمرتكم على حساب مخالى » .

الدنيا بنت الحيلة ، ومثلى إن لم يتحايل على المروق من خرم الإبرة مات ميتة الكلب الجربان

« إسكافى المودة »

- ١٨ -

لما عمل رجب المخمور بتعاليم الإسكافى ، وقرفص وضغط على بطنه بركبتيه ولعب بإصبعه فى حلقه : قاء وجهر قاسم بالندم – وقال « عواقب الشر شر .. ليتنا مافعلنا الباطل » . وربت الإسكافى على ظهر رجب وأمره بالرقاد فوق الخرق – وقال « أنت بخير يارجب .. ستكون بخير » . وأنّ رجب : « مصارينى .. فى بطنى سكين » . وقال قاسم « مافعلناه حرام .. لولا الحرام لما توجع رجب » . شخط الإسكافى فى قاسم : « أنا وأنت شربنا .. هل تشكو من وجع ياحمار ؟ .. هل تحس بسكين فى بطنك » . شخط قاسم فى الإسكافى « لو مات رجب سأكرهك لأنك قتلته بلعبة حرام » . صرخ رجب وهو يعانى : « لن أموت ياقاسم .. لماذا أموت ؟ .. أنا تعبان .. كل مافى الأمر أنى تعبان .. الخمرة تتعبنى لأنى أحب الحشيش » . قال الإسكافى : « مخالى يونانى وليس من ديننا .. وأنت ياقاسم لاتميز رأسك من رجلك .. وعينك دوما على الأرض » . دافع قاسم عن نفسه : « ملعون جد جد مخالى ألف مرة .. رجب صاحبى وأنا لاأريد له التعب .. وأنت تبتغى العراك ياإسكافى المودة .. وعينى دوما على الأرض لأن كل واحد يضيع منه شىء .. كل الناس تضيع منهم أشياء .. وهناك ناس تضيع منهم أشياء غالية .. ذات يوم سأجد أنا الغالى مرمّيا على الأرض .. هذا أملى ومناى .. لماذا تعترض ياإسكافى الكلب ؟ .. أنت لاتحب الخير

لصاحبك » . قال الإسكافى : « أنت سكران .. سكوتك أفضل .. أسكت ياحمار » . قال قاسم « لاتشتم .. أنا لاأسكر من بحر خمرة .. وأنت لاتبتغى لى الخير .. أنت تكرهنى لأنى فى يوم سأجد الغالى وأصبح فى خير وأبص عليك من فوق ياواطى » . قال الإسكافى : « لو وجدت أى شىء ياقاسم سأقطع يمينى .. أسكت ياسكران .. أنت تخرف .. أسكت أحسن لك » .

قال قاسم « اسكت أنت .. أنا لاأريد العراك معك » قال الاسكافى:« أخاف عليك من العربات الجارية .. انظر لقدام ولاتنظر لتحت حتى لاتدوسك العجلات وتعجن لحمك » صرخ قاسم: « حتى لاأجد أى شىء .. لاتنصحنى .. تخاف أن أجد الغالى وأقعد فى العالى .. أنت لاتصلح رفيق طريق .. سلام عليكم يارجب .. أراك بخير يارجب .. نلتقى الصبح إن شاء ربنا » .

– ١٩ –

صداع الخمرة السوداء يفلق الرأس ، والاسكافى مفلوق الرأس ولا علاج لصداع الخمرة إلا النوم ، لكن الصاحب جامع الخرق فى ضيق يعانى من وجع البطن وبحاجة لعون ، وبعد زوبعة خلقها قاسم ورحل – لم يبق لرجب غير الاسكافى ، لو نام رجب سينام الاسكافى ويصبحان فى حال أفضل من الحال ، والمخمور عيل والعيال ينامون على سماع الحكايات،إلا أن الاسكافى نسى ماحكته له أم أمه من حكايات فى السنين البعيدة ، والعيال لايميزون بين كلام الحكايات وكلام الدنيا والاسكافى بحياته الطويلة قوّال .

رقد الاسكافى على كوم الخرق بجوار رجب – وقال :

لم تبصر عينى أسفل ولاأحط منك يازعتر .. لايغرنّك غناه يارجب ، فهو نتن شحيح بطنه كلها قيح .. طلع من فوق لتحت على قفا امرأة تحب اللّم والضم .. امرأة مصت عافية رجلين وعندها من الأولاد ستة لكنها متعلمة عقلها يلعب ببلدين .. كلبة ممدودة اللسان حركت زعتر كما تحرك الخاتم فى بنصرها .. قالت له :« .. لف على البيوت يانشيط وهات لى صغار المدارس أعلمهم من

علمى بالأجر ليسيروا فى سكة التعليم الطويلة » .. كيف غافلنا ابن النجسة وتزوج من تلك التى نناديها بعد مرور السنين بالست الناظرة ! ؟ فزواج المنافع مكّن زعتر من شراء الأرض بالملاليم ليكسب الجنيهات .. من مال غيره وجهد غيره أقام العمارتين بطوابق وسراديب وأزرار .. والأب صار يمسك بيد ولده التلميذ بمدارس الحكومة ويقوده ليتعلم بمدارس زعتر .. والمدرس بمدارس زعتر هو نفس المدرس بمدارس الحكومة .. المنفعة يارجب تخلق الطمع والطمع يخرب البلاد لما يمشى فوق برها ألف وسخ مثل زعتر .. والمدرس الطماع يطلب المرتبين ليأخذ بيمينه من الحكومة وبشماله من زعتر .. وزعتر يدفع الملاليم لمن يمتحن التليمذ فينجح التلميذ الخيبان ويكسب زعتر الجنيهات والسمعةالحسنة ، ويقول آباء التلاميذ: « مدارس زعتر خير من مدارس الحكومة » .. أما صاحبى المتعلم الفاهم فقد صارحنى بأن النصاب ابن الهرمة لم يعلق لافتة المدارس على العمارتين لأنه لو علق اللافتة سيكتب عليها: « تحفيظ قرآن » وبذلك ينكشف أمره .. العفريت دفع المال للحكومة وحصل على تصريح بتحفيظ القرآن واستأجر الفقية العاطل عديم الضمير ابن أنيسه: وفى أول كل شهر يروح ابن أنيسه ويقبض الحسنة من زعتر .. أما زعتر فيقبض آخر العام من مال أوقاف المسلمين المعونة المالية الكبيرة ومع ذلك لايحس بشبع قط .. يحبس الماء عن المبانى ويمنع الماء عن أبناء الناس وكذا يمنعهم من دخول المراحيض .. ومن يومين رأيت التلاميذ يارجب يشربون من مقهى عش البلبل وصاحب عش البلبل يطارد قبيحهم ويقرص فخذ مليحهم .. هذا هو زعتر يارجب يأخذ ولا يدفع وأخاف أن نقوم من النوم ذات يوم فنجده ملك البلد حتى نشرب أنا وأنت المرّ مرّين » .

وسمع الاسكافى دبيب أقدام فداخله شك أن الدبيب فى رأسه ففرك رأسه براحتيه وأغمض عينيه وفتحها ليجد ابن آدم من لحم ودم ينادى ساكن الخُص باسمه ، هنا هز الاسكافى صاحبه المتعب النائم بعنف الخائف المتشوق لجلاء كل غامض « قم يارجب .. قم .. الرجل يناديك أنت لا أنا » .

حال بناتى المحبوسات أفضل من حالى ، أما أنا فلا أب
ولا أم : غزالة فى البر .. شاردة .. يطاردها دوما صياد

« إسكافى المودة »

— ٢٠ —

قال رجب « المكان مكانك .. أهلا بك يافتح الله » — وغلبه النوم فنام .

هزه فتح الله — وقال له « سمك فى بحر » .

رد رجب « سمك فى نيل » — وغلبه النوم فنام .

هزه فتح الله « لونت البيض ؟ » — وقرصه فى جنبه حتى لايعاود النوم .

رد رجب « لاتأكل السليمة .. لونه أنت » .
قال فتح الله « واحدة مكسورة .. وواحدة فى الفرن .. وواحدة فى جيبى » .

قال رجب « سلامة لك .. اسحب الشبكة » .
وغلب النوم رجب فنام . وبش فتح الله فى وجه الاسكافى ومد يده بالسلام .

وقال « أهلا بك .. أنا صاحب لرجب » . مد الإسكافى يده وصافح فتح الله وقال : « .. وأنا صاحب لرجب أهلا بك » . وسأل الإسكافى فتح الله « ولىّ الخوف وبقى العجب ياصاحب رجب ؟ » فرقع فتح الله ضحكة وقال : « لاعليك يارجل ولا خوف ولاعجب .. كلّمه بلغة أهل الحرفة » . قال الإسكافى : « أنا كنت فى يوم صاحب حرفة .. لكنى لم أفهم كلامك مع رجب » . سأله فتح الله : « هل عملت بالفن ؟ .. هل أنت فنان ؟ » . أجاب الإسكافى « لا .. كذا رجب لم يعمل بالفن ! ! » . ضحك فتح الله وخبط الإسكافى على فخذه « لم تفهم قصدى .. أنا ألعب باليدين وأزوغ بالقدمين .. أنا خطاف » .. وضحك الإسكافى وقال : « سراق ونهاب .. يارجل نشفت الدم فى عروق .. ركبنى الخوف لما رأيتك .. فسر لى كلامك الملغز مع رجب » . قال فتح الله : « سألته الأمان – فقال الدار أمان ولا أحد معنا ، قلت له هنا رجل – فقال لى صاحب بعين وصاحب بعينين وقد فارقانى ، ولما قرصته أفاق ورآك – وقال إنك صاحب عزيز أمين على السر وأنك غزالة البر الشاردة ... أما الباقى من كلامى فسأفسره لك ياإسكافى لما آكل من عيشك وتأكل من عيشى .. معى حشيش .. ألفّ لك سيجارة مخلوطة » . رد الإسكافى : « أنا أحب الخمرة .. هات سيجارة ولا تخلطها ولو كان معك خمرة سأشرب » . قال فتح الله : « أنا لاأشرب الخمرة » الآدمى منا لو شرب الخمر يكثر كلامه ويخف عقله وتتعارض أفعاله وتهتز يديه » . رد الإسكافى :« أنت لم تجربها .. وماقلته لم يحدث لى » . قال فتح الله :« بينى وبينك .. أصابع اليد الواحدة غير متساوية والناس مختلفون فى الشكل والمزاج .. والخمرة محرمة بأمر الله وكلام النبى .. أما الحشيش فمكروه والمشايخ وأهل الطرق يشربونه .. والحشيش يجعل النور نورين والخوف خوفين . ومن هنا فالحشاش حريص على الدوام يرى موضع قدمه » . واشتبك الإسكافى المحب للجدال مع فتح الله فى نقاش – وقال إن الخمرة حرام لكنها لا تضر إلا شاربها أما اللص فيضر الغير لما يسرقهم . وأقسم فتح الله « فى حياتى لم أسرق من محتاج » . لعن الإسكافى عثرة اللسان واعتذر لفتح الله بكلام لطيف وجامله : « أنت رجل والرجال فى أيامنا قلة ..وأنا لم أقصدك بقولى .. ليس من طبعى الغمز واللمز .. كنت أقصد بكلامى صاحبنا الراقد .. رجب صاحبى وصاحبك ، لكنه يسرق طير الأرملة ويحفر حفرة ويدس الريش ويردم الحفرة بالتراب فيخفى فعلته المشينة ، ولما يسمع صراخ المحتاجة وندبها لاتدمع له عين » . وتقبل فتح الله عذر الإسكافى ووجد العذر لرجب . كما وجد الإسكافى الحل الشافى والإجابة الوافية :

رجب عاص لامجرم ..
والمحتاج معذور إن سرق ..
هناك لص كبير ولص صغير ..
وأكبر اللصوص هم حكام أى بلد فيها لصوص ..
وسرقة حياة الناس هى أكبر السرقات ..

وقال فتح الله إنه يشرب البيرة أحيانا ، فالبيرة تغسل البطن وتنظف المصارين وتدر البول وتفتت الحصوة فتسلم الكلية . وقال الإسكافى : « أنت تتكلم بالحكمة .. وصداقة رجل مثلك كنز لايفنى .. والناس أحرار فيما يحبون ومايكرهون .. والعدل غائب إن احتاج الإنسان أشياء موفورة وعجز عن نيلها .. ومن سرق وهو محتاج لاحساب عليه .. أما السجون فمملوءة بالمظاليم .

— ٢١ —

فرط فتح الله دخان سيجارة وخلطها بالحشيش ولفها من جديد وأشعلها وقدمها للإسكافى المحب للخمرة — وقال : « جرب وميز وفاضل بين المتعتين وقل لى رأيك » ؟ . وقال : « سأبقى بينكم ثلاثة أيام وبعدها سأرحل » . قال الإسكافى « هكذا سريعا .. سنشعر بالوحشة لغيابك .. الأيام الحلوة تمر بسرعة والأيام المرة تمر ثقيلة وبطيئة .. متى نراك ؟ » . قال فتح الله فى اليوم الرابع أعود وأبقى بينكم ثلاثة أيام ثم أرحل .. والباق عند علام الغيوب » . قال الإسكافى — وقد دوخه المخدر وضاعف من إحساسه بضعف قواه « عجيب أمرك يافتح الله .. فسرلى قولك ؟ » . قال فتح الله : « أغيب عن مكان الفعل ثلاثة أيام ثم أعود إليه وأفعل فعلتى بخفة وأتحرك بسرعة فأنتقل إلى مكان ثالث أتخلص فيه مما سرقت بالبيع ثم أعود إليكم بخُص رجب وأعيش معكم ثلاثة أيام وأعود إلى مكان الفعل بعدما يؤخذ بجريمتى نكرة سرق مرة وتاب عن السرقة .. ومن غنائمى يرتشى المخبر فينخرس لسانه ، وأعيش أنا أيامى فى بحبوحة حتى أفلس .. فأهتبل فرصة أخرى وأكرر الفعل .. وهكذا تسير أيامى » . قال الإسكافى وقبض بيمينه على جنبه يسكت الوجع : « ستتركنا يافتح الله لتسرق .. ولهذا أتيت إلى مكان رجب تبغى الأمان وبقيت معنا ثلاثة أيام لتورطنا فى حبك » . قال فتح الله : « لاخيار لى .. هذا نصيبى من الدنيا .. هذا نصيبى من الدنيا » . قال الإسكافى : « ياابن آدم ياعجيب ياغريب ترمى روحك فى الخطر ثم تندب : لاخيار لى فيما أفعل » . قال

فتح الله : « لو توقفت عن السرقة ياصاحبى فلن أجد المال لأقدمه رشوة للمخبر حتى أشترى سكوته فلا أقع فى المحظور وأساق إلى الحبس مع جماعة المشبوهين ليقرأ الضابط أفعالى القديمة من ملفى القديم فيحيلنى بعد ضربى بالسياط والنعال إلى القاضى الذى يقرأ ملفى القديم ويديننى بجرمى الأول القديم عن جرم جديد لم أرتكبه .. هل تريدنى ياإسكافى المودة لعبة فى يد الضابط والقاضى والمخبر ؟ » . قال الإسكافى « حاشا لله .. لكنك صاحب .. وأنا أخاف عليك من ضرر أكيد » . قال فتح الله : « من سرق مرة ووقع فى يد الحكومة فهو سارق .. ومن سرق ألف مرة ولم يقع فى يد الحكومة فهو شريف » . قال الإسكافى الواقع تحت تأثير المخدر – وقد تساوى عنده الوجع والعافية والشر والسلامة : « منك نتعلم يافتح الله .. قل المزيد واروِنى أنا العطشان .. قل لأعرف أكثر » . قال فتح الله : « ومن سرق مرة ووقع فى يد الحكومة واعترف بما فعل تحت بطش الحكومة عاش فى السجن مهانا يخدم هذا وذاك وربما نام على بطنه وصار امرأة .. ولو فكّر فى التوبة طلبا للأمان فسيتحول إلى خرقة حين لايجد المال ليدفعه للمخبرين وسيكفّر حتى الممات عن جرائم الغير .. أبى أول من ظلمنى .. كنت أعرق وأبيع جهدى للظَّلَمَة نظير مال قليل .. وكان أبى يأخذ منى المال وهكذا فعل مع أخى الكبير من قبلى فهرب وهربت أنا مقلدا أخى الكبير ، واحتميت به فسرق جهد يومى وظلمنى كما ظلمنى أبى ، فهربت من سلطة أخى وعشت حياة الصبية المتشردة ، وساق لى الله المعلم فعلمنى فن السرقة .. ومن يومها وأنا أسرق .. دخلت مرة ورأيت السارق الظالم العزيز ورأيت السارق المظلوم المهان .. من يقبل الظلم يعيش الظلم طول العمر .. ومن يرفض الظلم يفوز من الطريق بمتعة المغامرة وقد يحصل على لقب أفندى أو بك أو باشا أو وزير أو رأس بلد .. هل فهمتنى ياإسكافى ؟ » قال الإسكافى : « فهمتك .. ففى بلدنا المأمور وعبد المأمور وعبد عبد المأمور . إن عدت من غزوتك سالما .. هات معك للإسكافى زجاجة خمرة » . قال فتح الله « لك منى زجاجة مسدودة العنق ملفوفة فى ورق » . قال الإسكافى « سأنتظرك .. لاتخلف الوعد .. ولاتكن كالغراب » . قال فتح الله : « تشبهنى بالغراب ياإسكافى ! ؟ » . قال الإسكافى : « لا .. ولكن للغراب مع الديك حكاية مشهورة » . قال فتح الله : « وما حكاية الديك مع الغراب ؟ » . قال الإسكافى : « فى الزمان البعيد كان الديك يطير وكان الغراب لايطير ، ذهب الإثنان إلى حانة وشربا ، فلما فرغ الشراب طلب الغراب من الديك أن يعيره جناحيه ليحضر خمرة ، وطار الغراب بأجنحة الديك ولم يرجع حتى يومنا هذا .

بينما الديك المغفل يصيح كلما رأى الضوء وينادى الغراب : هات الخمرة وهات جناحى لأطير ولاتعرضنى للذبح ياأسود الطير » قال فتح الله : « أنا لا أخلف الوعد .. لكن الطرق محفوفة بالخطر ومجدورة بالحفر .. تذكرنى بالخير ياإسكافى المودة واطلب لى السلامة » .

وعدتنى بالخمرة يافتح الله . تعال وهات الخمرة تعال وخذ
جناحيك ورد إلىّ جناحى لأطير . ولا علىّ أن خبت مرة -
فمن يوم ولدتنى أمى وأنا أنفذ من معصية فأقع فى معصية

« إسكافى المودة»

- ٢٢ -

ثلاثة أيام قضاها فتح الله بخُص رجب مع الإسكافى وقاسم ، وبمال فتح الله القليل أكل الأربعة الأكل الطيب ودخنوا السجائر الخالصة والسجائر المخلوطة بالحشيش وشربوا الشاى واستمعوا لغناء المغنين والمغنيات من جهاز رجب لما اشتروا من مال فتح الله حجارة بطارية ، ولما فارقهم فتح الله على وعد باللقاء بعد يوم - ودَّعوه آخر وداع وتمنوا له السلامة فى خطواته ، وبعد رحيله مدحوه ، وقالوا إن الغائب كان لطيف المعشر طيب الطبع حلو اللسان أمثاله فى أيامنا المظلمة ندرة ، وأقسموا ان فتح الله « الأخ الرابع والصاحب الرابع . وسره فى حفرة عمقها ميل » وأقسموا إنهم لن يستخدموا علبة الثقاب المملوءة بأعواد الخشب ، ستظل كما هى ولن تمس إلا إذا حضر فتح الله سالما من غزوته - فهل يعقل أن نفرط فى رمز تركه لنا الغائب ليذكرنا به - لمجرد أننا نريد أن ننخر به أسناننا التى أكلها السوس عقب كل أكلة ، ومدحوا موقع خُص رجب المعمول من عيدان الغاب المرمية على حائط سور مقابر اليهود المهجور ، وتذكروا حكاية عبد الناصر مع الباشا اليهودى بانى المقبرة فتناوبوا سرد فصولها :

فى عام ١٩٥٦ هاجمت دولة الانجليز وفرنسا وإسرائيل مصر المحروسة أيام حكم عبد الناصر . وكان عبد الناصر قد خطب خطبة بميدان فى الاسكندرية أمم فيها قناة السويس .. وأثناء الحرب حاصر رجال عبد الناصر يهود مصر فى بيوتهم ومن خافوا من غدره رموه فى السجن .. وبعدما انتهت الحرب رحل يهود مصر من مصر ، وأمم عبد الناصر أملاكهم كما أمم أملاك الأجانب جملة .. وبالدبابة التى حاربت شق الجنود بطن الجبل وأقاموا الشارع الموصل للمطار وسماه عبد الناصر « شارع صلاح سالم » . وصلاح سالم زميل عبد الناصر فى حياته العسكرية ، وقد مات . والغاية من الكلام : أن الدبابة قسمت مقابر اليهود قسمين — القبور فى ناحية والحديقة فى ناحية .. وبنى عبد الناصر مكان الحديقة الواسعة مدرستين ومساكن شعبية ومستشفى وملاعب للكرة ... ومرت الأيام وامتدت يد أهل عزبة أبو قرن ونهبت كل ثمين فى مقبرة الباشا ونزعوا الرخام وباعوه لأصحاب الدكاكين بالقروش ، وطفحوا البيرة كما طفحت المجارى وأحاطت بالمساكن الشعبية ونخرت حيطانها وأغرقت قبر الباشا وسائر مقابر اليهود التى تهدمت أحجارها .

كما تهدمت شرفات المساكن الشعبية لأن مقاول البناء لص لاضمير له خلط الأسمنت بالتراب لا بالرمل، بينما عبد الناصر انتقل من دار الباطل إلى دار الحق، ولم يشهد معنا أيام السلام مع دولة اليهود، وهذا ماأغضب منا دول العرب فخاصمتنا وسبّت حكومتنا فى الراديوهات .

وأحسن الثلاثة بالذنب لأنهم لم يفيضوا فى تعداد محاسن رابعهم الغائب — فتذكروا أقواله وقلدوا أفعاله وظلوا ساهرين حتى قطع الأبيض بالسيف رقبة الأسود وأذن ديك الفجر للفجر ، فرأى كل منهم وجه صاحبه . وسمعوا دبيب أقدام الحرس المسلح الطواف على تراب الدروب يبتعد — وقالت لهم امرأة من قلب الصندوق المتكلم « والآن تشدو مغنية الجبل : عائدون .. عائدون .. إننا لعائدون .. » .

كنا أربعة .. ولم نعد أربعة .. وفى الذى جرى قولان
وجرم له دافع وجنون حاصد .. وفى الذى جرى أسوأ ختام.

« إسكافى المودة »

– ٢٣ –

عاد رابعهم سالما موفقا – والمال مسرة ومتعة . بر الوفى بوعده وجاء بزجاجة الخمر على شكل قربة من جلد أرنب البيت وبحجم قربه من جلد أرنب البيت ، بغير رأس ، مسدودة العنق بفلينة ، ملفوفة الجسد فى ورق ناعم يشف عن ماء الحياة الجارى فى الجسم ، ورق له لما يلمس صوت الطير على الشجر يسبح بحمد شمس الشروق وشمس الغروب . وبيمينه – سلمت يمينه – صب غاسلة الهموم فى الأكواب ، وقال هو المحب للمخدر : « من أجل أخوة الرجال سأشرب كوبىَ ولن أثنّى » .. وقال رجب : « وأنا مثلك يافتح الله .. والاسكافى وقاسم يعرفان مافعلته العدوة بى فى المرتين » . وقال قاسم « قسمتنا الخمرة وليجمعنا الحشيش سلطان السلاطين. » . وطرح الاسكافى أكل اللحمة المشوية حتى ينتصب العود المائل ويقوى على الشرب والتدخين . رحبت الجماعة بأكل اللحمة وحمدت الله على وجود المال محقق الرغبات . وغادرهم قاسم إلى شواء شهير لقبه سكان خرطة أبو السعود بالحلو الطيب ، فهو يدعك لحمته قبل شيها بخلطة من البصل والفلفل والثوم والملح ليكسبها الطعم الطيب والرائحة الطيبة . حط الاسكافى زجاجة الخمر على حجره ولاطفها بجميل الكلام « أنت أم لمن لا أم له ، وأخت لمن لا أخت له ، وأنت الأب والبنين والأهل وسنين النيل وعمر النخيل .. وأنت دم الطهر المرفرف المذبوح » .

وفرك فتح الله الدخان وخلطه بالحشيش ولف السجائر وكومها . والثلاثة ينظرون إلى المتعة الدانية،بعيون الرغبة المقيدة بحضور رابعهم قاسم كريم العين.

— ٢٤ —

والصندوق المتكلم بفم الحجر المشحون بالكهرباء — سب بلسان عربي، العروبة المتعطشة للدم المصرى والاسرائيلي؛ والمطالبة بالحرب، والتى تهاجم معاهدة السلام المصرية الاسرائيلية التى وقعها باسم الله وبحمد الله الثلاثة الكبار كارتر والسادات وبيجين فى كامب ديفيد . ووعد الرئيس شعب مصر الطيب بالرخاء ورفع العناء إذا ماحل السلام بين جيران اليوم وأعداء الأمس .

ورمى رؤساء العرب وملوك العرب وكبير فلسطين المحاربة باتباع تعاليم موسكو الحمراء الحاقدة .. وأنهم رفعوا أيام الحرب سعر البترول، وقذفهم بالعيب وطالبهم بالسير خلفه فى مسيرة السلام التى يقودها كارتر رئيس أمريكا وصاحب مشروع كارتر للتعمير والبناء بقروض أمريكية فى ظل سلام دائم وشامل وكامل فى الشرق الأوسط. وصفقت الجماهير للسادات وغنت مغنية للسلام والأمن والأمان ودولة العلم والايمان والأسرة المصرية الواحدة بفقيرها وغنيها .. ولعنت الحقد والحاقدين دعاة هدم البيوت ونصحتهم بالحب معمر البيوت وطارح الخير والبركة فى ربوع مصر قلب العروبة وسيدة العالمين .. وصفقت الجماهير للمغنية، وطالبهم المذيع المصرى بتحريك مؤشر الراديو والبحث عن الموجة الجديدة — ففعلوا . وخطب فيهم عبد الناصر رفيق الميتين — فركبهم رعب وأطبقوا بأكفهم على فمه وأجبروه على الهمس —فهمس :ماأخذ بالقوة لايسترد إلا بالقوة .. وهنا فارق بين السلام والاستسلام . وصفقت الجماهير لعبد الناصر وهو بين الأموات ! ! وغنى المغنى ولايهمك ياريس من الأمريكان ياريس خلفك أشجع رجال . وصفقت الجماهير للمغنى وهو بين الأموات ! ! . وقال المذيع إن بغداد هى صوت العروبة . وركبوا الموج وراح بهم الموج وجاء فى الأزمنة والأمكنة فسمعوا صوت دمشق وصوت السعودية وصوت الرصاص وركض الأقدام ودبيب أحذية الجند المسلح وصراخ النسوة ورنين أجراس الكنائس وآذان المؤذنين وشتائم الأخوة أبناء البلدان تأتى وتروح « ياأكلة الفول .. يأكلة الفول ياقوادون ». حمدوا الله رب العالمين أنهم طلقاء .

ولما رأوا كريم العين يحمل اللّفة حمدوا الله رب العالمين ثانية ، وتخاطفوا اللحم ونزعوا الورق والعظم عن اللحم وأكلوا بسم الله الرحمن الرحيم ، ودار الشراب فشرب اثنان ، ودارت السجائر فشرب الأربعة ، وبعينين مغلقتين رأى قاسم الثور يناطح الثور ويغرس قرنيه فى بطن ابن جنسه ويدور فى المكان ليعجن بحوافره عنزة وقطة ودجاجة ، ورأى أم ابنه صارخة والابن باكيا ممدود اليدين ، وسب قاسم الحشيش خالق الهلوسات همسا ؛ ولعن أكلة اللحم التى لاترد جوع العمر ووهن الجسد . وسمعهم يضحكون على نكتة – فقال قاسم « مليحة » وطالبهم بترديد فزورة قديمة لايعرفها إلا سكان صعيد مصر تقول « ملزنا لز ملزكم يقدر ملزكم يلز ملزنا زى ماملزنا لز ملزكم »

على صوت المغنيات والمغنين والخطباء والزعماء والطير والريح وأقدام المارة وأحذية الحرس المسلح وجدال الممثلين ودق الموسيقى – كانوا يشربون ويغنون ويلقون النكات ويبتعدون عن مواطن الزلل والمعاصى التى يعاقب عليها الحكام رعاياهم . اتفقوا على أن نجاح أى مرشح فى انتخابات مجلس الشعب الجديدة لن يغير من مصيرهم إلى أحسن كما أنه لن يهبط بهم من أسفل الدرك إلى درك أسفل ، كان مايشغلهم هو – إلى من سيذهب القماش المكتوب عليه : انتخبوا السيارة أو الشمسية أو المفتاح – من سيأخذ قماش اللافتة المعلقة على خُص رجب – قال رجب : أنا أحق بالقفل والشمسية والمفتاح وكذا النخلة . ورد عليه الثلاثة : نعم أنت الأحق . وقال رجب : لو حاول أحد من سكان القبور سرقة اللافتة فسأقطع يده وعليكم معاونتى . قالوا له : سنعاونك نحن أخوة . قال رجب : ألا يكفيهم سرقة أكفان الموتى : فسألوه : مَنْ مِن سكان القبور يسرق أكفان الموتى . قال رجب : كل سكان المقابر يسرقون أكفان الموتى . قال قاسم : سرقة أكفان الموتى حرام ، وسأل قاسم وهل يسرقون أكفان النسوة ؟ رد رجب : هم يسرقون أكفان الذكور والنساء ويمتنعون عن سرقة أكفان الأطفال ، فهم يظنون أن من يسرق كفن الطفل لايفارق القبر الضيق المظلم حتى يأتيه الموت بعد عذاب الجوع والعطش . قال قاسم : « هذا صحيح » .

قال رجب : « لاهذا الكلام باطل – ولكنهم يسرقون أكفان الكبار لكثرة القماش ويمتنعون عن سرقة أكفان الصغار لقلة حجم القماش .. وذات يوم

خالفتهم وغافلتهم وسرقتُ كفن طفل رضيع وصنعت لنفسى مخدة أرفع عليها رأسى لما أنام » . قام قاسم وقال : « سأمضى إلى المقابر .. لقد سرقوا كفن زوجتى وأم ابنى وهى فى قبرها عارية وعلى أن أسترها » صرخوا فيه : أنت سكران .. أنت مسطول . وأمسكوا به فقاومهم وأفلت من قبضتهم وجرى فجروا خلفه وسدوا عليه الدروب القريبة الموصلة للمقابر ، فلجأ إلى شارع عمرو وهناك رمته العربة تحت أقدامهم كتلة من اللحم والدم فرفعوه ونادوا العربة التى حملته إلى المستشفى رقم (١) . وقال لهم الأطباء صغار السن : « سنفعل مابمقدورنا لنوقف نزيف الدم ولكن مصابكم يحتاج إلى الدم الذى فقده وليس عندنا بالمستشفى الدم اللازم . قالوا : دمنا دمه .. قاسم منا . وقال أحد الأطباء صغار السن : دعونى أعاين دمكم فالدم صنوف .. فقد نعثر على فصيلة من دم أحدكم تفيد صاحبكم فحمد الثلاثة الله ومروا بالاختبار . وقال الأطباء صغار السن مشيئة الله فوق مشيئتكم ومشيئتنا فتوكلوا على الله وانقلوا مصابكم إلى مستشفى رقم (٢) .

بحثوا عن سائق خيّر يقبل أن يحمل كتلة من اللحم والدم فعثروا عليه بعد وقت وجهد ، بينما قاسم مغلق الفم يكلمهم بعيونه التى خبا فيها النور : «لا أبغى ترك حياة أنتم فيها حتى لو عشت شقيا » . وفى المستشفى رقم (٢) قابلوا الطبيب الذى قال لهم بعد ما رأى حال قاسم وعاين بدنه بآلات من عنده : « صاحبكم فى مرحلة خطرة فمقدار الدم الذى نزفه بلغ اللتر ونصف اللتر وما عندنا من الدم لايكفى .. سأحقنه بنصف لتر من الدم وعليكم احضار لتر من الدم من المستشفى رقم (٣) فإن لم تجدوا فعليكم شراء الدم من بنوك الدم » . ردوا : « المال معنا وتفاوضوا فيمن يذهب وفيمن يقعد مع المريض » . فنهرهم الطبيب : « لو مرت ساعتان على صاحبكم وهو فى حالته تلك فسيتوقف عمل الكليتين وبعد ذلك ينتهى كلّ شىء إن لم يكن اليوم فغدا أو بعد غد أو فى يومه الرابع أو السابع » . قال الإسكافى للسائق « لاتقف لإشارة ولاتأبه لأوامر شرطة المرور فصاحبى فى خطر » . ورد السائق الطاعن فى السن على الإسكافى : قالوا فى الأمثال فى العجلة الندامة وفى التأنى السلامة « سلامتى وسلامتك على الأقل » راح الإسكافى يكلم نفسه بعدما يأس من سائق العربة – قال الإسكافى : « أنا محتال راغب فى العيش أحب الخمرة .. ورجب قرد مكشوف العورة .. وفتح الله خطاف بقلب شديد نال من الحياة أكثر مما نلنا .. أما أنت ياقاسم فشقى فقدت الولد والزوجة وعافية البدن ونور عين ونصيبك من الدنيا قليل فليمنحك

الله عمرا طويلا وليساعدنا فى توصيل السعادة إلى قلبك الحزين .. نحن الأربعة عصاة نخشى الحكومات وها نحن فى يوم البلاء هذا نخوض معركتنا مع الموت من أجل حياة رابعنا ؛ بقلوب لاتخاف الحكومات وتدخل بيوتها المسماة مستشفيات » .

وها هم الثلاثة يجلسون حول المحقق ويردون على سؤاله عن اسم قاسم بالكامل – فقالوا « لانعرف » وعن سؤاله عن الزمن : « لانعرف » لسنا من حَمَلَةِ الساعات ، وعن رقم العربة : « لانعرف فنحن لانقرأ » ولما سألهم عن المكان ردوا : « نعرف » هنا بخرطة أبو السعود بشارع عمرو بن العاص قرب الشجرة التى تظل الجالسين على مقهى السلام .. وبالتحديد بين الشجرة وعامود النور الحكومى رمت العربة قاسم كومة من اللحم والدم والعظم والظهر المقسوم .

وأتاهم الطبيب وقال لهم وللمحقق : مات . فسكت الثلاثة ثم تطلعوا إلى بعضهم وإلى وجه المحقق والطبيب . وبعدما وقعوا على أوراق المحقق بأصابعهم غادروا المكان . فالمستشفى الحكومى إذا ماحل الموت بالحى قامت بواجبها نحوه أفضل ألف مرة من أحياء كالإسكافى ورجب وفتح الله .

***

الحقائق القديمة صالحة لإثارة الدهشة

الحقائق القديمة صالحة لإثارة الدهشة

حين رأى ـــ وقد انهكه السير الطويل ، وكان يصعد من الأسفل إلى الأعلى (المطعم الفاخر بواجهات من زجاج ، والرجل السمين القصير وصاحبته التى تلبس بالطو من فرو الدب ـــ يأكلان : عجلا مشويا وديكا روميا وطاووسا محشيا وحوتا مقليا بعد أن شربا من جيد الخمر تسع زجاجات .. وأمامهما تورتة الحلوى على شكل شاحنة وبحجم شاحنة)

صرخ ـــ هو الجائع الحافى العارى ـــ صرخته الأخيرة وارتمى فى حضن أمه الأرض ليستريح ـــ عليه سلام الله .

أما الشارع ـــ فهو مفخرة المدينة : الأشجار التى تظلل جانبيه شذبتها يد فنان ملهم مشرق الطلعة ، تصدرت صورته غلاف مجلتين منتشرتين هذا العام ، كلمته عند الصفوة مسموعة يهتف بها فى أى وقت من أوقات اليوم فتطير الطيور المبرقشة مغتسلة بالعطر وتحط بالصالونات وحجرات النوم ، لقد صمم بنفسه الجهاز تحفة فريدة لنفسه ـــ منه يتكلم ومنه يسمع : كانت يد الجهاز المرفوعة من العاج بكف مبسوطة مثقوبة وأصابع منفرجة .

هنا ـــ بالعالم ـــ عربات على شاكلة الأوز والبط والنعام والنمور والظباء ، لكنها لا تدرج على أرض الشارع فى هذا الوقت من الليل .

وهنا ـــ بالعالم ـــ الرجل المخمور العائد إلى بيته ماشيا على يديه وقدميه ، لما يصطدم بكومة اللحم ـــ سيقف ، وينادى الدركى المكلف بحراسة المكان ـــ ويخاطبه مخاطبة من لم يذق قطرة من خمر العرق الحارقة .

يقول المخمور الذى لم يعد مخمورا ـــ للدركى :

« من أى قرية آتى ؟ ، من أى المدن جاء ؟، ده : من الأسلم لى ولمن هم مثلى ـــ وضع السؤال هكذا : من أى قرية دس علينا ؟ .. أى مدن العالم تلك التى تدس لنا ؟ عجيبة والله : وهل من جائع فى ربوع وادينا الخصيب !! .. هل من عراة فى بلادى وها أنت ترانى يا سيدى الدركى منتعلا .. وها أنا أراك كذلك .. وكلنا منتعلون ، وسيد إقليمنا السعيد عادل .. وفى صحيفة اليوم صورة له : يحمل ميزان العدل بيمناه ـــ سلمت يمناه ـــ ويسراه ـــ سلمت يسراه ـــ يلوّح لنا نحن جموع شعبه الوفى الأبى الخالد : باسما بقبضة من عيدان القمح والسمسم والقرطم الأبيض ، سأجعلك تراه يا سيدى الدركى ، لكن دعنى أفتش فى جيوبى الكثيرة عن صحيفة هذا اليوم ، أمهلنى من فضلك ، مهلا أرجوك ما من شك أن صحيفة اليوم كانت معى ، وما من شك أن اليوم هو اليوم ، اللعنة على وعلى أمى التى أنجبت خائباً ـــ لقد فقدت صحيفة هذا اليوم ، سيدى : عفوا ـــ أحيانا ينسى الإنسان منا حاضرة الطيب فيرتد للماضى الكريه .. حين ذاك يشعر بالجوع مهلكاً فيأكل كما الجرادة ، لكن : أيأكل الإنسان الصحف !؟ ، عفوا سيدى : هل يتحول الإنسان إلى جرادة ؟ ، لقد كانت الأخبار البسعيدة كلها هناك بالصحيفة يا سيدى ، آه : ما من خبر سعيد برأسى الآن .. ما من خبر سعيد ، يالى من تعس سىء الحظ ـــ لقد كانت الأخبار السعيدة كثيرة بالصحيفة .. وجدى لأبى كان صادقاً وعلى حق لما قال لأبى ـــ قبل أن يموت أبى : إنّى دون بقية إخوتى سىء الطالع » .

وأشار المخمور إلى كومة اللحم ـــ وقال بغيظ :

« لقد أفقدنى هذا المأفون صوابى »

ومضى يبكى مردداً :

« يا ألله .. لقد نسيت كل الأخبار المفرحة .. بينما الآدمى ــ الآدمى الذى يظلله الغمام أحياناً ــ يتحول إلى جرادة !! »

تجاهل الدركى المخمور ، وتقدم من الرجل كومة اللحم ونخسه مرة بكتف بندقيته ومرة بسن جزمته ونفضه مرات ومرات وحاول شده لفوق ــ بيديه المدربتين ــ فلم يفلح فى اقامته ، حين ذاك ارتد عقل الدركى إلى الحقائق القديمة ــ فسار نحو المخمور وأمسكه من كتفه وجره جرا وقال له :

« إفتح عينيك على اتساعهما يا ابن العفاريت ولا تحاول خداعى ــ وقل لى : ماذا ترى ؟ »

« هذا حجر .. لكنه كبير .. ما هو إلا نتوء قبيح بشارعنا الجميل الجميل !؟ »

هذا ما قاله المخمور للدركى .

قال الدركى للمخمور :

« فى قولك الأول إقلاق لى . وفى قولك الثانى إقلاق لى .. والأمر فى حقيقته جد مقلق ــ لكن هل تشك فى فطنتى وقدرتى ــ أنا الدركى ــ فى الوصول إلى الحل الأنسب ؟ »

قال المخمور إنه لا يشك فى قدرات الدركى ــ أما هو فمصاب بحالة لا يمكنه أن يسميها ولا ذنب للدركى فيها : لذا فهو مطالب بمحض اختياره الحر لتبرير مقاصده النبيلة بالطريقة التى يراها الدركى .

قال الدركى :

« لا عليك .. إعطنى لسانك وسر فى طريقك سعيدا »

وقال الدركى لنفسه :

« أما أنا ــ رب البيت المكون من بنتين وولد وزوجة ــ فغايتى الوقت أقضيه بمفردى مفكر فيما يجب على عمله أمام هذا الخطب الجلل الذى يخصنى وحدى : أنا الضمير الساهر الحارس لكل النيام .. أنا الدركى الحى اليقظ لكل أولئك الموتى وألاعيب أولئك الموتى » .

ولما كان المخمور ما يزال بالمكان ـــ نهره الدركى فمضى لحال سبيله ، وفكر فى أن يغنى هو المخمور أغنية سعيدة ـــ ففشل ، وتذكر أنه اسلم لسانه للدركى ، فعاد يفكر فى أغنية حزينة ـــ ولما فشل تذكر أنه مخمور ، وكان قد قطع مشواراً قرّبه من داره ـــ فتذكر أنه ترك لسانه للدركى ، وخاطب نفسه « غداً ألقاه وأسترد لسانى » .

« أية مصائب تلك التى لحقت بى أنا الدركى دون سائر البشر ، ماذا أفعل ؟ ، ياله من تدبير محكم من شيطان لعين ، آه : لأستعن برأى زميلى الدركى ، آه : ومن لى أنا الدركى ـــ غير زميلى الدركى ، وهل لنا نحن رجال الدرك ـــ بعد الزمن الذى أساء إلينا ـــ غير إخوتنا رجال الدرك ؟ »

ـــ هذا ماقاله الدركى لنفسه.

ولما بلغ الدركى صاحبه الدركى ـــ حكى له الأمر ، وتشاور الصاحبان ، وقد قر قرارهما على أن الأحجار بالطرقات تفارق اختصاصهما ـــ وتصير إلى اختصاص رجال بلدية الإقليم .

هبطت السكينة بأجنحتها البيضاء على قلب الدركى ، وقال الحمد لله ولله الشكر ، وتمخط وبصق ، وأشعل لصاحبه الدركى سيجارة ـــ ولنفسه سيجارة ، وأسند كتفه المكدودة على جذع شجرة تنفث رائحة طيبة : ومضى يطرد الدخان بفمه مرة .. وبمنخره الأيمن مرة .. وبمنخره الأيسر مرة .. ومرة بفمه ومنخريه .. ومرة بمنخريه دون فمه ، واستعاد ذكرى قديمة لحقيقة قديمة ـــ سمعها من عمته العجوز : فكان لها الفضل فى أن يصير دركيا .

وحكى لصاحبه :

« يقولون إن الدركى رأى وهو فى تجواله رجلا ، فما كان من الرجل الذى رأى أن الدركى رآه إلا أن ولىّ فراراً ، هكذا لم يجد الدركى مفراً من الجرى خلفه ، كان الرجل ينزع أعضاء جسمه عضوا عضوا ويرمى بها على قارعة الطريق ـــ حتى يكف الدركى عن ملاحقته ، وفى النهاية لم يجد الرجل مخرجاً ـــ غير أن يستقيم على ساقيه ويتحول إلى شجرة »

ـــ وسأل الدركى صاحبه الدركى عما يراه فى تلك الرواية . فأجاب الدركى صاحبه الدركى :

« هناك أمور فى دنيانا ــ لو أعملنا فيها العقل العاجز عن إدراك حكمة الإله : لما نابنا غير الجنون ، يبقى أن ــ نحمد لله نعمة أنّا درك طواف .. ولسنا من هذا الصنف من البشر ــ المولع بالتحول إلى أشجار أو إلى أحجار !! »

الحقائق القديمة صالحة لإثارة الدهشة

بلغ المخمور داره ، فى وقت كانت الديكة فيه تهلل من فوق أسطح الدور للفجر الطالع، بينما المؤذنون ينادون المسلم النائم « الصلاة خير من النوم الصلاة خير من النوم » .. ظل المخمور يطرق الباب طرقاً متواصلاً ، ولما لم يفتح الباب أحد ، قعد على الأرض وأهال التراب على رأسه ومضى يبكى، وهو يندب الزمان واليوم وزوجة بغير ثديين تنام من الغروب للضحى وتنجب كل عام وأطفالها الذكور يموتون .

* * *

على جلبة جد عظيمة ، أفاق الدركى من كابوس ثقيل ، فحمد الله وشكر فضله ، وتطلع حوله ، ورأى النور يهزم الظلمة فخمن الوقت « بذا تكون نوبة ليلتى تلك الباردة قد انفضت ــ وعما قليل أصبح فى دارى حيث الدفء ففيها الزوجة والفرش والغطاء والحطب » ، وتذكر صانع الجلبة ــ فلعنه وسب له الأم والأب والجدود ، وتوجه نحوه ــ مهتدياً إليه بصوته ، يضرب الأرض بخطوات ثقال ، ويصيح بصوت تنخلع له القلوب والأكباد:من هناك ؟ » ويرى الجرذان تفر هاربة إلى الشقوق ــ فيبتسم ، ويرى الذعر وقد أصاب الزواحف وسائر الهوام ــ فيبتسم ، ويتذكر صانع الجلبة ــ فيكشر .

* * *

لم يكن المخمور غراً : فللدركى خطو تميزه كل أذن ــ ناهيك بالصيحة ، كما

أن الآدمى المسلم لا يروح الخمارة بمفرده ــ وإنما يروح إليها بصحبة شيطان كبير أو صغير : لكنه على أية حال شيطان واسع الحيل قادر على هزيمة خمسة من رجال الدرك (وهكذا استعان المخمور ــ الذى لم يكن غراً ــ بشيطانه، فتحول إلى خروف) .

* * *

وهكذا فرك الدركى عينيه بقبضته وطرد النوم ومسح تكشيرته ــ وقال : « يا بصرى أأنت اليوم حديد ؟ .. أهذا خروف لا صاحب له ؟ » وضرب جبهته بخاتم فى بنصره ــ وقال : « نعم وألف نعم : هذا خروف لا صاحب له .. والسارق الملعون من الحاكم والمحكومين فر بخوفه » .

هكذا انحنى الدركى ، وهكذا فك رباط جزمتيه ، وهكذا صنع من رباط جزمتيه مقوداً ربط به رقبة الخروف ، وهكذا خلع الدركى جوربه الصوفى وكمم فم الخروف .

* * *

بطول الطريق المعبد بالحجر الأسود الكبير كان الدركى مبتسماً ، يتلقى الهبات شاكراً ، ويسمع عبارات المديح والثناء ــ فيه أولاً وفى الخروف من بعده ــ فيهز رأسه ويرد التحية بأحسن منها : للطير والحيوان والبشر ــ وكافة مخلوقات الله على الأرض .

هللت زوجة الدركى فرحة بزوجها الدركى ، وشع وجهها بنور غامر أضاء المكان وجعل النهار نهارين ــ وهى تمرر راحتيها فى فرو الخروف الناعم ، ودربكت الفرحانة بقدميها فوق خلخالها الفضى ، حين ذاك اشتد حنينها للغناء فغنت :

« لو لم يكن زوجى دركياً ــ لما كان بيتى غرفة وفسحة ، سريرى من عند الحاج كساب ودولابى بمرايا ، جرارى مملوءة بالزيت والدقيق والسمن والعسل ، مصباحنا له نور وهاج وشباكى بشيش وستارة مخرمة ، تنورنا دوماً والع وعندنا مشجب ، وها نحن اليوم نملك خروفاً بفرو بنى وغرة بيضاء فوق الجبين » .

وترحمت زوجة الدركى على أمها بائعة الكرشة التى سعت لتزويجها من دركى فأفلحت ، وها هى زوجة الدركى : تعد الله بنذر مقداره طستين من الكسكسى وتوزعها على فقراء المسلمين بالحى والحى المجاور — ليرحم الله أمها ويدخلها جنات النعيم ، ورطلا من دهن الخروف لو منحها الله الصبى أو الصبية لينمحى الكدر الذى تراه فى المرآة ظلا أزرق يتماوج فوق صفحة الوجه المنير بالصحة والعافية .

ورفعت زوجة الدركى ذراعين بطراوة الزبد ولون الزبد حلتهما بالأساور ضارعة لرب جميل يعشق الجمال : « يارب مر عام وتلاه عام ونصف عام ولم أنجب — وقلبى الضعيف لا يحتمل الضرة » ، وتمطقت : « يقولون إن الدنيا لا تكتمل لمخلوق » ، ودست فى فمها لبانة ، وصبت على الفول زيتاً ورشت الملح والتوابل وعصرت ليمونة ، وكسرت بصلتين ، ومن حلة النحاس الأبيض أخذت رأس فجل وحزمة جرجير ولفتة ، ومن التنور الوالع أخرجت الرغفان تنس وتبخر .

* * *

أكل الدركى طعامه كله ، ودس يده فى جيبه وأخرجها قابضة على لقمة كنافة ولقمة بسبوسة دسهما فى فمه ، بعد ذاك تجشأ ، وخبط بطنه ببطن كفه خبطتين ، وشرب سطلين من الماء وسطلين من اللبن الحامض ، وشرب كوباً من الشاى ، وقال لزوجته قبلينى — فقبلته ، وكان راغباً فى أحلام سعيدة فقام وصعد سريره ونام من فوره .

* * *

تروح زوجة الدركى وتجيء ، تقدم للخروف الماء فلا يشربه ، وتمد له البرسيم الأخضر الطازج بيديها المغسولتين بصابونة معطرة فلا يأكل ، هذا ما يجعلها تروح وتجيء ، كما أن شخير زوجها — وإن كانت قد اعتادت عليه — لا يريحها الآن .

* * *

هذا بينما المخمور لا يكف عن لوم نفسه « لماذا طلبت من شيطانى القادر أن

يحولنى إلى خروف ؟ لماذا لم أطلب من شيطانى أن يحولنى إلى عصفور ، أو إلى أم قويق ؟!! ، كما أن تأثير الخمرة لابد وأن يزول فيفارقنى شيطانى !! ، أى ـــ عما قليل سيفارقنى شيطانى فماذا أفعل ؟ ماذا أفعل يا الله ؟ » .

(وآه ـــ ما إن ذكر اسم الله حتى فارقه شيطانه وهرب وهكذا بعد أن كان خروفا فى مأزق سهل وجد نفسه آدمياً فى مأزق صعب) .

* * *

ظهّر زوجة الدركى للخروف، لما أدارت نحوه الوجه وجدت مكان الخروف رجلاً . بعقل عاقلة تليق زوجة للدركى أدركت : أنها لو صرخت فسيتجمع الجيران ومنهم الحاقد والحاسد .. ويصحو الزوج .. وهذا الرجل غريب .. والفضيحة قد تؤدى إلى طلاق .. حين ذاك قد لا يشفع لها جسدها البض الطرى الأبيض . « هذا رجل . وهى أنثى عاقلة تشتهى رفسة القدم فى بطنها » .

(هكذا فكرت بنت حواء ودبرت ونالت مبتغاها،وفتحت باب البيت نصف فتحة وتطلعت يمنة ويسرة،وفى الحين المناسب والوقت المحسوب دفعت بنت بائعة الكرشة بالرجل إلى الخارج ودست نفسها فى حضن بعلها النائم) .

* * *

لم يعد الرجل المخمور مخموراً ، وها هو يهرول فى الطرقات يلوى على أشياء وأشياء ، مكلما نفسه المرتعشة خوفاً وغيظاً وعجباً : « أأنا هو أنا ؟ . لا ريب أننى أنا إسكافى المودة .. أنا الساكن بدرب الصفا : ما من رغبة بى اليوم للعمل بعد ما رأيت من أحداث وخطوب طوال البارحة واليوم .. مزاجى غير معتدل .. ولن يعتدل مزاجى إن لم أعاقب مبتورة الثديين تلك التى جرت علىّ المصائب بعشقها للنوم .. من لى بزجاجة من عرق البلح الكاوى » .

* * *

بعد أن كال إسكافى المودة لزوجته اللكمات والصفعات والرفسات ، جرها من شعرها ـــ وكان طويلاً أسود ـــ فلمعت الفكرة فى رأسه كبرق فى ليلة مظلمة ، أمسك بمقص الجزم المثلوم وجز الشعر وصرّه فى منديل وخبط الباب لاعناً الجدود الأسافل لمبتورة الثديين .

* * *

باع الشعر لحلاق النساء وسبه فى سره لأنه لص وابن لص وهو يعرف أمه الخياطة وكان اسمها « نانا » وقد ماتت وهى يقيناً بالنار لأنها كانت تسرق القماش ومنها تعلم ابنها حلاق النساء السرقة .

بصق على الأرض بصقتين كبيرتين : واحدة على نانا وواحدة على ذلك النطع الذى لا يخجل من تسمية نفسه « ابن نانا » .

* * *

قصد الخمارة ووجدها مكتظة ، رغبة فى الحيطة وطلباً للأمان المفقود وبعد الذى شاف فى يومين متعاقبين ـــ عقد لسانه ثلاث عقد ، وجلس يشرب .

شرب وشرب وشرب ونفسه ما تزال فى الشرب راغبة ، فشرب وشرب وشرب حتى رأى جاره حماراً ببردعة ورأى الساقى قطاراً بمدخنة يصفر ويمشى على قضبان .

* * *

« رغبت مثلك فى النوم .. وكان الباب مفتوحاً ولا يزال .. وها أنا أرى الحبل ولا أراه » ـــ ذلك كان قول زوجة الدركى للدركى ، وذلك أيضاً قولها :

« يا ذنبى العظيم أنا التى ما رددت الباب »
وبكت فسال دمعها الغالى وجرح خديها ، وأكملت :

« ثم إنى اليوم فرحة وها هو جسدى يرقص والجمرة تلسعنى ضع يدك هنا .. لا .. هنا أَلَمّ يرفسك بقدمه » ـــ وهذا ما قالته أيضاً زوجة الدركى للدركى .

وهو من ذاك فى هم ومن هذا فى سرور ، ثم إن الخروف لابد قد عاد لأهله وربما عاد لنفس البيت الذى شافه أمامه بالأمس .

نخس الدركى المخمور « لماذا أنت هنا ؟ » . فلك المخمور العقدة الأولى من لسانه ومضى يفك عقدة لسانه الثانية . الا أن الدركى عاجله « وتدس الأفيون فى فمك أيضاً !! » . أجاب المخمور بعد أن فك عقدة لسانه الثالثة « لا والله .. هذا لسانى .. وتلك دارى » . قال الدركى لنفسه الشكاكة التى ورثها من الأزمنة « هو سارق الخروف عاد يحوم بمكان الجريمة ـــ كما خبرتنا الحقيقة الخالدة بحق » ، وقال للمخمور : « أطرق الباب ودعنا نرى » .

علم المخمور أنه وقع فى شر أعمال مبتورة الثديين التى تنام من الغروب للضحى ، وطلب العون من شيطانه كى يلهمه حيلة ـــ الا أن شيطانه القادر تخلى عنه وهرب عندما تلفظ بكلمة الله فى قوله « لا والله .. هذا لسانى وتلك دارى » .

ما من حيلة إذن .. ما من مفر .. ما من مغيث .. والسجن مظلم ورطب تسمل فيه العيون وتخلع الأظافر وتفارق القلوب الصدور .. والقيد فى اليدين والقدمين والرقبة .. والخروف له فرو بنى وعلى جبهته غرة بيضاء .. ومبتورة الثديين طالق .. طالق بالثلاث .

الحقائق القديمة صالحة لإثارة الدهشة

« خمارة خالى اليوم مكتظة : كل الطاولات مشغولة ، أعرف الكل والكل

يعرفنى : الكل هنا يعرف الكل ــ لهذا أفضل أنا خمارة مخالى »

هكذا خاطب الاسكافى نفسه التى تجيش ــ الآن ــ بحب غامر لكل من بالمكان ، لقد قضى بالمخفر أسبوعاً ، مسح المكان بعينيه ونادى الجميع بصوت طروب :

« من منكم يرغب فى أن أشاركه اليوم طاولته ؟ آه ، لا ، ها هو العربجى الفار من خمارة مخالى يعود ــ أخيراً ــ إلى خمارة مخالى ، ها أنت ، ها أنا أراك أيها العربجى الجاحد » .

وبمشقة شق له طريقاً بين الطاولات والأرجل الممتدة ــ حتى بلغ صاحبه العربجى ، سلم عليه العربجى وهو قاعد : وهذا يحزنه قليلاً ــ إلا أنه جلس ، ورد على نكتة حلاق النساء الحارقة ببسمة ماسخة ، ومضى يكلم صاحبه العربجى الذى يلوح أنه أفرط فى الشرب :

« طيب أن نلتقى ، لكن أين كنت طوال هذه الفترة ؟ ، لا عليك ، ستخبرنى فيما بعد ، نعم ستخبرنى فنحن صديقان ، لقد افترقنا صديقين ، نعم ها أنا أتذكر : لقد افترقنا صديقين .

وطلب من مخالى كوباً فارغة ، وقال لمخالى ــ لمّا جاء بالكوب الفارغة :

« طبق خيار مخلل يا مخالى ، لقد قضيت بالمخفر أسبوعا يا مخالى ، آه لو لم يكن سجل أيامى أبيض يا مخالى لمضوا بى إلى السجن ، آه يا مخالى لو لم يكن الرجل رحيماً لكنت الآن بالسجن ــ أنا الاسكافى الطيب صاحب السجل النظيف يا مخالى » .

وصب لنفسه كوباً من زجاجة صاحبه العربجى وشربه دفعة واحدة ، ومضى يصب كوباً آخر ــ بينا العربجى ينظر له بعينين دهشتين احمرتا من الخمر ، ومخالى لا يزال واقفا ، قال لصاحبه العربجى :
« لقد افترقنا صديقين ، لما افترقنا كنا صديقين ، لعلك تذكر فأنا ما زلت

متذكراً » وجرع كأسه دفعة واحدة ، ومسح بكم جلبابه الخمرة التى جرت من شدقيه على ذقنه ، وخاطب مخالى وخاطب صاحبه العربجى :

« فيما بعد يا مخالى ، فيما بعد ، هات طبق خيار مخلل يا مخالى » ،« لقد كان أسبوعاً عجيباً يا صاحبى : كل يوم بليلةٍ ونهار ، لكن الحمد لله : ها أنا هنا وها أنت يا صاحبى تعود بعد غيبة طويلة لخمارة مخالى ، ها أنت تعود لنا ، وها أنت تحاول التذكر ، اللعنة على الخمرة : هى التى تعوقك عن التذكر — ولكنك ستهزمها وتتذكر ، حاول يا صاحبى — وها أنا من جانبى أعاونك ، لكن دعنى أصب لنفسى كأساً ، ها أنت تبتسم — لا شك أنك تذكرت صاحبك الاسكافى الملقب باسكافى المودة » .

صرخ الآخر — بعد أن حاول القيام ولم يفلح فمد يداً للاسكافى — وقد تهلل وجهه :

« نعم أنت الاسكافى ، إسكافى المودة : أليس كذلك ؟ اللعنة على الخمرة — ولكنك عاونتنى ، آخ : ياله من صداع ، لقد تقيأت قبل مجيئك يا صاحبى ، نعم لقد تقيأت ، أخشى أن تكون الخمرة مغشوشة ، كن صادقاً معى يا صاحبى : هل يغش مخالى الخمرة ؟ »

جاء مخالى بطبق الخيار المخلل ، وسمع كلام العربجى فقال إنه لا يغش الخمرة ، وقال إن كل الخمارات تغش الخمرة ما عدا خمارة مخالى . صدق الاسكافى على قول مخالى وردد : « الكل يغش الخمرة هذه الأيام — ماعدا مخالى » ، وطلب من مخالى طبق ترمس وطبق فول سودانى ، وصب لنفسه كأسا من زجاجة صاحبه العربجى ، وطلب من صاحبه العربجى أن يتكلم . قال العربجى بعد أن ذهب مخالى :

« كلهم يغشون الخمرة يا صاحبى ، معدتى تحترق ، آه ، دعنى أتذكر : « أنت اسكافى المودة ، الصداع يأكل رأسى ، وأنت يا صاحبى قضيت بالمخفر أسبوعاً ، لا شك أنهم ضربوك ، لا تجعلنى أرى جسمك يا صاحبى حتى لا أبكى ، آه ، لا تجعلنى أرى جسمك يا صاحبى ، لا تجعلنى أبكى يا صاحبى »
قال الاسكافى :

« لم أكن بالسجن يا صاحبى ، كنت بالمخفر ، قضيت أسبوعاً كاملاً ، لكن أين كنت أنت ؟ لماذا غبت كل هذه الفترة عن خمارة مخالى ؟ لماذا غبت عنا ؟ »

قال العربجى :

« فيما بعد ، سأقول لك فيما بعد فنحن صديقان ، لكن خبّرنى أنت : ما الذى صنعوه بك فى السجن ؟

رد الاسكافى :

« آه — لم أكن بالسجن ، كنت بالمخفر ، وكان الرجل رحيماً ، وكان سجلى نظيفاً أبيض ، ثم إن الأمر كله لم يكن كبيرا — لقد صنعت ضجة قليلة بشارع هادىء ، كنت سكران ، وه ؟ ألعن معى الخمرة : إنها سبب كل بلاء ، لم يكن الأمر كبيراً — فقط أقلقت بعض النيام فمضى بى الدركى للمخفر ، لكن أين كنت أنت يا صاحبى ؟ » .

قال العربجى لنفسه :«كلهم يفكرون ، لا أحد يقول الحق ، لقد ضربوه » ، وقال للاسكافى : « الخمرة مغشوشة ، رأسى تحترق والخمرة تأكل معدتى ، صدقنى لم أشرب الخمرة قط طوال الفترة التى غبتها عنكم ، أنجبت زوجتى ولدا ذكرا ، وكل الذكور الذين تنجبهم زوجتى يموتون ، لى منها سبع بنات لا يمتن — لكن ذكورها يموتون ، جارتنا جارة الخير قالت لزوجتى إنها لو ربت كلبا صغيراً مع الولد فلن يموت الولد ، وها أنا يا صاحبى أعول سبع بنات لا يمتن وولداً وكلباً لكى لا يموت الولد ، لا شك أن همى زاد وأن مسئولية تربية سبع بنات وولد وكلب مهمة شاقة ، ولا شك أنك توافقنى أن مسئولياتى كانت كبيرة — وهذا ما جعلنى لا أحضر إلى خمارة مخالى ، ولما مات الكلب ظهر اليوم أتيت إلى خمارة مخالى : هل أخاف على الولد ياصاحبى ؟ كن صادقاً معى يا صاحبى : « هل يموت الولد بعد أن مات الكلب ؟ » .

رد الاسكافى :

« لا يا صاحبى ، لن يموت الولد ، لن يموت : صدقنى — لقد فدى الكلب الولد ، لقد كبر ابنك ولم يعد بحاجة للكلب فمات الكلب ، لقد كبر ابنك : أليس كذلك ؟ »

قال العربجى :

« نعم : لقد كبر — عمره اليوم ثلاثة شهور ونصف » .

قال الاسكافى :

« ثلاثة شهور ونصف !! ــ نعم لقد صار كبيراً ، لا تخف ياصاحبى ، لقد صار ابنك كبيراً »

زعق العربجى على مخالى طالباً لصاحبه الاسكافى نصف زجاجة خمرة ، وقال لصاحبه الاسكافى : أنت صديق حقيقى بعد الذى فات ، وقال له إنه سيوصله إلى بيته بعد أن يفرغ من شرب نصف زجاجة الخمرة ، وإنه سيشرب معه كوباً واحدة فى صحة ابنه الذى لن يموت لأنه كبر ، وبعد أن يوصل الاسكافى إلى بيته سيمضى هو فوراً إلى بيته ليرى ابنه ، وقال إنه حزين قليلاً لأن باعة البسبوسة كلهم ناموا الآن ــ وإلا لأخذ معه لقمة بسبوسة لأم ابنه .

صرخ العربجى :
« حمارى ــ أين حمارى ؟ لقد سرقوا حمارى ، السفلة الكلاب » .

قعد العربجى على الأرض يبكى ويلطم خديه ، بينما كان الاسكافى يعصر ذهنه عصراً شديداً ــ ثم صرخ :

« قم يا صاحبى ، قم ، غداً سآتيك بحمارك ، غدا وهذا وعد حر ، غدا سيأتيك إسكافى المودة بحمارك ، أنا أعرف كل سراق الحمير ، عيسى حرامى الحمير هو الذى سرق حمارك ، لقد كان عيسى النذل معنا بخمارة مخالى لكنه ذهب بالحمار ، سأعلمك يا عيسى أنا إسكافى المودة ما لم تعلمه لك الأيام ، غدا سأريك نجوم الظهر أيها الواطى وآخذ منك الحمار وأردّه لصاحبى ، يا لك من نذل يا عيسى ــ وهل يسرق صاحب إسكافى المودة !! »

وخاطب صاحبه :
« قم يا صاحبى ، قم ، واحمد الله أن العربة نفسها لم تسرق »

قام العربجى وخاطب صاحبه الاسكافى :

« الحمد لله أنه لم يسرق العربة ، ولكنك قلت إنك ستأتينى بحمارى ، لقد قلت لنفسى بمجرد أن شفتك إنك صديقى » .
قال إسكافى المودة :

« قلت لك إن عيسى يسرق الحمير فقط ولا يسرق العربات ، سآتيك بحمارك غدا من عيسى وسأعلم عيسى أن لحم إسكافى المودة لا يؤكل وكذا لحم أصدقاء إسكافى المودة ، لكن ما الذى سنصنعه الآن بالعربة ؟ ، قل لى : ما الذى سنصنعه بهذه العربة وقد سرق عيسى النذل الحمار ؟ ، لا ، لاتقل لى أنت — ودعنى أفكر »

قال العربجى :

« لو تركت العربة لسرقها عيسى »

رد عليه الاسكافى ضجراً :

« قلت لك إن عيسى يسرق الحمير ولا يسرق العربات »

قال العربجى :

« لكنى لو تركت العربة فسيسرقون العربة » .

قال الاسكافى :

« نعم — لو تركت العربة فسيسرقون العربة »

قال العربجى :

« غدا يا صاحبى ستأتينى بالحمار من عيسى — أما أمر العربة فيجب أن نفكر فيه معا »

رد الاسكافى :

« الحمار سآتيك به غدا من عيسى الجبان ، أما العربة — أى ، دعنى أفكر »

رد العربجى :

« سأتركك تفكر يا صاحبى ، يجب أن تفكر من أجلى يا صاحبى ، منذ رأيتك قلت لنفسى : هذا صديق يعتمد عليه ، هل فكرت يا صديقى من أجل صديقك المسكين سائق عربة الكارو ؟ »

قال الإسكافى مهللاً :

« نعم فكرت ، لقد فكرت من أجلك — ستجرّ أنت العربة بدلا من الحمار وأركب أنا العربة ، ولما يصيبك التعب ستقول لى تعبت فأهبط انا وأجر العربة وتركب أنت العربة ، وحين أتعب أنا من جر العربة سأقول لك تعبت فتهبط أنت من العربة لتجر العربة وأركب أنا العربة ، ستوصلنى إلى بيتى فنحن صديقان — ثم تعود إلى بيتك لترى ابنك الذى لن يموت » .

رد العربجى مهللاً :

« يالها من فكرة ، يا لك من مفكر ، يا لى من محظوظ ، لقد كسبت اليوم

صديقا مفكرا سيأتيني غدا بحماري الذى سرقه عيسى — بينما لن يموت ابنى كذا لن يسرق اللصوص عربتى » .

* * *

قال الاسكافى الراكب فوق العربة لصديقه الذى يجر العربة :

« سنقطع الشارع المستقيم هذا حتى نهايته ونعرج يميناً ونمضى حتى نهاية الشارع الآخر ثم نعرج يساراً وندخل درباً — بعد منتصف هذا الدرب واسمه الصفا بيتى يا صاحبى ، إنه درب ضيق وموحل ، وهذا ما يجعلنى فى قرف من الدرب وسكان الدرب ياصاحبى ، لهذا أتردد يومياً على خمارة مخالى ، كل سكان درب الصفا قذرون وسُرّاق وشتامون وجهلة أيضاً : يرمون بكل ما هو قذر وما هم فى غنى عنه من حاجاتهم القذرة للدرب حتى حولوه إلى مزبلة — وقد تكون المزبلة أفضل من دربهم الذى يسمونه بالصفا ، سأترك هذا الدرب إلى درب المودة فى القريب العاجل — لهذا سميت نفسى باسكافى المودة ، سأنتقل بمشيئة الله إلى درب المودة حين تأتى الفرصة ولن أندم وستزورنى أنت هناك فنحن صديقان ، النهار هنا بدرب الصفا جحيم لا تطيقه الشياطين فما بالك بى ، بالنهار ترى الأطفال يسدون الدرب ، ولا عمل للرجال هنا إلا العمل والأكل والنوم مع النسوة وإنجاب الأطفال ، لاشك أنهم يوميا سيسدون الدرب — لكنى لن أكون هنا ، أفٍّ .. لا تدعنى أتكلم عنهم يا صاحبى فأنا منهم ومن دربهم فى قرف شديد : كلاب وذباب وأكوام سباخ ووحول وأطفال عفاريت ونساء شتامات ورجال يسرقون كل شيء وأى شيء حتى الكحل من عيون الحريم » .

سأله العربجى الذى يجر العربة ويلهث :

ما من شك أن عيسى الذى سرق حمارى منهم ؟

أجابه الاسكافى :

« لا — عيسى لا يسكن هنا ، عيسى يسكن بدرب المودة لكنى قادر على شكمه فاسكافى المودة لا يؤكل لحمة كتفه ، لا عليك — سأكلمك يا صاحبى عن رجال البلدية .. فها أنت ترى الحفر والنقر بهذا الشارع المحترم ، رجال البلدية هؤلاء لا ضمير لهم ولا خلق عندهم مع أنهم يحصلون من الحكومة على رواتب ، أنا فى عجب من أمر الحكومة تلك التى تمنح رجال البلدية رواتب محترمة .. دعنا

يا صديقى من سيرتهم فالقلب ملىء ، انعطف يمينا يا صاحبى ، انعطف يمينا وادعُ معى أن يحرق الله عمال البلدية » .

توقف العربجى ليستريح ، وطلب من الله أن يحرق عمال البلدية ، وما لبث أن سحب العربة بصاحبه الاسكافى ـــ الذى كان يغنى أغنية قديمة تثير الشجن : عن ريح، يقال إنها هبت فى زمان قديم ـــ ويقال إنها ستهب فى زمان مقبل .

وفجأة توقف الاسكافى عن الغناء ولما استفسر منه صاحبه العربجى عن السبب ـــ قال له الاسكافى : « لا عليك دعنى أفكر » ، وفكر الاسكافى فى الخمر التى زينت له الدنيا فجعلته يغنى ناسيا أن للصوت بالليل رنينا يجلب رجال الدرك : وهذا ما تفعله الخمر الملعونة بصاحبها ـــ ومن قال إن الخمر أُسّ البلاء فقد صدق والحيطة واجبة والحذر مطلوب والناس نيام والاسكافى لا يعيش فى الدنيا بمفرده ـــ فهناك خمارة مخالى والشوارع والبيوت والحارات والدروب والعمارات والعربات وأعمدة النور ورجال الدرك والسجون والمخافر والليل والنهار والأنهار وعيسى ورجال البلدية .. أما الفلاحون فهم هناك بعيدا فى القرى : وهذا من حمد الله ـــ وإلا لصار العالم جحيماً لا يحتمل ، وإمعانا فى الحيطة والحذر الواجبين قال لصاحبه العربجى : « قف » ، وهبط وقال لصاحبه : « أخرج لسانك . لا تخف ، سأعقده لك يا صاحبى ثلاث عقد حتى لا تتعرض لمكروه تعرضت أنا له وكلفنى أسبوعاً بالمخفر » .

صرخ العربجى فزعاً :

« أعقد لسانك أنت أولا ثلاث عقد حتى لا تتعرض لما تعرضت له قديماً » .

رد عليه الاسكافى : لا تدعنا نشتجر فنحن صديقان ، وعلى أية حال هاك لسانى أنا فاعقده ، يالك من أحمق ظننت بصاحبك الظن السىء بينما العالم يدبّر لى ولك »

ومد الاسكافى لسانه بعد أن نبّه صاحبه العربجى :

« ثلاث عقد ، آه .. ثلاث عقد ـــ واجعلها متينة ، إجعلها متينة يا صاحبى » .

الحقائق القديمة صالحة لإثارة الدهشة

ما من مخلوق قصد اليوم إسكافى المودة ، والسوق توشك أن تنفض ، إذن ليخاطب إسكافى المودة ذلك المخلوق الذى لم يحضر فقد يحضر .

« دعنى أرجوك .. ستأخذ مركوباً جديداً .. مركوبك هذا القديم ستأخذ بدلاً منه مركوباً جديداً .. لا تسألنى كيف ؟ . إسكافى المودة يتقن عمله يا سيد .. دعنى من فضلك » ..

* * *

زعق الخياط : « لن أدفع مليماً يابلبل .. ترزى الخفة لا عبيط ولا أهبل .. أنا لا أطفحها قهوة بالجاز وأدفع .

صرخ بلبل صبى مقهى عش البلبل :

« ستدفع .. أنا خاسر دينى إن لم تدفع »

* * *

هب إسكافى المودة وحشر نفسه بين الخصمين حكما ، وصرخ لاعناً الشيطان الذى يفسد ما بين الأخوين ، ورشف من فنجان القهوة الذى يقال إنه بالجاز رشفتين،وقال لبلبل صبى مقهى عش البلبل :

« إذهب لحال سبيلك يا بلبل .. سأدفع أنا ثمن القهوة . إخزِ الشيطان يا بلبل » .

وقال لخياط الخفة :

« هل يرضيك أن يلتم حولنا الخبيث والطيب ؟ هل يرضيك أن نصير فرجة لكل من بالسوق ؟! « قهوتك على حسابى .. سأدفع أنا يارجل » .

* * *

وهذا ما قاله إسكافى المودة لصاحب مقهى عش البلبل :

« لولاى .. لولا أنا ـ لو لم أكن موجودا ، وهذا من حمد الله .. لسال الدم كما يسيل الماء . بالقهوة جاز .. نعم بالقهوة جاز يا رجل .. من أجلك أنت شربت أنا القهوة بالجاز . وها بطنى منتفخة .. لماذا أشرب أنا القهوة بالجاز ؟! . من أجل عينيك ــ والله وحتى لا يسيل الدم كما يسيل الماء .. وبلبل هذا أمام الحكومة مجرد صبى بمقهى عش البلبل .. أنت وحدك المسئول أمام الحكومة عن الدم الذى كان سيجرى يا معلم .. ولولاى لتجمع السوق الفضولى يبغى جنازة يشبع فيها لطماً .. وأنا أعلم الناس بما تحمل ألسنة الناس من سمّ ولولاى لجرى عبيد وقال لزيد :

« عش البلبل تسقينا القهوة بالجاز ، خبرنى بالله : اية خسارة كنت ستخسرها أنت لو لم أكن أنا ؟ والحكومة كما تعلم هى الحكومة وبطنى كما ترى منتفخة ؟! » .

وهذا ما قاله اسكافى المودة لترزى الخفة :

« يارجل لقد خدعك طعم البن المحروق فظننت أن بالبن جازاً .. ولولاى لسال الدم كما يسيل الماء فى النهر،والحكومة كانت ستأتى ونصبح أمام جمع السوق عبرة .. وأنت كنت ستكون سببا فى خراب بيت الرجل الذى ما أساء إليك ــ الرجل الذى يصلح دواء للجروح .. فيما قلت يارجل ما يجعل بضاعة الرجل تبور ولولاى لالتمّت الناس وللحكومة عيون ترانا لمّا نخطىء .. سأمضى للرجل وأطيب خاطره » .

وهكذا عاد اسكافى المودة لصاحب مقهى عش البلبل الذى قابله مرحباً وطلب له فنجان قهوة يمنية بغير سكر ، وقال المعلم :

أنا لا أنكر أفضال الرجال الخيرين الكرام الساعين بين الناس بالمعروف » .

ورد إسكافى المودة :

« لا عليك .. كلنا لبعض .. لولاى لعاب صبيك بلبل فى الرجل والرجل طيب وما أساء لأحد وهو كما تعلم يصلح للجرح مرهما .. طيب خاطره من أجلى إن لم يكن من أجل نفسك .. سنجتمع ثلاثتنا بخمارة مخالى الليلة .. وهل غير الخمر تمحو السواد الذى علق بالنفوس .. إن لم توجه اليه الدعوة أنت لدعوته أنا .. وها أنا أيضا أدعوك .. دعنى أدعو الرجل يارجل .. دعنى » .

* * *

قال ترزى الخفة لاسكافى المودة :

« لقد أهنت صبيه .. نعم .. وكنت سأخرب بيت الرجل بينما هو يصالحنى ويدعونى للشراب بخمارة صاحبها يونانى .. والله إنه لرجل كريم على خلق فى زمان كلب ، أما أنت .. آه .. كيف أصفك ؟! لولاك لجرى الدم كما يجرى الماء ولصرت أنا فرجة لكل من بالسوق ولأتت الحكومة فللحكومة أذن تسمع وعيون تشوف وتفتش عنا حين نخطىء ولها يد باطشة لما تعاقب .. سأذهب بنفسى للرجل وأدعوه ليشرب على حسابى .. وها أنا بدورى أدعوك أنت يا أيها الاسكافى الطاهر الخطوة » .

وقال له الاسكافى :

« لا عليك .. كلنا واحد يارجل .. لا فرق يارجل .. ستغلق دكانتك ونمضى معا إليه ونصحبه إلى خمارة نخالى .. ولتعدنى يا أخى كما وعدنى هو أن لا نتحدث فى الأمر الذى حدث .. نعم فحين تصفو النفس بعد الذى حدث نكدرها نحن بالكلام عن الذى حدث .. بحق عام أكبرك أنا به لا تحدثه فى الذى حدث حتى لا تحرك ضغينة رقدت » .

* * *

شد الخياط على يد المعلم بيديه الإثنتين ، وكذا فعل المعلم . ومنع الخجل العيون من أن تلتقى ، فالمعلم خجلان من الخياط والخياط خجلان من المعلم ، شخط المعلم فى بلبل لينادى تاكس . وقال الخياط : « نعم نركب تاكس » . وقال الاسكافى لنفسه : نعم تاكس : هكذا تدنو المسافات التى تباعد بيننا وبين خمارة نخالى . وأصر المعلم على أن يركب الخياط قبل المعلم وأصر الخياط أيضا أن يركب المعلم قبله . وقال الاسكافى لنفسه وهو يدفس نفسه فى التاكسى : أف منها تلك المجاملات التى تباعد بيننا وبين الخمرة ـــ إلا أن التاكسى قاطع المسافات سيقلل من كم الكلام بين الرجلين وهذا طيب .. وأنا لابد وأن أظل قائما بين الإثنين حتى يبقى الخيط قائما ، كما أن الحيلة بنت الدنيا علمتنا أن لكل مقام مقال » ، بش فى وجهيهما وقال :

« لماذا كان البطيخ ثمرة صيفية ؟ .. يا الله .. أنظر يا بن آدم : ها هو الفلاح

يدفن البلور فى بطن الأرض وهو لا يكاد يميز بين البذرة والبذرة .. وها نحن نرى العجب : فهذه بطيخة مستديرة وتلك بيضاوية .. نمس وشليان وبلاك وبلدى .. ما من مخلوق قادر على اكتشاف السر العظيم : لو راهن الآدمى منا على البطيخة وقال حمراء لخسر وربما كسب .. نعم إن لم تشق البطيخة إلى نصفين لما عرفت إن كانت حمراء أم بيضاء أم بين بين وقد تكون متليفة .. كما أن البشر معادن .. هكذا نحن .. نعم منا الذهب والفضة وفينا النحاس والصفيح أيضاً .. إن لم تخبر الرجل فلن تعرفه .. لقد خلق الله العالم فى أسبوع واستراح .. أما الآدمى منا فلن يستريح قط .. نعش فى الدنيا ولننظر ونتعجب .. ونشق إن كنا من الأشقياء ونسعد إن كنّا من السعداء .. المال زينة الدنيا وكذا البنون والصحة أيضاً !! لكن يوم خلق الله العالم لم يكن هناك أطباء ولما خلق الله الأمراض خلق الأطباء !! .. أيهما الأول : الأمراض أم الأطباء ؟ لا لأحد يعلم حتى يومنا هذا .. ياله من عالم غريب عجيب كله سر .. هنا خمارة مخالى .. قف ياأسطى .. قف » .

* * *

إختار الاسكافى أقرب طاولة لباب الخمارة ـــ حتى يراه كل داخل للخمارة ويمر به كل خارج من الخمارة .. الكل هنا يعرفه وهو يعرف الكل .. ومن كم التحايا سيكبر شأنه فى نظر الرجلين ، وزعق فى مخالى ـ وضايقه إن جاء مخالى ابن الكلب بطيئاً :

« هنا ضيفى يا مخالى وذاك ضيفى يا مخالى،وكلاهما له فى دنيا الرجال الصيت والسمعة .. هيلا هالله يا مخالى .. زجاجة كاملة من جيد الخمر يا مخالى وأكثر من أطباق الخيار المخلل والترمس والفول السودانى والحمص والفول النابت يا مخالى » .

وقال :

« وجردل ثلج يا مخالى »

ونظر إلى ضيفه :

« وصودا ؟ »

وزعق :

« وصودا يا مخالى »

* * *

كما يفعل السادة — رفعوا أياديهم لفوق ممسكة بالأكواب مملوءة للحواف . وتنادوا : فى صحتنا نحن خيار الناس وأنقى المعادن وأفضل الرجال » . وقرعوا الأكواب فَرنَّ الزجاج وسالت الخمرة الصفراء صفراء . وجرعوا الأكواب تلو الأكواب . وقال الاسكافى نكتة فاحشة روى بعدها الخياط نادرة فاحشة وضحك المعلم ضحكة فاحشة ورمى قلبه ريالين من فضة نقية على بلاط المكان . وتحدثوا عن دنيا السوق :

« آه .. آخ .. آى .. ما الذى أفسد دنيا السوق .. كأنا نسعى بخطوات سريعة نحو الآخرة .. الغلاء الأزرق بيننا يحجل والغلاء الأسود فى وجهنا ينبح والغلاء الأبيض كاره يمسك المنجل بيد — بينما الأخلاق تسوء والشجار يومىّ والعربات تأتى للسوق تجرّها البغال الغبية لتأخذ الخضار والفاكهة .. البوابون سادة بملابس بيضاء والقوادون يتاجرون فى بنات الناس أمام عيون الكل .. وفى الغرف المفروشة أولاد عرب مثلنا لكنهم سعداء يتكلمون الكويتية والليبية والسعودية ويلتهمون اللحوم مشوية ومقلية وطازجة من عجيزة غلام ويطيبون رائحة أفواهم بشراب الويسكى والنقل المقشرة وينامون حتى مع عجائز الغسالات .. يارب لماذا بنت بائعة الكرشة تصبغ شفتيها بالأحمر — وهى لم تبلغ بعد عامها الرابع عشر !؟ وبنت الفران تلبس الثوب القصير بورد والحذاء بكعب عالٍ بتجويفه جرس !؟ وبنت بائعة الفجل من شارب الكُحُلّ تلون جفنيها بالأخضر تارة وبالأحمر تارة وبالأزرق تارة أخرى وبيدها شنطة بها كل الألوان — بينما كانت بالأمس حافية القدمين ممزقة الثوب !؟ »

صرخ إسكافى المودة :

« دعونا .. نشرب .. نحن فى آخر الزمان »

وزعق خياط الخفة :

« آه .. لنشرب .. إنه آخر الزمان »

وبصق المعلم بصقة كبيرة :

« لنشرب .. ولنطلب الستر لبناتنا ولنسب آخر الزمان حتى يرحمنا الله »

* * *

سمسار الشقق دخل باسما ورد التحية دون أن يعزموا عليه بالجلوس جلس ومال على أذن إسكافى المودة وهمس : « كن نصيرى ولك فى الخير نصيب » ، وقال السمسار للمعلم :

« العمارة المواجهة لمقهاك .. العمارة الصفراء ذات البلكون والأدوار الأربعة .. صاحبها حاج يبغى بيعها .. له — وهكذا أراد الله — ثلاث شقيقات متزوجات : هن شركاء للحاج والحاج يريد أن يستريح منهن ومن أزواجهن .. وأنت ياصاحب عش البلبل تملك المال والعقار كما تعلم له فى وقتنا هذا ربح مضمون : مال لا يؤمم وشقق مفروشة تتم برضا المالك والمستأجر تحت عين القانون الذى يعجز عن أن يمد يده .. لا تسألنى كيف والعمارة مسكونة .. أقول لك اشترِ العمارة أولا واجعل من إسكافى المودة بوابا لها : يقطع الماء عن السكان لمدة يوم ويعيده لمدة يوم ويسأل الداخل والخارج من أين وإلى أين ؟ .. وتدفع أنت يا معلم خلوا لأحد سكان العمارة وتسكن فى الشقة بدلا منه .. لا تسألنى بعد كيف يغادر من يسكن مسكنا مسكنه .. إلى الشارع .. لا .. هذا الفعل لا نفعله نحن، فنحن لسنا من هؤلاء الذين يهب دوما خلفهم غبار .. فى البداية تحاسب السكان كما يفعل الملاك إسرافيل .. ثم تتوجع فى مجالسك مع صحبتك من أولاد السكان الملاعين. فهم دوما يدبّون فوق رأسك ويقلقون الأرض تحت أقدام العمارة .. وصبية مقهاك لهم كثرة من الصحاب لو دفعت لهم مالا وعرفتهم بوجوه السكان سيقذفونهم بالطوب ويعرقلون نسوتهم ويخيفون أطفالهم .. بعد شهر أو شهرين وربما نصف شهر ستحصل يا معلم على شقة خالية من السكان نفرشها فرشا عاديا ونؤجرها للتلاميذ، ولما يأتى الصيف تؤجرها لإخوة لنا عرب عندهم مال .. لا تسألنى كيف نطرد التلاميذ ؟ .. سنترك لهم الحبل على الغارب فى البداية .. فإذا بالسكان الثلاثة يصبحون عشرة لكل منهم صاحبة بشعر قصير وبنطلون ضيق .. وهم كالنحل طنانون يحشرون أنوفهم فى كل أمر .. وهذا يجعل الحكومة تعاديهم .. وهم كما تقول عنهم الجرائد يشعلون النار غايتهم الفوضى .. وما علينا إلا أن نقول فيهم نفس القول » .

قال إسكافى المودة :

« لكنى من أمر الحكومة فى عجب فهى التى تبنى المدارس وتقيم الجامعات وترسل الطلاب فى رحلات »

صرخ الخياط :

« يا إخوتى أنتم تتكلمون فى السياسة .. وهذا يجعلنى قلقا »
ورد المعلم :
« نعم أتينا لنشرب وها نحن نتكلم فى السياسة،وهنا سوق والسوق جامعة »
وقال إسكافى المودة :
« نحن فى خمارة لافى سوق وهذا ما يجعلنى مطمئنا »

قام الخياط يترنح وقال إنه غير مطمئن ، وتعثر فى طاولة مجاورة فسقطت الزجاجات والأكواب وساد هرج ، وشتم أحد الجالسين على الطاولة الخياط . فقام المعلم يرد الإهانة عن صاحبه — لكن الاسكافى والسمسار منعاه ، ونظر الخياط للذى شتمه وتقيأ فى وجهه . وانشغل زملاء الآخر بتنظيفه ، وصرخ مخالى فى مخالى :«هذا ما لم يحدث قط فى خمارة مخالى » ، وقال المعلم للسمسار : « سأطرد الساكن ولن أدفع مليما واحدا ولا يهمنى أن يذهب إلى الشارع أو يذهب إلى جهنم » . وافق الاسكافى على قول المعلم ، وصرخ السمسار : عمولتى إذن .. عمولتى يامعلم » . وبكى الخياط متوجعا : أنا لم أسكر .. بحر من الخمرة لا يسكرنى .. لكنى فى قرف من هذه الدنيا .. فى السوق شربت القهوة بالجاز وجاء بلبل يطالبنى بثمن القهوة .. وها أنا أقول لكم من هو بلبل .. بلبل هذا صبى بمقهى عش البلبل .. وقد سمى صاحب المقهى الذى يعاشر صبيه مقهاه بعش البلبل .. انتفض المعلم واقفا ونازع كثيرا لكى يفلت من قبضة الجمع ويحطم عظام الخياط،بينما الخياط القذر اللسان لا يكف عن ثرثرته المهلكة : ثم إنى لن أمشى من هنا منتفخ البطن .. هذه الخمرة التى يبيعها مخالى ليست خمرة .. إنها جاز .. جاز صريح .. كما أن هذه ليست خمارة إنما هى مكان يتكلم فيه الناس .. لقد جاء بى إلى هنا إسكافى المودة والمعلم ليشردا أولادى ويخربا بيتى ويسمعانى كلاماً فى السياسة »

* * *

« إلى هذا الحد وصلت الأمور »

هذا ما قاله إسكافى المودة لنفسه التى تنتفض كدجاجة ذبحت بسكينة مثلومة ، وانسل من قبضة الجمع كثعلب ، ومضى يركض كبغلة ، وسمع وقع

الأقدام الساعية فى طلبه ، لقد كان بغلة فليكن غزالة ــ لكن ها هو يسمع وقع حوافر الخيل على الحجر ونبح الكلاب التى تبتغيه ، تخفف من حمله الثقيل وتقيأ كل ما أكل وما شرب ، لكنهم جادون فى السعى خلفه ، عليه إذن أن يحدد قصده : دربا معتما من حجر ــ الأشجار الكثيفة المتشابكة الأغصان سياجه .. والضوء الواهن بعيد تلعب به ريح خفيفة وتخنقه ظلمة : وهى هناك ماتزال راقدة تحت الضوء والظل والنخلة بجثتها ذات الجرم الهائل بالنتن تحت إبطيها ، ناداها : «انفخى المصباح يا أم واسترينى بالعتمة وليل شعرك .. ها أنا قد تخلصت من أثقالى يا أم .. آه يا أم .. ها أنا قادم خفيفا كروح !! آه ياأم .. ابلعينى .. ».

الحقائق القديمة صالحة لإثارة الدهشة

(أ)

— تسألنى كيف عرفت ؟ .. وىّ وىّ .. نعم أنت تعمل بالديوان العام .. ولك بنت اسمها أنصاف .

— صفاء .. إبنة وحيدة اسمها صفاء .. عجّل أرجوك .. لكن : كيف عرفت ؟

— يا سيدى أنت معنا بالسوق وإسكافى المودة يعرف كل من السوق ونعلك هذا ستأخذه من يدى جديداً .. أنا كنت هنا قبل أن يكون السوق .. كنت صبيا طائشا عاش حياة مع أب عرج بعصا أخافه .. وأمى التى أحبها كانت مغلوبة على أمرها تبكى لما تُعامَل معاملة حسنة .. من قريتى بالصعيد البعيد ركبت سطح القطار الذى يحمل الفحم .. أنا أخاف الجند ويد الهاون والمقص والكابوس ــ هكذا خلقنى الله : وهذا السوق كان نائيا .. وكان حديقة ورد لمالك واحد مات ــ فبنى ورثته تلك البيوت التى تراها .. ذلك بينا كانت المسافة بيننا وبين العمران نصف ساعة بالقدم أمشيها وهناك أبحث عن قوتى كما الرُسُل وأعود لما يدخل الليل : أشرب الشاى وأشرب الحشيش وخمرة العسل الأسود من جرة وأمص جوزة الطيب وأرى للورد عيونا كعيون الحيوانات .. وكان لى صحاب يشعرون بغيابى لما أغيب : خفير ببندقية وساق ورد وجامع

قمامة ــ وفى يوم فقدنا صاحبنا جامع القمامة .. فقدناه كلية . لقد أصبح غنياً ــ لكنه الآن تحت التراب يأكله الدود ــ فيما بعد عرفنا أنه كان عينا لجماعة تسرق البيوت .

ــ أسألك كيف عرفت مكان عملى واسم ابنتى ؟

ــ يا سيدى أنا أعرف الكل هنا والكل هنا يعرفنى ــ إلا أنهم ينكرون .. فتلك العمارة التى تراها قبالتك لابن صاحبى الزبال وهو مقاول بناء يملك عربتين للنقل وعمارتين وزوجة جميلة بيضاء تخونه مع سائق عربته الجيب .

ــ تخونه .. لماذا وهو الغنى ؟ .. لاشك أنه يقضى كل حاجاتها !؟

ــ أسكت يا سيدى .. أنت لا تعرف النسوة .. أنا اعرف .. إسكافى المودة يعرف : الظالم كان يعرف أنها تحب السائق إلا انه دفع المال وتزوجها .. وهى أيضا كالت له بنفس المكيال .. أغرته بالكلام اللين حتى دفع المال فى العربة الجيب والسائق ــ الآن : التيس يعرف أنها تخونه مع السائق .. اصمت يا سيدى سترك الله وستر زوجتك وابنتك وبارك لك فى مال تعطيه لك الحكومة كل شهر : خمس ورقات كل ورقة بخمسة جنيهات ــ أليس هذا راتبك يا سيدى ؟

ــ أنت تعرف راتبى وتعرف مكان عملى واسم ابنتى .. كيف ؟

ــ وأنت رجل طيب ياسيدى وزوجتك حسنة السمعة .. والكل هنا يتكم عنكما بالطيب

ــ يتكلمون !؟

ــ بالطيب ياسيدى

ــ لكن لماذا ؟ .. لماذا يتكلمون ؟ .. وتقول الكل يتكلم !؟

ــ أنت يا سيدى عشت بيننا سبع سنوات ولكنك لا تعرف أهل السوق .. هم يتكلمون عن الكل : وتلك آفة يبتلى بها الخالق مخلوقاته كلما اقترب آخر الزمان ..

ــ الآن : أنا من أمرى على عجل .. سنلتقى فيما بعد .. نعم سنلتقى

ــ دعنا نلتقى يا سيدى .. بالله عليك دعنا نلتقى مرة ثانية .. لما أنهى عملى أذهب أنا اسكافى المودة إلى خمارة مخالى وتلك عادتى : إنها قريبة من هنا .. وهى على يدك اليمنى لما تبلغ نهاية الشارع .. دوما يطيب لى الكلام وأنا أشرب وتلك عادتى يا سيدى.

(ب)

— سبقتك يا سيدى وشربت .. شربت كثيرا — لكنى كنت بانتظارك .
سأدفع أنا كل ما معى من مال .. لقد كنت بانتظارك
— سأدفع أنا .. أنا الذى سيدفع .. لا عليك .. وأنت حدثنى بما يقولون
— يقولون عنك وعنى .. من الذى سلم من لسانهم .. لكن بحق رسول الله
اشرب معى .. كن صاحبا لى يا سيدى واشرب ..
— أنا لا أشرب .. كبدى تالف .. وأنت كلمنى عنهم .. لا .. لا ..
كلمنى عما يقولونه عنى .
— يقولون إنك تأخذ من الحكومة خمس ورقات كل ورقة بخمسة جنيهات ..
وإنك تجلس فى العمل هكذا : على كرسى وتضع ساقاً على ساق ..
— ثم ماذا ؟
— وانك تزوجت بأم ابنتك عن حب .. جعلها تهجر أهلها من أجلك ..
وإنكما أنجبتما البنت بعد أربع سنوات من الزواج ..
— زوجتى أسقطت حملها الأول والثانى .. هل قالوا هذا ؟
— لا يا سيدى .. لكنى أصدقك
— وهم ألا يصدقون ؟
— لا ياسيدى .. إنهم لا يصدقون إلا انفسهم
— لكن هذا حدث
— أنا أصدقك يا سيدى
— أنا لا أتكلم عنك انت .. أنا أتكلم عنهم
— دعك منهم يا سيدى واشرب .. نار الخمرة التى احترق أنا بها أهون من نار
سيحترقون بها هم لأنهم لا يتركون الإنسان منا فى حاله ..
— وتلك النار التى أشعلوها بصدرى .. لقد أفسدوا حياتى أيها الاسكافى ..
لقد فسدت حياتى اليوم .. اليوم فسدت حياتى وإلى الأبد . أنا رجل أمشى
فى حالى وأطلب من الله الستر ومن الحوائط أن تدارينى .. أنا وزوجتى ما
تكلمنا عن أحد .. وابنتى سأمنعها من غد من اللعب مع أى طفل من
أبناء هؤلاء الذين أفسدوا حياتى .. ثم إنى طيب كما ترى .. لماذا ؟ لو
كنت أملك مالا لدفعته مقدما لمسكن أو خلوا لمسكن آخر ولهجرت
مسكنى هذا الذى يقع بمكان هم فيه .. لكنى لا أملك مالا وهذا ما
يعذبنى .. ها أنا مشطور القلب ومشطور العقل أمامك .. ومرتبى لا

يكفيني لكني لا أبوح .. لو كنت أعرف منذ البداية ما سكنت هنا .. الآن أنا لا أملك مالا .. كان ذلك منذ البداية .. نعم كان ذلك بإمكانى فى البداية أما الآن فلا ..

— إشرب يا سيدى ولا تجعلنى أبكى

— لقد غرروا بى وقد كان بإمكانى فى البداية .. أزمة المساكن أمر تعرفه .. لقد سمموا حياتى وإلى الأبد

— ها أنت تجعلنى أبكى يا سيدى

— زوجتى تلك التى تتكلمون عنها مريضة منذ سنوات وهى تجالد لتعمل عمل البيت .. وأنا كبدى تالف .. لينتقم الله لها ولى منهم.

— لن أتوقف .. لا توقفنى يا سيدى مادمت تهمنى .. دعنى أبكى يا سيدى بلا انقطاع كما كانت تفعل أمي .. أنا الذى أشعلت بكلماتى النار .. بينما أنت لا تعرفنى يا سيدى .. تأكد يا سيدى إن إسكافى المودة صاحب ضمير .

— وأنا ألست صاحب ضمير ؟ .. الراتب الذى أحصل عليه من الحكومة وتنظرون له أنتم فى السوق بعين مستريبة .. حصلت عليه أنا بعد جهاد طويل : كنت صغيرا لما مات أبى فتزوجت أمى من عمى الماكر العجوز حتى لا تتعرض لقول وهى الأرملة الشابة .: أصرت أن أتعلم فباعت حليها .. ومن الصمغ وحجر الكحل كانت تصنع لى حبر الكتابة .. وقضيت أنا السنوات ساهرا — تحت لمبة جاز : ست سنوات ثم ست سنوات — أقرأ الكتب وأحفظ ما فى الكتب .. وهى صارت عجوزا .. توظفت بعد عامين .. وبعد عامين تزوجت .. ربع راتبى كان يشترى ما أشتريه اليوم براتبى كله .. قيمة الجنيه كما تعلم تقل وتقل أمام عيون الجميع والسُلْفة أمام كل العيون يرتفع سعرها والرجال أراهم وتراهم يتاجرون فى أعراض بناتهم . هل تكلمت أنا فى حق أحد ؟ ..

مرتبى أدفع منه إيجار البيت والنور والماء والمواصلات والطعام لى ولزوجتى وابنتى ودواء لى ولزوجتى .. لا شىء يبقى .. لا شىء . افترض أننى مت وكذلك زوجتى ماتت : ما الذى ستفعله ابنتى فى هذا العالم الذى تعرفه وأعرفه ؟ .. ماذا ستفعل الصغيرة فى عالم هم فيه ؟ .. أى مصير ينتظرها ؟

ـــ سيدى كان عليك أن تترفق .. لماذا لم تترفق بى ياسيدى ؟ .. أنا لا أقرأ لكنك لا تقدر على منعى من الاستمرار فى البكاء .. نعم أنا الذى قلبت الكامن فى نفسك وحركت الراقد وها أنت أمامى شقيا تدفعنى للبكاء .. لا تقل يا سيدى إن إسكافى المودة مولع بالخمرة غرر بك لتحضر إلى خمارة مخالى ليشرب هو .. لا تجعلنى أنظر لنفسى كالذى أفسدته الخمر .. أنا أيضا كان يجب أن أترفق بك .. على الآدمى منا أن يترفق بصاحبه الآدمى والطاحونة يا سيدى بحجر ثقيل .. يا لها من طاحونة يا سيدى .. زوجتى نكدة عوراء تنام من الغروب للضحى .. إسكافى المودة لم يعرف الأنثى قط .. من يملك يشترى يا سيدى .. كل من عرفت كُنّ على شاكلتى : خيالات من قش .. عشت حياة القرد المكشوف العورة .. طعامى تافه ورخيص بلا طعام .. ما بَلّ العطر جلدى قط وهذا ثوبى والشتاء بأسنان .. كان الحكم أن أموت .. نعم ياسيدى كان على إسكافى المودة أن يموت منذ زمن بعيد .

إلا انى دافعت عن نفسى بقدر ما استطعت .. كرهت الشتاء وقلت سيأتى الصيف فلما جاء الصيف كرهت الصيف وقلت سيأتى شتاء .. واجهت الموت مرارا .. كنت أقول : أنا نخلة بثمر وتلك ريح إنحنى لها يا إسكافى المودة .. انحن .. ودعها تمر .

الحقائق القديمة صالحة لإثارة الدهشة

كان إسكافى المودة قد شرب فى خمارة مخالى لترين من الكحول وآكل طبقين من كبد الحيوان وقلب الحيوان ولسان الحيوان ـــ هكذا تصفو الدنيا أحيانا وتصالح خصومها أبناء الله المحرومين ، لقد أصلح اليوم ثلاث نعال ، نعل أفندى مدرس ونعل أفندى بالديوان العام ـــ وهذا الأفندى الغريب القليل الكلام الذى إذا تكلم سأل بلسان حلو : جاء هو القادر ليشترى الكلام من أهله ، وطلب من أرباب الحرف دق حدوتين من الحديد فى كعبى نعله الجديد ، ومضى يشعل السيجارة تلو السيجارة ، كأنه عثمان باشا الجميل (وهاك كل الكلام الذى باعه اسكافى المودة لقاء لترين من الكحول وطبقين من كبد وقلب ولسان الحيوان)

— صاحبة العمارة سيدة كانت تعمل راقصة فى كباريه . ذات ليل بعيد . وكانت تركب التاكسى : لمحت بعين المجربة عربة لَمَّا شهر — تتبعها — يسوقها شاب من بلد عربى جاء مصر يطلب متعة ، قالت هى الخبيرة بهذا الصنف من الرجال لسائق التاكسى (اسرع) ورمت للخلف نظرة لترى السيارة تسرع خلفها ونظرت لقدام لتبتسم — لكنها رأت الشجرة الضخمة فأغمى عليها ولما أفاقت وجدت نفسها فى المستشفى بساق أقصر من ساق فأغمى عليها ولما أتوها بمرآة ورأت وجهها الجميل جميلا خرجت من المستشفى لتعمل بائعة تذاكر بنفس الكباريه ، من يومها صانت فرجها خوفا من عقاب الله — لكنها كانت تستغفر الله وتفعل الفعل دوما بابتسامة وبكلمة رخوة مع طلاب التذاكر لقاء قروش قليلة يتركونها لها ، بفعل السنوات وبفضل المأساة ولأن الله رحيم ولأن الله وهّاب صار القرش جنيها والجنيه جنيهين والقليل كثير ...

— وهكذا اشترت الأرض بألف دفعتها ونصف ألف تدفعها على عامين ، انتظرت عامين وباعت الأرض بألفين وبنت العمارة طابقا فوق طابق وفوق الطابق طابق وطابق ، كل طابق بخمس شقق ، ثم باعت العمارة لتاجر حديد وأخشاب وكسبت آلاف الجنيهات وانتقلت بمالها لمكان آخر تبنى فوقه عمارة تبيعها وتكسب آلاف الجنيهات وتنتقل لمكان آخر لتبنى عمارة ... سيدة دائمة التنقل لتضلل لصوص المال ...

— أما تاجر الحديد والأخشاب . وقد صار أيضا تاجر طوب واسمنت — فقد بنى التسع طوابق الجديدة ودهنها باللون الأزرق وفرش كل شقق العمارة وأجّرها مفروشة — ما عدا الطابق الأرضى فقد باعه لأصحاب محلات تبيع الأحذية والملابس المستوردة ولعب الأطفال والفراخ المشوية وشرائح الشاورما والسيجارة الكنت والبيرة وعلب الطعام .

— ساكن الشقة (١) (وهى حجرة واحدة وصالة) والملاصقة لحجرة البواب : شاب من صعيد مصر البعيد يمشى بمجدافين كالقارب فى بحر ، متزوج من مدرسة طويلة القامة تمشى فى عصبية ويقول عنها زوجها إنها تخاف الناس ، أما هى فتقول إن زوجها الذى يكتب القصص ويبيعها — خيالى ، إذا فارق بيته فاعلم أنه سيشرب البيرة من الكشك الخشبى ، بعد زجاجتين بيلوس ويعود إلى بيته صارخا فى زوجته ويسبّ رجلا — تقول

زوجته إن اسمه الأمريكى : هكذا يقول البواب — صاحب الكشك الخشبى اسمه فخرى ، فخرى رياض — وهو نصرانى وهو أيضا صاحب الحمار والعربة .

— الولد محمود اللقيط يظن أن فخرى النصرانى الذى رباه والده ويناديه هو المسلم (يا أبى) ويقول الولد محمود للجميع إن الحمار صديقه وإن الحمار أخلص من كلبة فخرى وأخلص حتى من ابن آدم .

— الشقة (٢) تسكنها ثلاث راقصات يعملن بكباريه فى الهرم اسمه البجعة .
— الشقة (٣) تسكنها مغنية بكباريه فى الهرم كانت متزوجة من ليبى وهى الآن متزوجة من بحرانى .
— وفى الشقة (٤) خمسة من الفلسطينيين الطلاب بجامعات ومعاهد مصر .
— ستبقى الشقة الخامسة بالدور الثانى يسكنها طالب فلسطينى وخادمته .

— بالدور الثالث : مكاتب سفر لليبيا وللسعودية ومكاتب سفر لكافة البلدان العربية — هكذا تدل المتعلم عين المتعلم لما يقرأ اللافتة فوق كل باب .. وهناك من يدل الأمين لما يسأل : شاب بشعر طويل مدهون وبذلة محبوكة وكرافت يفوح من ثيابه عطر ويتدلى من جيبه منديل أحمر كبير .

— بالدور الرابع : تاجر عطور كبير السن يزور مسكنه بالليل المتأخر مع جماعة من أصحابه الرجال والسيدات .

ويقضون وقتهم الجميل فى شرب وضحك وأكل ومداعبة ولعب ، ومعاون بوليس أعزب أسمه سعيد وضابط كبير بالجيش أعزب أيضا ، ومصرية مع كويتى رغم ماله الكثير فهو جم الأدب . وفى شقة أخرى يسكن ليبى مع زوجته المصرية .

— بالدور الخامس : يسكن سعودى عجوز مع مصرية شابة . وهناك شقة يسكنها مغنى بكباريه متزوج من زميلته الراقصة ولهما صديق من قطر يداوم على زيارتها ..

ـ مر شتاء أمطر الثلج والأحجار ومر عليّ شتاء أصفر بأسنان ومر شتاء يصفع القفا بالأقلام ، ومر على الصيف والصيف والصيف ــ هكذا مضت السنوات .. رأيت الماكينات وهي من حديد تتوقف والسيارات تتهشم والورق يتساقط ، بينما أنا الآدمى مازلت أحيا ، لم أفقد إلا شبابى (طز) .

ـ جمهرة الناس لم أرها ، سمعت فقط صياحهم : كان كالحبال المضفورة من الليف ، تعجز أن تميز الصوت من الصوت ، كانوا يصرخون من ارتفاع ثمن اللحمة والبيضة وندرة الشاى والزيت ، وكنت حريصا من جانبى أنا المحب للكلام فلم أر الجمهرة ولا النار ولا الزجاج المحطم ولا العربة المقلوبة .

ـ يا سيدى الأفندى ، نسيت ، أمى : لا أعلم إن كانت حية أم ميتة ، أما أبى فقد مات ــ هذا ما سمعته ، أمى أتمنى لو أراها مرة ، لا شك أننى سأبكى ، نعم لابد أن أبكى فى حضنها فقط علىّ أن أبكى ، كل ما أطلبه من الله خالق المسافات أن أراها ، وبفرض أنها ماتت فالله هو الذى يميت الإنسان منا وهو القادر على أن يجعل الأم تعود إلى الحياة لأن ابنها يريد أن يراها وهى باليقين تريد أن تراه .

ـ أنا أشرب الخمر والخمر تأكل كبدى وأنا أحب كبد الحيوان والسيارات تأكل الناس كما تتآكل الحيوانات ، الناس والدنيا عذاب بغير مال.وعذاب بالمرض والمال.وبالمال تشترى الطائرة.بعينى هاتين رأيت الطائرة تحرق السيارة والبيت والأم والولد واليهود يا سيدى صار لهم وطن يبيع اللحم والخضار فى علب،والفلسطينى الذى لا يملك الأرض لم يبع الأرض بينما الفلسطينى الذى يملك الأرض باع الأرض ــ ذلك ما يجعلنا نعيش سنين الحرب،لكن الناس طبقات فوق طبقات فوق طبقات : ذلك يشرب لأن معه مالاً .. وهذا يشرب وليس معه مال .. والذى يشرب لأنه لا يملك مالا .. وذلك الذى لا يشرب لأنه لا يملك مالا وهناك من لا يشرب ومعه مال ، ناس تحب أكل لحم الحيوانات وناس تأكل لحم الناس وناس لا تأكل لحم الناس ولا لحم الحيوانات ــ تلك هى الدنيا يا سيدى الأفندى : حلم كالحقيقة وحقيقة كالحلم والدنيا كابوس ايضا ..

— رأيت الحلم من عامين ولازلت أذكره وكأنه حدث الليلة ، كنت قد شربت بخمارة مخالى ولم يكن معى مال ، وجدت بيتى على الطاولة أمامى فطرقت الباب وأنا أعلم أن النكدة العوراء المحبة للنوم لن تفتح الباب حتى لو أقمت أنا رب البيت أمام البيت جنازة ، ودائما كان الشرطى يصحو من نومه فيمسك بى ويشد جلبابى من القفا ويجرجرنى ، وهناك فى بيت الشرطة وجدت ذلك الآدمى وكان رحيما ، قال لى : (قُمْ) وكنت راكعا على ركبتى ، ساعدنى وأجلسنى على كرسى وبش فى وجهى وقدم لى سيجارة أشعلها لى بقداحة ، وأدخلنى حجرة ساخنة فشعرت بالبرد ، وأدخلنى حجرة باردة فشعرت بالحر ، وأدخلنى حجرة قلت لا أشعر بحر ولا برد ، قال (البس) — وذلك بعد حمام طيب — وكان الثوب أبيض نظيفا فلبسته ، ودخلت الحجرة الساخنة فلم أشعر ببرد ، ودخلت الحجرة الباردة فلم أشعر بحر ، قال الرجل الطيب — وكنت سعيدا داخل دولاب من الزجاج به عيون — (انظر) ، نظرت من عين فرأيت النور فى البحر ورأيت كل من اقترب من البحر احترق ، مر الوقت بظلام ونور وظلام ونور وأنا داخل الدولاب سعيد ، وسمعت صوت الرجل يقول لى (انظر) ، ومن طاقة أسفل الدولاب نظرت ورأيت بعينى هاتين كوم المال يحترق ، ورأيت الشوارع تقطعها الشوارع — وقد خبت النار — ورأيت الحدائق والعربات والقطارات وكل النسوة ، فتحت الطاقة ونفذت بجسمى ولم يعترضنى أحد ، سرت من شارع لشارع حتى وجدتنى أنا اسكافى المودة أقف أمام بيتى ويدى تدق الباب ، بينما النكدة العوراء لم تفتح — هذا ما علمتنى إياه السنين وهكذا يا سيدى الأفندى وجدت الشرطى الذى يصحو من نومه فأمسك بجلبابى من القفا وقادنى الى المخفر لأنظف مرابط الخيل ، وفى كل مرة ياسيدى الأفندى أقول لنفسى (سيتكرر الحلم .. نعم لابد وأن يتكرر الحلم) ، وقت ذاك لا أصبح إسكافياً وقد أصير إسكافيا ، لكن الأختيار — بعد العمر الذى مر — صعب ، ويبقى الموت : هذا كل ما أخشاه ..

. . . .

الحقائق القديمة صالحة لإثارة الدهشة

بعينين بلا رموش — نظر إسكافى المودة إلى شمس طالعة تضحك وإلى سماء عالية صافية الزرقة ، وقال :

« هذا يوم يحلو فيه الشراب — لكن كيف ؟ » .

وقال :

« حين تميل الشمس يميل الظل ويرقد هناك — بجوار باعة الجريد والليمون والفجل والكرات والبصل الأخضر ، وقت ذاك — يكون مخالى وحيدا ، العجوز المشاكس لن يشاكس — فهو فرد وأجنبى وأنا ابن البلد .. والأجنبى بطبعه خواف » .

« هات كأسا يامخالى — ودعنى أفكر » .

« صب الكأس على الكأس — ودعنى أفكر يا مخالى » .

« آه يا مخالى .. لو تخلى النحس عنى لربحت .. آه لو ربحت يا مخالى .. هات كأسا ودعنا نجرب » .

وقال إسكافى المودة لنفسه — بعد أن شرب كأسه السابعة :

« فى الكأس السابعة — وتلك عادتى — تصفو دماغى وأفكر ، وها أنا — يارب السموات — أفكر » .

وقام صارخا :

« يا الله .. إنها الأبجدية » .

(أ)

« يا تاجر أنت تاجر .. والتجارة والكسب حلال .. هكذا علمنا الله ، دِسّ السلعة خلف الرفوف — سيندر وجود السلعة بالسوق ويرتفع سعرها ، بعد أسبوع أو أسبوعين إظهر السلعة — وبِعْ بالسعر الذى يروق لك .. هكذا يكثر ربحك ، لكن لا ترفع الحد حتى لا يرفع المشترى صوته .. حاذر .. ضجر الناس يجر فى أعقابه الأذى » .

— ب —

« صاحبى من ذوى الشأن .. قابلته بالأمس فى خمارة مخالى .. قال لى — هو الذى يلبس الحلة ويعمل بديوان الحكومة : إسمع يا إسكافى المودة .. سيرتفع ثمن علبة الدخان ولن ينخفض ثمن البيضة واللحمة ، فقلت لنفسى : عما قليل سيسمع البقالون — فهم دوما يسمعون ويخفون العلبة ولا يظهرونها إلا فى وقت محسوب ، وقلت لنفسى — وها أنا أمامك : كيف يكون ذلك ؟ .. لِمَ يكسب

البقالون دوما ؟ . إلخ .. بينما صاحبى الموزع يحضر الدخان من الفابريكة على بسكليت ويوزعه على البقالين ولا ينوبه غير الورم الذى أراه بساقيه وقدميه !؟ .. هه .. ملعونة هى البسكليت وملعون من اخترعها .. لكن لم يكسب البقالون ولا تكسب أنت ؟ .. هه .. لم لا تحتفظ أنت بالدخان وتكسب !؟ .. هه .. قل للبقال !؟ حقك كذا علبة .. هذا ثمنها وذاك ربحها .. ولك منى فوق الربح هذا القرش .. هكذا يا أخى يسكت البقالون .

(ج)

« تعالوا يا إخوتى وهشوا الغضب .. تعالوا نلم الكلام .. دعوا الدولاب يدور فالدولاب يا اخوتى لابد أن يدور .. وهناك فرصة لو اغتنمها الإنسان منا لدار الدولاب باتجاهه ورمى فى حجره » .

(د)

« كن عادلا ياحضرة الموزع واقنع بالقسمة — فتلك شريعة الله » .

(هـ)

« وأنت يا صاحب دكانة الأمانة والعين الزرقاء — عليك آن تعلم أن الموظفين ينازعون الحكومات فى الحقوق المعلومة .. تساهل يا أخى تساهل .. خذ نصف حقك وانظر حولك بعين الشاطر : أولاد آدم العاصون هناك على حدود الدنيا .. وهم دوما قادرون على اختراق سلك الحكومات وكسر الحدود .. وهم كما تعرف وأعرف — قناصة وقرّاءُ أثرٍ ومهربون .. لا تجزع .. لا عليك من أمر المخدر .. لكنهم يهرّبون مع المخدر علبة الدخان الإفرنجية — وهذا يعنيك .. لو دفعت القليل للفرد منهم لدلق زنبيله فى حجرك .. وذاك خير من دفع الكثير لجمرك الحكومات .. وهكذا تصبح أنت التاجر الحر فى بضاعتك : تبيع وتكسب أمام عين الحكومة كما لو كنت الذى دفع الكثير لجمرك الحكومة .

زعق إسكافى المودة فى وجه مخالى :

« ربحت يا مخالى .. ربحت ، كان وجهك وجه خير يا مخالى .. خذ ثمن ما شربت يا مخالى واتركنى أضحك .. وعلبة السجائر تلك لأجلك يا مخالى .. والآن دعنى أشرب وأضحك يا مخالى » .

وقال إسكافى المودة لنفسه :

« ياه .. يا لها من لعبة .. من يصدق أن السوق الذى يحكم الدنيا لعبة !؟ .. وأنا شاركت فى اللعبة وربحت .. ببساطة — أنا أشارك الآن فى حكم الدنيا من مكانى هذا بخمارة مخالى » .

وقال إسكافى المودى الصاحى لاسكافى المودة الشارب :

« ها هم يشاركوننى طاولتى — بعدما اكتظت الحانة ، علىّ أن أتقبل الأمر الواقع — رغم أنى أفضل أن أكون بمفردى : لولا هذا الشعور ، آه منه : هذا الشعور الغريب الجديد .. وهل يعقل هذا : أنا الذى هو أنا أهبط السلم عاريا إلى قرارة سوداء — بينما أنا هنا على الطاولة وها هم حولى يشربون ويتكلمون .. آه .. لِمَ لا أنصت لكلامهم ؟ .. سأفعل — فقد يولى ذلك الشعور الذى لا أعرف من أين جاء .. نعم : من الخير لى أن أنصت لكلامهم » .

«لجملة الناس ترانا نحن جنود الإطفاء كأنا نفر من العامة لا صلة لنا بطائفة الجند ، بينما أنا — بخرطوم ماء واجهت الأحجار والعمال والطلاب وهدمت بيتا ، كل ذلك تم باتفاق ، البيت ملتصق بالسرايا ، والبيت مملوك لصاحب السرايا ، لما تشب النار فى مطبخ السرايا سأذهب أنا بخرطومى لإخماد النار بالماء ولهدم البيت بالماء ، قدر من الماء على النار بالمطبخ وقدر من الماء على البيت القديم ، بعد شهر تصدع البيت القديم فهرب السكان — وحصل صاحب السرايا على الأرض الفضاء التى أقام فوقها عمارة تطاول السماء ، لكن اللعين خدعنى — أجرنى حجرة بالسطح لا يصلها الماء».

« كنا قد اتفقنا أنا وأهلها الفقراء على قراءة الفاتحة ، وكانت هى السمراء ذات العجيزتين والضفائر — من أريدها زوجة لى وأما لأولادى ، كانوا فقراء وكنت صاحب حرفة ، زرتهم فى خُصّهم وقلت : نقرأ الفاتحة . قالوا : نقرأ بسم الله . فى تلك اللحظة دق الباب — لقد عاد قريب العائلة المسافر . رحبوا به ونسونى .

قلت : لا يهم هذا حق لكل غائب عائد . وقال هو — إن البنت لما سافر كانت صغيرة .. وها هو يراها — بعد أن عاد — كبيرة وجميلة ، وقام . فقلت أنا لنفسي : هذا خير . وقال هو : لن أتأخر . فقلت أنا لنفسي : اصبري يا نفس ، وقلت لهم : نقرأ الفاتحة . قالوا : لا .. حتى يحضر قريبنا . عاد صاحبنا وبيده لفة بها أرغفة وجبن وبيض وبلح . أكلوا وما أكلت ، وكلموه وما كلموني . شعرت بنفسي غريبة بينهم . ولما أعطى البنت أمامي ريالين من فضة السعودية — وقال لها : اصنعي لأذنيك قرطين . قلت أنا لنفسي : قم يا ولد بما تبقى من روحك ولا تجعل الغير يركب كتفيك .. وها أنا صاحب الحرفة أمامكم يا إخوتي تنهشني الحسرة ، لكنني عزمت على الرحيل — في القريب إن شاء الله — إلى بلد عربي به بترول حتى لا أعيش عمري قصير اليد ».

« قال لي الميجور : تعال ، ميزني من صدري العريان الذي يعلوه شعر ، واختارني من بين كل رجال الكامب . وأمام فيلا بها شجر وورد ونافورة وحوض ماء به سمك ملون — وقفت العربة . وبقيت بالفيلا لا أبارحها شهرين ونصف شهر ، آكل وأشرب وأفعل وأسمع الموسيقى التي يرقص عليها الميجور ، حتى جاء يوم قلت فيه للميجور : يا ميجور أنا نجار ويجب أن أعمل بالنجارة يا ميجور . قال لي الميجور : وأنت هنا تجعلني أشعر بالسعادة يا فتحي .. أنت تعمل يا فتحي .. قلت : اليد العاطلة نجسة يا ميجور .. والحرفة تطلّق من يطلّقها . قال لي الميجور : مالي تحت أمرك يا فتحي .. مد يدك وخذ من المال ما تريد ، فقلت — وليتني ما قلت : لكن الدنيا حولنا ياميجور . قال الميجور : هيا بنا يا فتحي .. هيا نخرج للدنيا . وفي البار مد الميجور يده بشلن للمرأة المتسولة . والمرأة المتسولة — التي قتل الألمان ابنها المجند في الجيش الانجليزي — ذبحت الميجور أمامي ، وأنا أنظر ولا أفعل شيئا .. ومن يومها وأنا أنظر ولا افعل شيئا غير أني — من يومها — اتجنب الجند وذاكرتي وكل المتسولة ».

وقال إسكافي المودة لنفسه — بعد ان سمع : يالنا من اطفال كبار وقال لنفسه المخمورة : لقد فرحت أنا الطفل الكبير باللعبة فلعبت وكسبت وأشعلت النار بعود ليحترق غيري .. لكنني لست سافلا .. لكنني كالعادة كنت أبحث عن خمارة مخالي لأني احب الخمر أنا المفلس .. وسأحاسب نفسي على سوء فعالي .

ـــ ضم القبضة واشهر السبابة.

ـــ كالعادة ؟

ـــ نعم كالعادة .. بذا تكون قد صنعت مسدسك المميت.

ـــ تلك أيضا عادتك .

ـــ لو كنت أملك لاشتريت .

ـــ وكالعادة .. أجلس أنا هنا وبيدى المسدس .

ـــ نعم .. وأجلس أنا هناك مرفوع اليدين .

ـــ وأفرقع إنا أصبعا وأقول : رصاصة تخترق الرأس .

ـــ سيختفى مخالى خلف البار ويهرب الكل من البار إلا أنا .

ـــ وكذا أنت .. لأطلق أنا رصاصة تنفذ فى القلب .

ـــ وأعلم أنا هنا ـــ أن الجسد قد سقط .

وقال اسكافى المودة المخمور لاسكافى المودة المخمور :

« وكالعادة .. يأتى الشرطى ويمسك بقفاى ويجرجرنى إلى المخفر القريب لأنظف مرابط الخيل ».

في حديث صحفي أجراه سمير غريب مع يحيى الطاهر عبد الله ، في مجلة : « المستقبل العربي » . يقول يحيى

« أنا وضعت في المجموعة الأولى حيرتي في البحث عن شكل ولغة ورؤية .. همي كإنسان ووجدى .. كرجل منبهر بالثورة ويريد أن يخطب بمنهاجها .. حيرتي كاملة وموجودة في هذه المجموعة .. لم تتحقق « القصة » في هذه المجموعة إلا في قصتي « الوشم » و « جبل الشاي الأخضر » .

ويضيف يحيى :

« كانت الضغوط عليّ عالية ، ومن حقي أن أقول نفسي ، فكتبت « الكابوس الأسود » و « شمسوس » .. في « الكابوس » . أنا ذلك المطارد المطرود من الطبيعة .. من البشر .. العدمي في مواجهة الأشياء لأنه يرفض أن يتشيأ . أنا ليس لي تأثير ولن يكون » .

وعن إحساسه عما قد قدمه يقول يحيى :

– « أنا كاتب حققت لنفسي فرحي الخاص بما كتبت ويكفيني هذا »
– « فرحي النهائي والعرس الأخير هو الثورة وتحرك الشعب الراقد »

ويضيف يحيى الطاهر عن تجاربه :

« أنا ابن القرية وسأظل . فتجربتى تكاد تكون كلها فى القرية .. والقرية حياة قائمة هى « الكرنك في الأقصر » أى « طيبة القديمة » وأرى أن ماوقع على الوطن وقع عليها . وهى قرية منسية منفيه كما أنا منفى ومنسى .. كما أنها أيضا قرية فى مواجهة عالم عصرى .. إذن عندما أبتعد عن قريتى أسعى إليها فى المدينة وأبحث عن أهلى وأقربائى وناسى الذين يعيشون معى . وأنا لا أحيا إلا فى عالمها السفلى .. فحين ألتقى بهم نلتقى « كصمايدة » وكأبناء « كرنك » ونحيا معا ألمنا المصرى ، وفجيعتنا العربية ، وبعُدنا عن العصر كشخوص مغتربة » .

وفى رده عما إذا كان يحاول أن يجد قاسما مشتركا بينه وبين المجتمع عن طريق الانتقال بفن الكتابة الى فن القول :

« أنا إذا قلت وأجدت القول سأجد من يسمع وهذا أفعله .. ويجب أن أقول ولا يجب أن أكتب لأن أمّتى لا تقرأ .. وحين أقول يكثر مستمعى لأن الناس ليسوا صماً . أنا لا أعتقد أن مخاطبة المثقفين مسألة ذات وزن .. أنا سألت نفسى : لمن أكتب ؟ فوجدت أن الناس الذين أكتب عنهم لا يقرأو فنى .. وهم منفيون ومغتربون ومستَلَبون .. لذا أعتقد أن القول أفضل والقصص التى أكتبها سبق أن قلتها مائة ألف مرة لمائة ألف شخص .. لذا أيضا أقول إننى لا أبذل أى جهد فى الكتابة لأ ننى أدوّن ما أقوله فى جلساتى وتعاملاتى » .

ويضيف يحيى الطاهر

« أنا لا أسعى نحو الشكل .. الشكل تابع ذليل يأتى فى النهاية .. ثم لماذا تحرمنى من أن أكون فنانا فيما دونته وفنانا فى حياتى .. من الممكن أن أحول جلستنا هذه الى قصة قصيرة .. الكتابة بالنسبة لى متعة كما هو الأكل ؟ »

ويختتم يحيى الطاهر حواره مع سمير غريب ، قائلا :

« ربما يتعذر على واقع لا إنسانى أن يعطيك أشياء إنسانية .. يعنى الواقع الطبقى واقع لا إنسانى .. وكل ما يمكنك أن تفعله هو أن تحاول الحياة كرجل محترم .. وأن تسعى الى نفى إغترابك وهذا لا يكون إلا بالثورة . ولكنى أقول إن واقعنا اللا إنسانى يمتلك من الطاقات والقدرات الإنسانية ما يجعلنى قادرا على التصرف .. هذا الواقع لا يعطى صديقا .. ولكننى قادر على الحصول على صديق » .

وعن عمره ، يقول :

« أنا لى عمر حريص عليه .. أنا وصلت للسن الحرجة .. أنا شاب .. أديب شاب »

محتـويات الكتـاب

صفحة

ثلاث شجرات كبيرة تثمر برتقالا
مجموعة قصص

الـدف والصنـدوق
مجموعة قصص

أنا وهى وزهور العالم
مجموعة قصص

الرقصة المباحة
مجموعة قصص

حكايات للأمير حتى ينام
مجموعة قصص

حكاية على لسان كلب
قصة طويلة

الطوق والاسورة
رواية

تصاوير من التراب والماء والشمس
رواية

الحقائق القديمة صالحة لاثارة الدهشة
رواية

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٧٧٥٥ / ١٩٩٣
الترقيم الدولي : 8 - 055 - 932 - 977



في آخر مرة لقيت فيها يحيى الطاهر عبد الله، في أوائل ١٩٨١، قال لي: لا أريد أن أموت أبدا.

ولكن يحيي استجاب لغواية رسول الموت «المخادع القادر» بعد أسابيع قلائل، وترك في قلوب أصدقائه، ومحبيّه، فجوة عميقة. كان يملأ حياتنا بصخبه، وحيويته، وشططه، وصدقه، بحكمته وجنونه، بشكاواه التي لاتنقطع وعطائه الذي لاحد له. كان يملأ أرواحنا بمحبة نادرة. كان يشتعل بقدرة على الحياة متوهجة إلى آخر مدى، وبقدرة فن استطاع وحده، من بين أقرانه جميعا أن يصوغه بيدين متقدتين ووجدان باهر.

ولا تريد هذه الكلمة أن تكون على سبيل الرثاء ليحيى. فما من سبيل إلى رثاء يحيى. نحن نعرف أنه لايموت، تماما كما كان يريد. براءاته الكلية، وإيمانه، وتمرده، وفنّه، كلها قيم لامقدرة عليها لرسول الموت المخادع، مهما كان قادراً.

•••

من أوجه تفرّده الكثيرة، أنه، ببراءة كلية - وعناد صعيدي، رفض أن يبيع شيئا من ذات نفسه، وكان يعرف - ويقبل - الثمن الفادح لهذه الكبرياء.

ومنها أيضا أنه عرف كيف يصغى - ويستجيب لما هو خاص جداً - ولذلك أصيل - في نفسه، وفي قومه، وفي شعبه، في حساسيته وفي تراثه. لذلك كان في الوقت نفسه حكاءً وراوية من الطراز الأول، وشاعرا مرهف السمع ورقيق الوتر.

وإذا كانت حياته كلها حكاية، وقصيدة، فإنه مع ذلك عرف كيف يصوغ لنا الحكاية والقصيدة أو على الأرجح، القصة - القصيدة وكان ذلك هو ما استلهمناه في هذا النسق الذي تضع فيه كتاباته الكاملة،بقدر ما أتيح لنا أن نستكملها - فقد كان هذا الكاتب راوية أولاً، يحفظ كتاباته، ويلقيها ،شفاهاً قبل أن يكتبها - أو وهو يكتبها.

ادوار الخراط

دار المستقبل العربي
٤١ شارع بيروت . مصر الجديدة . القاهرة
تليفون: ٢٩٠٤٧٢٧

في آخر مرة لقيت فيها يحيى الطاهر عبد الله، في أوائل ١٩٨١، قال لي: لا أريد أن أموت أبدا.

ولكن يحيى استجاب لغواية رسول الموت «المخادع القادر» بعد أسابيع قلائل، وترك في قلوب أصدقائه، ومحبيه، فجوة عميقة. كان يملأ حياتنا بصخبه، وحيويته، وشططه، وصدقه، بحكمته وجنونه، بشكاواه التى لاتنقطع وعطائه الذى لاحد له. كان يملأ أرواحنا بمحبة نادرة. كان يشتعل بقدرة على الحياة متوهجة إلى آخر مدى، وبمقدرة فن استطاع وحده، من بين أقرانه جميعا أن يصوغه بيدين متقدتين ووجدان باهر.

ولا تريد هذه الكلمة أن تكون على سبيل الرثاء ليحيى. فما من سبيل إلى رثاء يحيى. نحن نعرف أنه لايموت، تماما كما كان يريد. براءاته الكلية، وإيمانه، وتمرده، وفنّه، كلها قيم لامقدرة عليها لرسول الموت المخادع، مهما كان قادراً.

•••

من أوجه تفرّده الكثيرة، أنه، ببرائة كلية - وعناد صعيدى، رفض أن يبيع شيئا من ذات نفسه، وكان يعرف - ويقبل - الثمن الفادح لهذه الكبرياء.

ومنها أيضا أنه عرف كيف يصغى - ويستجيب لما هو خاص جداً - ولذلك أصيل - في نفسه، وفي قومه، وفى شعبه، فى حساسيته وفى تراثه، لذلك كان في الوقت نفسه حكاءً وراوية من الطراز الأول، وشاعرا مرهف السمع ورقيق الوتر.

وإذا كانت حياته كلها حكاية، وقصيدة، فإنه مع ذلك عرف كيف يصوغ لنا الحكاية والقصيدة أو علي الأرجح، القصة - القصيدة وكان ذلك هو ما استلهمناه في هذا النسق الذي نضع فيه كتاباته الكاملة،بقدر ما أتيح لنا أن نستكملها - فقد كان هذا الكاتب راوية أولاً، يحفظ كتاباته، ويلقيها ،شفاهاً قبل أن يكتبها - أو وهو يكتبها.

ادوار الخراط

دار المستقبل العربي
٤١ شارع بيروت . مصر الجديدة . القاهرة
تليفون: ٢٩٠٤٧٢٧